الدكتور أسد رُستم

لُبنان

في عهد المتصرفية



دار النهار للنشر



الدكتور أسد رُستم

لُبنان

في عهد المتصرفية

دار النهار للنشر

الى التي وسدت درب حياتي بالزهر
وحنت عليّ وعلى اولادنا حنو الجفن على العين
الى رفيقة حياتي وشعلتها
الى زوجتي وداد
نهدي روحي هذا الكتاب

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٧٣

المحتويات

مقدّمة

ليس الغرض من هذه المقدمة تعريف القارىء بالدكتور أسد رستم . فمؤلفاته ومجزاته قد أغنت حقل التاريخ في لبنان والعالم العربي وجعلت اسمه مألوفاً لدى الجميع . ولكن يجب التنويه باهمية الموضوع الذي يعالجه الدكتور رستم في هذا الكتاب . فعهد المتصرفية لا تزال ذكراه عالقة باذهان الكثيرين ولا نبالغ اذا قلنا ان حاضر لبنان السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي يرتكز الى حد بعيد على تطورات واحداث ذلك العهد كما يظهر جلياً من خلال هذا المؤلف . فهو يتطرق الى الدور الرئيسي الذي لعبته الدول الكبرى في تاريخ لبنان اثناء هذه الحقبة من الزمن والاسباب التي دفعتها اليه . فالدول هي التي اعطت لبنان متصرفيته والتي سنت البروتوكولات التي بموجبها تم تصنيف ادارته . ونرى فيه ايضاً تحول بيروت الى مدينة تجارية اذ اصبحت في منتصف القرن التاسع عشر « ثغر ثغور لبنان وسورية وفلسطين » — في التجارة بحد ذاتها ، اي بالاستيراد ، وبالصيرفة ، كما اصبحت مقر عدد كبير من الاجانب الذي سبب في انشاء عدة فنادق في مقدمتها فندق المنظر الجميل .

ولا يقل عن هذا كله بحث الدكتور رستم في « العلم والتعليم » في لبنان في القرن التاسع عشر . فهو يحدثنا عن تأسيس اول المدارس الوطنية الخاصة والرسمية والاجنبية في لبنان والادوار التي لعبها امثال المعلم بطرس البستاني والياس صليبي وناصيف اليازجي في هذا المضمار . ونقرأ ايضاً عن تأسيس الجامعتين اليسوعية والأميركية في بيروت ومدرستيهما للطب . كما يبحث في « الانتاج الفكري في العلوم والآداب واللغة » فيخص ترجمة القوانين الى العربية وترجمة التوراة والانجيل ونشر دوائر المعارف وتعليم اللغة العربية باسلوب جديد والتاريخ والمؤرخين والتمثيل والروايات والجمعيات الخطابية والجمعيات التعليمية والجمعيات العلمية والفنية . ولم ينس اعتناء اللبنانيين في الصحافة فقد كانت الصحافة العربية حتى السنة ١٨٥٨ اما رسمية او دينية تبشيرية لا تصدر في مواقيت معينة .

وقد اتبع المؤلف في معالجة هذه الامور المبادىء العلمية التي طالما اتبعها في تدريسه وتدريب طلابه عليها تدريباً عملياً . كما انه اقام جميع مؤلفاته في مختلف المواضيع التي طرقها على اسس هذا المنهج التحقيقي الثابت . والدكتور رستم لم

يكتف بتطبيق هذا المنهج في التعليم والتأليف فحسب بل اغنى المكتبة العربية في السنة ١٩٣٩ بمؤلّف بهـذا الموضوع الذي كان مـا زال جديداً حتّى في العـالم الغربي والذي لم تكن قد ظهرت فيه باللغات الاجنبية حتّى الاربعينات تآليف كثيرة . وقد دعا مؤلفه الجديد « مصطلح التاريخ ، وهو بحث في نقد الاصول وتحري الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها » ، فكان اول كتاب ظهر في العربية في هذا العلم .

وقد اتم الدكتور رستم « لبنان في عهد المتصرفية » منذ حوالي عشرين عاماً كما انه استعمل اجزاء منه لتدريسه هذا الموضوع بالذات في الجامعة اللبنانية . وقد آثر الدكتور رستم الا ينشر مخطوطته هذه لسبب لم يوضحه وسلمها في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٥٨ الى مديرية الآثار في المتحف الوطني التي تكرمت وسمحت لنا بنشرها في هذا الوقت . واننا نتقدم اليها بشخص مديرها الامير موريس شهاب بجزيل شكرنا .

بيروت ١٣ حزيران سنة ١٩٧٣ — **لميا رستم شحاده**

نشوءُ المتصرّفيّة ١٨٦٠ - ١٨٦١

الدول ولبنان

وكان ما كان في لبنان من حوادث السنة ١٨٦٠ . وتلكأ الباب العالي وتوقف وتباطأ . وانغمس السلطان العثماني عبد المجيد بملذاته الشخصية . وقلّ عزمه وحزمه . فلم يُجنِ عطفه الشخصي على « الرعايا » .

تعظيم فرنسة

وكان نبوليون الثالث يعلم ان الفرنساويين مهما تباينت آراؤهم في السياسة الداخلية ومهما اختلفت براجهم فيها فانهم يتفقون دائماً في شيء واحد هو السعي لتعظيم فرنسة وتمجيدها في حقل السياسة الدولي . فالكاثوليكيون منهم كانوا يتغنون بفصاحة مونتلمبار (Montalembert) وباريي (Berryer) ويترنمون بخدمات شارلمان ولويس العاشر ويلحون بوجوب المحافظة على كرامة البابا والسعي لنشر الكثلكة وحمايتها . والملكيون لزموا التفتيش عن الوسائل التي تعيد لفرنسة تفوقها البوربوني وسالف مجدها . وكانت معاهدة فيينة (١٨١٥) لا تزال تحز في صدور الجمهوريين وتضيق في نظرهم مجال العمل في اوروبة لنشر مبادىء الثورة . فبكوا مع غارنيه باج (Garnier Pages) واميل اوليفييه (Emile Olivier) وجول فافر (Jules Favre) اخفاق الجمهورية الثانية في تحرير اوروبة واكمال عمل الجمهورية الاولى . وشاركوا النبوليونيين في اسفهم على زمن ربطت فيه فرنسة مصير الشعوب بمقدراتها وأملت فيه ارادتها على الملوك والحكومات .

نبوليون الثالث

ولم يكن نبوليون الثالث ذاك الرجل الذي يضحي بحظوته لدى الجمهور ليطبق المبادىء الصالحة بل انه كان واحداً من اثنين او الاثنين معاً : إما ضعيفاً لا يقوى على مجابهة رغبات الاحزاب او انانياً أرعن لا يرى الا قضاء حاجته . أضف الى هذا انه

نشأ في حضن امه الملكة هورتانس وفي بلاط بفارية وبادي وبين النبوليونيين اللاجئين الى ايطالية – نشأ في جو من الذكريات البونابارتية التي جعلت من اوروبة متاعاً لبونابارت الاول وانسبائه . وتلقى نبوليون الثالث علومه منذ السنة ١٨٢٠ في كلية أوغزبورج . فشب على الادب الالماني وتغلغلت نظريات نيبور في صدره فعشق رومه القديمة وتعلق بها وبايطالية حتى أصبحت هذه جزءاً منه . فتعاون مع ابنائها الاحرار وتطرّف في ذلك حتى أدى به الأمر قبيل ظهور المشكلة اللبنانية الى الانقاص من حقوق البابا والتهجم عليه من وراء ستار . فاثار عمله هذا ثائر الكاثوليكيين في فرنسة .

معاهدة باريز عقبة قانونية

وفي ربيع السنة ١٨٦٠ بدأ الفرنساويون في لبنان يكتبون عما شاهدوا . فهبت الاوساط الكاثوليكية الفرنسية تطالب بوضع حد لما جرى . وساندتها في هذا الاوساط الفرنسية الاخرى . فأراد نبوليون الثالث ان يتدخل ولكنه اصطدم بعقبة قانونية دولية . وتفصيل ذلك ان الدول المتعاقدة في باريز سنة ١٨٥٦ وفي مقدمتها فرنسة كانت قد حرّمت على نفسها التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية كي تبعد روسية عن رعايا السلطان الارثوذكسيين الذين نالوا من تدخلها ما لم ينله غيرهم من رعايا السلطان من حماية وتعزيز فتعلقوا بها وتعاونوا معها . حرّمت الدول المتعاقدة في باريز التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية وحضّت السلطان العثماني ان يعلن استعداده لتحسين احوال رعاياه النصارى فأصدر هذا « خطاً همايونياً » بهذا المعنى في الثامن عشر من شباط من السنة ١٨٥٦ . واعتبر هذا الخط جزءاً من المعاهدة الدولية . فاشارت المادة التاسعة من هذه المعاهدة الى هذا الخط الهمايوني وأكدت انه ليس للدول مجتمعين او لاية دولة على انفراد ان تتدخل في شؤون رعايا السلطان او في ادارة السلطنة الداخلية . وهكذا فانه عندما رغب نبوليون الثالث في التدخل في لبنان اصطدم بهذه العقبة القانونية الدولية فتردد وتشاور ثم وجد لنفسه مخرجاً بان اعتبر الخط الهمايوني جزءاً من المعاهدة يوجب على السلطان تنفيذه كما يوجب على الدول المتعاقدة المطالبة بهذا التنفيذ .

ويتوهم معظم من كتب في هذا الموضوع من زملائنا اللبنانيين وغيرهم انه كان بامكان نبوليون الثالث ان يلجأ الى حق فرنسة التقليدي في حماية الكاثوليكيين في الشرق للوصول الى غايته . ولكنهم نسوا ان الدولة العثمانية لم تعترف في اي وقت من الاوقات باي حق لفرنسة في حماية رعايا السلطان الكاثوليكيين . وجل ما فعلت من هذا القبيل انها أصغت « حبياً » لتدخل ممثلي فرنسة تدخلاً حبياً لا رسمياً . ولو

افترض ان حكومة الباب العالي فعلت ما لم تفعل ومنحت فرنسة هذا الحق في التدخل تدخلاً رسمياً يبقى ان فرنسة وقعت معاهدة باريز باكلها فأسقطت بهذا التوقيع كل حق سابق من هذا النوع بموجب المادة التاسعة المشار اليها .

والواقع الذي لا مفرّ منه هو ان الدولة العثمانية وهبت روسية هذا الحق دون سواها من الدول وذلك بعد حرب كاسحة انتهت في السنة ١٧٧٤ بمعاهدة كوجوك قينارجي وان ما اكتسبته فرنسة من هذا القبيل هو حق حماية الرهبان « الافرنج » في أثناء وجودهم في انحاء الدولة. الرهبان الافرنج لا الرهبان العثمانيين (١).

فرنسة تحاول التدخل

وفي الخامس من تموز سنة ١٨٦٠ فاتح المسيو توفينيل (Thouvenel) وزير خارجية فرنسة سفير بريطانية في باريز كلاماً في هذا الموضوع . فأشار الى تحرج الحالة في لبنان وأبان الخطر الذي كان يحدق بالافرنج في سورية واقترح ارسال سفن حربية الى مياه لبنان وسورية لتهدئة الاعصاب ولارهاب المقلقين . ثم أضاف سائلاً : الا ترى ان ارسال لجنة دولية للتحقيق يؤدي للخير ؟ اني لا اقصد ارسال قوات عسكرية الى لبنان لان السلطان يقدر ان يستعين بقوات عزيز مصر عند الحاجة .

الفيكونت بالمرستون

وكان يدير دفة الحكم في الجزر البريطانية رجل ذو حيوية نادرة وشجاعة قاهرة ترأس الخارجية البريطانية مدة طويلة من الزمن وخبر شؤون الشرق مراراً وتكراراً اعني هنري جون تمبل فيكونت بالمرستون (Palmerston) الذي تولى رئاسة الوزارة البريطانية في منتصف السنة ١٨٥٩ . وكان بالمرستون قد تخرج على جورج كاننغ فأخذ عنه مبدأ المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ورأى في تقرير مصيرها اعظم مشاكل اوروبة آنئذ . وكان يجيد الافرنسية كأحد ابنائها ويتابع تطور الامور في الدولة المجاورة فهاله عدم رضاء الاوساط الفرنسية عن معاهدات فيينة والحاحهم بوجوب تعديلها والمحافظة على كرامة فرنسة واعادة مجدها الغابر .

وكانت تقارير السفير البريطاني في الآستانة السر هنري بولور (Bulwer) وافادت القناصل من بيروت وصيدا وطرابلس تعظّم تدخل الاكليروس الماروني في الحوادث الجارية وتحمله شطراً وافراً من المسؤولية ولا سيما رئيس اساقفة بيروت

---

(١) مجلة الكلية ج ٢٧ ص ٢٧

المطران طوبيا عون وترى فيما جرى في لبنان حرباً اهلية لا مذابح وفرصةً اوجدها نبوليون نفسه لاسباب شخصية وفرنساوية . فرأى رئيس الوزارة البريطانية ان يتريث قليلاً ريثما ينجلي الموقف فتظهر براءة نبوليون الثالث او مسؤوليته . وهذا هو في الارجح ما عناه غورتشاكوف بقوله « تراجعنا قليلاً كيما نحسن الوثوب » .

توفينيل لا ينتظر

ولكن توفينيل لم ينتظر رد بريطانية على ما قاله لسفيرها في باريز . فانه في السادس من تموز سنة ١٨٦٠ اي بعد مرور اربع وعشرين ساعة على حديثه مع السفير البريطاني كتب الى سفراء حكومته في لندن وبرلين وبطرس برج وفيينه يقول ان الوضع في لبنان يستوجب اعادة الأمن اليه والتعويض عما جرى والحيلولة دون تكرر الحوادث فيه وانه سبق للدول المتحابة ان تدخلت في شؤون لبنان سنة ١٨٤٢ في ظرف مماثل فأقرت نظاماً خاصاً للبنان بالاشتراك مع الحكومة العثمانية وان خرق هذا الاتفاق الدولي يوجب اعادة النظر فيه . وبالتالي فلا بد من تشكيل لجنة دولية مؤلفة من ممثلين للدول صاحبة العلاقة وممثل للسطان تكون غايتها درس الاسباب التي أدت الى وقوع الحوادث في لبنان وتعيين المسؤوليات فيها وتحديد التعويضات اللازمة واعداد الاقتراحات للحيلولة دون تكرر وقوع الحوادث في المستقبل . وأكّد توفينيل ان حكومته لن تحابي في هذا فتختص الموارنة دون الدروز ولن تتبع في الشرق سياسة خاصة اذ انها لا تقصد من هذا كله سوى تدخل جماعي . وكتب الى الماركيز ده لافالت (Lavalette) سفير فرنسة في الآستانة يوجب الاتصال بالخارجية التركية لتأكيد اعتماد فرنسة عليها في اعادة النظام الى لبنان واحقاق الحق فيه .

وانتقل توفينيل من القول الى العمل فأوفد قوة بحرية فرنسية الى مياه لبنان بقيادة الاميرال جاهان (Jehenne) « لحماية رعايا الامبراطور » . وما ان فعل حتى اقلع الاميرال كودرنغتون (Codrington) الانكليزي بعمارة بحرية للغاية نفسها .

الباب العالي

وتوقعت الحكومة العثمانية تدخلاً اوروبياً مباشراً فأوفدت كبير رجالاتها آنئذ وزير خارجيتها محمد فؤاد باشا بصلاحيات فوق العادة . وهو ابن كجيي زاده الشاعر الشهير . ولد في السنة ١٨١٥ ودرس الطب ثم التحق بالجيش . وبعد ذلك آثر الخدمة الملكية فعين سكرتيراً للسفارة العثمانية في لندن . وأوفد الى بطرس برج والقاهرة

بمهمتين سياسيتين فقام باعبائهما بمهارة وحذق . وفي السنة ١٨٥١ تولى وزارة الخارجية. ثم قاد الجيش الى حدود اليونان في أثناء حرب القرم ومثّل حكومته خير تمثيل في مؤتمر باريز سنة ١٨٥٦ ثم عاد الى وزارة الخارجية قبيل حوادث لبنان . وكان ذكياً رائقاً حازماً عادلاً مولعاً بالاصلاح الى درجة الهوس مصمماً على انقاذ الدولة من مفاسدها ملحاً بوجوب القضاء على كل استقلال داخلي في جميع انحـاء السلطنة . فاصطدم بالكيان اللبناني وارتطم فيه . ثم جاء بعد ان كان ما كان ينقذ الموقف .

ركب محمد فؤاد باشا بارجة قائد الاسطول الاعلى « فتحية » ونقل معه قوة عسكرية بقيادة حليم باشا ووصل الى بيروت في منتصف تموز من السنة ١٨٦٠ وأمر فور وصوله بتلاوة الفرمان السلطاني التالي :

« الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى افخم وكلاء دولتنا العلية اعظم مشيري سلطنتنا السنية المنوطة به نظارة الامور الخارجية في دولتنا العظمى المختار من لدن ملوكيتنا مستقلاً بمأموريات فوق العادة لمصالح سورية الحامل علامتنا المجيدية والحائز باستحقاق شرف نيشان امتيازنا الملوكي والخدمة العسكرية من الرتبة الاولى الوزير الالمعي محمد فؤاد باشا ادام الله تعالى اجلاله .

« توقيعنا الرفيع الشان هذا بوصوله اليك لتحط علماً انك انت ايها الوزير الهمام المشار اليه بالبنان لعالم حق العلم بالفتنة التي اشتعل اوارها الآن بين الموارنة والدروز سكان جبل لبنان الذي هو في سورية . وحين انتهى الينا ما نشب بينهم من المناقشة والجدال والمبادرة الى المجادلة والقتال كان ذلك مما تكرهه عنايتنا الرحيمة رأفـةً بالعباد . وسطوتنا القاهرة تأبى الا النظر بالشفقة على الرعية متساوياً لدينا جميع صنوف المتسمين بتبعة دولتنا العظمى على اختلاف مللهم ليكونوا بالأمن والراحة رغيداً عيشهم مطمئنةً قلوبهم في ظلال الأمن راتعين وان لا يتجاوز بوسيلة على آخرين . تلكم قصارى بغيتنا ونتيجة مأربنا .

« فأما ما اضطرب به جبل لبنان من الحركات الغادرة الظالمة فانها من جميع الوجوه تغاير رضانا وتعاند معدلتنا . ولهذا أنطنا بوزارتك النظر في ذلك وفوضنا الى فطنتك التي اتصفت بها في الخافقين الاستقلال في الامر لتسرع في اخماد هذه الثورة واستئصال جرثومة الذين ايقظوا الفتنة . فلا تبقِ عليهم ولا تذر اولئك الذين عاثوا مفسدين وكانوا سفاكين دماء البشر .

« فيا ايها الوزير الواحد الاحد المستجمع غرر الصفات السابق الايماء ايها الجليل المهاب بين رجال سلطنتنا المظفرة انت انت الذي وثقت بك عظمتنا . وقد عولت

عليك اعتمادها لتكون مستقلاً في الحادث الجلل مطلق الامر ماضي الاحكام . وقد سيرنا نحو هاتيك الاقطار الجيش العرمرم والعسكر الجرار تصرفها انى شئت حسب رأيك وتدبيرك واجتهادك في المصالح . ونخول الله عز وجل تجد في المسير من هنا الى تلك الناحية حتى اذا وطأتها اضحى وزراء الجيش كافة اليك مرجعهم وبرأيك يأتمرون وعلى تدبيرك يسلكون فيما ينبغي لاضمحلال اثر هذه الفتنة في اسرع حين . والجهد كل الجهد في رد الأمن والسكون والراحة .

« والذين تجاسروا على سفك الدم عدواناً اجعل جزاءهم بمقتضى الاحكام التي نص عليها عدلنا في قانون الجزاء ردعاً وتأديباً . والهمة الهمة في محو اثر هذه الغائلة الفظيعة مستعملاً في ذلك ما استقليت به رأياً واجتهاداً وما قد فوضناه اليك وأنطناه بك من تدبير مصالح السياسة وترتيب الجيش ايفاء بما يجب من حق الدراية والقيام بواجبات الوظيفة وبذل ما تصل اليه الاستطاعة .

« وعلى ذلك صدرت اليك الاوامر من ديواننا الملكي بولاية هذا العمل والذهاب لتكون متجهاً بمقتضاه مؤتمناً به معتمداً على علامتنا الشريفة . تحريراً في اواخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٧٦ » . — اوائل تموز سنة ١٨٦٠ .

وكانت بطانة فؤاد باشا مؤلفة من المفتي شروان زاده محمد افندي ومن شوكت افندي كاتم سره الاول ومن القائمقام رؤوف بك والضابطين مصطفى افندي وجميل بك ومن آبرو افندي مدير المراسلات الافرنسية في وزارة الخارجية وفرنقو افندي (فرنقو باشا المتصرف الثاني) رئيس قلم فصل الدعاوى ودانيس افندي وسمونستان افندي وارزومان افندي من تراجمة الوزارة المشار اليها .

وبعد تلاوة الفرمان السلطاني بتعيينه وزيراً مفوضاً مطلق الصلاحية اذاع فؤاد باشا على الشعب اللبناني السوري في التاسع عشر من تموز سنة ١٨٦٠ البيان التالي :

« ان الحرب الاهلية التي نشبت في جبل لبنان بين الموارنة والدروز وأسالت انهراً من الدم قد أوجبت استياء جلالة المتبوع الاعظم الشامل برأفته جميع رعاياه على السواء دون اي تمييز .

« من الامور المخالفة لنية جلالته اعتداء فرد على فرد او ملة على ملة لاي سبب كان . وبناء عليه فجميع الذين يخالفون هذه الاوامر يعدون متمردين على الحكومة . ومن ثم يجب محو اثار كل عداء بعد الفظائع التي اقترفها اهل لبنان .

« لقد جئت موفداً من قبل الحضرة السلطانية بمهمة مستقلة وخارقة العادة لمعاقبة الذين ارتكبوا هذه الجنايات . وقد تضمن الفرمان السلطاني العالي الشان الموجه الي بيان السلطة المخولة لي . فسأظهر عدالة الحضرة الشاهانية ملجأ المظلومين التي تصغي لشكاويهم وتقتص من الظالمين . وسأتم ما عهد الي به بكل نزاهة . فليرتح بال الجميع .

اما فيما يختص بالعيال التي طردت من بيوتها فاني اتكفل باعادتها وسد حاجاتها المعاشية مظهراً لها بذلك الشفقة الشاهانية الخاقانية والمعدلة السنية .

« وينبغي ان يقف الاقتتال حالاً . فان الجنود السلطانية التي بامرتنا ستعمل منذ اليوم ضد من يخالف هذه الاوامر ويبدأ بالعداء منذرين بانزال العقاب العاجل في كل من يُعلّ كائن الراحة .

« وقد فوض الينا خلا السلطة لوضع حد للاقتتالات صلاحيات غير عادية لمحاكمة الافراد الذين اقترفوا الجنايات . فللجميع كباراً وصغاراً ان يبسطوا شكاويهم فنعيرهم آذاناً صاغية » .

وبعد هذا أمر فؤاد باشا بكف يد خورشيد باشا والي ايالة صيدا نزولاً عند رغبة الاميرال مارتين الانكليزي الذي كتب الى فؤاد باشا في الخامس والعشرين من تموز يقول : « اراني مسؤولاً عن سلامة النصارى في هذا البلد اي في بيروت ولذا فاني احتج على بقاء خورشيد باشا في الحكم بعد ان اقترف ما اقترف » . أمر فؤاد بكف يد خورشيد وسلّم مقاليد الادارة الى مصطفى باشا قائد الاسطول . ثم سافر الى دمشق مستصحباً معه طابورين من الجنود وستة مدافع لاستعمال اقصى الشدة هنالك .

مؤتمر في باريز

ووصلت اخبار مأساة دمشق الى باريز في السادس عشر من تموز سنة ١٨٦٠ فذهب توفينيل توا الى سان كلو وقابل نبوليون الثالث واتفق واياه على تدخل مسلح . وفي مساء اليوم نفسه أطلع توفينيل اللورد كولي سفير بريطانية على قرار الامبراطور وكتب بالمعنى نفسه الى سفير فرنسة في لندن . وضجت الاوساط المسيحية في جميع عواصم اوروبة وكبريات مدنها واضطربت لما جرى في دمشق وعلت الاصوات بوجوب وضع حد لذلك الاجرام فاضطرت الحكومة الانكليزية ان توافق على مبدأ التدخل المسلح شرط ان يكون دولياً لا افرنسياً فقط . واتخذت بروسية والنمسة موقفاً مماثلاً . اما روسية فانها ارادت ان تجعل من هذا التدخل مبدأ عاماً يقضي بتحسين احوال النصارى في جميع انحاء السلطنة العثمانية . ولكن الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح الروسي بجرأة وحزم . وقامت مملكة سردينية تطالب بحقها في ان تكون ممثلة في التشاور الدولي المنتظر . ولكن توفينيل ردّ طلبها على اساس عدم اشتراكها في قرارات السنتين ١٨٤٢ و١٨٤٥ التي سيعاد النظر فيها في المؤتمر المنوي انعقاده . وكان يرمي بهذا الى طمأنة النمسة عدوة سردينية في ايطالية . وعادت الحكومة البريطانية الى التردد ففرضت شروطاً ثلاثة طلبت الموافقة عليها قبل انعقاد المؤتمر : التريث

في ارسال الجنود الدولية الى لبنان ريثما تنجلي امكانيات فؤاد باشا في اعادة الأمن والنظام الى لبنان وتوقيع اتفاقية مع الباب العالي وجعل مدة الاحتلال الدولي ستة اشهر فقط . وقبلت حكومة فرنسة بشروط جارتها ودعت زميلاتها الى مؤتمر في باريز في الثالث من آب سنة ١٨٦٠ فمثّل فرنسة المسيو توفينيل نفسه وقام بالدور نفسه عن بريطانية اللورد كولي سفيرها في باريز وعن النمسة ده مترنيخ وعن روسية كيسيلف (**Kisselef**) وعن بروسية ريس (**Reuss**) وعن الباب العالي احمد وفيق باشا واقروا ما يلي ثم وقعوه رسمياً في الخامس من ايلول :

« انه لما كان جلالة السلطان يريد حقن الدماء في سورية باقرب الوسائل وانجعها ويريد اظهار عزمه على المحافظة على النظام والأمن بين الشعوب الخاضعة لسلطنته وكان اصحاب الجلالة امبراطور النمسة وامبراطور فرنسة وملكة بريطانية العظمى وارلندة وسمو كفيل الملك في بروسية وجلالة امبراطور روسية قد عرضوا على جلالة السلطان مساعدتهم الفعالة فقبلها فان ممثليهم قد اتفقوا على المواد الآتية :

« المادة الاولى : يرسل الى سورية جيش من العساكر الاوروبية يمكن جعل عدد رجاله اثني عشر الفاً ليعمل على توطيد الراحة فيها .

« المادة الثانية : ان جلالة امبراطور الفرنسيس قد قبل ان يجهز في الحال نصف الجيش اذا قضت الظروف بابلاغه العدد المحدد في المادة السابقة . وعلى الدول ان تتفق دون تأخير مع الباب العالي وبطريق المفاوضة العادية على تعيين الدولة التي يتوجب عليها تقديم الجنود اللازمة .

« المادة الثالثة : على قائد هذه الحملة ان يخابر فور وصوله مندوب الباب العالي فوق العادة للاتفاق على اتخاذ جميع الوسائل التي تستدعيها الاحوال وعلى احتلال المواقع التي يجب احتلالها لبلوغ الغاية المقصودة .

« المادة الرابعة : ان اصحاب الجلالة امبراطور النمسة وامبراطور الفرنسيس وملكة بريطانية العظمى وسمو كفيل الملك في بروسية وجلالة امبراطور الممالك الروسية وعدوا بمواصلة ارسال القوات البحرية اللازمة الى شواطىء سورية وابقائها في مياهها لانجاح المساعي المشتركة الآيلة الى توطيد الراحة في تلك البلاد .

« المادة الخامسة : ان الدول المتعاقدة جعلت مدة احتلال الجنود الاوروبية ستة اشهر لتيقنها انها كافية لاعادة الأمن والراحة المبتغاتين .

« المادة السادسة : يتعهد الباب العالي ان يبذل ما في وسعه لتسهيل تموين هذه الحملة العسكرية »

وأضاف ممثلو الدول نصاً خاصاً ابانوا فيه انهم انما قاموا بهذا العمل في سبيل التعاون مع الباب العالي وانهم لا يبتغون من جرائه اية مصلحة خاصة او نفوذ او امتياز

وان عملهم هذا نتيجة طبيعية لما جاء في المادة التاسعة من معاهدة باريز الموقعة في الثلاثين من آذار سنة ١٨٥٦ .

الحملة الفرنسية

وكان نبوليون الثالث قد أمر بحشد ستة الاف رجل في شالون فنقلهم الى طولون وعقد لواءهم الى الجنرال ده بوفور دوتبول (De Beaufort d'Hautpoul) (١). وجعل الجنرال ديكرو (Ducrot) قائد المشاة والكولونيل اوسمون (Osmont) رئيس الاركان . ووزع الامبراطور الاوسمة والانواط وخطب في الجنود قائلاً : « ان فرنسة تحيي بسرور حملةً غايتها الوحيدة نصر الحق والعدالة والانسانية . ستقومون بواجبكم في ارض غنية بتذكارات مجيدة فتبرهنون انكم اولاد اولئك الابطال الذين حملوا علم المسيح فيها بعز وشرف . ان عددكم قليل ولكني واثق من ان بسالتكم تغنيكم عن كثرة العدد لان الشعوب تعلم انه حيثما يجتاز علم فرنسة فهناك غاية نبيلة تتقدمه وشعب عظيم يتبعه » . واذاع الماركيز ده بوفور دوتبول نشرة جاء فيها ان الحملة ذاهبة باسم اوروبة المتمدنة لمساعدة جنود السلطان على من تعدى على الانسانية ولطخها بالعار وان جنوده ذاهبون الى مهد الديانة المسيحية الى الامكنة التي شرفها غودفريد ده بويون والصليبيون والجنرال بونابارت وجنود الجمهورية الباسلة .

وذكّر فؤاد باشا بدوره جنوده قائلاً : ان بعض الجنود الفرنساويين والانكليز سيصلون قريباً الى هذه البلاد ليساعدونا على قمع الاضطرابات فيها . ولا يخفى ان هؤلاء الجنود هم جنود الدول التي عاضدتنا بكل قواها في عهد سابق . فعليكم ان تقوموا بواجب الاخاء نحوهم . فانتم في بلادكم فاعملوا بواجب الضيافة . واني اراكم بغنى عن كل مساعدة لمعاقبة من سفك دماء المسيحيين مواطنيكم . فاقتصوا من الجناة باسم الانسانية . واذاع مثل هذا امير البحر مصطفى باشا وكيل ايالة صيدا .

وفي السادس عشر من آب سنة ١٨٦٠ وصل الفرنساويون الى بيروت فاستقبلهم اللبنانيون استقبالاً حاراً وتطوع بعضهم لنقل امتعتهم . فدخلوا البلدة تتقدمهم الموسيقى وحلوا في حرج الصنوبر جاعلين مقرهم العام في المحل الذي يقوم فيه قصر الصنوبر اليوم وميدان سباق الخيل . وبعد وصولهم بيومين وفد عليهم عدد من امراء

---

(١) ولد الجنرال ده بوفور في تارنته سنة ١٨٠٤ وتلقى دروسه في سان سير والتحق بمجلة الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم عاون سليمان باشا الفرنساوي في حروب ابراهيم باشا في سورية ولبنان (١٨٣٤-١٨٣٩) وعاد الى الجزائر وتوفي سنة ١٨٩٠

الجبل وشيوخه لتقديم التهاني بسلامة الوصول ولاظهار استعدادهم للخدمة . فشكر لهم بوفور قدومهم واكتفى بالاشارة الى اركان حربه في الرد على استعدادهم للخدمة . واستغل فؤاد باشا هذه البادرة من اللبنانيين فكلّف يوسف كرم تأليف فرقة من الخيالة اللبنانيين للمحافظة على طريق بيروت طرابلس وذلك على نفقة الباب العالي .

وفي العاشر من أيلول عاد محمد فؤاد باشا من دمشق الى بيروت مسلماً مرحباً . واختلى بالجنرال بوفور مرات متعددة فوضعا بالتعاون خطة يتمشيان بموجبها لاعادة النظام والأمن . واتفقا على ان يقوم الفرنساويون من بيروت الى دير القمر وان ينطلقوا منها الى سائر انحاء الجبل وان يقوم العثمانيون الى جزين فيجعلون منها نقطة انطلاق ثانية ويحتلون جميع المعابر المؤدية الى البقاع ولبنان الشرقي . وقام الجنرال بوفور من بيروت على رأس الفين وخمس مئة جندي الى دير القمر وانطلق منها الى قرى الشوفين فالعرقوب فالشحار . وأنهى دورته في الحادي والثلاثين من تشرين الاول بتفتيش قريتي بيصور وعبيه من قرى الغرب . ولم يتمكن فؤاد باشا من اتمام مهمته بنجاح إما لغرض في نفسه او لقلة تدريب عساكره وعدم انتظامهم . بيد ان الفرنساويين لم يحصروا مهمتهم في التأمين واعادة النظام فانه كان بينهم البنّاء والنجّار والحدّاد فعاونوا اللبنانيين في ترميم مساكنهم وآووا المشردين وطببوا المرضى . وقام المبشرون الاوروبيون والاميركيون بقسط وافر من اعمال البر والاحسان جاءت جميعها في وقتها فكان لها اطيب الاثر .

فؤاد باشا واعيان البلاد

واستدعى المفوض السلطاني لدى عودته من دمشق زعماء لبنان ووجهاءه للتداول معهم في اسباب الاضطرابات . فوفد عليه في الحادي والعشرين من ايلول كل من الامير بشير عساف والامير امين منصور والامير مراد والامير اسعد اللمعيين والشيخ يوسف طالب حبيش والشيخ كنعان الخازن والشيخ قعدان الخازن والشيخ موسى الدحداح والشيخ امين الدحداح والشيخ غندور الخوري والفقيه الشيخ بشاره الخوري والشيخ بطرس الضاهر والشيخ عيسى الخوري . واختلى المعتمد العثماني بهم ربع ساعة من الزمن اجابوه في اثنائها عن بعض ما اراد الاطلاع عليه . واتصل بالامراء الشهابيين على انفراد . ولم يدعُ يوسف كرم اليــه . ثم استدعى زعماء الدروز ووجهاءهم . فنزل الى بيروت كل من سعيد بك جنبلاط وشقيقته الست ام علي نايفة زوجة الشيخ امين شمس وسليم بك جنبلاط والامير محمد امين ارسلان والامير محمد قاسم ارسلان والشيخ اسعد عماد والشيخ قاسم مرعي نكد والشيخ قاسم حمود نكد

والشيخ حسين تلحوق والشيخ نصيف تلحوق والشيخ يوسف عبد الملك والشيخ قاسم حصن الدين واستجوبهم في امر الحوادث . ثم استدعى كلاً من علي بك الاسعد وحسين بك الامين وتامر بك السلمان وأمرهم ان يتوجهوا الى المختارة برجالهم ففعلوا .

اللجنة الدولية

وكان قد انتظم عقد لجنة دولية في بيروت في الخامس من تشرين الاول سنة ١٨٦٠ مثّل البابَ العالي فيها محمد فؤاد باشا والحكومة البريطانية اللورد دفرون الشهير (Dufferin) والحكومة الفرنسية المسيو بيكلار (Beclard) قنصلها العام السابق في بوخارست والحكومة الروسية المسيو ده نوفيكوف (De Novikow) مستشار سفارتها في الآستانة والحكومة النمساوية المسيو فيكبكر (Weckbecker) قنصلها العام في بيروت والحكومة البروسيانية المسيو ده ريفوس (De Rehfues) سكرتير مفوضيتها في الآستانة .

وكانت مهمة هذه اللجنة كما حددها المسيو توفينيل وقبل بها زملاؤه البحث في منشأ الفتنة واسبابها وتحديد مسؤولية كلٍ من زعمائها وانزال القصاص بهم وتقدير الخسائر وايجاد الوسائل لتخفيف الشقاء واقتراح ما يجب ادخاله من تعديلات على نظام جبل لبنان كما اقرته الدول في سنتي ١٨٤٢ و١٨٤٥ .

وبدأت اللجنة أعمالها واضطر فؤاد باشا ان يتغيب عن جلساتها بداعي تدارك الامور في دمشق فبطوء سيرها . وكان آبرو افندي الذي حلّ محلّه في اثناء غيابه كثير الاعتراض والانتقاد محافظاً اكثر من اللازم على سيادة السلطان معتذراً انه لم يتلقَ اية تعليمات في بعض الامور . ومثال ذلك ان فؤاد باشا كان قد انشأ مجلساً قضائياً خاصاً للنظر في الحوادث التي وقعت ومعاقبة المسؤولين عنها . ورأت اللجنة ان هذا المجلس كان قد تباطأ لدرجة الاهمال فترك المسؤولين عن حوادث بعلبك وزحلة امثال حسني بك ونوري بك احراراً طلقين فارادت ان تتدخل في التوقيف والتحقيق . ولكن آبرو افندي اعترض مدعياً ان تدخلها ينقص من سيادة السلطان . وكان دفرون الانكليزي يحافظ على سلامة الدولة العثمانية وزميله النمساوي يخشى توسيع صلاحيات اللجنة فمرت الايام والاسابيع دون ان تتوصل اللجنة الى اي قرار جازم او عمل ملموس .

وعاد فؤاد باشا في السادس والعشرين من تشرين الاول فحضر الجلسة السادسة واستعرض واجباته وصلاحياته امام اعضاء اللجنة فأكّد استعداده لتهدئة الاحوال

ومعاقبة المجرمين بكل امانة واخلاص وانتهى الى القول بانه يتقبل مشورة زملائه اعضاء اللجنة راجياً ان تكون خالية من روح الانتقاد . ثم أمر باحالة خورشيد باشا وكتخداه وصفي افندي وطاهر باشا والبيكباشي نوري بك ومدير المال احمد افندي وحسني بك حاكم بعلبك السابق وغيرهم من رجال الاتراك الرسميين الى مجلس المحاكمة . وطلب في الوقت نفسه الى اعضاء اللجنة ان يعينوا كيفية محاكمة اللبنانيين المسؤولين . وما ان فعل حتى بدا الشقاق عظيماً ولا سيما وان اللورد دفرون كان لا يزال متمسكاً بشهادة قناصل بريطانية في بيروت وطرابلس وصيدا مؤكداً ان الاكليروس الماروني الكاثوليكي كان مسؤولاً عما جرى بقدر مسؤولية بعض زعماء الدروز وانه لم يكن هنالك مذابح بل حرب اهلية آثارها المطارنة والبطاركة من الطوائف الغربية لغاية سياسية غير دينية . واستغل فؤاد باشا هذا الشقاق بمهارة وحذق ملقياً على عاتق اعضاء اللجنة تبعة التردد والتواني في العمل .

وبعد التي واللتيا توصل اعضاء اللجنة الى حل وسط وافقوا به على الحكم بالاعدام على ثلاثة واربعين من ابناء البلاد ومن الموظفين الاتراك . وبالسجن المؤبد على ثلاثة وبالسجن اثني عشرة سنة على احد عشر وبالسجن ست سنوات على ثلاثة عشر وبالنفي سنة واحدة على خمسة وخمسين وبالنفي لمدة غير محددة على مئة وتسعة وستين .

وتودد فؤاد باشا في هذه الاثناء الى يوسف كرم عين اعيان الشمال آنئذ . فكتب اليه في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٦٠ ان يحضر الى السراي في بيروت . ففعل ودخل عليه فوجده وحده وما ان استوى حتى أخذ الباشا مرسوماً من تحت وسادته وأطلع زعيم الشمال عليه . فدهش هذا اذ رآه فرماناً بتعيينه وكيل قائم مقام على النصارى . وزاد دهشة عندما قرأ مرسوماً آخر يقضي بتعيينه قبوجي باشي وبمنحه لقب البكوية . ومما جاء في فرمان القائمقامية « انه قد وجد مناسب انفصال عزتلو الامير بشير احمد عن قائمقامية النصارى في جبل لبنان وان تتفوض وكالة القائمقامية الى عهدة ذات من اصحاب الرشد والاهلية . ومن كون ذاتكم من اركان اهالي الجبل ومن ارباب النظر واللياقة ومأمول ومنتظر منكم بكل الاوجه ابراز حسن الخدمة والغيرة فقد تفوضت وكالة القائمقامية المذكورة لعهدة خدماتكم . ثم وان تكن هذه الادارة التي احيلت الى عهدتكم هي موقتة فيما اذا حصل ادنى تغيير في النظامات الموجودة والمرعية في القائمقامية المذكورة فمن المقتضى ان يصير تسوية امور المصالح الادارية المذكورة تطبيقاً لاحكام نظاماتها القديمة المؤسسة كما كانت » . فشق على طبقة الامراء ان يخضعوا لمن كان دونهم رتبة ومقاماً وصعب على شيوخ الاقطاع ان ينقادوا لمشيخة حديثة النعمة . وقام المطران طوبيا عون رئيس اساقفة بيروت على

الموارنة يسعى لعودة الشهابيين للحكم فاضطر كرم ان يتودد الى الاتراك والانكليز لاحباط دسائس مناظره .

وكان قد بدأ مندوب فرنسة منذ اول تشرين الثاني يلح بوجوب التعويض على الفقراء والمشردين قبل حلول فصل الشتاء . وكان مندوب الباب العالي يؤكد عزمه على العطاء فيعود وينثني ثم يعطي شيئاً قليلاً . فاعترض له ريفوس مندوب بروسية مؤكداً ان لا بد من ايجاد الاموال اللازمة بسرعة مقترحاً فرض ضرائب مخصصة لهذه الغاية . فاجاب فؤاد باشا مندوب الباب العالي ان لا بد من عرض القضية على حكومته وهمس ان وضع السلطنة المالي لا يشجع على البذل ولا سيما وجماكية ضباط عساكره لم تدفع منذ سنتين او اكثر . وبعد اخذ ورد طويلين قبل اعضاء اللجنة بتعيين لجان تقدر مدى الضرر اللاحق بالمشردين وبتعيين لجنة مركزية تجلس في عاصمة السلطنة للنظر في الاضرار التي لحقت بالافرنج وبكيفية التعويض عنها .

تمديد الاحتلال

وبينا كانت اللجنة تنظر في المسؤوليات والاضرار والتعويضات كانت حكومات اوروبة تدرس امكانية تمديد مدة الاحتلال . وكان توفينيل قد بدأ يحاول التمديد في غد اليوم نفسه الذي أقر فيه الاحتلال . فاتصل بكولي سفير بريطانية في باريز وفاتحه كلاماً بهذا المعنى . فكان جواب اللورد جون رسل ان لا بد من تقوية القوة المحتلة بستة آلاف آخرين ثلاثة من بريطانية وثلاثة من بروسية . ولكنه بعد اسبوع اي في الثاني والعشرين من ايلول سنة ١٨٦٠ عاد عن رأيه هذا مشيراً الى رداءة الطقس وصعوبة انزال الجنود الى البر اللبناني راجياً الا يكون هنالك حاجة لارسال هذه القوة الاضافية . وفي السابع من تشرين الثاني من السنة نفسها رفض ان يوافق على بقاء الجنود الفرنساويين في سورية ولبنان الى ان يكون الأمن قد استتب فيهما . وكان وزراء الاتراك لا ينقطعون عن التذمر من وجود الفرنساويين في لبنان مدعين ان بقاءهم في لبنان يزيد الموارنة تعنتاً ويشجعهم على مقاومة الحكومة العثمانية . فأعلن اللورد جون رسل في الرابع من شباط سنة ١٨٦١ ان حكومته لا توافق على اي تعديل لاتفاقية الخامس من ايلول سنة ١٨٦٠ الا اذا رضيت بذلك حكومة الباب العالي . ولكن توفينيل لمس استعداداً في بعض الاوساط الدولية لتفهم موقفه فدعا ممثلي الدول صاحبة العلاقة الى مؤتمر في باريز في العاشر من شباط سنة ١٨٦١ للنظر في تمديد اجل الاحتلال في لبنان . وما ان بدأ البحث حتى أعلن ممثل الباب العالي ان حكومته قادرة على حفظ الأمن والنظام وان لا لزوم لبقاء الجنود الفرنساويين في لبنان بعد اول آذار . وأيده في هذا ممثل

الحكومة البريطانية مبيناً ان لا علاقة بين عمل اللجنة الدولية وبين الاحتلال موضوع البحث . وأضاف انه بمقدور الدول ان يعاونوا الباب العالي على حفظ النظام بابقاء وحدات بحرية في المياه اللبنانية تنزل رجالها الى البر عند الحاجة . فاعترض ممثلا روسية وبروسية على هذا قائلين انه ليس بمقدور وحدات بحرية ان تأتي بعمل مجد من هذا النوع . وأنهى المؤتمر جلساته بالموافقة على الاقتراح الروسي في ان يمدد اجل الاحتلال شهرين آخرين بعد آذار على ان يعاد الى البحث عند الحاجة . اما توفينيل فانه بقي مصراً على وجوب بقاء جنوده في لبنان الى ان يستتب الأمن وتنتظم الامور . فاضطر اللورد جون رسل ان يكتب الى اللورد كولي في الثاني من آذار بانه اذا رفض توفينيل ان يعمل بموجب قرار الدول الأخير فان الحكومة البريطانية تمانع في اي تعديل لنص اتفاقية الخامس من ايلول سنة ١٨٦٠ . فتحرج الموقف من جديد واقترح وزير خارجية برلين جعل الخامس من حزيران حداً اقصى لمدة الاحتلال . فعاد المؤتمر الدولي الى الانعقاد في الخامس عشر من آذار سنة ١٨٦١ في باريز وأقر بالاجماع تمديد اجل الاحتلال ثلاثة اشهر وجعل الخامس من حزيران حداً اقصى ينتهي عنده الاحتلال وتنهي فيه اللجنة الدولية المنعقدة في بيروت اعمالها .

☆ النظر في نظام لبنان

ودرست اللجنة الدولية في بيروت نظام لبنان القديم الذي اقرته الدول في السنتين ١٨٤٢ و١٨٤٥ فانقسم اعضاؤها الى معسكرين : من قال باستمرار استقلال لبنان ومن دعا الى تعزيز سلطة السلطان فيه . وتقدم الجانب التركي بمشروع مفصل قضى بتجديد نظام الحكم في لبنان وسورية وتقويته بانشاء مجلس اداري عام في كل من ايالتي صيدا ودمشق تمثل فيه الطوائف تمثيلاً عادلاً وبانشاء مجلس مماثل في كل سنجق من سناجق هاتين الايالتين وبايفاد ممثل عن كل طائفة من طوائف كل سنجق مرة في كل سنة الى مركز الايالة ينضم الى مجلس الايالة الكبير وينقل حاجة منطقته وشكاويها وبايفاد شخصية عالية من عاصمة السلطنة تتمتع بصلاحيات مفتش اداري عام وتحضر جلسات هذا المجلس الكبير الشامل . وقضى المشروع نفسه ايضاً بتوحيد قيادة القوى العسكرية في الايالتين معاً وبجعلها ستة وعشرين الفاً وباضافة قوة من الخيالة الخفيفة تتمكن من مطاردة الاشقياء بسرعة ومن وضع حد لتعديات القبائل البدوية التي طالما عاثت في البلاد فساداً من حدود البادية حتى شاطىء البحر . وخص الاقتراح العثماني قائد القوى العسكرية الاوحد بصلاحيات واسعة النطاق جعلت منه حاكماً عسكرياً مطلق التصرف وكان دفرون الانكليزي شديد الاعجاب بمواهب

المندوب العثماني فاندفع في تأييد مشروعه ولا سيما وسياسة حكومته كانت تقضي بالمحافظة على سلامة الدولة العثمانية . وذهب الى ابعد من هذا فاقترح جعل سورية ولبنان امارة عثمانية واحدة يرأسها محمد فؤاد باشا نفسه . ولكنه ما فتىء ان لمس معارضة شديدة اجمع عليها اللبنانيون على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم فافسح المجال للبحث في غيره من المشاريع .

وطالب المسيو بيكلار مندوب فرنسة بالمحافظة على امتيازات لبنان التقليدية من حيث استقلاله الداخلي وبالغاء القائمقاميتين وتوحيد السلطة المحلية في يد حاكم لبناني كما كانت في عهد الشهابي الكبير بشير الثاني (فلم يرق هذا الحل لممثل بريطانية لانه رأى فيه اجحافاً بحقوق الدروز والروم الارثوذكس . فاقترح تقسيم الجبل الى قائمقاميات ثلاث مارونية ودرزية وارثوذكسية) وقسم هذه القائمقاميات الى مديريات والمديريات الى وحدات ادارية يبلغ عدد سكان كل منها خمس مئة نسمة . وجعل المدير وشيخ الوحدة الادارية من ابناء الطائفة الاكثر عدداً . وخص والي ايالة صيدا بتعيين القائمقامين وهؤلاء بتعيين المديرين . اما شيوخ الوحدات الادارية فينتخبون انتخاباً من الشعب مباشرة . ورأى دفرون ان يتاح لنصارى راشيا وحاصبيا ومرجعيون الانتفاع من هذا المشروع وان تشكل زحلة وتوابعها مديرية مستقلة بمرتبة احدى القائمقاميات . وجعل في مركز كل قائمقامية ممثلين رسميين للقائمقاميتين الاخريين . واشرك الشعب في الادارة العليا بان اوجب تشكيل مجالس ادارية منتخبة تجلس الى جانب القائمقام لتعاونه في الحكم ومثلها في مركز كل مديرية . وحدد المشروع البريطاني مجموع الضرائب لجميع القائمقاميات فجعله ثلاثة آلاف وخمس مئة كيس وخصه بالقائمقاميات ينفق في سبيل ادارتها وتعميرها . ومنع فرض اية ضريبة اخرى دون موافقة المجالس الادارية العليا . وأعلن مساواة الجميع امام القانون . وقضى بانشاء محاكم صلحية ومحاكم بداية وأوجب تمثيل الطوائف فيها . ثم قضى بانشاء محكمة عليا في بيروت تؤلف من قضاة لبنانيين من جميع الطوائف . وحصر القوة الاجرائية بضابطة لبنانية . فاحتج المسيو بيكلار على هذا المشروع وطلب تدوين اعتراضاته . وتلخص اعتراضاته بما يلي : (١) صعوبة تخطيط حدود القائمقاميات الثلاث نظراً لاشتباك الطوائف . (٢) الاجحاف الذي يلحق ببعض الطوائف الاخرى . (٣) تجزئة السلطة وما ينجم عن ذلك من ضعف وتردد . (٤) قلة موارد القائمقاميات نظراً لصغر حجمها . وقال المندوبون الآخرون قول مندوب فرنسة . فانكمش اللورد دفرون على نفسه وراح يقلّم اطراف الولاية اللبنانية الموحدة .

وانصرف اعضاء اللجنة بعد هذا للنظر في قضيتين اساسيتين : تخطيط حدود الولاية الجديدة وكيفية انتقاء الحاكم . فقال المندوب الفرنسي بوجوب انتقائه من بين

اللبنانيين الموارنة لانهم اكثر عدداً من غيرهم . ووافقه في هـذا زميلاه النمساوي والروسي . وتردد مندوب بروسية معلقاً موافقته على رضى الباب العالي . اما دفرون فانه قاوم هذه الفكرة مبيناً شدة اختلاف الطوائف موجباً انتقاء الحاكم العام مـن خارج لبنان من رعايا السلطان المسيحيين كي يتمكن من الترفع عن العنعنات الطائفية المحلية والعلاقات الشخصية العائلية . وأيد فؤاد باشا زميله البريطاني فاتخذت اللجنة حلاً وسطاً وأوصت بان يكون الحاكم دائماً مسيحياً وتركت البت في لبنانيته لسفراء الدول في الآستانة . وقاوم دفرون وزميله العثماني كل محاولة للاحتفاظ بحدود لبنان التاريخية فسلخا عنه البقاع ووادي التيم ومرجعيون وبيروت وقالا بان هذه الاخيرة ثغر سورية والعراق وبالتالي فلا بد من ابقائها على صلة طبيعية بهذه الاقاليم . وتبنت اللجنة معظم ما اعده المندوب البريطاني من تفاصيل ادارية وقضائية كما سنرى عند البحث في البروتوكول الاول . وسطرت توصياتها في محضر رسمي ووقعته في جلسة نهائية في الخامس من أيار سنة ١٨٦١ ورفعته الى سفراء الدول في الآستانة والى الباب العالي .

لبنان متصرفية ممتازة
البروتوكول الأول : ٩ حزيران ١٨٦١

وتابع سفراء الدول اللجنة الدولية في اعمالها في بيروت وبدأوا بحث القضية اللبنانية مع الصدر الاعظم عالي باشا في الثالث من ايار سنة ١٨٦١ . وأثار السفير البريطاني السر هنري بولور تقسيم لبنان الى قائمقاميات ثلاث فاعترضه زميله الافرنسي ده فاليت مؤيداً وحدة لبنان . ورأى السفراء الآخرون رأيه . فأقر مؤتمر السفراء في الآستانة جعل لبنان متصرفية ممتازة . وأراد السفير الفرنسي ان يجعل الحاكم لبنانياً مسيحياً مارونياً فلاقى مقاومة شديدة من زميله البريطاني ومن الصدر الاعظم . وعندئذ تقدم السفير البروسياني بحل وسط كان قد اثير في بيروت فاقترح انتقاء الحاكم من بين رعايا السلطان المسيحيين ولم يشترط ان يكون كاثوليكياً . وتم تفاهم غير رسمي بين السفراء ان يعودوا لبحث هذه القضية بعد مرور ثلاث سنوات على حاكمية المتصرف الاول . وتقبل السفراء جميع توصيات اللجنة كما وردت . ولكن الباب العالي طلب اعادة النظر في المادة التي حددت الضرائب راجياً افساح المجال لفرض ضرائب اخرى اذا قضى تقدم ابنان الاقتصادي بذلك . فوافق السفراء على هذا كله ورأوا ان يتخذ البروتوكول المؤذن باتفاقهم شكل فرمان سلطاني يبلغونه رسمياً فصدر في اليوم التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ عن المابين الهمايوني الفرمان التالي :

المادة الاولى : يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي تعينه الدولة العلية . ويكون مرجعه المباشر الباب العالي . ويجوز عزله . وتعهد اليه جميع الصلاحيات الاجرائية . وعليه ان يصرف جهده الى حفظ الراحة والنظام في الجبل كله والى تحصيل التكاليف . وله بموجب الرخصة التي ينالها من لدن الحضرة الشاهانية ان يعين تحت عهدته مأموري الادارة المحلية وان يقلد الحكام القضاء وان يدعو المجلس الكبير الى الانعقاد فيتولى رئاسته وان ينفذ الاحكام القانونية الصادرة عن المحاكم ما عدا تلك التي ستذكر في المادة التاسعة . ويمثل كل عنصر من عناصر الجبل وكيل يعينه الكبراء والوجهاء من كل طائفة .

المادة الثانية : ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير يؤلف من اثني عشر عضواً اثنان مارونيان واثنان درزيان واثنان من الروم الارثوذكس واثنان من الروم الكاثوليك واثنان من المتاولة واثنان من المسلمين . ويكاف هذا المجلس بتوزيع التكاليف والتدقيق في واردات الجبل ومصارفاته وبتبيان ارائه التورية في المسائل التي يعرضها عليه المتصرف .

المادة الثالثة : يقسم الجبل الى ست مديريات ادارية اولها الكوره من الجهة التحتية والاراضي المجاورة التي يقطنها الروم الارثوذكس ما عدا القلمون على ساحل البحر ومعظم سكانها من المسلمين . وثانيها القطعة الشمالية من لبنان ما عدا الكورة حتى نهر الكلب . وثالثها زحلة وما يتبعها . ورابعها المتن وساحل النصارى واراضي القاطع وصليما . وخامسها الارض الكائنة الى جنوبي طريق الشام بيروت حتى جزين . وسادسها جزين واقليم التفاح . ويكون في كل من هذه المديريات مأمور اداري يعينه المتصرف ويختاره من الطائفة الغالبة سواء بعدد نفوسها او باهمية املاكها .

المادة الرابعة : يجب ان يكون في كل مديرية مجلس ادارة محلي مؤلف من ثلاثة اعضاء الى ستة يمثل عناصر الشعب ومصالح الاملاك في المديرية . ويجب ان يلتئم هذا المجلس مرة في السنة برئاسة مدير المديرية وبدعوة منه . وعليه ان ينظر قبل كل شيء في كل الامور القضائية الادارية ويسمع مطالب الاهلين ويؤدي المعلومات الاحصائية اللازمة لتوزيع التكاليف في المديرية ويعطي رأيه الشوري في كل المسائل المتعلقة بالمنافع المحلية .

المادة الخامسة : تقسم المديريات الى نواح على نمط قريب المشاكلة من تقسيم الاقاليم القديمة . ولا يكون فيها قدر المستطاع الا جماعات موحدة الجنس من السكان . وتقسم النواحي الى جماعات تتألف من خمس مئة رجل على الاقل . ويكون في كل ناحية عامل يعينه المتصرف بانهاء مدير المديرية . ويرأس كل جماعة او قرية شيخ ينتخبه الاهلون ويعينه المتصرف . وفي الجماعات او القرى المختلطة يكون لكل عنصر كافي العدد شيخ خاص لا شأن له الا مع ابناء مذهبه .

المادة السادسة : لقد تقرر مساواة الجميع امام القانون والغاء كل الامتيازات ولا سيما امتيازات اصحاب المقاطعات .

المادة السابعة : يكون في كل ناحية قاضي صلح لكل طائفة وفي كل مديرية مجلس قضائي ابتدائي يؤلف من اثني عشر عضواً بنسبة اثنين لكل طائفة من الطوائف الست المذكورة في المادة الثانية . ويضاف اليهم عضو من المذهب البروتستانتي او الاسرائيلي كلما كان لاحد من هذه المذاهب مصلحة او دعوى . وتكون رئاسة

المجالس القضائية لكل من اعضائها بدوره كل ثلاثة اشهر .

المادة الثامنة : لقضاة الصلح ان يحكموا في الدعاوي التي لا يتجاوز قدرها خمس مئة غرش حكماً غير مستأنف . واما الدعاوي التي يتجاوز قدرها خمس مئة غرش فانها من صلاحية المحاكم الابتدائية . والدعاوي المختلطة التي تقع بين اشخاص من مذاهب مختلفة فانها مهما كانت قيمتها تعرض على المحاكم البدائية الا اذا اتفق الفريقان على الرضى بصلاحية قاضي الصلح الذي هو من مذهب المدعى عليه . ويجب الحكم مبدئياً باتفاق الآراء بين اعضاء المجلس . واذا كانت جميع الفرق الداخلة في الدعوى من مذهب واحد فلهم ان يردوا الحاكم لاختلاف مذهبه غير ان الحكام المردودين من هذا الوجه لا بد من حضورهم المحاكمة .

المادة التاسعة : تكون محاكمة الدعاوي الجزائية على درجات ثلاث فينظر في دعوى القباحة حكام الصلح وفي الجنح والجرائم المحاكم البدائية وفي الجنايات مجلس المحاكمة الكبير . ولا يمكن وضع اعلامات الحكم من هذا المجلس موضع التنفيذ ما لم تكمل المعاملات الجارية بها العادة في سائر الممالك المحروسة الشاهانية .

المادة العاشرة : كل دعوى تجارية ترفع لمحكمة التجارة في بيروت . وكل دعوى ولو مدنية بين اجنبي او داخل في حماية اجنبية وبين آخر من اهل الجبل ترفع الى المحكمة نفسها .

المادة الحادية عشرة : كل اعضاء المحاكم ومجالس الادارة بدون استثناء وقضاة الصلح ايضاً ينتخبهم ويعينهم رؤساء طوائفهم بالاتفاق مع كبراء الطائفة وتنصبهم الحكومة . واما اشخاص المجالس الادارية فيجب انتخاب نصفهم كل سنة . ويجوز تجديد الانتخاب للذين انتهت مدتهم .

المادة الثانية عشرة : الحكام والقضاة جميعهم موظفون . فان اقدم احدهم على ارتكاب الرشوة او تبين للتحقيق انه اتى ما لا يليق بمأموريته فانه يستحق العزل بل يستوجب التأديب ايضاً على قدر قباحته .

المادة الثالثة عشرة : يجب ان تكون المرافعة في جميع المجالس القضائية والمحاكم علانية وان يعهد بضبط الدعوى الى كاتب مخصوص . ولما كان هذا الكاتب مأموراً باتخاذ سجل لقيد الصكوك المختصة ببيع الاملاك الثابتة او العقار فانه لا يعمل بهذه الصكوك ما لم تقيد على اصولها في السجل المذكور .

المادة الرابعة عشرة : ان من يتهم من اهل جبل لبنان بارتكاب جرم في لواء خارج لبنان فمرجع الدعوى عليه هو في اللواء الذي وقع الجرم فيه . وكذلك من يرتكب جرماً من اهالي سائر الالوية في داخل جبل لبنان تجري محاكمته والحكم عليه بدعوى هذا الجرم في جبل لبنان . وبناء على ذلك فان المجرمين في جبل لبنان سواء كانوا من

اهله او من نزلائه اذا فروا الى لواءٍ آخر فعلى ضابطة هذا اللواء ان تمسكهم بمقتضى الاشعار الذي يرد من ادارة جبل لبنان وتسلمهم اليها . وكذلك يجب على ادارة الجبل ان تقبض على الفارين اليه من المجرمين في سائر الالوية لبنانيين او غير لبنانيين وتدفع بهم الى اللواء الذي ارتكبوا جرمهم فيه بموجب اشعار ضابطته . ومأمورو الادارة الذين يتهاونون في تنفيذ الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين الى المحاكم المنوطة بها دعاويهم او الذين يجيزون تأخيراً لا يمكن رده الى اسباب شرعية فتجري مجازاتهم بمقتضى القانون كسائر الذين يوارون ويخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها بين ادارة جبل لبنان وبين الالوية المجاورة لها تكون كتلك الجارية والمتخذة دستوراً للعمل بين سائر السناجق في ممالك الدولة العلية .

المادة الخامسة عشرة : ان سبيل المتصرف الى اقرار الراحة وانفاذ القوانين في الاحوال العادية انما يكون بواسطة فرقة من الضابطة مجموعة من الاهلين بنسبة سبعة انفار لكل الف من النفوس . ويجب نسخ سلك الحوالية وابطال نزول الضابطة في البيوت والاستعاضة عن ذلك باسباب اكراهية كاستياق المحكوم عليه الى السجن . وبناءً على ذلك يمنع مأمورو الضابطة تحت طائل العقوبات الشديدة من اخذ اي شيء من اهل البلاد نقداً او عيناً . ويجعل للضابطة لباس رسمي او زي مميز لهم . وتبقى طرق بيروت والشام وصيدا وطرابلس بحفظ العساكر الشاهانية الى ان يثبت للمتصرف ان الضابطة اللبنانية اصبحت كفئاً للقيام بجميع الوظائف الموكولة اليها في الاحوال العادية . وهذه العساكر تكون لدى المتصرف وتحت ادارته . وله ان يطلب من الحكومة العسكرية في سورية امداده بالجنود المنظمة في الاحوال غير العادية اذا دعت الظروف لذلك . وعليه ان يستشير في هذا مجلس الادارة الكبير . وعلى قائد هذه العساكر ان يدرس بذاته مع المتصرف التدابير الواجب اتخاذها . وهو وان كان حراً مستقلاً في الامور العسكرية المحضة كاجراء الحركات وتطبيق نظامات الجندية فان عليه طوال وجوده في الجبل ان يلزم معية المتصرف ويجري العمل في عهدته . وحالما يعلن المتصرف زوال السبب الذي من اجله وردت العساكر الى الجبل ويفيده بذلك رسمياً يجب خروجه .

المادة السادسة عشرة : ان الدولة العلية تحتفظ بحقها في جباية الاموال الاميرية من الجبل البالغة الآن ثلاثة آلاف وخمس مئة كيس وذلك على يد المتصرف . على انه يجوز رفع هذا المبلغ الى سبعة آلاف كيس عند الامكان . يخصص هذا المال بادىء ذي بدء لادارة الجبل وللانفاق على منافعه العمومية . فاذا بقي شيء منه رُدَّ الباقي الى الخزينة . واذا قضت شدة الضرورة لتحسين الادارة بزيادة التكاليف المعينة

فيرجع في تسوية الزيادة الى الخزينة الجليلة . ولكنه من الامور المقررة ان السلطنة السنية لا تقوم بمصاريف المنشأات العمومية وسائر النفقات غير العادية ما لم يسبق قبولها لها وتصديقها عليها .

« واما واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونية فبما انها ليست من الاموال الاميرية فانه يجب ادخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة » (١) .

المادة السابعة عشرة : يجب تعجيل الشروع في احصاء نفوس الجبل محلاً محلاً وملةً ملة ومسح جميع الاراضي المزروعة .

مادة اضافية : ان مبلغ السبعة الالاف كيس المذكور في المادة السادسة عشرة لا يفهم منه حد فاصل . فاذا وجب قبل ابلاغ الاموال الاميرية الى هذا الحد انتظار اغلال الازمة الناجمة عن الحوادث الاخيرة يمكن ان تدعو زيادة النفقات المتأتية عن التنظيم الجديد الى توزيع التكاليف ويمكن ان يتجاوز مبلغها سبعة آلاف كيس مضافاً الى الاموال الاميرية الماضية . غير انه يجب على المتصرف الا يلجأ الى هذا الا بالتحفظ المطلق ويجب عليه ان يجتهد دائماً وقبل كل شيء في حفظ التوازن بين عوائد الجبل ونفقاته العادية .

وأبلغ الصدر الأعظم عالي باشا سفراء الدول نص هذا الفرمان رسمياً ووقّع معهم بروتوكولاً خاصاً في التاسع من حزيران ايضاً أكّد فيه الامور التالية : (١) ان المتصرف يتمتع بلقب مشير ويتخذ من دير القمر مقراً له وانه لا يعزل بدون محاكمة وان الباب العالي يفاوض السفراء في اشغال مركز المتصرف قبل انتهاء مدة حكمه بثلاثة اشهر . (٢) يفوض المتصرف تعيين الموظفين في حكومته طوال مدة ولايته بحيث لا يضطر الى مفاوضة الباب العالي عند تعيين كل موظف . (٣) يؤلف في بيروت مجلس مختلط للنظر في الدعاوي التي تنشأ بين اللبنانيين وبين الاجانب . (٤) ينشئ الباب العالي مخفراً على طريق الشام بيروت في المحل الذي يراه مناسباً لتأمين هذا الطريق وابقائه حراً . (٥) يجوز للمتصرف ان يشرع في نم السلاح عندما يرى الظروف ملائمة .

---

(١) اضيفت فيما بعد كما سيتضح الكلام عن داود باشا

المتصرف الأول داود راميان باشا
دورته الأولى : ١٨٦١ - ١٨٦٤

ضاءت بشمس سعودك الايامُ وزهت بطلعة مجدك الاعوامُ
وسما بذاتك سفح لبنان الذي حسدته مصر بعزه والشامُ
ونسخْتَ آيات المظالم بعد ما قامت على ساق بها الاقدامُ
ونصبتَ يا داودُ احكاماً بها ظهر اليقين وزالت الاوهامُ
فينا لك الذكرُ الجميل مخلداً هو في الحديث بداءةٌ وختامُ

ليوسف الشلفون المعاصر

وقام الصدر الاعظم عالي باشا يفتش عن رجلٍ كفوء يقوم باعباء الحكم في لبنان ويطبق نظامه الجديد فوقع اختياره على داود براميان باشا ناظر التلغراف في الآستانة . ورضي سفراء الدول عن داود فصدر فرمان سلطاني بتعيينه حاكماً على لبنان في العاشر من حزيران سنة ١٨٦١ .

ولد داود في الآستانة في السنة ١٨١٨ من ابوين ارمنيين كاثوليكيين ونشأ وترعرع فيها . وتلقى علومه الثانوية في كلية ازمير الافرنسية . ثم التحق بمعهد الحقوق الشاهاني وأتقن في الوقت نفسه عدداً من اللغات منها الالمانية . وألمّ الماماً بسيطاً بالعربية . وبعد ان درّس اللغات مدة في الآستانة التحق بالسلك الخارجي وتدرّج فيه حتى أصبح في منتصف القرن قائماً بالاعمال في برلين . وانتهز فرصة وجوده في المانية فدرس تاريخ المانية وشرائعها وألف رسالة في شرائع الالمان القدماء فانتخبته أكاديمية العلوم في برلين عضواً شرفياً ومنحته جامعة ينّا لقب دكتور في الحقوق سنة ١٨٥٣ . ثم دعي للآستانة للعمل في وزارة الخارجية . وفي السنة ١٨٥٧ عُين ناظراً عاماً للمطبوعات ثم ناظراً عاماً للتلغراف . وفي السنة ١٨٦١ عين متصرفاً على لبنان برتبة مشير .

وقام داود الى لبنان فور تعيينه فوصل الى بيروت في اواخر تموز من السنة ١٨٦١ . واحتفى به محمد فؤاد باشا حفاوة فائقة . وقدمه الى مندوبي الدول . ثم سلّمه فرمان

تعيينه في حفلة حافلة في محلة الطيونة في ضواحي بيروت نفحه فؤاد في اثنائها حفنة من تراب لبنان . ونهض داود الى دير القمر مقره الرسمي واستقبل فيها زعماء البلاد ووجهاءها وأصدر مرسوماً الى الشعب اللبناني في الثلاثين من تموز هذا نصه :

« حيث انه قد صار التفضل الآن باحالة متصرفية جبل لبنان من لدن الحضرة العلية السلطانية لعهدتنا فقد توكلنا على الله تعالى . وقبل تاريخه وصلنا الى بيروت . ولقد صار ترجمة الفرمان العالي الذي مستصحبينه المتعلق بمأموريتنا مع الفرمان العالي الآخر الموضح به نظامات جبل لبنان التي صار عليها القرار الى العربي . ونهار أمس صار قراءتهم علناً على ملا الناس في حرش بيروت . وتفهمت مضامينهم العالية الى وكلا واهالي القرا الذين كانوا حاضرين . وبعد ذلك صار قيامنا من هناك . ونهار اول امس الخميس قد تيسر وصولنا الى دير القمر مركز جبل لبنان . وصار البداية والمباشرة برؤية المصالح والمهام الواقعة . ولكي يكون كيفية الالطاف والمرحمة المعروفة من السلطنة السنية بحق عموم الاهالي معلومة عند الجميع ولاجل ايفاء فرايض التشكر والحمد والانقياد والاطاعة الآن مرسول جانب من صور الفرمان العالي المذكور . فاذاً لبينما يصير وضع النظامات السنية المذكورة بموقع الاجراء يقتضي ان كل احد يكون في حده وأدبه مشغولاً في شغله وعمله ولا يتجاسر على ادنى حال ردي . وكل من يتجاسر على ادنى حالة ردية فما عدا ان بالحال يصير رمي القبض على ذلك المتجاسر واجراء مجازاته اللازمة الا ان شيوخ ووجوه تلك القرية يكونوا تحت المسؤولية والعقاب الشديد . فيلزم ان يصير الدقة بملاحظة هذه الرقيقة ومطالعتها جيداً والدقة بعدم وقوع ادنى حال موجب التأديب والمسؤولية . وتحصل المجانبة من وقوع حال وحركة مخالفة لذلك . والآن تنبيهاً وتأكيداً بهذا واعلاناً وبياناً لمأموريتنا قد صار اسطار هذا البيولردى من ديوان متصرفية جبل لبنان ليكون العمل والحركة بموجبه والتوقي من مخالفته . داود متصرف جبل لبنان ٢١ محرم سنة ١٢٧٨ » (١) .

برودة في الاوساط المارونية

وقضت المادة الحادية عشرة من النظام الجديد باستشارة رؤساء الطوائف وكبرائها لتعيين اعضاء المحاكم والمجالس فشرع داود يتعرف الى هؤلاء ويتبادل الرأي واياهم في ما يؤول لصالح لبنان وابنائه . وما ان فعل حتى لمس برودة في الاوساط المارونية العالية . فبعضهم وعلى رأسهم المطران طوبيا عون رئيس أساقفة بيروت على الموارنة

---

(١) عن الاصل المحفوظ في المتحف الوطني اللبناني .

قال بادارة لبنانية يتولى امورها حفيد الشهابي الكبير الامير مجيد شهاب . وكان هذا قد غيّر مذهبه للمرة الثانية فعاد من مصر مارونياً طامحاً طامعاً . وقال آخرون ان لا خير في امير لا يقيم للعقيدة الدينية وزناً حتى ولو كان مجيداً حفيد الشهابي الكبير . ورأى غيرهم وكان بينهم الكاهن والتاجر والفلاح ان ليس في البلاد افضل من يوسف بك كرم لمنصب الحاكمية وأشاروا الى نزاهته وكرمه وانصافه وفروسيته . وعلم الجميع ان تعيين مسيحي من خارج لبنان انما جاء على سبيل التجربة فقط ولمدة سنوات ثلاث وانه لا بد من اعادة النظر في هذا عند انتهائها فتصلبوا في رأيهم وامتنعوا عن مؤازرة الباشا الجديد . قال الاميرال الفرنساوي ده تينان في كتاب له صدر عن بيروت في الخامس عشر من آب سنة ١٨٦١ : « وكان الخامس عشر من آب ولم يتمكن داود من اجراء شيء من التعيينات فجاء بيروت وفاوض فؤاد باشا ومنها أبحر الى طرابلس على ظهر بارجة تركية . وكان يرافقه السيدان طوبيا عون وبطرس البستاني رئيسا اساقفة بيروت وصيدا . فزار بطريرك الموارنة في مقره الصيفي في الديمان . وطلب اليه ان يرشده في انتقاء مدراء (قائمقامي) الاقضية الستة وتعيين اعضاء المجلس الاداري الكبير . فاجابه البطريرك ان مهمته روحية لا تسمح له بالتدخل في السياسة . ثم رغب الباشا الى البطريرك ان يحض كرماً على قبول وظيفة في حكومة الجبل . فابى البطريرك الخروج عن حدود مهمته الروحية » (١) . فكتب داود باشا الى كرم نفسه يدعوه لمقابلته إما في طرابلس او في بيروت . وراح يظهر حسن نيته في ان صرّح في اوساط الشمال انه يعتمد كرماً لاقرار الأمن وتوطيد العدل في الشمال وان على ابناء الشمال ان يحترموه ويمتثلوا لاوامره . ولكن كرماً كان يقول ان الاتراك سيقضون على استقلال لبنان تدريجياً ان هم نجحوا في تطبيق البروتوكول . وكان في قرارة نفسه يرى في المتصرف مناظراً جاء ايسلبه حقه في الحكم ويحل محله ويرى في الوقت نفسه انه ان اخفق المتصرف في السنوات الثلاث الاولى اضطر السفراء الى العدول عن حاكم غير لبناني والى قبول المشروع الفرنسي الذي قضى بتولية لبناني مسيحي على لبنان وانه حينذاك يكون هو اكبر حظاً من سواه لتبوء هذا المركز العالي . ولما حبطت مساعي المتصرف في الشمال أبحر فؤاد باشا الى طرابلس وحلّ ضيفاً على كرم في اهدن وزار البطريرك وتبرع بخمسين ليرة عثمانية لكنيسة اهدن . واوعز الى كرم ان يتوجه الى دير القمر وان يكون في خدمة داود باشا . فقام يوسف بك كرم الى دير القمر ورضي

(١) تجد أسهب من هذا في كتاب لبنان ويوسف بك كرم للخوري اسطفان البشعلاني . وقد عدنا اليه مراراً واقتبسنا عنه ما لم نجده في غيره ولاسيما وانه عربي العبارة .

ان يكون موظفاً في الحكومة الجديدة (١) .

المجالس الثلاثة

وانهى داود باشا استشاراته وعاد الى دير القمر فألف مجالس ثلاثة اولها مجلس وكلاء الطوائف – محمد عرب عن السنة عيد حاتم عن الموارنة سعيد تلحوق عن الدروز عبدالله نوفل عن الروم سليم صوصه عن الروم الكاثوليك ومحمد المقدم عن الشيعة . وثاني هذه المجالس مجلس الادارة الكبير واعضاؤه عمر الخطيب وحسن ابو عواد عن السنة وعمون يوسف عمون ونصر نصر عن الموارنة وحسن شقير ووهبه ابو غانم عن الدروز وخليل الجاويش وشديد عيسى عن الروم وجبرائيل مشاقه وعبد الله مسلّم عن الروم الكاثوليك وعبد الله برو عن الشيعة . وثالث المجالس مجلس المحاكمة الكبير واعضاؤه ستة مع ستة وكلاء دعاوي : الامير امين منصور بللمع رئيس ومحمد الخطيب واحمد الخطيب وبشاره الخوري وارسانيوس الخوري وسليم عبد الملك وسلمان تقي الدين وخليل الجاويش ونجم الاسود وجبرائيل مشاقة واسعد جاويش وعلي الحسيني واسماعيل الحسيني اعضاء .

وكيل المتصرف وكاخيته

وجعل داود باشا من مدير الاوض العثماني وكيلاً له يحل محله في غيابه عزة بك اولاً ثم كاه بك افندي بعده . وكان يلقب «سعادتلو صاحب الرتبة الثانية ووكيل حضرة صاحب الدولة» . وقرّب المتصرف الامير فندي شهاب من نفسه وجعلـه كتخداه اي مدير اموره .

الاقلام

وقسّم المتصرف العمل المركزي على اقلام ستة او اكثر القلم التركي والقلم العربي والقلم الاجنبي وقلم المالية وقلم التحقيق وقلم التحريرات . واضاف فيما بعد قلماً للتلغراف وقلماً للبريد . وأسند رئاسة القلم التركي الى سامي افندي (١٨٦١–١٨٦٣) فخورشيد افندي (١٨٦٣–١٨٦٤) فأسعد افندي (١٨٦٤–١٨٦٦) فأحمد بك (١٨٦٦–١٨٧٠) ورئاسة القلم العربي الى حنا ابي صعب (١٨٦١–١٨٦٨) ورئاسة

---

(١) يصر انصار كرم والمعجبون به انه قبل الوظيفة شرط الاستعفاء بعد اكمال التنظيم .

القلم الاجنبي الى دياب افندي (١٨٦١–١٩٠٧) وتولى المحاسبة من جانب الدولة حسين افندي (١٨٦٧–١٨٧١) واشرف على « بوسطة جبل لبنان » المسيو ميسون ابتداء من اول نيسان سنة ١٨٦٢ وعلى التلغراف المسيو اميل .

القوميسيون

وهنالك اشارات الى لجان عدة شكلت للقيام باعمال معينة منها قوميسيون المساحة وقوميسيون الاموال المتأخرة – او « قوميسيون التحقيق في بواقي الاموال الاميرية » كما جاء في سجلات المجلس احياناً وفي مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري وما شاكل ذلك .

الضابطة

وقضت المادة الخامسة عشرة من نظام لبنان الاساسي بانشاء فرقة من الضابطة اللبنانية بنسبة سبعة عن كل الف من السكان . وظهر في اول آب من السنة ١٨٦١ قانون للضابطة العثمانية جاء في سبع وخمسين مادة بحثت « فيما يختص بمنع بعض الاشياء وتنظيف الازقة وصورة حركة القناواتية والسراباتية وحركات محملي الكدش والحمارة ومعاملة الذين يمشون ليلاً بغير فنار ودخول الركاب الى البابورات وفيما يختص بمادة الكونتراتو وبنقل الاسلحة وفي أوقات قفل القهاوي ودكاكين الحلاقة والشاي والقواتوقات ليلاً » وما شاكل ذلك . فاستقدم المتصرف مستشارين فرنساويين الكابيتان فان والكابيتان إلتاب وفتح باب التطوع . واشترط على المتطوع ان يخدم سنة كاملة وان يؤمن ست مئة غرش تعاد له عند انتهاء مدته وان يخضع لاحكام ديوان ضابطي تكون احكامه مبرمة .

وانتقى المتصرف ممن طلب التطوع سبع مئة واربعين نفراً لبنانياً ومئة وخمسين رقيباً وضابطاً بحيث اصبح مجموع الضابطة لديه ثمان مئة وتسعين رجلاً . منها ست مئة وخمسة وثلاثون مشاة وخمسة وسبعون فرساناً وثلاثون موسيقياً . وشمل ملاك الضباط سبعة وتسعين اونباشياً واثني عشر شاويشاً وثلاثة وعشرين ملازماً واربعة عشر يوزباشياً والاي اميني وبيكباشيين واميرالاي واحد . وأسند المتصرف قيادة هذه القوة الى عهدة الامير سعيد سعد الدين شهاب وطلب الى الباب العالي تصديق ذلك فأجيب الى طلبه وأصبح الامير المذكور بأمر سلطاني عالٍ « اميرالاي الضابطة اللبنانية » .

ثم عاد المتصرف بعد قليل فانقص عدد الضابطة « نظراً لكثرة نفقات الادارة

وعدم وجود واردات كافية ونظراً لضيق يد الاكثرية الساحقة من السكان وعدم موافقة المرحمة السنية على حشرهم آنئذ » فأصاب المتن تسعين رجلاً ما بين ضابط ونفر ومشاة وفرسان . ويستدل من قرار اتخذه مجلس الادارة الكبير ان مجموع معاشات الرجال وثمن تعييناتهم وكساويهم ومصارفاتهم السائرة بلغت في خلال الأشهر الستة الاولى من السنة المارتية ١٢٧٩ (١٨٦٣) ٩٢٦٦٩٣ غرشاً .

ملاك الادارة والقضاء في الاقضية والنواحي

وقسّم المتصرف لبنان بموجب المادة الثالثة من نظامه الاساسي الى اقضية ستة (مديريات طوال مدة داود باشا) وجعل على رأس كل منها مديراً : الامير ملحم ارسلان على الشوف والشيخ قعدان الخازن على جزين والامير عبد الله شديد بللمع على زحلة والامير مراد بللمع على المتن والامير مجيد شهاب على كسروان والبترون والامير حسن شهاب على الكورة وكان هذا قد تقبل المذهب الارثوذكسي . وجعل عبد الله نمور مديراً على دير القمر . وقسّم المتصرف الاقضية الى نواحٍ والنواحي الى قرى وجعل على كل ناحية عاملاً وعلى كل قرية شيخاً واحداً او اكثر . وعاد في السنة ١٨٦٣ بعض المنفيين الى الوطن فاضطر المتصرف ان يشجع نزوح بعضهم عن دير القمر وان يجعل منها ناحية مستقلة عن الشوف مربوطة مباشرة بالحكومة المركزية . ولقاء هذا التدبير نزع عنها عاصميتها ونقل حكومته منها الى بتدين واشترى سراياها بخمسة آلاف ليرة عثمانية من ارملة الشهابي الكبير الست حسن جهان . وألحق بدير القمر بعض القرى المجاورة لها وادي الدير وبكرزيه وبنحليه ودردوريت وخلوات جرنايا .

وشمل قضاء كسروان والبترون بموجب هذه الترتيبات ست مئة قرية وست عشرة ناحية والشوف مئة وثلاث عشرة قرية واثنتي عشرة ناحية والمتن مئة وثمان وسبعين قرية واثنتي عشرة ناحية وجزين مئة وثلاثاً وعشرين قرية واحدى عشرة ناحية والكورة ثلاثاً واربعين قرية وتسع نواحٍ .

وأحاط المتصرف كل مدير بمجلسين احدهما للادارة والآخر للمحاكمة وبكاتب مال وكاتبين عاديين واحد للادارة والثاني للقضاء . ووضع تحت تصرف المدير قوة من الدرك تراوحت بين الخمسين والمئة نفر من المشاة وحوالي عشرين نفراً من الخيالة . وقضى التأزم الطائفي بتقسيم هذه المراكز على طوائف القضاء . فمجلس ادارة الشوف مثلاً شمل الشيخ محمد الخطيب عن السنة والشيخ ابو علي اسماعيل عبد الصمد عن الدروز وجرجس نصور الجريديني عن الروم ومخائيل انطونيوس عن الروم الكاثوليك .

وشمل مجلس المحاكمة في قضاء البترون وكسروان في السنة ١٨٦٣ السيد حسن الشلف عن السنة والخوري عبد الله عفيفي عن الموارنة وجبور بولس عن الروم ونقولا قطان عن الروم الكاثوليك والسيد حسن اسماعيل عن الشيعة . ويستدل من بعض الاوراق الباقية ان المتصرف كان يأمر بتعيين هؤلاء الاعضاء فيقوم المدير (القائمقام فيما بعد) باعلامهم بما أمر به المتصرف . « حضرة الاخ العزيز الشيخ ضاهر عثمان (ابو شقره) المكرم حفظه الله تعالى : انه حيث بتاريخه صدر امر دولتلو افندم داود باشا متصرف جبل لبنان المعظم بتعيين اسكم اعضا عن طائفة الدروز في مجلس قضا جزين اقتضى افادتكم لكي تحضروا حالاً لهذا الطرف بدون عاقه لاجل تتميم هيئة المجلس — ٩ جا سنة ٧٨ قعدان الخازن مدير قضا جزين » .

وكانت صلاحيات مجالس الادارة المحلية مقتصرة على التفتيش عن الاموال الاميرية والاراضي وما يتعلق بمنافع القضاء المحلية . واجتمعت مرة كل اربعة اشهر ولم يصرف لها معاشات مقننة .

المتصرف والموظفون

وكان داود قد قضى مدة طويلة في الغرب ولا سيما في المانية فجاء محافظاً على الوقت مشدداً . وأصدر في بداية عهده امراً الى كتخدائه الامير فندي شهاب جاء فيه : « حيث انه صاير عاقة عن حضور بعض المامورين المستخدمين كل يوم للسراي بالاوقات المعينة فلزم تسطير بيولردينا هذا اليكم ليكون معلوم بعد الآن ان جميع المامورين كباراً وصغاراً مقتضي الآن يحضروا كل يوم الساعة ثلاثة نهاراً ويداوموا اشغالهم لحد الساعة عشرة من النهار ويتوجهوا . وكل مأمور يتكاسل عن الحضور بغير عذر شرعي او بدون اذن فعدا انه يخصم عليه معاشه بحساب القسط اليومي الا انه يتقيد اسمه . وهذا الحال اذا تكرر وقوعه من اي من كان من المامورين كبيراً او صغيراً لحد العشرة مرات فذلك المأمور يصير عزله من الخدمة وتلك المأمورية التي يكون مستخدم بها . هكذا بقتضي تعلنوا هذه الكيفية للجميع . وبناءً عليه صار ترقيم واملا هذا البيولردى » .

ومما يروى عما نقله من الغرب الى لبنان ما دوّنه الدكتور شاكر الخوري في مجمع المسرات : « وعندما حضر داود باشا افتكر ان يعامل الاهلين معاملة الاوروبيين. وقد اخبرني والدي انه عندما حضر وجلس في بتدين كان يلاعب كلبه الافرنجي كل صباح في ساحة السراي ويركض امامه . فاستخف به اهل البلاد واخذوا يتكلمون عن خفته . فنقل احد الموظفين هذا الكلام الى داود واضاف ان اهل بلادنا لم يتعودوا

ان يروا حكاماً بهذه الصفة . فاجابه المتصرف وما هي لوازم الهيبة ؟ قال يلزم ان تكون رزيناً جليلاً وتلبس لبساً مهيباً . وفي اليوم التالي لبس المتصرف وفروته وملأ غليونه وعبس واستقبل الاكابر وتكلم بصرامة . فصار الزائر يخرج فيقول هذا رجل مهيب تجري اوامره بسرعة . ورأى المتصرف حماراً يأكل التوت بالقرب من السرايا . فأحضر الحمار وسأل عن صاحبه فأنكره الجميع خوفاً من القصاص . فأمر بشنق الحمار . ومنذ ذلك ما عاد رأى حماراً او احداً يتعدى على ملك غيره » .

وعلى الرغم من ثقافة المتصرف الحديثة وتضلعه بالقانون واطلاعه على ما احرزه الاوروبيون فانه لم يقُم اي نظام لتعيين الموظفين وترقيتهم وتقاعدهم . ولكنه ابقاهم تحت ارادته ومطلق تصرفه يعزلهم وينصبهم في ساعة واحدة وبكلمة واحدة .

المتصرف وخلاص النفوس

ومما جاء في مجمع المسرات انه صدر امر الباشا ذات يوم الى كل من يوسف الحوري ويوسف مبارك والياس وهبه من جزين ان يحضروا الى بتدين لمقابلة المتصرف . فحضروا في الوقت المعين ودخل اولاً الياس وهبه فسأله الترجمان الكاهن الارمني بعض مسائل فأجاب عنها . فأمر المتصرف بحبسه . ثم دخل يوسف مبارك وترجم له الترجمان فنال نصيب الاول . وعندما دخل يوسف الحوري والد الدكتور شاكر ورأى الترجمان طلب الى المتصرف تغييره واعترض على الوشاية وطلب وقتاً اطول لزيادة الايضاح . فأذن المتصرف بذلك وضرب له موعداً في اليوم التالي . فخـرج يوسف الحوري تواً الى دير القمر واتصل بكتخدا المتصرف الامير فندي ورجاه ان يقابل الباشا عنده في السهرة . فقابله وأوضح له جميع الحوادث التي جرت قبله في لبنان وأبان اغراض اخصامه . فأجابه الباشا ان الذي اشتكى احد رؤساء الدين . وبعد ذلك قابل يوسف الحوري هذا الرئيس وفاتحه كلاماً في الموضوع . فأجابه الرئيس انه كان قد سمع ان مراد الثلاثة تغيير المذهب الماروني . فأخذت الغيرة الدينية كاهن المتصرف الارمني وحلل ان يهلك اجساد الثلاثة في السجن ليخلص انفسهم ! « اما المتصرف فانه اعتبر خلاص النفوس خارجاً عن صلاحيات حكمه » !

الماليـــة

وكان لا بد من المال . فأوعز المتصرف الى مجلس الادارة الكبير بدرس هذه القضية الحيوية . فرأى المجلس ان يُشرع في جباية اموال السنوات ١٨٦٠–١٨٦٣ وان تعين خاصة (قوميسيون) بدرس الاموال المتأخرة . وما ان بدأت هذه اللجنة اعمالها حتى

تبين لها ان الدفاتر الاجمالية التي قدمها قائمقام الدروز الاسبق الامير محمد ارسلان وتلك التي قدمها زميله قائمقام النصارى الامير بشير احمد « لا يمكن التحصيل بموجبها » وانه لا بد من الرجوع في محاسبة بعض القرى حتى السنة ١٨٤١ وان بعض رجال الاقطاع في عهد القائمقاميتين اهملوا واجبهم ايما اهمال وان البعض الآخر منهم أساء التصرف فجمع المال مالين وأودع جيبه قسماً وافراً منه . وتبين للقوميسيون ايضاً ان بعض الاهالي يملكون وصولات قد تكون مزورة وان هنالك مشاكل ومشاكل مع سلطات الايالات المجاورة . فوالي صيدا مثلاً طالب دير القمر بمال اعانة متأخر وادعى انها كانت تابعة لايالته بصورة مباشرة مما اضطر اهلها ان يعودوا الى الدفاتر لدحض مطلب الوالي . فكتب المجلس الى المديرين بارسال وكلاء على القرى « لاجراء محاسبة قراهم » منذ السنة ١٢٥٧ حتى ١٢٧٧ وتبين من تقارير « قوميسيون المتأخرات » ان المتأخر عن واجب السنة ١٢٧٧ (١٨٦١–١٨٦٢) بلغ الارقام التالية :

قضاء الشوف	٣٦٩٨٥٦	غرشاً
قضاء جزين	٠٧٠٤٤٨	غرشاً
قضاء المتن	٠٩١٠٤٥	غرشاً
قضاء كسروان	١٩١١١٢	غرشاً
قضاء زحلة	٠٢٧٨٩٦	غرشاً
قضاء الكورة	٢٨٢٠١٠	غرشاً
مجموع	١٠٣٢٣٦٧	غرشاً .

وتبين من التقارير نفسها ان مجمل المال المطلوب عن السنة ١٢٧٨ (١٨٦٢–١٨٦٣) عن قضاء الشوف وحده بلغ مجموعاً قدره ٥٩٠٧١٦ غرشاً منه ٤٦٨٣٤٣ عن مال الميري و٨٦٤٦٠ عن مال الاعانة و٣٥٩١٢ عن مال معاش النفوس . فاتخذ المجلس قراراً صارماً خلاصته ان يضرب لكل من يطلب منه مال موعد لايفائه فاذا تأخر عن الموعد غُرم عشرة في المئة تضاف الى المال المطلوب وعُين له موعد آخر . فان تأخر مرة ثانية حُبس وأُلقي القبض على ابيه او اخيه او احد اقاربه للتشديد .

وأُمطر المجلس وابلاً من طلبات التأجيل نظراً للظرف الشاذ وبعض هذه الطلبات من اغنى القرى خراجاً ومالاً كقرية عماطور مثلاً . ولكن المجلس رأى « الاّ يصير توقيف الطلب عن احد مصاباً كان او غير مصاب » .

وجعلت اموال الجبل ثلاثة : مال الخزينة ومال المهمولات ومال المتفرقة. ومال الخزينة كان مال الويركو باصطلاح ذلك العصر . والويركو لفظ تركي معناه الضريبة . وشمل هذا المال الاملاك والاعناق فترتب على كل درهم املاك واحد وعشرون غرشاً وجعل على عنق كل ذكر ثمانية غروش وثلاثة ارباع الغرش . وتبع مال

الخزينة مال الاملاك الاميرية مال مالكانة بصرما في الكورة ومال ساوقية في البقاع بالقرب من شمسطار وحاصلات الاراضي الاميرية . وهذه انواع اولها سبع محصولات الاراضي البيضاء – السايخ – والرسم المعين على عدد الاشجار . وثانيها بدل نصف مقصة الهري . وثالثها محصولات اثمار الزيتون في الكورة والبترون وكسروان بعضه ملك الحكومة ارضاً وغرساً وبعضه غرساً والبعض الآخر بالاشتراك مع الاهلين نصفاً او ربعاً . وقبو جبيل ومطحنة الغدير في ضواحي بيروت وحرج الهرمل ورسوم الدعاوي والتصديق والجزاء النقدي .

اما مال المهمولات فانه شمل مال الاملاك التي اهملت مساحتها ولم يعد من سبيل لادخاله مع الويركو الاصلي ومال تعداد الماعز والغنم ومال العرب والنور ورسم المحصول الذي يستوفى بواسطة دوائر الاجراء ورسم صور طبق الاصل وثمن الاوراق المطبوعة كاوراق الكفالة ورسم الدخان والتنباك وواردات المطبعة الرسمية ورسوم الاحتساب في زحلة والبترون وجونية وطبرجا والعقيبة واقلام جبيل .

ومال المتفرقة أطلق على كل ما ورد الى صندوق المتصرفية من ثمن ادوية او حطب او امتعة عتيقة او فروق صرف ليرات بغيرها او فوائد نقود او غيره من الموارد غير المحصورة وليست عادية .

دَاوُد بَاشَا ويوسُف بك كَرَم
١٨٦١-١٨٦٤

أسباب التوتر

وأراد المتصرف الاول ان يستعمل يوسف بك كرم في احد اقضية لبنان لنفوذ كلمته وتعلق بعض الاوساط الشعبية به . ولكن البك كان يعلم ان سفراء الدول لم يقولوا كلمتهم الاخيرة في تبعية حاكم لبنان وانهم انما عينوه من غير اللبنانيين على سبيل التجربة فقط ولمدة ثلاث سنوات وانه اذا فشل داود في اداء مهمته عاد السفراء الى بحث هذه القضية من جديد . ولذلك نراه يأبى قبول اية وظيفة . هذا ما رواه المؤرخ المعاصر المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت على الموارنة وصديق كرم . وهي لعمري شهادة حق لا ينقصها شيء من العدالة او الضبط .

وكان يوسف قد اشتهر بتعبده وشجاعته ووجاهته فأحبه رجال الدين الموارنة واستمسك باهدابه عدد غفير من « العامية » لما توسموا فيه من الخير في نزاعهم مع رجال الاقطاع .

ونسي داود هذا النزاع بين بعض العامية وبعض رجال الاقطاع او تناساه فأحاط نفسه في ترتيباته الادارية الجديدة برهط من الامراء والمشايخ . فجعل كتخداه الامير فندي شهاب ورئيس مجلس المحاكمة الكبير الامير أمين منصور بللمع وقائد الضابطة اللبنانية الامير سعيد سعد الدين شهاب ومدير كسروان والبترون الامير مجيد شهاب ومدير الكورة الامير حسن شهاب ومدير المتن الامير مراد شديد بللمع ومدير زحلة الامير عبد الله شديد بللمع ومدير الشوف الامير ملحم ارسلان ومدير جزين الشيخ قعدان الخازن .

فرنسة وكرم

وعلى الرغم من تعاون مسيو بيكلار مندوب فرنسة في اللجنة الدولية مع المتصرف فان قنصل فرنسة في طرابلس بقي يميل الى كرم ويهتم به . وبقي الجنرال ديكرو قائد مشاة الحملة الفرنسية يعلق الآمال الكبيرة على زعيم الشمال ويرى في مقاصده مقاصد

فرنسة في الشرق . وما فتىء يسعى لربط كرم بالجمعية الفرنساوية لحماية نصارى الشرق موجباً فتح اعتماد لكرم كي يتمكن من « شراء الاسلحة والذخائر ليتم طرد الاتراك من لبنان وسورية وزجهم في البحر عند سنوح الفرصة » . وكان هذا الجنرال يرى ان لا بد من تأليف رابطة مسيحية كبيرة في فرنسة « لرفع شأن الموارنة وتحرير الاراضي المقدسة » .

كرم ووجوه الجبة

ولم يحسن الشهابيان الكبيران مجيد وحسن ادارة الشمال . ولعلّ خورشيد باشا دسّ في هذه المنطقة نفسها كما ادعى كرم . فاضطرب جمهور الموارنة في الشمال . وحزّب كرم وجوه مقاطعة الجبة وما جاورها وجعلهم يكتبون له صكاً يوكلونه به عن جمهورهم . ورفع العرائض الى مندوبي الدول ومعتمديها وشكى فيها قوة الادارة الجديدة واستبداد رجالها وطلب الانصاف والحماية .

داود باشا في البترون

واهتم المتصرف للامر وقام الى البترون فوصلها في اول تشرين الاول من السنة ١٨٦١ وكتب الى كرم ان يوافيه اليها وطلب الى الاهالي ان يعينوا اثنين من كل قرية لبسط شكاويهم . وأوفد المتصرف عبد حاتم وكيل الموارنة في مجلس الطوائف وفضول البستاني ترجمان المتصرفية الى كرم ليبلغاه رغبة المتصرف . ولدى وصولهما الى بيت كرم أشارا عليه بوجوب تلبية الدعوة فسار بفريق من الوجهاء الى البترون . وانضم الى موكبه عدد غفير من الناس وما فتئوا حتى اصبحوا عند مداخل البترون جيشاً زاحفاً . وبسط كرم شكاوي الاهلين وطلب عزل الامير مجيد شهاب وأكّد ان ما وقع من قلاقل في الشمال جاء عن يد بعض الاشقياء الذين لا علاقة له بهم . ولكن المتصرف رأى في تجمهر الشماليين وتعرضهم لرجاله في البترون تهديداً وانذاراً . فرفض اقتراح كرم وأجاب انه ينظر في الشكاوى لدى وصوله الى الكورة . وأبرق الى فؤاد باشا ان كرماً يهدد على رأس جمهور مسلح وانه لا بد من استحضاره الى بيروت ومناقشته فيها . ففعل فؤاد بما اوصى به داود وأشار كرامبون سكرتير بيكلار على كرم بتلبية دعوة فؤاد باشا وأعطى زعيم الشمال تذكرة مرور باسم قنصل فرنسة تأميناً له .

في بيروت

فصرف يوسف بك كرم جمهور المتظاهرين حوله وقام الى بيروت ببعض رجال

الشمال بينهم اسعد بولس وانطونيوس بشاره واغناطيوس معوض وسمعان فرنجيه . وقبل ان يصل الى بيروت زار الدارعة الافرنسية موغادور وقابل الاميرال ده لاغرانديار وحدثه بما جرى . فعرض عليه الاميرال البقاء في الدارعة ولكنه ابى اعتماداً على تذكرة القنصل . وما ان دخل بيروت حتى اوعز اليه فؤاد باشا بوجوب الانقطاع عن السياسة . فطلب كرم التحقيق فيما جرى ولكن المفوض السلطاني أمر بحجزه في احدى ثكنات بيروت .

المتصرف في الكوره والشمال

وقام داود باشا من البترون الى الكورة فشمالي لبنان وأصغى الى شكاوي الاهلين . وقصد زغرتا نفسها وحلّ ضيفاً على مخائيل كرم وعينه عاملاً على ناحية زغرتا وتوابعها . ونصّب حبيب الباس ضابطاً على الضابطة المحلية . وجاء البطريرك بولس مسعد ونزل في دار يوسف كرم . وزاره الباشا . وفي اثناء الزيارة سمع الاثنان الكبيران « الحوربة » في اطراف البلدة . فأمر الباشا باسكاتها وأطلّ والبطريرك لتهدئتها . ولكن أحد المتظاهرين أطلق قرابينة عليهما فتركا الغوغاء ودخلا . وفي الغد عاد البطريرك الى مقره والمتصرف الى مركز حكمه .

المطران بطرس يزور كرماً في الثكنة

ولدى وصول المتصرف الى بتدين أوعز الى المطران بطرس البستاني ان يتفقد زعيم الشمال في الثكنة ويحثه على قبول الوظيفة في الحكومة الجديدة . ففعل ولكن كرماً أصرّ على المحاكمة القانونية قبل البحث في الوظيفة . وكتب الى المتصرف انه مقيم على احترامه ان في لبنان او في الآستانة . وكتب كرم من سجنه ايضاً الى فؤاد باشا ومندوبي الدول مطالباً باجراء تحقيق فيما نسب اليه ولكنهم لم يفعلوا لاعتقادهم ان ما جرى في الشمال انما نشأ عن معارضة كرم للترتيبات الجديدة لا لقلة ملاءمة هذه الترتيبات لاحوال البلاد . ووافقوا على ابعاده بدون محاكمة . ووصل الى مسامع كرم وهو لا يزال في السجن في بيروت ان المطران طوبيا عون والمطران بطرس البستاني تكدرا جداً عندما سمعا بخبر ابعاده . فكتب اليهما كرم يقول « لقد بلغني استياؤكم من صدور الامر بابعادي الى الآستانة وكنت اظن ان ذلك يسركم ولا سيما وانه صادر عن المشيئة الالهية . وهو سبحانه موجود في كل مكان . وغاية رجائي الا يتكدر خاطركم لهذا الخصوص » .

هذا واننا لم نجد ما يبرر قول يوسف المعلوف في « خزانة الايام » من أن فؤاد

باشا وعد كرماً بولاية الجبل شرط تنازله عن حماية فرنسة . وهو قول مستغرب غير مقبول لا يرتكز الى شهادة مقبولة .

يوسف كرم في الآستانة

وأبحر كرم الى الآستانة برفقة فؤاد باشا وعلى متن بارجة عثمانية وذلك في أواخر السنة ١٨٦١ . ولدى وصوله اليها واتصاله برجالاتها لمس اهتماماً بشخصه وعطفاً على قضيته . ورغب بعضهم اليه ان ينسى ما مضى ويشغل مركزاً في الدولة . فاعتذر لعدم كفاءته . وبعد فترة وجيزة تمكن من مغادرة الآستانة الى مصر بتوسط الحكومة الفرنسية . فهبط وادي النيل في صيف السنة ١٨٦٢ حاملاً تذكرة مرور سلطانية ورسالة توصية من السلطان الى العزيز . وأقام كرم في مصر سنة وبضعة اشهر ينتظر انتهاء دورة داود باشـا الاولى ليعود الى المطالبة بحاكمية لبنان والسعي لنيلها بشتى الاساليب .

داود يستهوي

وقام داود يستثمر الظرف فطاف البلاد وخالط الاهلين ووقف على رغائبهم . وكان قد اغدق عليه ابناء ملته في الآستانة بالوف الليرات لما كانوا يعلقون على استقلال لبنان من آمال كملجأ لجميع المضطهدين من عناصر الدولة فنثر داود الذهب اينما حل في لبنان حتى لُقّب ابا الذهب . ولكن بعض موارنة الشمال ظلوا ناقمين عليه . ومما فعلوه من هذا القبيل انهم اغتنموا فرصة وجود بعض افراد الاسرة البريطانية المالكة في الارز فشكوا داود والتمسوا اعادة كرم .

وكانت حديقة الاخبار البيروتية تؤيد داود وتقبح موقف كرم . فاضطر زعيم الشمال ان يرد عليها برسالة خاصة طبعها بالاسكندرية في منتصف تموز من السنة ١٨٦٣ .

وعندما اوشكت دورة المتصرف الاولى في الحكم ان تنتهي واقترب موعد اعادة النظر في هل يكون الحاكم لبنانياً ام غير لبناني رأى كرم ان مصلحته تقضي بان يكون اقرب الى دار السعادة من الاسكندرية والرشيد . فغادر مصر في اوائل السنة ١٨٦٤ الى قرية برنابا بالقرب من ازمير . وفي السادس عشر من آذار من هذه السنة نشر كرم رسالة ثانية اودعها ردوداً اخرى على حديقة الاخبار . واراد ان يبحر في صيف السنة نفسها الى الآستانة للاجتماع بسفير فرنسة ولكن قنصل فرنسة في ازمير اعترضه في ذلك مؤكداً ان السفير في رخصة قانونية . ومنعه عن السفر الى باريز وأوجب عليه

قبول وظيفة في حكومة داود باشا ان هو اراد العودة الى لبنان .
وهنا نزل الى الميدان لبناني آخر اشتهر بعدائه لامراء لبنان وامراء الكنيسة المارونية هو فارس الشدياق اخو طنوس واسعد وصاحب كتاب الساق على الساق . وكانت الصدارة العظمى قد استقدمته الى الآستانة في السنة ١٨٥٧ وعهدت اليه تصحيح مطبوعاتها العربية . ففعل وباشر في السنة ١٨٦٠ في اصدار جريدته الشهيرة الجوائب . وعند اشتداد الازمة بين المتصرف وبين كرم نشر مقالاً في جريدته أشار فيه الى اضطراب الحال في لبنان وخلوه من الراحة الحقيقية مبيناً ان لا نفوذ لحكومة المتصرف الا في الجنوب « حيثما تجد الاهالي قد خاف كل منهم الآخر وانحطت قوته من جراء الحوادث السابقة » . الى ان يقول ان لا حكومة في الشمال بل كل مستقل بنفسه وان المتصرف لم يراعِ حقوق من اذعن الى حكمه في الجنوب بل ضاعف الضرائب من واحد الى خمسة . وعندما « استدعى احد اعضاء مجلس الادارة من دولة المتصرف اجراء قاعدة العدالة كان الجواب تعزيراً وشتماً وتهديداً بالعزل » . ولدى اطلاع المجلس الاداري على هذا المقال استجوب حسن عيد عضو الموارنة رسمياً ما اذا كان حدث مثل هذا بينه وبين المتصرف فأجاب رسمياً ان لا صحة لما ورد في الجوائب . فقر قرار المجلس بوجوب التعرف الى شخصية صاحب المقال واحالته الى المحاكمة مع صاحب الجوائب . وأضاف المجلس في قراره ان سياسة الجبل جارية بموجب القانون والشرع « وان المغايرات السابقة كالقتل والمقاتلات واستيلاء القوي على ملك الضعيف وعدم راحة الاهلين قد اضحت لا اثر ولا عين » وان المتصرف لم يتدخل في توزيع الضرائب او غيره من متعلقات المجالس .

بروتوكول السنة ١٨٦٤

وقرب موعد اعادة النظر في نظام لبنان الاساسي . فأشار سفراء الدول المتحابة باستدعاء داود باشا الى الآستانة للتداول معه فيما يجب اقراره من بروتوكول السنة ١٨٦١ وما يجب تعديله او تغييره او حذفه . فأمّ داود الآستانة ولفت نظر السفراء الى ما جاء في البروتوكول عن مجلس وكلاء الطوائف والمجالس الادارية المحلية مبيناً ان وجود هذه المجالس غذّى النعرة الطائفية في البلاد وعرقل سير الاعمال الادارية واقترح الغاءها . فأقره السفراء على رغبته . والغيت الفقرة الاخيرة من المادة الاولى من بروتوكول السنة ١٨٦١ والمادة الرابعة باكملها .

ورأى المتصرف ان تقسيم الاقضية الى نواحٍ لا يكون فيها الاجماعات موحدة الجنس وتقسيم النواحي الى وحدات متآلفة يكون بين سكانها خمس مئة رجل على الأقل ويرأس كل وحدة منها شيخ ينتخبه الاهلون ويكون لكل طائفة فيها كافية العدد شيخ خاص لا شأن له الا مع ابناء ملته. ورأى المتصرف ان هذا ايضاً من شأنه ان يغذي النعرة الطائفية في البلاد ويعرقل الاعمال الادارية . فألغى السفراء هذا وجعلوا لكل قرية كافية العدد شيخاً واحداً ينتخبه الاهلون من ابناء الطائفة الاكثر عدداً وينصبه المتصرف . واكّد المتصرف ان المادة السابعة من البروتوكول الاول التي قضت بان يكون في كل ناحية قاضي صلح لكل طائفة فكرة صعبة التطبيق . فهي تغذي النعرة الطائفية وتفرض ايجاد عدد كبير من القضاة يصعب توفره في لبنان . وابان المتصرف الضرر الذي يلحق بالقضاء نفسه من تعيين قضاة يجهلون القانون والقضاء . فعدّل السفراء هذه المادة ايضاً والغوا قضاة الصلح وجعلوا لمشايخ القرى بعض الصلاحيات القضائية البسيطة .

وقضت المادة الحادية عشرة بان ينتخب رؤساء الطوائف ووجهاؤها جميع اعضاء المحاكم فارتأى داود باشا تعيينهم تعييناً واقره السفراء في ذلك . ولطفوا امر الترافع امام محكمة بيروت التجارية فسمحوا في المادة التاسعة من البروتوكول الجديد بالتحكيم في المنازعات بين اللبنانيين وبين الاجانب واوجبوا على الحكومة اللبنانية وعلى قناصل الدول تنفيذ قرارات التحكيم .

ولمس داود باشا في السنوات الاولى من حكمه امتعاضاً في بعض الاوساط المارونية من المساواة في التمثيل بين جميع الطوائف في مجلس الادارة الكبير فاقترح اعادة النظر في المادة الثانية من البروتوكول الاول . ووافقه في هذا سفير فرنسة واقترح نزع الصبغة الطائفية عن دوائر الانتخاب . ولكن سفير بريطانية رأى ان مثل هذا التعديل يضمن اكثرية مارونية . فجاء التعديل بعد الاخذ والرد وباكثرية الاصوات هكذا : ينبغي ان يكون للجبل مجلس ادارة كبير مؤلف من اثني عشر عضواً اثنين مارونيين ينوبان عن قضاءي البترون وكسروان وثلاثة عن قضاء جزين احدهم ماروني والثاني درزي والثالث مسلم واربعة عن قضاء المتن احدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة وعضو واحد درزي عن قضاء الشوف وآخر من الروم عن قضاء الكورة وآخر من الروم الكاثوليك عن قضاء زحلة . فأصبح عدد الاعضاء الموارنة اربعة وعدد اعضاء الدروز ثلاثة وعدد اعضاء الروم اثنين وواحد مسلم وآخر كاثوليكي وآخر متوالي .

وسجّل المتصرف نصراً بيناً في حقل الضرائب فجعل واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونية تبقى في صندوق الجبل لحساب الخزينة . وكان الباب العالي يسعى سعياً حثيثاً لدفع هذه الواردات الى صندوق الخزينة « الجليلة » .

لمس داود مساوىء الاقطاع وتفكك السلطة في الجبل فسعى لتوحيد الادارة وتوطيد الحكم المركزي وهاله تفاقم شر النعرات الطائفية ، فألغى ما ألغى من مواد البروتوكول الاول وفقراتها . ولكنه لم يقوَ على نفوذ رجال الدين واتساع سلطتهم فأبقى على استقلالهم القضائي واكتفى بمنعهم عن اجارة اللاجئين ممن تتعقبهم الحكومة .

واثار سفير فرنسة من جديد قضية تبعية الحاكم العام فبيّن افضلية اللبناني في هذا المنصب على سواه من رعايا السلطان ولكنه لقي مقاومة شديدة من زميله البريطاني ولم يُعره سفير روسية ما توخاه من المعونة منه . فبقيت المادة الاولى من البروتوكول الاول على ما كانت عليه . وجدد تعيين داود باشا لخمس سنوات اخرى ابتداءً من التاسع من حزيران سنة ١٨٦٤ وذلك ببروتوكول خاص :

« ان الباب العالي بالاتفاق مع ممثلي النمسة وفرنسة وبريطانية العظمى وبروسية وروسية ابقى كل مندرجات القرار الممضي في الآستانة في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ ومثلها مندرجات المادة الاضافية الموضوعة في التاريخ نفسه . ثم يعلن ذو الفخامة عالي باشا أن الباب العالي يؤيد متصرف لبنان الحالي في منصبه لمدة خمس سنوات ايضاً ابتداءً من ٩ حزيران سنة ١٨٦٤ – عن الباب العالي في ٦ ايلول سنة ١٨٦٤ » .

وكان قد توفي السلطان عبد المجيد في الخامس والعشرين من حزيران سنة ١٨٦١ وخلفه السلطان الغازي عبد العزيز فتبنى اقتراحات الدول المتحابة ونص بروتوكولها

الثاني وأصدر فرماناً بها في السادس من ايلول سنة ١٨٦٤ هذا تعريبه :

لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنين للنظام الذي وضع وللقرار الذي تقدم صدوره بخصوص ادارة جبل لبنان تحصيلاً لاسباب رفاه وأمن الرعية التابعين دولتي العلية القاطنين والمستوطنين الجبل المذكور وكان من المقرر انه عند انقضاء المدة المعينة يعاد التذاكر في مقتضى الحال . وقد انقضت الآن . فقد أُجري التعديل والتنقيح في بعض المواد الواردة في لائحة هذا النظام . وعند عرضها على جناب سلطنتي الاشرف والاستئذان بها تعلقت ارادتي السنية الشاهانية باجراء مقتضاها على هذا الوجه وبموجبها لزم اعلان النظام المذكور على المنوال الآتي بيانه :

المادة الاولى : يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي تنصبه الدولة العلية ويكون مرجعه الباب العالي رأساً . وهو محتمل العزل بمعنى انه لا يستمر في منصبه ما دام حياً . ويكون على عهدته القيام بجميع خطط الادارة الاجرائية متوفراً على حفظ الراحة والنظام في انحاء الجبل كلها وان يحصل منها التكاليف . وبحسب الرخصة التي ينالها عن لدن الحضرة الشاهانية ينصب تحت عهدته مأموري الادارة المحلية ويقلد الحكام القضاء ويعقد المجلس الكبير ويتولى رئاسته . وينفذ الاعلامات القانونية الصادرة من المحاكم الخارجة عن القيود التي ستذكر في المادة الثامنة .

المادة الثانية : ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلف من اثني عشر عضواً اثنين مارونيين ينوبان عن قضاءي كسروان وثلاثة من قضاء جزين احدهم ماروني والثاني درزي والثالث مسلم واربعة من قضاء المتن أحدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة وعضو واحد درزي من قضاء الشوف وآخر من الروم ينوب عن قضاء الكورة وآخر من الروم الكاثوليك عن قضاء زحلة . ومجلس الادارة هذا يكون مأموراً بتوزيع التكاليف والبحث في ادارة واردات الجبل ومصاريفه وبيان آرائه بوجه المشورة فيما يعرضه عليه المتصرف من المسائل .

المادة الثالثة : ينبغي ان ينقسم جبل لبنان الى سبعة قضاوات : الاول يشمل على الكورة من الجهة التحتية والاراضي المجاورة الآهلة باقوام على مذهب الروم الا ان قصبة القلمون التي على ساحل البحر ومعظم سكانها من اهل الاسلام فهي مستثناة من ذلك . والثاني يشتمل من شمال لبنان على جبة بشري والزاوية وبلاد البترون . والثالث يشتمل من الشمال المذكور على بلاد جبيل وجبة المنيطرة وبلاد الفتوح وكسروان الاصلي حتى نهر الكلب . والرابع يشتمل على زحلة وضواحيها . والخامس يشمل المتن وساحل النصارى واراضي القاطع وصليما . والسادس يبتدىء من جنوب طريق الشام حتى جزين . والسابع يشمل جزين واقليم التفاح . وفي كل من هذه القضاوات السبعة المار ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور ادارة منتخباً من

ابناء المذهب الغالبين هناك عداً في النفوس او اهمية في الاملاك والارضين الجارية بتصرفهم .

المادة الرابعة : يجب ان تنقسم القضاوات الى نواحٍ على نمط قريب المشاكلة لما ذكر من اقسام القضاوات فيلي كل ناحية مأمور ينصبه المتصرف بناءً على انهاء مدير القضاء . وان يكون في كل قرية شيخ ينصبه المتصرف بانتخاب اهلها .

المادة الخامسة : قد تقرر أمر المساواة بين الجميع في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائدة لاعيان البلاد خصوصاً ذوي المقاطعات .

المادة السادسة : يكون في الجبل ثلاث محاكم ذات درجة اولى يقوم كل منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ومعهما ستة وكلاء دعاوى رسميين ينتخبهم الطوائف . ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محاكمة كبير يتألف من ستة حكام ينتخبهم المتصرف ويعينهم من الطوائف الست وهي المسلمون السنيون والمتاولة والموارنة والدروز والروم والروم الكاثوليك . ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوى الرسميين لكل طائفة وكيل معيّن . واذا وقع دعوى لاحد المتمذهبين بمذهب البروتستانت او اليهود أُضيف الى المجلس حاكم ووكيل دعاوى رسمي من أهل كلا المذهبين علاوة على الاثني عشر عضواً المار ذكرهم . اما رئاسة هذه المحكمة الكبيرة فيتولاها مأمور مخصوص ينصبه المتصرف . واذا اقتضت حاجات البلاد مزيداً فللمتصرفين ان يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى . ولاجراء الحكومة مجراها المتسق لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الحرية بان تكون فيها هذه المحاكم .

المادة السابعة : ان لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوى التي لا يتجاوز قدرها متّي غرش حكماً غير مستأنف . واما الدعاوى المتجاوز قدرها متّي الغرش فترى في مجالس المحاكمة ذات الدرجة الاولى . على انه لو عرض امور مختلطة وهي الدعاوى الواقعة بين اثنين مختلفي المذهب وأبي ايهما كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونه على مذهب المدعى عليه فتحال وان قلّ قدرها الى محاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوى ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بمجموع آراء الاعضاء الا ان للمدعي والمدعى عليه المتحدي المذهب ان يردا الحاكم لاختلاف مذهبه . غير ان الحكام المردودين من هذا الوجه لا بد من حضورهم المحاكمة .

المادة الثامنة : تقتضي المحاكمة في الدعاوى الجزائية ان تكون على ثلاثة وجوه : وهي ان يرى دعوى القباحة شيوخ القرى المتقلدون خطة حاكم الصلح . وان الجنحة والجرائم تراها المحاكم ذات الدرجة الاولى . وان الجنايات تجري محاكمتها في مجلس المحاكمة الكبير . واعلامات الحكم الواجب صدورها من هذا المجلس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ ما لم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها العادة في سائر الممالك المحروسة

الشاهانية .

المادة التاسعة : ينبغي ان يرى في مجلس تجارة بيروت كل الدعاوى التجارية حتى ان الدعاوى العادية الواقعة بين واحد من ذوي التابعية الاجنبية او احد الداخلين في حماية اجنبية وبين آخر من أهل الجبل ترى في المجلس المذكور . على ان المنازعات البادية بين اللبنانيين والاجنبيين متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن تراض من المتنازعين فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتحابة الفخيمة ان ينفذوا اعلام المحكمين . وان تعذر تراضي الخصمين على التحكيم في الدعوى واحيلت الى محكمة بيروت فتجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواه بحسب التعريفة التي وضعها متصرف جبل لبنان وقناصل الدول جملة واتفاقاً وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي . ومن المقرر انه يجب في الصك الحاوي تراضي المتنازعين على اتخاذ محكمين ان ينظماه ويمضياه وفقاً لاصوله وان يسجلاه في محكمة بيروت وفي مجلس المحاكمة الكبير في لبنان .

المادة العاشرة : ان الحكام ينصبهم المتصرفون بخلاف اعضاء مجلس الادارة فانهم ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى كما ان انتخاب الشيخ يكون بمعرفة اهل القرية . ثم ان اعضاء مجلس الادارة يجدد انتخاب ثلثهم كل سنتين ويجوز تكرير انتخاب من انقطعت مدة عضويتهم .

المادة الحادية عشرة : يجب ان يكون الحكام بأجمعهم موظفين . وان أقدم احدهم على الاتكاب « الرشوة » او تبين بالتحقيق انه آت ما لا يليق بصفة مأموريته فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضاً للتأديب على قدر قباحته .

المادة الثانية عشرة : يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ان تكون المرافعة علنية وان يعهد بضبط الدعوى الى كاتب مخصوص . وما عدا ذلك فحيث ان هذا الكاتب يكون مأموراً باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغ وانتقال « بيع » الاموال الثابتة « العقار » فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها ما لم تقيد بحسب اصولها في السجل المذكور .

المادة الثالثة عشرة : ان المتهمين من اهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير ألوية فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيه الجرم . وكذا مرتكبو الجرم من اهالي سائر الالوية داخل نطاق جبل لبنان ينبغي ان تجري محاكمتهم والحكم عليهم بدعاوى جرائمهم في جبل لبنان . وبناء على ذلك فان المجرمين في جبل لبنان سواء كانوا من اهاليه الوطنيين او من نزلائه المعدودين من اهل ديار اخرى اذا فروا الى لواء آخر فكما ان على ضابطه ان يمسكهم بمقتضى الاشعار الوارد من قبل ادارة جبل لبنان ويسلمهم اليها كذلك يلزم ادارة الجبل ان تلقي القبض على الفارين اليه من

المجرمين في احد الالوية لبنانيين كانوا او غير لبنانيين وتدفعهم الى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطه . ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين الى المحاكم المنوطة بها دعاويهم او الذين يجيزون تأخيرات لا يمكن اثبات انبنائها على اسباب شرعية فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون ويخفون أمثـال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها بين ادارة جبل لبنان والالوية المجاورة لها تكون كالمواصلات الجارية والمتخذة دستوراً للعمل بين باقي السناجق في ممالك الدولة العلية .

المادة الرابعة عشرة : ان سبيل المتصرف الى اقرار حفظ الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العادية انما يكون بمعرفة فرقة ضبطية من الاهلين بحسبان سبعة أنفار تخميناً عن كل الف من النفوس . ويجب نسخ سلك « الحوالية » وابطال نزول الضبطية على البيوت والاعتياض عن ذلك باسباب اكراهية كاستياق المحكوم عليه الى السجن . فبناءً على ذلك يمنع مأمورو الضبطية بقيد التأديبات الشديدة ان يصادروا اهل البلاد بشيء من الاجرة نقداً كان او عيناً . ويجعل للضبطية ملبس رسمي او ازياء مميزة في خدمتهم . وان تبقى طرقات بيروت والشام وصيدا وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانية الى ان يصدق المتصرف على ان جند الضبطية صاروا أكفاء لاتمـام جميع الوظائف المحمولة عليهم في الازمنة العاديـة . وهذا العسكر يكون لدى المتصرف وبادارته . وللمتصرف ان يطلب من الحكومة العسكرية في سورية الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال الغير العادية ان دعت الضرورة وبعد ان يستشير مجلس الادارة الكبير . ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها . وهو اي الضابط المومى اليه وان كان مختاراً ومستقلاً بامور العسكر المحضة كاجراء الحركات والنظامات الجندية الا ان عليه مدة وجوده في الجبل ان يلزم معية المتصرف ويجري العمل تحت عهدته . وفي حال اعلان المتصرف لرئيس العسكر وافادته رسمياً ان قد زال السبب الذي من اجله ورد العسكر الى الجبل يجب عليه اخراجه منه .

المادة الخامسة عشرة : ان الدولة العلية تحافظ على حقها المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلاثة آلاف وخمس مئة كيس وذلك على يد المتصرف . على انـه يجوز ابلاغ هذا القدر الى سبعة آلاف كيس عند الامكان بحيث ان المال المتحصل يخصص بادىء بدءٍ لادارة الجبل ونفقات منافعه العمومية . فان فضل منه شيءٌ رُدَّ الفاضل على الخزينة . وان اقتضت شدة الضرورة الى تحسين مجرى الادارة مزيداً على التكاليف المعينة فيرجع في تسوية المزيد الى مصاريف الخزينة الجليلة .

اما واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونية فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي ادخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة . على ان السلطنة السنية لا تقوم باداء مصاريف المنشآت العمومية وسائر النفقات غير العادية ما لم يتقدم قبولها وتصديقها عليها .

المادة السادسة عشرة : يجب تعجيل الشروع في احصاء نفوس اهل الجبل محلاً ومحلاً وملةً وملة ومسح جميع الاراضي المزروعة ونظم خريطة مساحتها .

المادة السابعة عشرة : كل الدعاوى الكائنة بين افراد رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون به او المتهم تابعين للحكومة الرهبانية الا ان تطلب الاسقفيات احالة ذلك الى مجلس الدعاوى العادية .

المادة الثامنة عشرة : يمتنع في عموم اماكن الرهبان مطلقاً اجارة اللاجئين اليها ممن تطلبهم وتتعقبهم الحكومة رهباناً كانوا او من عوام الناس .

ان الثماني عشرة مادة المسرودة آنفاً هي النظامات الاساسية لجبل لبنان يجب اتخاذها دستوراً للعمل الى ما شاء الله تعالى . ومن مقتضى ارادتي القاطعة السلطانية ان يتوفر الجميع على كمال الاعتناء والدقة في اجرائها وتنفيذها حرفاً فحرفاً . والحذر كل الحذر من مخالفتها . وايذاناً بذلك صدر فرماني هذا العالي الشان وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة احدى وثمانين ومايتين والف .

ثورة كرم ١٨٦٥-١٨٦٧

العودة الى لبنان

وأكد وزير خارجية فرنسة الى يوسف بك كرم بواسطة قنصل فرنسة في أزمير تجديد الولاية لداود باشا وتمّ التجديد فعلاً فثار ثائر كرم واستشاط غيظاً . وكان قد أكد هو بدوره لقنصل فرنسة في بيروت في رسالة أرسلها اليه من ازمير في الثامن والعشرين من ايلول سنة ١٨٦٤ انه يخضع للحكومة التي اقامتها اوروبة في لبنان ويفي المتصرف حقه من الطاعة وانه مستعد ان يُقسم بذلك وباستعداده لخدمة سياسة فرنسة امام القنصل نفسه . وكان ايضاً قد سئم المنفى وخشي ان يصبح « ضحية الحاجة » فيه فقام مسرعاً الى طرابلس فبلغها في الثاني عشر من تشرين الثاني من السنة ١٨٦٤ ومنها سار خفيةً الى زغرتا فدخلها ليلاً وذهب تواً الى الكنيسة . وشاع خبر قدومه فتكاثر الناس وأخرجوه من الكنيسة محمولاً على الاكف وما زالوا حتى دخلوا به باب داره . وملأ صوت البارود الفضاء كل ذلك الليل حتى الصباح . وطلب يوسف مهلةً يرقد فيها فأعطيت له . ونزل بعض اصدقائه الى طرابلس في طلب امتعته من المركب . وترددت الحكومة في تسليمها « ولكنها خافت فسلمتها » .

وذاع وصول كرم بين مريديه واتباعه من ابناء الشمال فتواردوا عليه من كل صوب . « فخرجنا واذ برجال اهدن قد اطلوا وهم يزيدون على خمس مئةٍ . وضج البارود ودام اطلاق النار حتى خيّم الدخان مثل الضباب » . وأصبح وجود البيك كافياً لتنشيط المعارضة وتشديد المطالبة بتأخير جمع الاموال الاميرية المتأخرة وبتوقيف اعمال المسح وعد النفوس .

قنصل فرنسة

واهتم المسيو اوتري قنصل فرنسة للامر وأبلغ اساقفة الموارنة « ان حكومته تنذر بالنقمة كل من يسعى في تضليل الرأي العام وحمل القوم على عصيان الحكومة . وانه يجب الا ينتظر اللبنانيون اقل حماية من فرنسة ان هم خالفوا مبادىء الاستقامة

والصواب » . وفي السادس من شباط من السنة نفسها دعا المتصرف أساقفة الموارنة الى اجتماع في دير طاميش ألقى عليهم فيه تبعة عصيان كرم . ووافق هذا ان الحكومة الفرنسية استبدلت قنصلها في بيروت المسيو اوتري ببرنار ديزسّار فظن الموارنة انها عزلت اوتري لانه خالف رغائب الموارنة . ولكن القنصل الجديد أيد المتصرف وصوب اعماله . فأثر ذلك في موقف الاساقفة من كرم وجعلهم يبدأون التقرب من المتصرف والابتعاد عن كرم . واجتمع البطريرك بولس مسعد بكرم وأشار عليه بالتفاهم مع داود فكتب كرم الى قنصل فرنسة يؤكد اعترافه بالوضع الجديد واستعداده للتعاون مع المتصرف شرط الا يفرض عليه قبول وظيفة .

بين المتصرف وكرم

فكتب الباشا بهذه المناسبة كتاباً الى كرم هذا نصه : افتخار الاماجد والاكارم قبوجي باشي دركاه عالي رفعتلو يوسف بك كرم زيد مجده المنهى اليكم انه بتاريخه تقدم لدينا معروض من جناب السادات المطران يوسف جعجع والمطران يوسف المريض النائب البطريركي والمطران يوحنا الحاج في طيه الجواب الوارد لهم منكم عما خاطبوكم به عن أمرنا بخصوص قضيتكم . وحيث من معروضكم لنا وجوابكم لهم قد اتضح انكم منضمون في حيز دائرة الخضوع لقوانين الدولة العلية والاطاعة لأوامر الحكومة. والمومى اليهم يلتمسون منا الالتفات نحوكم بحسب المراعاة وبما قد رؤي لدينا التماسهم هذا ومضمون تقريركم هما مطابقان للمشرب العالي فبحسب المأذونية والرخصة السنية نطمنكم ونؤمنكم تطميناً وتأميناً تامين لتكونوا مطمئني البال متعاطين اشغالكم واعمالكم اينما وجدتم . وما دمتم في حيز الخضوع والاطاعة ستكونون مظهراً حسناً لمزيد التعطفات السنية والالتفات من طرفنا لنحوكم . ولاشعاركم بذلك وللاعلان بما ذكر اقتضى اصدار بيورولدينا هذا من ديوان متصرفية جبل لبنان لاجل العمل بموجبه — ٣ ذي القعدة ١٢٨١ و ١٧ اذار ١٨٦٥ .

داود باشا في الاستانة

وكأني بالمتصرف يُرقد يوسف ريثما يُعد العدة الكافية لضربه واستعادة هيبة الحكم . فاننا نراه يقلع الى الآستانة بعد اسابيع معدودة فيعود منها متمرداً مستفرساً . ولكننا نعود فنقول لا يجوز البت في شيء من هذا لخلو المراجع الاولية منه ولا سيما واوراق الباب العالي لا تزال مطوية لا يمكن الوصول اليها .

وانقسم الموارنة على انفسهم وشطرتهم السياسة شطرين فناهض بعضهم كرماً وأيد البعض الآخر داود . واشتدت النكاية المحلية وكثرت اعمال القهر والاغضاب . فقام بنو البويز في صربا بالقرب من جونيه وهم من أنصار العهد ينكون بني خضرا اتباع كرم . واشتد الخصام بين الفريقين بعد سفر المتصرف الى الآستانة في حزيران من السنة ١٨٦٥ . فشكا بنو خضرا أمرهم الى زعيمهم كرم فارسل ثمانية من رجاله في اوائل تموز يشدون ازرهم . وما ان وصل هؤلاء الى صربا حتى لجأ الفريقان الى العنف والقتال . واستصرخ بنو بويز اقاربهم واعوانهم فاتاهم جمهور من القرى المجاورة وتحصن رجال « البيك » في احد منازل ابي خضرا وارسلوا يخبرون سيدهم بما جرى . فهب البيك بمئتي فارس لنجدتهم وأخذ الحضراويين معه الى اهدن « لقضاء فصل الصيف فيها » .

وكثرت اعمال النهب والسلب في طول البلاد وعرضها فشكا مدير قضاء زحلة تصرفات « الجهلاء » من ابنائها وقلة ادبهم في علاقاتهم مع بعض من حضر اليها من الخارج وذلك بمناسبة التحقيق الذي قام به بين حمزة حمادة وفارس وشرف الدين وسيف الدين حاطوم من كفرسلوان من جهة وبين خليل يوسف نعوم ويوسف النمير من زحلة من جهة اخرى . وفي صيف هذه السنة نفسها ١٨٦٥ هجم الفان من ابناء زحلة بقيادة حنا ابو خاطر ويوسف دحروج ونقولا زلاقط وعبدالله الجريصاتي على المعلقة فضربوا وجرحوا ونهبوا . واضطر والي دمشق ان يكتب بذلك الى متصرف لبنان لصيانة الامن واحقاق الحق . ونشب خلاف عائلي في الوقت نفسه في البقاع الشمالي بين بيت عَلَوْ وبين بيت الجاموس ادى الى نزوح بيت علو الى قرية البويضة التابعة لسنجق حمص ووصل الى الهرمل مئة خيال من العسكر الشاهاني بقيادة عبد القادر بك يطلبون الشيخ محسن حمادة عامل ناحية الهرمل . واشتعلت نار الفتنة في بشرّي بين اهاليها فذهب ضحية لها عدد من القتلى والجرحى كما لجأت شرذمة من قاطعي الطرق الى ممر المسيلحة بين طرابلس والبترون ينهبون المارة « ويلقون الدهشة والرعب في قلوبهم » . وهكذا دواليك مما لا مجال لذكره .

مجلس الادارة

وعاد المتصرف من الآستانة في خريف السنة ١٨٦٥ على رأس عدد لا يستهان به من الدراغون والقوزاق وعلى ظهر باخرة حربية أُطلق عليها اسم لبنان فشرّف مجلس الادارة الكبير وأمر بنقل مركز الحكومة الى جونيه « لتسوية اشغال تلك الجهات

وادخالها في طاعة الحكومة » . وطلب الى الاعضاء ان يدونوا رسمياً « اخبار الحوادث التي جرت منذ تشريفه مركز المتصرفية » حتى اواخر السنة ١٨٦٥ . فقرر المجلس في جلسة تاريخية في التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٦٦ حساباً شرقياً ما يلي :

اولاً : انه حينما شرف دولة المتصرف الى مركز المتصرفية بدأ بترتيب ادارة المتصرفية فنصّب المديرين وعين يوسف بك كرم مديراً على قضاء جزين . وبعد ان اظهر رضاه بذلك وقبل هذه الوظيفة عاد فاستعفى منها وانصرف الى محله . والذي لحظ من استعفائه انه شق عليه تنصيب الامير مجيد شهاب مديراً على قضاءي كسروان ولدى وصوله الى وطنه حزّب وجوه مقاطعة الجبة وجوارها وجعلهم يحرروا له حجة وكالة عن جمهورهم واظهروا عدم قبولهم الامير المومى اليه وطردوا بعض اتباعه . واذ بلغ ذلك دولة المتصرف نهض من مركزه آتياً الى قضاء كسروان لاصلاح الاحوال . واذ وصل الى اسكلة البترون حضر لناديه بعض وجوه قرية زغرتا معتذرين عما كانوا تهموا به من طرد احد اتباع المدير وشاهدوا من لدن دولة المتصرف العفو والتلطيف والترفق باحوالهم . وفي اثناء ذلك التمس يوسف بك كرم القدوم لنادي دولته فصارت له الرخصة في ذلك . لكن حيث كان تسامع خبر استعداده للقدوم بجماهير غفيرة بحجة التشكي من المدير فابلغ عن امر دولته بان يحضر بجمهور قليل لحد خمسين نفراً . فما كان منه الا ان دخل اسكلة البترون محل وجود دولته بجمهور بلغ تقريباً الف نفر . ومع ذلك فانه صار الاغماض من دولته واقتبله وسمع تشكياته مع تشكيات الجمهور . وعندما كانت حاصلة المداولة في مداواة الامور التي كان يقصد تعقيدها البك المرقوم تعنتاً لاجل عزل المدير وفد اليه امر شريف من لدن حضرة صاحب مقام الصدارة العظمى ومأمورية فوق العادة دولتلو فواد باشا المعظم يأمره بالحضور لاعتابه في بيروت . فحضر وفيما بعد وقف دولة المتصرف على بواطن رؤساء الجمهور الذي كان مصحوباً معه وعلى مضمون حجة الوكالة وأعلن العفو عن الجميع واعطا الترتيب اللازم من تنصيب عمال وخلافه في مقاطعة الجبة . واذ كان مشرفاً قرية زغرتا ظهر من بعض اصحاب يوسف بك اعمالاً تغاير اداب الرعية وتمس ناموس الحكومة . ومع ذلك ما زال دولته مترفقاً باحوالهم . لكن حيث تحقق لدى دولة فواد باشا المعظم وسعادة وكلاء الدول الفخيمة ان هذه الاراجيف ناشئة عن افكار وحركات يوسف بك فقد صدر امره بنفيه .

ثانياً : ثم وزعت الاموال الاميرية على جميع اقضية المتصرفية بمعرفة مجلس الادارة الكبير بموجب مضبطة وذلك عن سنة ١٢٧٧ ثلاثة آلاف وخمس مئة كيس . ومن الثامنة والسبعين وصاعداً بحساب سبعة آلاف كيس . فدفعت جميع الاقضية

ما طلب منها بموجب التوزيع المرقوم الا قضاءي كسروان الجنوبي والشمالي . فانهم لم يوردوا ذلك حتى الآن متعللين تارة بعدم الاقتدار وتارة بانهم ليسوا ملزومين ان يدفعوا زيادة عن الثلاثة آلاف والخمس مئة كيس الا عند مساعدة الاحوال . وهكذا تقدم عرضحالات من البعض منهم لاعتاب دولته بهذه التعليات وخلافها واحيلت لمجلس الادارة الكبير وصار عليها الرد بمضبطة العاشر من ذي القعدة والسادس عشر من نيسان سنة ١٢٧٩ وقد تضمنت الحكم عليهم بوجوب الدفع بحساب السبعة آلاف كيس مثل باقي اقضية الجبل . وحتى الآن لم يساووا بقية الاقضية بذلك مع ان دولة المتصرف اجرى كامل الوسايل الحكمية بهذا الشأن ولم يصر فايدة .

ثالثاً : انه عندما شرف دولة المتصرف قضاء كسروان الجنوبي للزيارة وافتقاد اجوال الاهالي وحلّ ركابه السعيد بقرية غزير فبحضور وجوه الاهالي صارت المذاكرة بخصوص اصلاح الطريق النافذة من غزير الى جونيه . وبحسب الالتماس صار الالتفات من لدن دولته لمساعدة احوالهم بتصليح الطريق المذكور بنوع تجري عليه الكروسة . وقد وجّه مهندسين رتبوا محلّ اجراءات الطريق وقايسوا مقدارها فبلغ نحو خمسة آلاف متر . فبعد ذلك صدر امره باستحضار مجلس القضاء مع مامور من طرفه الى قرية غزير وعملوا تعديل كلفة الطريق وتقسيمها على عدد نفوس اهالي قرايا غزير وجوارها المنتفعين من هذه الطريق . وتبين ذلك كله بموجب دفتر مذيل بمضبطة من مجلس القضاء المذكور موضح بها ان كلما يحتاج الى دفع نقود اي اجرة معلمين وادوات وخلافها تدفع من طرف صندوق المتصرفية وان الاهالي لا تتكلف سوى لتقديم الفعلة الذين يشتغلون بايديهم كما تبين ذلك بالدفتر المذكور الذي تصادق عليه من مجلس الادارة الكبير وبناء عليه صدر امر دولة المتصرف باستحضار الادوات اللازمة مع المعلمين وتعيين مناظرين لمباشرة الشغل . واذ ذاك وقع فساد من البعض منهم وبلبلوا الجمهور وغيروا عزمهم عن اصلاح الطريق . فعندها ارسل دولته ماموراً احد اعضاء مجلس الادارة لينظر في ذلك . وبحضور العضو المرقوم اصلح الاختلاف الذي كان موجوداً بين الاهالي على ذلك . وتبين الذي خصّ غزير عن اجرة الفعلة بوجه مقطوع اثني عشر الف وخمسماية غرش وصار توزيعها بحضوره والبعض دفعوا ما تخصص . وبعد انصراف هذا العضو تجدد الفساد اذ كان المدير حاضراً بالقرية وتجمهر الجهلا وطردوا الناظر والمباشرين وكسروا ابواب بيوت بعض الذين كانوا قد دفعوا المطلوب منهم . واظهروا كامل انواع العصاوة على امر دولته . وحيث تقدم بذلك معروضاً من مدير القضا لدولته واحيل لمجلس الادارة فبني عليه مضبطة تاريخ ٤ ربيع الاول سنة ١٢٧٩ تتضمن وجوب استعمال القوة والسطوة بسوق طابور عسكر شاهاني مع فرقة من الضبطية الاهلية استناداً الى

اساسات النظامات السنية لاجل تربية العاصيين واجرا ايجابات المصلحة . فمن شفقة ومرحمة دولته أرسل كتخدايه وبمعيته فرقة ضبطية لبنانية فقط . فعندما وصل المومى اليه الى عقبة غزير قابلوه باشهار العصيان وطلق البارود فعاد مرتجعاً الى جونيه . وفي اليوم الثاني حضروا ايضاً وكبسوه في قوناقه وارشقوه بالحجارة وضربوا الضبطية الذين كانوا معه مع جميعهم .

رابعاً : انه بحسب النظامات السنية بمسح كامل اراضي الجبل وعدد نفوس اهاليه فقد جرى ذلك في كامل القضاوات الجنوبية الا قضاءي كسروان وان يكن صار مسح بعض قرايا كسروان الجنوبي فقد التزم مجلس الادارة لابطالها حيث اهالي القضاء المرقوم لم يمكنوا ماموري المساحة بالحرية لان يسلكوا بموجب التعليمات العمومية المعطاة من المجلس المرقوم عما يتعلق بالمساحة وعدد النفوس .

خامساً : انه بعد ان مكث يوسف بك كرم في المنفا مدة نحو ثلاث سنوات فقد حضر الى محله من دون رخصة . وعندما بلغ مسامع دولته المتصرف ذلك قدم عرضحالاً للباب العالي استعلاماً عن ذلك فصار شرف صدور امرنامه سامي من جانب مقام الصدارة العظمى معلناً ماله الشريف تاكيد فرار البيك المرقوم وحضوره من دون رخصة وان دولة المتصرف يعمل اجتماعاً من الرؤساء الروحيين ويخاطبوا يوسف بك المذكور عما يطلب منه تقديم الخضوع للحكومة المتصرفية والتعليمات السنية ليصير العفو عن ذنوبه الماضية وعن فراره من دون رخصة والا فيتقدم الاعراض للباب العالي بما يكون لاجل تعلق الارادة السنية بما يقتضي لمجازاته . فدولة المتصرف قد اجرا كامل الوسايل الحكمية وعمل اجتماعاً مع الروساء الروحيين الذين وقتئذ اجروا النصايح اللازمة الى يوسف بك المرقوم وهو أجاب مذعناً لنصايحهم وقدم لهم تحريراً يتضمن خضوعه واطاعته لدولته وانه ما دام موجوداً في لبنان لا يخرج من اطاعة حكومته . وبناءً على هذا التحرير قدموا سيادة الروساء المومى اليهم عريضةً لدولته تطمن دولته ودولته بناءً على ما ذكر اعطى بيورلدى للمرقوم تحتوي العفو والتأمين .

سادساً : انه بمدة غياب دولته بالآستانة العلية قد حصل منازعة جزئية فيما بين عائلتي بيت البويز وبيت خضره في صربا فأرسل يوسف بك كرم بعض انفار من اتباعه من زغرتا وبوصولهم الى كسروان تصحب معهم سجعان العضيمي من غادير وأسعد رميا من غوسطا وباخوس بو غالب من عشقوت وكبسوا عايلة بيت البويز في بيوتهم ليلاً وجرحوا منهم سبعة اشخاص ونهبوا بيت احدهم يوسف بو شاهين وربطوا المذكور ومعه ثلاثة انفار من اولاد عمه وسجنوهم في بيت خضره . واذ بلغ كرم بك ان هذا العمل شق على بعض اهالي قرايا قضاء كسروان بالحال حضر

بنفسه وصحبته جمهور من الجهات الشمالية خيل ومشاة . وكان وصوله لقرية غزير بالحدو والقواص . وحوّل في بيت الخواجه يواكيم باخوس الكاين بالقرب من قوناق المدير وزار بيوت بعض اصدقائه بالمحل . ومن ثم نزل الى جونية وقرية صربا . وكان قبل وصوله حضر انفار من بعض قرايا قضاء كسروان قاصدين ضرب اتباعه واستخلاص بيت البويز المحبوسين . فمنعهم بعض المتوسطين واستخلصوا الانفار المسجونين . وعند وصول البك المرقوم قصد ان يعقد مصالحة بين الطرفين . فبيت البويز لم يجيبوا سؤاله حيث كانوا اعرضوا واقع حالهم لدى الحكومة وصار فحص الدعوى بمعرفة مجلس القضاء .

سابعاً : انه امر معلوم اياب دولة المتصرف بالحفظ والاقبال من الباب العالي دامت له المفاخر والمعالي متسربلاً بحلل المجد والافتخار وبما ناله من التعطفات والمراحم الملوكانية من الاحسانات السنية له ولعموم الجبل . ومن وقته توجهت ارادته بانه في فصل الشتا الحاضر يتخذ مركزاً موقتاً ميناء جونية لاجل تسوية اشغال تلك الجهات ودخولها بقالب مستحسن عايد لاطاعة الحكومة واستكمال وسايل راحة الاهالي . فبناءً عليه قد صدر امره لكافة مأموري المركز بان يتوجهوا بالرخصة لمحلاتهم برهة عشرة ايام التي بها يصير تدبير قوناقات وقيام عفش المركز جميعه للمحل المذكور . وقد تم ذلك عملياً . وبالوقت المعين تحركت ركابه مصحوباً بمعيته مايه وخمسين نفراً من ضبطية المركز ومايه خيال من عسكر القوزاق . وبعد تشريفه بالطاقم المحرر بيومين ثلاثة توقع حادث مع ضبطية مدير قضاء كسروان بقرية غزير ما بين الضبطية الذين من المحل والبعض من الاهالي عايلة بيت باسيل من القرية ايضاً . وبوقته صدر امره بتوجيه معتمدين . واذ تحققوا ان مبدا هذا الفساد ناشىء من الخواجه يواكيم باخوص قد استحضروه للمركز . واحتياطاً من تجديد السبب امر بوضع فرقة من ضبطية المركز ومن الخيالة القوزاق في غزير . وباقي خيالة القوزاق ترتب قوناقهم في جسر المعاملتين . ومن ثم صدر امره بطلب الاموال الاميرية من عموم محلات القضا . وقد أشهر اعلاناً رسمياً بان مبلغ السبعة آلاف كيس المطلوب من الجبل عموماً هو من تعلقات شرف صدور الارادة السامية الملوكانية التي تكرمت من مراحمها بمبلغ خمسة آلاف كيس علاوة على المبلغ المحرر لتكميل مصارفات دائرة المتصرفية . وان ذلك وجه قطامي ما عليه رد البتة . وبوقته تقدم لديه الاعراض لساناً ان ترد اهالي قضاء كسروان عن دفع المال الباقي لم يكن سوى من فقر حالهم وعدم اقتدارهم . عند ذلك صدر امره للمدير والعمال ان ينبهوا على اهالي المحلات ينتخبوا مشايخ قرى ومختارين حسب مفاد التعليمات . وان متسلمي دفاتر القرايا يحضروا دفاتر التوزيع للمجلس ويميزوها ثلاث درجات غني ووسط وفقير ليرى بمعرفة المجلس

تسوية ذلك بتقسيط البقايا على قدر امكان الاهالي . وقد حصلت المباشرة بذلك .
ثامناً : انه في ذلك الغضون بلغ مسامع دولته بان موجود جانب بارود في جونية وصربا فصدر امره بضبطه مع ربط يوسف منصور العضيمي حيث تقرر بانه من زمرة المفسدين بين الاهالي وكان المحرض على تجمهر بعض الاهالي ضد عايلة بيت الهواء.
تاسعاً : انه يوم السبت الواقع في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٦٥ تظاهر جمهور على الضهور المسماة بواب الهوا فوق مركز جونية بالصياح والحدو وطلق البارود وبقوا نحو ساعتين ثلاثة لحين غروب الشمس وانصرفوا لناحية غوسطا . ونهار الاحد الواقع في ٣١ شهره ختام السنة ١٨٦٥ ارتجع الجمهور مضاعفاً عن اليوم الماضي وابتدوا بالحدو والقواص والهجوم على المركز المتصرفي حتى وصل بعضهم لتحت كنيسة غادير التي تبعد عن المركز محطاً للرصاص وهم يطلقون البواريد . فعند ذلك صدر امر دولته بتوجيه فرقة من الضبطية اللبنانية بمعية مسيو ألطاب الذين بوصولهم لمقابلة الجمهورية التقاهم سيادة المطران يوسف جعجع من دير بكركي وتكلم مع المسيو ألطاب بالتوقف عن الضرب . وارتد سيادة المومى اليه على الجمهورية بالضرب والشتم لاجل ردعهم وترجيعهم . وقد تمّ ذلك . وبرجوع الجمهورية ارتجعوا ايضاً الضبطية من دون ان يحصل ادنى سبب . وتاني يوم شاعت الاخبار بان يوسف بك كرم قادماً من جهة الشمال وبصحبته جمهور . وأرسل تحارير منه الى اهالي بلاد جبيل والفتوح وكسروان ليوافوه نهار الاربعا في ٣ كانون الثاني سنة ١٨٦٦ الى نهر ابراهيم . ومن ذلك حصل اضطراب عند مستخدمي المركز . وتوجه بعضهم مع من وجد من وجوه اهالي قضاء المتن لنادي غبطة السيد البطريرك في بكركي ليترجوه بملاحظة منع هذه الحوادث وان يوجه احد المطارين لارجاع يوسف بك كرم مع جمهوره . فوجدوا ان غبطته منفعلاً من ذلك غاية الانفعال . وفهموا انه اذ بلغه قدومه وجّـه ثلاث كتابات مترادفة للمنع عن القدوم . بالحال أمر أيضاً بتوجيه سيادة المطران يوسف جعجع والمطران يوحنا الحاج ورئيس عام الرهبنة البلدية ومدبريها ليمنعوا البـك المرقوم عن الحضور ويرتجع لمحله . وكان توجههم عصرية نهار الاربعا . فبوصولهم وجدوا المذكور في نهر ابراهيم حسب افادته السابقة . فقابلوه وعادوا راجعين تاني يوم الخميس . والذي شاع وظهر انهم رجعوا خايبين من قبوله مشورة غبطته ورايهم . وحيث باثنى ذلك حضر لمركز دولته في جونية سعادة قنصل جنرال دولة فرنسة وسيادة المطران طوبيا فصار مترجحاً بالعقول انهما يقطّعا هذا المشكل بوجه عايد للراحة . غير انه نهار الجمعة الواقع في ٥ شهره مساءً ورد اخبار من بعض ا[illegible]راف بانه تشاهد اعلانات من يوسف بك كرم مضمونها انه صح اعتماده على الهجوم على قرية غزير الساعة الخامسة من نهار السبت وانه حرر لبعض كهنة المحل لبنصحوا

الاهالي والضبطية الموجودين بها بانهم اذا قاوموه وضاددوه فيضربهم والا ومكنوه من الدخول بلا مانع فلا يضرهم بل انه يرمي اليسق على المدير رهينة تحت احضار يواكيم باخوص وان جمهور كسروان ينقسم قسمين الرجال الاقوياء توافيه الى غزير على طريق دير العفص وباقي الجمهور يحضر كاشفاً عن ضهور بواب الهوا المذكور آنفاً يستعملوا العياط والصياح فقط بدون ان ينزلوا جهة المركز . وانه هو والجمهور الذي معه ينقسموا الى ثلاث فرق الاولى على طريق فتقا والثانية على طريق ادما النافذين الى غزير والثالثة على سكة البحر النافذة الى جسر المعاملتين . ويذكر بالاعلان المذكور بانه مقدم كتابة لسعادة جنرال دولة فرنسة فان حضر له الجواب بالايجاب يفيدهم باعلام آخر والا فيبقوا معتمدين على الاعلان الاول المرقوم . وحين بلغ ذلك مسامع دولته ليلاً ارسل فرقة من العسكر الشاهاني وفرقة لبنانية مع مسيو ألطاب الى غزير بطريقة سرية ليلاً . وفي صباح نهار السبت قد تشاهد ان خيالة القوزاق الذين مقنقين في المعاملتين ركبوا وتوجهوا شمالاً حتى تواروا جهة وطا سلان وطبرجا ورجعوا حالاً بدون ان ينسمع شيء . وبعد رجوعهم الى مركزهم المعاملتين ببرهة وجيزة نفدت الجماهير من المعاملتين وادما بضرب البارود الساعة الخامسة والنصف كما تعين بالاعلان ومعهم يوسف بك والامير سليمان الحرفوش ومثله من جهة العفص وتبوا اهالي غوسطا وعشقوت ونفد جمهور من جهة بواب الهوا مستعملين الصياح . واشتعلت نار الحرب . وما مضى سوى برهة ساعة ونصف الا والفرقتان اللتان حضرتا على طريق ادما والمعاملتين انكسرتا الى الورا والذين على بواب الهـــوا ابطلوا الصياح وارتجعوا . وبقي الحرب مشتعلاً عن الفرقة التي حضرت على طريق العفص وبيت خشبو الى الساعة الحادية عشرة والنصف من النهار المذكور فانكسروا منهزمين ايضاً . وصار كنون من كل الجهات .

عاشراً : انه في اليوم الثاني الذي هو الاحد في ٧ شهره حضر لنادي دولته سيادة المطران طوبيا والمطران يوسف جعجع وقدما الاعراض لديه ان الاهالي ندموا على ما فعلوا ويلتمسوا العفو والامان . فقبل التماسهم بذلك شرط ان يتقدم له معروض رسمي من ساداتهم عموماً . وبحسب ذلك قد حضر نهار الاثنين اربعة مطارنة وهم المطران طوبيا والمطران يوسف جعجع والمطران يوسف المريض والمطران يوحنا الحاج مقدمين المعروض الرسمي بذلك . وبناءً عليه صدر امر دولته بيبورلدى الامان الى اهالي قضاء كسروان الجنوبي المحدد لنهاية بلاد جبيل مشروطاً به تادية الاموال الاميرية وعدم الاجتماعات الأهلية ورفع الهرج والجمهورية . وانه اذا صار شيء من هذه يكون شرط الامان مفسوخاً . وتسلمت هذه البيورلدى لسيادتهم . وانتهى الحال . وصارت المبادرة من الاهالي بتوريد الاموال الاميرية .

الحادي عشر : ثم انه بالوقت نفسه شرف دولته الى بيروت وصدر امره بنقل المركز من جونية الى سبنيه . وتوجه سعادتلو امين باشا مع فرق من العساكر الشاهانية وفرق العسكر اللبنانية الى زغرتا . وقد كان تسامع ان يوسف بك كرم استدعى الامان بواسطة سعادة امين باشا المشار اليه عن يد سيادة المطران بولس موسى . وقسم يميناً بالكنيسة على اطاعته . وبناءً على ذلك صار له الوعد من سعادة الباشا المشار اليه بانه يستجلب له العفو والامان من دولة المتصرف . وانه بعد ذلك هجمت اهالي زغرتا وبعض القرى المجاورة لها مع يوسف بك كرم والامير سليمان الحرفوش وضربوا العساكر الشاهانية واللبنانية .

هذا ما لا تزال تحفظه لنا سجلات مجلس الادارة الكبير . وفي ذيله انه « صارت مطالعته وحيث انه من معلومات المجلس بعضه بالتسامع وبعضه بالعيان صار تذييله في الثاني من شباط سنة ١٨٦٦ » : الاعضاء محمد عرب عن السنة نصر نصر وحسن عيد وسمعان غطاس ويوسف الخوري عن الموارنة ضاهر عثمان ابو شقرا ووهبه ابو غانم وحسن شقير عن الدروز خليل الحاويش وخليل قرطاس عن الروم عبدالله مسلّم عن الكاثوليك وحسن همدر عن المتاولة . واردف وجوه البلاد اعضاء المجلس الاداري الكبير قرارهم هذا بقرار وقعوه في الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ والثالث عشر من آب سنة ١٢٨٢ (١٨٦٦) هذا نصه مع بعض التصرف « اننا نحمد الله تعالى على ما نحن عليه من الراحة والامنية في هذا العصر المغمور بمراحم واحسانات دولتنا العلية فانها باري البرية ولا سيما على ما تجمّل به جبلنا من النظامات والامتيازات الممنوحة له من مراحمها الوفية التي هي جاريه بكل استقامة منذ ابتداء الحكم الجديد — والمامول بحوله تعالى وبعناية ولية نعمتنا الدولة العلية وبحسن الحكم ستبلغ حالة جبلنا كما تتمناه القلوب من الراحة والنجاح والتأمين .

غير ان التشويش الواقع الآن في شمالي الجبل لم يكن الا من مضاددة يوسف كرم النظامات منذ ابتداء الحكم الجديد حتى الآن الامر الذي اصبح مشهوراً لدى الافاق . ووافقه في ذلك بعض الجهلا قاصدين الاخلال بالنظامات السنية .

وبما ان هذه الحوادث لا تتفق ومشرب الحكومة وبما انه للحكومة الحق في الردع بالقوة الجبرية فقد توجهت العساكر لمنع هذا الفساد . ولما كان المرقوم قد اظهر صلابة وعناداً وقابل العساكر الظافرة بقوة السلاح وأشهر نفسه علماً مشهوراً . متخذاً لنفسه انه انما يفعل لصالح جبل لبنان ونجاحه . ولما كان قد أعلن هذا ايضاً في جميع الجهات حتى في الاقضية الجنوبية ولم يعبأ به احد ولم يذعن احد لغرضه المنحرف . ولما كان لا صدق في القول ان الطائفة المارونية مشتركة باجمعها في هذه الحادثة اذ ان لا علاقة لموارنة الشوف والمتن وجزين والكورة وزحلة باعماله وهؤلاء يمثلون

اكثر من نصف الموارنة وانه لا يطلق هذا على موارنة الشمال باجمعهم وجل من عاونه منهم بعض القرى القليلة في جبة بشري وفي جبل البترون وكسروان ولا يتجاوز عددها السبع . وبما ان الحكومة لم تقفل باب العفو والقبول فأخذت بعين الاعتبار الوساطات السابقة واللاحقة ومنها وساطة غبطة البطريرك الاوروشليمي القاصد الرسولي (١) . وبما ان يوسف كرم لم يشأ ان يبعد عن لبنان بل بقي مصراً على العناء والجدال . وبما ان هذا المجلس يرى لزاماً عليه ان يبدي رأيه لرئيسه ويرى ان يوسف كرم في اعماله هذه يسيء الى مصلحة لبنان وشعبه فانه يقرر انهاء قضية يوسف كرم باي وجه كان لازالة وجوده من الجبل حفظاً لراحة الاهالي واتقاء لما قد يحل بهم من خراب وتدريك كل خسارة تلحق بالجبل على يوسف كرم ومرافقيه ومقاومة كل من يخالف اوامر حكومة المتصرفية من اهالي الجبل ذلك ان مجلسنا هذا يرى ان حالة الجبل الآن بوجود النظامات السنية هي أبهى وأجمل من اية حالة مضت .

وبناء عليه تحررت هذه المضبطة من مجلس ادارة جبل لبنان لتقدم الى اعتاب دولة المتصرف مع الاسترحام بنشرها واعلان كل ما فيها واظهار امتنان اهل الجبل من الاحسانات الشاهانية ورفع الايدي بالتضرع والابتهال لعزته تعالى بدوام سرير سلطنة ولية نعمتنا الدولة العلية مدى الايام والليالي اللهم آمين » .

العودة الى زغرتا

وعاد كرم بعد المعاملتين الى زغرتا وسار منها الى بنشعي (٢) وتأبط اخاه ميخائيل وجرّه اليها خوفاً من ان يسلّم للحكومة وحضّ اهالي زغرتا على الصعود الى اهدن وبات ينتظر عساكر داود . وكان المتصرف قد حشد حوالي خمسة آلاف مقاتل بين نظامي شاهاني ولبناني وأرسلهم الى الشمال بقيادة أمين باشا الاشقر (٣) . فدخلوا زغرتا في الحادي والعشرين من كانون الثاني دون معارضة . وكتب كرم الى امين باشا في الرابع والعشرين من كانون الثاني يعلن خضوعه راجياً الباشا ان ينظر في قضيته بالعدل . فاجابه الباشا البلجيكي ان الخضوع بالكتابة لا قيمة له وان الخضوع الحقيقي يقضي بحضوره بذاته بعد ان يفرق من التف حوله . وبعد التي واللتيا اجتمع كرم

---

(١) المونسنيور فالرغا . وكان بين الوسطاء صديق كرم ومموله عند الملمات اسحق طربيه والخوري موسى كرم النائب البطريركي الماروني في دمشق .

(٢) بفتح الباء وتسكين الشين

(٣) هو البارون شوارز نبرج البلجيكي الذي التحق بالجيش العثماني واتخذ لقب امين باشا وعرف بالاشقر .

وامين باشا والمطران بولس موسى وبعض الوجوه في دير مار يعقوب كرمسده كرسي مطرانية طرابلس في السابع والعشرين من الشهر نفسه . فتعهد كرم بالطاعة خطياً ووضع سيفه بين يدي الباشا ورضي بان « يتوارى الى حين مشترطاً جلاء العسكر العثماني عن الجبل » فوعده القائد فيما يظهر بشيء من هذا . وانفضّ الاجتماع وعاد امين باشا الى زغرتا وسار كرم الى بنشعي .

بنشعي

وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٦٦ قامت فرقة من الضابطة اللبنانية بقيادة سليم بك الطرابلسي الى بنشعي وتبعتها فرقة عثمانية مشاغبة بدأت فور وصولها باحراق البيوت فاضطرب الشماليون وارادوا ان يصدوا العثمانيين بالقوة ولكن كرماً آثر الخروج من بنشعي برجاله . وما كاد يفعل حتى لحق به العثمانيون وأطلقوا نارهم عليه فاضطر ان يقابلهم بالمثل . وتمكن رجاله بما اوتوا من شجاعة وبأس واحكام في اطلاق النار من رد هجمات عثمانية ثلاث . ونفدت ذخيرة الضابطة اللبنانية واستولى الوهن على قلوب العثمانيين فولوا مدبرين وما فتئوا حتى دخلوا طرابلس .

ورأى بعض وجوه الشمال ان يواصلوا الزحف الى طرابلس او الى بتدين لتحقيق استقلال الجبل . وقال الخوري بطرس سعادة الاهدني الى كرم ليلة انتصاره في بنشعي وقد رآه يصلي بسبحته : « التّي بيحارب ما بيطوّل المسبحة » قم وازحف على طرابلس . ولكن كرماً أبى ان يعتدي على الدولة .

وفي اول شباط كتب كرم الى الاميرال الفرنساوي الذي كان قد وصل الى مياه طرابلس يبين مقدمات يوم بنشعي موضحاً انه انما قاتل مدافعاً راجياً ان يبدي الاميرال رأيه كي يفعل هو بموجب ارشاداته . وفي اليوم التالي كتب الى حميد باشا قائمقام طرابلس او متصرفها يبين مبادءة العسكر بالشر ويلتمس تأليف مجلس خاص للتحقيق فيما ينسب اليه . وكتب الى المتصرف داود باشا ان تلك الحوادث لا تجدي الحكومة نفعاً وان ضررها يعود على الفريقين الى ان يقول : « وكم يكون فضلكم عظيماً اذا سعيتم الى اكتساب قلوب اللبنانيين لا بالقوة القاهرة بل بالحلم وصفاء النية مما يكسبكم الفخر ويجعل الناس ان يدعوا لكم بطول العمر » . وكتب اليه أمين باشا في التاسع من الشهر نفسه يقول تلقيت رقيمكم المؤرخ في ٨ الجاري وقد قلتم انكم تقبلون بالتسليم ولكن تحت حماية من حمايات الدول . وهذا وهم لانكم من التبعة العثمانية ولا يحق لاي قنصل ان يحمي رجلاً من رعايا الدولة وهو ثائر على

حكومتها . فاجاب كرم انه كان وما زال يبرر نفسه من كل مسؤولية وانه يكرر خضوعه للدولة العلية .

سبعل

وفي اثناء هذا الشهر نفسه دُبرت حملة ثانية بقيادة درويش باشا مؤلفة من اثني عشر الف جندي تولى قيادة وحدانها حسن باشا وامين باشا وعباس باشا وقبولي باشا ومصطفى باشا . ولدى وصول قائدها الى بيروت كتب الى كرم يدعوه للتسليم في مهلة ثلاثة ايام . ثم قام الى طرابلس على ظهر المركب لبنان يرافقه المتصرف داود باشا . ولدى وصوله اليها منع تصدير الحبوب والمؤن الى القرى الثائرة .

وعندما علم كرم بقدوم درويش باشا بعساكره كتب الى حسن باشا يجدد طاعته للقانون ويطلب المحاكمة القانونية . وتخلّى عن بنشعي وقام الى سبعل وايطو وعبرا وتحصن فيها .

وفي اول آذار من السنة ١٨٦٦ وصل حسن باشا الى بنشعي وقام منها الى سبعل فاستولى عليها بعد مقاومة شديدة (١) كما استولى على ايطو وعبرا وأرسل من يستولي على اهدن نفسها . ثم سار اليها بمن بقي معه من العساكر فوصل اليها في الرابع من آذار ونزل في قصر كرم . وبعد ان اقام في هذا القصر بضعة ايام امر بنهبه واحراقه .

صرف الرجال

ورأى كرم بعد سبعل ان ذخيرته قلّت وأشفق على من كان يموت في سبيله . وبلغه ان حسن باشا ابلغ مطران طرابلس انه انما جاء لمساعدة داود باشا فاذا برح كرم لبنان رجع العسكر عن مطاردته . فصرف كرم معظم رجاله واتجه نحو البترون وجبيل لينفذ من تلالها الى بعلبك . فمر بكفور العربة ودير البصة وكفرحلدا فدوما فمار يعقوب الحصن وبلغ دير ميفوق في الخامس من آذار . وتتبعه العسكر النظامي واللبناني فجرت بينه وبينهم مواقع عدة منها موقعة اهمج ووادي النسور وكفرفو والحدث وعين الجوز وعين قرنا ووادي مزيارا واهدن واجبع ووادي الصليب .

---

(١) وهنالك اقاصيص واقاصيص عن بسالة ابطال الشمال في هذه الموقعة منها ان بطرس توما الذي اشتهر بقوته وشجاعته كان اذا صرخ يرجف عدوه رعباً وانه هجم على المدفعية في هذه الموقعة فقتل رجالها وحمل مدفعاً مسافة غير قليلة !

واليك ما قاله عن احداها وادي مزيارا في مذكراته الافرنسية بتاريخ ٢١ آب سنة ١٨٦٦ :

وادي مزيارا

تبارك الله الذي انقذني من المخاطر العديدة التي لولا لطفه وعنايته لما نجوت منها . كنت قد صرفت معظم رجالي ولم يبقَ معي منهم سوى اربعين . وكان داود قد أمر باخذي هذه المرة ميتاً لا حياً وقد وضعني انا ورفاقي ضمن حلقة من حديد ونار . وكنت قد اتخذت مركزاً لي جبل عين قرنا شمالي اهدن مقابل جبل الارز حيث اشرف على منزلي باهدن واقف على ما يجري في البلاد من الحركات العسكرية . فأقمت هناك اياماً براحة وسكينة . وفي اثناء ذلك جاءت العساكر نحواً من الفين وخيمت في مكان قريب من عين الوحش بجوار اهدن على مسافة ساعة مني . فلما كانت الساعة الثانية بعد نصف ليل أمس أحسَّ الصبّارة بقدوم عسكر من بشري ماراً بالقمم التي تشرف على مركزي شرقاً وان عسكراً من الضنية صاعد الينا في المعابر الضيقة . وجاء اثنان من كشافتي وانبآني بان العسكر قد سدَّ علي المسالك . فجمعت رفاقي واوقدت النيران في جوانب القمة وخرجت في الظلام الى غابة اهدن دون ان يشعر بي احد . ولم يمضِ عشرون دقيقة حتى وصل خسرو بك ومعه العساكر وجماعة من بشري . وكادتَ كشافتي تتماسَّ بطلائع العسكر الذي طوق جبل عين قرنا . وفي الصباح سرت الى قرية تولا واخذت الفرق القريبة تتبعني دون ان تتحرش بي . وكنت اسير مقابلها بحيث لا يصل الي رصاص بنادقها . ولما اشرفت على مزرعة التفاح نظرت فرقاً جديدة قدمت ليلاً من طرابلس وبيروت فاخذت انا طريق الضنية فالتقتني قوات جديدة فرجعت على اعقابي وهبطت الوادي الفاصل بين لبنان والضنية وترجلت واوعزت الى بعض رفاقي بان يقودوا الخيل في طريق تولا وحرضتهم على انهم اذا التقتهم العساكر يتركوا الخيل ويختفوا في الكهوف او يموتوا وسلاحهم في ايديهم . وهبطت مع بعض الرفاق وادي مزيارا فالتقتني قطعة من العسكر كانت تسد طريق الوادي وهبطت الى هناك فرق آتية من الضنية . فاصبح العسكر منتشراً في عدوتي النهر وارتفعت الى جانبي صخور عالية . واذ رأيت ان العسكر امامي والى جانبي يرصدني على رمية حجر ولا يطلق علي النار ادركت ان فرقة كامنة تسد مخرج الوادي وعرفت اني اقاتل الالوف برجال قلائل . فجمعت رفاقي الاعزاء وخاطبتهم قائلاً :

هوذا ساعتنا الاخيرة ولم يبق لنا سوى الموت تحت السلاح او الحياة تحت الاستعباد فايهما تختارون ؟ فأجابوا الموت تحت السلاح . وعجلت المسير فوجدت العسكر يسد

مخرج الوادي كما قدرت وهو كالبناء المرصوص . فدعوت انا ورفاقي اسم الله الحي هاتفين بصوت شديد يا الله ! فردد الوادي صدى اصواتنا وهجمنا مقتحمين صفوف العسكر فانحسرت من امام وجوهنا ولم يطلق احدهم النار حتى خرجنا من حلقة العسكر . على ان الفرق تقدمتنا وسدت مخرج الوادي من جهة بنشعي في السهل فقسمت رجالي الى قسمين الاول واصل السير في طريق الوادي والثاني سرت به الى مزرعة التفاح . ولم يتحرك العسكر من مكانه بل انتظر الرجال الذين افترقوا عني . وحارب هؤلاء عدوهم مستقلين حتى بلغوا جهة بنشعي وكان كل منا يحمي الآخر بالتبادل . اما انا فاني تمكنت بشق النفس من الخروج من ذلك الوادي بطريق عبرا الى جهة سبعل . وكانت الساعة العاشرة صباحاً وانتهت المعركة . وجرح اثنان الواحد نجا والآخر وهو ابو حسون وقع اسيراً مع ابن اخته اسعد بولس واربعة غيرهما . وأُخذ الخمسة الى سجن بيت الدين . أما جيادي فقد نجت من العسكر الذي تهالك في سبيل اخذها مما كفانا مؤونة الاشتباك مع العدو مراراً . وقبض العسكر على جماعة من اهل القرى المجاورة من كهنة وعلمانيين ولذلك فاني عزمت ان اتوارى من الآن كي لا اجعل سبيلاً لخراب البلاد واكون سبباً لهلاك العباد .

والواقع ان كرماً واربعة من رجاله تواروا اربعين يوماً وهؤلاء الاربعة ساسين غسطين وانطونيوس يزبك وجبرائيل فشخه وذيب البتروني أبوا الا اللحاق به .

مجلس الادارة

واتخذ المجلس الاداري الكبير في هذه الآونة في الثامن عشر من تشرين الاول سنة ١٨٦٦ قراراً آخر هذا نصه مع بعض التصرف : « تشرّف المجلس بتلاوة المرسوم الشريف المتصرفي الصادر يوم تاريخه المعلن مآله الوسيم انه بمقتضى توافق افكار هؤلاء العبيد مع افكار دولته بخصوص ما حدث في الجبل في مادة يوسف كرَم ولزوم تربية الاشقياء صار ارسال العساكر الشاهانية والضبطية لجهة الاشقياء وقبض على رؤسائهم وصار ادخالهم في الطاعة . وبما انه لم يبقَ اي اثر للعصيان سوى ان يوسف كرم لا يزال مختفياً ولا يزال واقعاً عليه التفتيش فانه دولته يستوضح هل يلزم بقاء العساكر النظامية في الجبل ام لا يلزم . ولدى المذاكرة بهذا الخصوص رؤي انه لما كان وجود العساكر الشاهانية الظافرة في الجبل هو لاكتساب الراحة ولما كان بظل الشوكة القاهرة الملوكانية وحكمة دولة المتصرف الافخم قد حصلت الراحة المطلوبة فان وجود العساكر الشاهانية لم يعد لازماً وان المأمول ان شاء الله انه لا يحصل شيئاً من الاهالي المذكورين يجبر الحكومة على اعادة العساكر مرة اخرى » .

كرم يؤثر الخروج من لبنان

وكتب كرم الى بعض اصدقائه في بيروت يقول : « الرجاء ان تعرضوا للاميرال سيمون انه لم يُسمع ولم يُقرأ في التاريخ ان عمال فرنسة سمحوا بان يكره احد من خاصتهم المخلصين على قبول الاستعباد او الموت . واني آسف ان يوافق المسيو ديز سّار داود باشا على الشرط الذي وضعه علي وهو ان لا ابرح بلادي دون اجازة وان أُقسم بالا اعود الى لبنان ما دام تحت حكمه . فاستعلموا لي من سعادة الاميرال سيمون عما اذا كان يريد قبولي عنده ليسهل سفري الى اوروبة بصورة شريفة . فاذا كان باقيا في ثغر بيروت وتفضل بقبولي فاني لا اطلب سوى زورق يوافيني الى مكان اعينه على الشاطىء . وان كان قد سافر فارسلوا كتابي هذا اليه » .

قناصل الدول

وفي مطلع السنة ١٨٦٧ قر قرار قناصل الدول ومتصرف لبنان ووالي سورية ومتصرف بيروت وجوب اعادة العساكر الشاهانية الى لبنان لمطاردة كرم والقاء القبض عليه لانه بعد اختفائه عاد الى ميدان العمل على رأس ثلاث مئة رجل . ويقول كرم في مذكراته : « وادركت اذ ذاك غلطي واني اخطأت بتساهلي وبالخطة السلمية التي اتبعتها تجاه العسكر فاضعت الوقت والفرص السانحة لاخذ الثأر المجيد . وقد رأيت الآن ان هذه المقاتلات لا تنتهي الا بقتلي او قتل المتصرف . فتركت التحجب وخرجت داعياً كل من لاقيته الى القيام معي والموت في سبيل الشرف وتأييد الشرائع . وسرت في رابعة النهار الى قرية اجبع التي تبعد ساعتين عن كل من عرجس وبشري . وصادفت بعض الحطابين فتركوا حزمهم وتقلدوا سلاحهم وانضموا الى رفاقي الثمانية . ولم نبلغ اجبع حتى صرنا خمسة وعشرين . وعند المساء ارسلت ثمانية عشر شخصاً يهاجمون عرجس فانهزم عوض بك بمجرد سماعه حداء الرجال . وعدت صباحاً ابحث عن راجي بك في بشري فتقهقر دون قتال وتركته قاصداً بتدين لانقاذ رفاقي المعتقلين . وتفادياً من اهراق الدماء غالطت العسكر وواصلت السير ليل نهار» .

في كسروان والمتن

وقام كرم الى طرزا فبشعله فعبادات فوادي علمات والناس تلتف حوله فوصل الى الغينه في الثالث‌عشر من كانون الثاني . وأمر البطريرك الماروني ان تقفل ابواب بكركي في وجه كرم ما دام خارجاً عن طاعة الحكومة وحض الناس في كسروان

الا يحركوا ساكناً . وسار كرم الى غوسطا . فوفد عليه ليلاً ابن شقيق البطريرك وعاد الى بكركي . وفي صباح اليوم التالي ارسل كرم الى المقر البطريركي رسائل الى قناصل الدول يدعوهم فيها الى الحكم بينه وبين المتصرف وأمهلهم اياماً ثلاثة يقوم بعدها الى بتدين لمقاتلة الحكومة . فأصدر القناصل بياناً في الخامس عشر من الشهر نفسه اعلنوا فيه « مداومة مساعدتهم الادبية الى حضرة صاحب الدولة داود باشا وان افضل الوسائل لتوطيد السلام في البلاد انما هي ابعاد يوسف كرم وان الدولة العلية مستعدة ان تمنح يوسف الرخصة ليخرج من لبنان وسورية ويتوجه الى اي محل اراد » . وغادر كرم غوسطا في السادس عشر من كانون الثاني متجهاً نحو بيت شباب وبكفيا . ولحق به الكابيتان ألطاب على رأس قوة من الضابطة اللبنانية فناوشه مناوشة في وادي الصليب ما بين المحيدثة والشوير في السابع عشر من الشهر نفسه . وكان الشيخ صليبي الخازن والخواجه رزق الله خضرا قد ابلغا كرماً رغبة قنصل فرنسة في الاجتماع به في بكركي . فتابع كرم سيره ووصل الى بكركي في اليوم التالي .

اجتماع بكركي

ولدى وصوله الى المقر البطريركي وجد بانتظاره قنصلي فرنسة في دمشق وبيروت ونعوم افندي قيقانو مندوب داود باشا واساقفة الطائفة المارونية وبعض وجوهها وجمهوراً من اللبنانيين . فقال قنصل فرنسة في بيروت : « اني تلقيت رسالة من سفير جلالة الامبراطور في الآستانة مآلها ان قد وصلت اليه رسالتكم التي طلبتم اليه فيها ان يعيّن لكم مكاناً خارج لبنان تقيمون فيه . وعليه فان فخامة السفير يعين الجزائر باسم جلالة الامبراطور مقراً لكم تقيمون فيه ضيفاً على حكومة جلالته » . فأجاب كرم : « انني في كتابي الى المسيو بوره سفير جلالة الامبراطور اعلنت رغبتي في حقن الدماء ولكن داود باشا احرجني فاخرجني . وقد احتج اللبنانيون على اعماله المغايرة للعدالة واضطررت ان ادافع عن حقوق ابناء وطني المهضومة وان انقذهم من الاستبداد والجور » . فاجابه القنصل : « اذا اردت ان تؤكد حبك وولاءك لفرنسة بقبولك الضيافة التي اعرضها عليك باسم فخامة السفير فان جلالة الامبراطور سيمنحك حمايته الخاصة . وانا الآن اخاطبك باسم جلالته واصرح ان جلالته يمنح حمايته ايضاً لرفاقك وان المتصرف يطلق سراح المعتقلين ويحترم رفاقك ويحافظ على املاكك واملاكهم وسوف تبذل المساعي لانصافك في القريب العاجل » . فقبل كرم ما عرضه عليه القنصل ووجّه هذا كتاباً الى البطريرك هذا تعريبه : « لما كان يوسف بك كرم قد قبل ما كلفت بعرضه عليه من قبل سعادة سفير جلالة الامبراطور في الآستانة فانه

اصبح منذ الآن بحماية فرنسة . وقد دعوت رفاقه الى الآستانة ووعدتهم بانه سوف لا يحدث ما يقلقهم من قبل الحكومة . وجئت الآن ارجوكم ان نتعاون معاً في اقناع اولادكم الموارنة بقبول هذه المشورة الحكيمة وبوجوب العودة الى اعمالهم العادية والاهتمام بامور معيشتهم بعد هذه الاضطرابات التي سببت مصائب عديدة » .

وقام كرم والقنصل وغيرهما من بكركي الى بيروت فخرج الكثيرون لاستقبالهم وأدب صديق كرم الخواجه اسعد ملحمة مأدبة فخمة على شرف يوسف كرم دعا اليها عدداً كبيراً من الوجوه والاعيان . وفي اليوم التالي الحادي والثلاثين من كانون الثاني سنة ١٨٦٧ وجّه كرم ما يلي الى اعيان نبروت : « اني اشكر لكم انسانيتكم وخالص مودتكم وأسأله تعالى ان يحفظكم ويديم توفيقكم وتقدم الجنس البشري كافة في مراتب الارتقاء العام بحفظ الواجبات الانسانية » . وقام الى متن الدارعة الافرنسية « له فوربان » فمخرت به الى الاسكندرية فمرسيليا فالجزائر . وبعد ان اقام في الجزائر سنة كاملة زار باريز وقابل عاهلها الامبراطور نبوليون الثالث ثم سافر سراً الى بروكسل وغيرها فرومه .

دورة داود باشا الثانية ١٨٦٤-١٨٦٨

١) تطبيق البروتوكول الثاني

وطبق المتصرف التعديلات التي أقرها سفراء الدول والباب العالي فجعل للموارنة في مجلس الادارة الكبير مقاعد أربعة وللدروز ثلاثة وللروم اثنين وللكاثوليك واحداً وللسنة واحداً وللشيعة واحداً) فأصبح المجلس في السنة ١٨٦٥ مؤلفاً من نصر نصر وحسن عيد وسمعان غطاس ويوسف الخوري عن الموارنة وضاهر عثمان ووهبه ابو غانم وحسن شقير عن الدروز وخليل الجاويش وخليل قرطاس عن الروم وعبد الله مسلّم عن الكاثوليك ومحمد عرب عن السنة وحسن همدر عن الشيعة . وجعل للمجلس وكالة رئاسة أسندها الى عمون بك عمون، ولم يوفق داود الى اجراء اي انتخاب لهذه المقاعد لانه لم يكن قد تمّ انتخاب مشايخ القرى . ولا يزال الامر « بتعيين » عثمان ضاهر ابو شقرا عن دروز قضاء جزين محفوظاً لدى حفيده الشيخ ابو جميل ضاهر ابو شقرا حتى يومنا هذا : « متصرفية جبل لبنان نمرو ٢٢ امر التسمية اعضا مجلس الادارة الكبير في جبل لبنان انه قد تعين من طرف متصرفية جبل لنان بتاريخ مارت سنة ١٢٨٢ اثنين وثمانين ضاهر افندي عثمان اعضا مجلس الادارة الكبير في جبل لبنان المتوظف في مايس سنة ٢٨١ واحد وثمانين المتوطن في قرية عماطور من قضا الشوف في جبل لبنان من طايفة الدروز سنة ٢٥ بمعاش شهري الف غرش لا غير — داود » . وألغى المتصرف المجالس المحلية الادارية واعاد تشكيل المحاكم الابتدائية وأمر بانتخاب مشايخ القرى بموجب النص الجديد . ويستدل من مضابط مجلس الادارة ان انتخاب هؤلاء كان يتم بتوقيع العرائض او « تختيمها » من وجهاء القرية فينظر فيها مجلس الادارة ويقر الانتخاب . ويستدل ايضاً ان هذه الانتخابات لم تكتمل قبل اوائل عهد فرنقو باشا خلف داود وانه كان يشترط في شيخ القرية ان يكون من ذوي السيرة الحسنة فوق الثلاثين من العمر ملاكاً يقرأ ويكتب .

وقضت الحاجة بان يكون للحكومة المركزية عميل لها في بيروت يسهّل اعمالها العادية ويشرف على « المراكب » فعيّن المتصرف بشاره افندي قيقانو لهذه الغاية بمعاش

شهري قدره الف غرش ووافق على استئجار بناية لذلك فاستأجر بشاره افندي بيت الخواجه جدّي للقيام بالاعمال المطلوبة .

المساحة وجباية الاموال

وأمر المتصرف بتشكيل « البلوكات » اللازمة لمساحة قضاءي كسروان والبترون واوجب العمل بجد ونشاط كيما يتمكن من فرض الاموال على الاسس الجديدة . وكان قد قبل الكسروانيون بجباية الاموال على اساس سبعة آلاف كيس ففرضها المتصرف بعد استشارة المجلس الاداري الكبير بما اوتي من حكمة ريثما تم اعمال المساحة وعد النفوس . وبر بوعده لابناء غزير فأعفاهم من الضرائب اربع سنوات مكافأة لهم على تعاونهم مع الحكومة في ابان القتال بين الضابطة اللبنانية ويوسف بك كرم (١) .

شبكة التلغراف

وجدّ المتصرف في انشاء شبكة للتلغراف تربطه بمراكز الاقضية وبحكومة الباب العالي . فاستقدم عثمان افندي لانشاء هذه الشبكة وباشر هذا عمله في الثالث والعشرين من كانون الاول من السنة ١٨٦٥ بربط بتدين ببيروت . ثم ربط بتدين في اثناء السنتين ١٨٦٦ و١٨٦٧ بجونية والبترون واميون وبكفيا وزحلة وجزين . وأقام المتصرف فرنساوياً « المسيو اميل مدير عموم التلغراف » .

الطرقات

وخصّ المتصرف الاشغال العامة بشطر وافر من اهتمامه في هذه الدورة من حكمه فاستقدم كلاً من المهندسين الفونس لامبير والمسيو هدن وارفقهما بمترجمين ونظاراً وما الى ذلك وأمر باستحضار آلة من اوروبة لقطع الصخور وآلة غيرها لحفر الارض في التفتيش عن الماء . وحضّ المديرين على اصلاح الجسور والطرقات فهبوا لهذه الاعمال وأصلحوا عدداً من الجسور والطرقات القديمة منها الطريق المبلطة بين دير القمر وبتدين ومنها جسر المدفون وغيره . وكان المسيو برتوي الافرنسي قد نال

(١) وكان الامير منقذ شهاب والشيخ خليل حبيش قد اظهرا شجاعة نادرة فعين الاول قائداً للضابطة في كسروان بمعاش شهري قدره الف غرش وجعل الثاني معاوناً له بمعاش شهري قدره سبع مئة غرش وأعطى كلا من الكهنة ليرتين ذهبيتين .

امتيازه (١٨٥٨) لشق طريق بيروت – دمشق وتعبيدها لسير العربات . وأمر المتصرف اليقظ بشق طريق عربات عامة تصل بتدين بالمديرج مارةً بكفرنبرخ والصفا فتولاها عدد من البنائين الشويريين(منهم المعلم متري موسى مجاعص والمعلم مخائيل ناصر مجاعص والمعلم طنوس خنيصر والمعلم يوسف سماحه فانشأوها بشروط معينة تمّ الاتفاق عليها رسمياً امام مجلس الادارة الكبير وباشراف المسيو ألفونس لامبير « مهندس الاشغال » . واليك نموذجاً من شروط التلزيم كما وردت في سجلات مجلس الادارة :

انا الواضع اسمي ادناه يوسف سماحه من رعية الدولة العلية المتوطنين في جبل لبنان اتعهد الى حكومة متصرفية لبنان بتعمير اول قسم من الطريق التي هي من كفرنبرخ الى عين زحلتا بالشروط الآتية :

اولاً : بموجب تعليمات المهندس مسيو لامبير يكون الطريق المذكور شوسه اعني طريقاً معداً لسير العجلات في جميع شروط الاتفاقية بدون ادنى خلل بحيث يكون محجراً وعرضه خمسة امتار ويكون في كل من جانبيه خندق اي مجرى لجريان الماء وعرض ذلك متراً واحداً وعمقه ثلاثة وثلاثون سنتيمتراً .

ثانياً : ان حفر الطريق ووضع التراب يكونان بموجب تفصيل المهندس المومى اليه ومساند الطريق اعني الحيطان المسطحة في المحلات المستلزم الحفر فيها تكون خمسة واربعين قيراطاً .

ثالثاً : تراب الحفر من بعد تنعيمه يصير وضعه وركه على المساند المذكورة في البند السابق وذلك الرك يصير من ورى الحجار . وكل مسند الذي يتعمر من الحفر يكون كعبه مثالث على علو اثنين ومنتظماً جيداً على خط متساوي .

رابعاً : يلزم قطع الصخر الذي يوجد متعارضاً للتفصيل وذلك يكون بواسطة المعول والرفش واللغم كما يحكم المهندس . والبارود الذي يلزم يصير حرقه من طرف الملتزمين من دون زيادة قيمته خائساً .

خامساً : اكبر الحجارة التي تقطع من الصخر يلزم استعمالها لتركيز المسانـــد ويكون وضعها باليد وحسن الصنعة وكبرها ستة ديامتر .

سادساً : عند اللزوم يصير تلبيس بعض محلات من الطريق بحجر يابس الذي سيتكسر ويكون كبره من سبعة وعشرين الى ثلاثة وثلاثين سانتيمتراً طولاً اعني الوسط يكون ثلاثين سنتيمتراً ويصير صفه بقرب بعضه حتى لا يحدث خللاً بالتلبيس ويكون وجهه مرصوصاً جيداً وذلك بالمطرقة الصغيرة والكبيرة .

سابعاً : تحجير الطريق الاصلي يكون بحجر صغير يابس وكل حجر من الحجار يكون حجمه قابل المرور من حلقة عرضها ستة سنتيمترات وهذا الحجير يقام مستقيماً

على التراب بحيث ان مياه الشتا لا تقدر على تحليله ...

ثامناً : كل الجسور والعبارات التي هي بعرض ستين سنتيمتراً الى المتر والتي يلزم تعميرها بحجر يابس لاجل جريان المياه فالملتزمون ملزومون بتعميرها من دون زيادة قيمة . ثم ان جميع التعميرات التي تلزم ان تكون بحجر ناعم وكلس هي خارجة عن هذه القنطراتوا ويصير الاتفاق على ثمنها مع الطرفين .

وهنالك تفاصيل اخرى تتعلق بكيفية التعمير ووضع البحص لا مجال لذكرها . وتنهي هذه الاتفاقية بانه تم قبولها في ٢٦ آب سنة ١٨٦٧ وان الدفع يكون مرة كل خمسة عشر يوماً على ان تمسك الحكومة عشرة في المئة ضمانة وان كل منازعة تخص الطريق يفصل فيها المهندس دون اية مراجعة .

وأنشىء مثل هذا بين نهر بيروت وجل الديب وبين غزير وجونية وبين زحلة وشتوره .

الاحسانات الشاهانية

وتكاملت الاحسانات الشاهانية لدى المتصرف فأصدر امره الى مجلس الادارة بايضاح كيفية توزيعها . وبعد الدرس والمذاكرة اتخذ المجلس في الثامن والعشرين من شباط سنة ١٨٦٦ القرار التالي :

« اولاً : يقتضي ان يصير توزيع بدل المسلوبات في الخزينة مفصلاً كل قضاء بدفتر لوحده يبين فيه ما خص كل قرية لوحدها اجمالاً ونقداً ويرسل لهذا المجلس لكي تصير المصادقة عليه ويكون دستور العمل بالصرف بموجبه .

ثانياً : يقتضي ان كتاب المسلوبات بمناظرة مباشر الخزينة يوزعوا بالافراد على كل شخص ما يستحقه من النقدي والكونسليده على نفس الدفتر الممضي من كوميسيون ذلك القضا . وغب مراجعته وتصحيحه يتحرر لكل قرية دفتران طبق بعضهما ويرسلا لهذا المجلس لكي غب فحصهما يتصادق عليهما ويحفظ احدهما بالخزينة ممضياً من وكلا اهالي تلك القرية الذين يستلمون قيمته والدفتر الآخر يعطى للوكلا المرقومين لكي يوزعوا على الاهالي بموجبه . واخيراً يصير نسخ كامل هذه الدفاتر المختصة بالقضا في دفتر كوبيا يجمع جميع التخصيصات كما وينظم دفتر يطابق السندات وتاريخ الصرف وبيد من هو ومثله اذا حسم شيء من المرتجعات ليحفظوا بالخزينة بعد رؤيتهم بالمجلس .

ثالثاً : حيث قبلاً اعطي من الاحسانات الشاهانية بعض مساعدات اعانة للمصابين من فرش وامتعة ونقدية وخلافه وذلك لسد احتياجاتهم في اثناء الحادثة تحت اسم

مرتجعات ولكون الاهالي غير متساويين بها على حد سواء فاذا لاق بالامر الكريم ان الشخص الذي مقيد عليه لحد المالية غرش يصير السماح له بها وما زاد على ذلك يصير خصمه من اسم صاحبه ويبقى بالخزينة لينظر بايجاب التسوية به فيما بعد . واذا وجد على شخص ما مرتجعات باكثر مما استحقه من التخصيصات فيخصم عليه قيمة تخصيصاته فقط والذي يبقى عليه معما اذا وجد احد عليه مرتجعات وليس له تخصصات فالنظر في امر تحصيل ذلك منه وتسوية انتفاع العموم به منوط بالامر الشريف وكيفية اتجاه الارادة الملوكانية بهذا الخصوص . واما قضاء المتن حيث اكثر الاهالي التي اخذت المرتجعات هي متساوية بنوع ما مع بعضها بالقيمة واذا وجد تفاوت بينهم فهو غير باهظ فاذا حسن بالارادة الاصفية صرف النظر عن تحصيله .

رابعاً : حين الدفع من الخزينة ان كان بيد شيخ القرية والمختارين ام بيد الوكلاء الذين تنتخبهم اهالي تلك القرية بموجب وكالة بيدهم مصدق عليها من مجلس القضاء تحفظ بالخزينة فهؤلاء يمضوا على السند الاصولي المختص بالقرية ويوزعوا بالافراد على الاهالي بموجب الدفتر الذي يعطى لهم من الخزينة ويأخذوا من كل شخص سند موقت بايصاله حقه طبق الدفتر لكي فيما بعد بحضور المدير ومجلس القضا وعضو مجلس الادارة وكاتب من كتاب المسلوبات تؤخذ هذه السندات من الوكلا وتتقابل على الدفتر وان ضاع على احد شيء وغير واصل له حقه تصير المسؤولية على وكلا تلك القرية .

خامساً : ان مصروف الكتاب والمباشرين والصرافين ووكلا ونظار التوزيعات والمهمات القرطاسية يكون جميعه من صندوق التوزيعات من اصل فائض التضمينات ويكون رؤية واجراء هذه المصارفات بهذا المجلس والذي يفيض على ذلك من الفائض المرقوم ينظر بايجاب صرفه بحسبما يرى موافقاً لصالح اربابه وللارادة الكريمة المتصرفية .

سادساً : حيث من الضرورة يقع كسور في تخصيص الكونسيلد بالمفردات لا يوافق لورقة كاملة فتسهيلاً للامر حين التوزيع اما ان تتفق اشخاصاً متعددة لاخذ اوراق صحيحة او بالاتفاق يصير بيع الاوراق بالفيئة التي تكون بوقته ليسهل التوزيع بين الاهالي بالمفردات او يعطى الطرف بمعرفة المامور ثمن الورق بتلك الفئة الحاضرة لمن يرغب من الاهالي بيع اوراقه او الاهالي تعطي الصراف كمالة ثمن الورقة بالفيئة المذكورة .

هذا ما رؤي بهذا المجلس قد تحرر ليعرض لاعتاب دولته لكي اذا لاق لدى دولته صدر امره الكريم باجراء ايجابها وبكل الوجوه الامر لوليه ١٢ شوال سنة ٨٢ و١٥ شباط سنة ١٢٨١ » .

ودخلت السنة ١٨٦٨ وقرب موعد انتهاء الدورة الثانية من حكم داود باشا فرأى ان يقوم الى الآستانة للاتصال بحكومتها وبسفراء الدول وان يأخذ معه عمون بك عمون نائب رئيس مجلس الادارة الكبير ليعاونه في الرأي وفي معالجة الامور . وطلب في اوائل آذار الى نعوم افندي قيقانو ان يحل محل عمون بك عمون في نيابة رئاسة المجلس ريثما يعود هذا من الآستانة ؛ واليك ما قاله في هذا المعنى :

« افتخار الاماجد والاكارم نعوم افندي قيقانو زيد مجده : بما ان وكيل رياسة مجلس الادارة الكبير رفعتلو عمون بك متوجهاً معنا سوية وموقتاً لدار السعادة العلية فبناءً على كمال الدراية والاهلية المتصفة بها ذاتكم البهية قد صار احالة وكالة رياسة المجلس المرقوم لعهدة لياقتكم موقتاً لحين رجوعنا ولاجل صرف الدقة والاعتنا لحسن جريان المصالح الواقعة بموجب التعليمات المحتوية بيان وضعية المرقوم واعطا الحكم والقرار بحقها توفيقاً لاحكام النظامات والتعليمات السنية والافادة لطرف مخلصكم عن كافة المواد المقتضية تلغرافياً . ثم اضاف المتصرف بأمر آخر : « انه بمقتضى المأذونية الموقتة الصادرة بارادة سنية ملوكانية قد عزمنا الآن على التوجه الى دار السعادة العلية وصار احالة أمر ادارة جبل لبنان بمدة غيابنا الى مجلس الادارة الكبير بموجب تعليمات المرسولة صورتها لكم لفاً يقتضي اجرا العمل والحركة بموجبها اذ ان لاجله صار ترقيم هذه الشقة » .

وليس في هذا كله ولا في ما يليه من « التعليمات » ما يخوّل الدكتور بولس نجيم القول في رسالته « المسألة اللبنانية » بان داود خشي الموازنة وسئم الحياة في لبنان فقدّم استعفاءه وقام من لبنان قبل ان يوافق الباب العالي على خروجه منه . فكلام المتصرف الى نعوم افندي قيقانو ينص صراحة بان ذهابه الى الآستانة وبقاءه فيها لن يستغرقا وقتاً طويلاً وان رجوعه الى لبنان كان منتظراً . أضف ان المتصرف اصطحب في رحلته هذه اكبر الحكوميين قدراً نائب رئاسة المجلس الاداري الكبير مما يدل ان المتصرف كان لا يزال يهتم للبنان ويبحث عن صالحه .

ونسي الدكتور بولس نجيم او تناسى ما توارثه اللبنانيون جيلاً بعد جيل من ان داود كان أحبَّ المتصرفين الى لبنان وانه سعى سعياً حثيثاً لضم ما سلخته اللجنة الدولية عنه بل اكثر من هذا انه سعى لضم طرابلس وصيدا بالاضافة الى بيروت والبقاع وراشيا وحاصبيا وتوابعهما الى لبنان فأوعز الى ثلاثة من اعيانه الشيخ بشاره الخوري وعمون افندي عمون وعيد افندي حاتم ان يعدوا بياناً مفصلاً بذلك وانه انما ذهب الى الآستانة لهذه الغاية النبيلة فاصغى اليه الصدر محمد فؤاد باشا وطمّعه فيما اراد وحمله

عليه حتى اذا ما هدد المتصرف بالاستقالة في حال رفض طلبه قبل فؤاد استقالتـــه وراح يفتش عن غيره يحل محله .

هذا وقد اشرنا سابقاً الى ابتهاج الاوساط الارمنية في الآستانة لنظام لبنان الجديد واهتمامهم للامر وتزويدهم داود بالمال لتسهيل مهمته راجين من وراء هذا كله ايجاد ملجأ يلجأ اليه المضطهدون من أدنه والاسكندرونه حتى غزة هاشم .

ومما تلذ قراءته وتفيد في آن واحد التعليمات التي وجهها المتصرف قبل سفره الى نعوم افندي قيقانو واعضاء مجلس الادارة الكبير عن الهيئات الحكومية العاليـــة ومهمتها وصلاحياتها . فقد جاء في سجل مجلس الادارة الكبير بتاريخ العشرين من آذار سنة ١٨٦٨ ما نصه بالضبط :

« انه بمقتضى الماذونية الموقتة الصادرة بارادة ملوكانية قد عزمنا الآن على التوجه الى دار السعادة العلية فلذلك قد صار احالة امر ادارة جبل لبنان بموجب تعليمات سنية لمجلس الادارة لكي في مدة غيابنا يصير اجراء واجبات من طرف هيئة المجلس المرقوم .

المادة الاولى : ان راس واهم وظيفة مجلس الادارة هو تسوية مصالح عموم الجبل والخصوصات المتعلقة بامور المالية والمساحة ومزايدة الاعشار توفيقاً لاحكام النظامات والتعليمات السنية . وايضاً الاعتنا والدقة بحفظ وابقا الراحة العمومية ولاجل ذلك عند الاحتياج لسوق عساكر ضبطية الى محل ما فيصير اجراه مع فصل ورؤية الاختلافات التي تتوقع فيما بين القائمقاميات . انما قضية الاعشار غب نهاية مزايدتها فلا يعطى قرار بخصوصها قبل الاستئذان من طرفنا . وكل مضبطة يصير تنظيمها في هذا المجلس كما انه يقتضي تمهيرها من وكيل الرياسة وهيئة المجلس ايضاً حسب الاصول السابقة . فكذلك التحريرات التي يصير كتابتها عن قرار المجلس المرقوم كافةً داخلاً خارجاً يلزم تمهيرها بختم المجلس العمومي وامضا وختم وكيل رياسة المجلس الذاتي . والخصوصات التي يصير رؤيتها وفصلها في المجلس ويعطى القرار والحكم بحقها يومياً يتنظم بها جورنال يومي ممهوراً ومصادق من هيئة المجلس وتبقى محفوظة عند وكيل رياسة المجلس المومى اليه .

المادة الثانية : ان وظيفة مجلس المحاكمة هي عبارة عن رؤية الامور الجنائية واستيناف الدعاوى العادية التي يكون صار رويتها في محاكم القضاوات . فلذلك العرضحالات والاوراق المتعلقة بهكذا خصوصات بعد القيد يصير اعطاها راساً الى رئيس المجلس وغب احالتها من طرف المومى اليه تصير رؤيتها في المجلس . والمضابط التي تتنظم بموجبها فقبل ان يصير اجرا احكامها ترسل لطرفنا لاجل التصديق لاجرا مقتضاها .

المادة الثالثة : ان وظيفة القائمقامية هي عبارة عن الاعتنا والدقة بحفظ وابقا الراحة والامنية داخلاً خارجاً واستحصال الاموال الميرية من محلاتها باوقاتها وايفا رؤية كامل الخصوصات والدعاوى العادية بكمال العدل والحقانية توفيقاً لاحكام النظامات والتعليمات السنية . وعلى هذا البنا كونهم مستقلين بهكذا خصوصات فيكونوا هم المسؤولين . وعند الاحتياج الصحيح ويتحقق ان الضبطية الباشبوزق الموجودين عندهم غير كافية لحفظ الراحة والامنية فبذاك الوقت لهم الاذن بان يخاطبوا مجلس الادارة بطلب مدد ومعاونة من العساكر الضبطية المنتظمة .

المادة الرابعة : ان قايمقام الضبطية مجبوراً لاجرا الحركة بموجب التعليمات التي تعطى له من طرف مجلس الادارة بسوق العسكر الى محل اللزوم . انما تعين الكمية بذاك الوقت . واجرا الحركات العسكرية هذه مخصوصة برأي القيمقام المومى اليه .

ان هذه التعليمات تكون بداية المباشرة باجرا مقتضاها اعتباراً من اليوم الثامن من شهر مارث سنة الاربعة وثمانين الموافق اليوم العشرون من الشهر المرقوم سنة ثمانية وستين .»

قانون الولايات[٧] ١٨٦٠-١٨٦٤

ولم تجمع الدول على ان ينعم لبنان « باكمله » بالاستقلال المنشود . ولكنها شجعت الباب العالي على التخلص من نظام الاقطاع القديم وعلى السير بما بقي من جسم السلطنة نحو حياة ادارية افضل .

ولم تُحرم الدولة العثمانية من ابناء بررة في هذه الحقبة من تاريخها . فقام محمود الثاني بعد سليم الثالث بجهود كبيرة في سبيل الاصلاح . وقرأ مصطفى رشيد باشا في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ وعلى مسمع من سفراء الدول وكبار رجال السلطنة والبطريرك المسكوني وبحضور السلطان الشاب عبد المجيد في حديقة قصر طوب قبو خط كولخانه الشهير . وتلا هذا البيان الاصلاحي الشهير بيان آخر في السنة ١٨٤٦ . وفي السنة ١٨٥٦ حتمت الدول المتحابة على السلطان نفسه وعلى حكومته اعلان خط همايوني في موضوع الاصلاح الاداري وادخلته في صلب معاهدة باريز الشهيرة .

ظهور وزارة الداخلية

وفي السنة ١٨٦٠ ظهرت نظارة مستقلة للداخلية لاول مرة في تاريخ الدولة . وكانت شؤون الدولة الداخلية مربوطة قبل هذا بالصدارة العظمى يشرف عليها مستشار الصدر الاعظم . وتولى مدحت باشا ابو الاحرار ولاية على الولاية الطونه فدرس نظام الادارة الداخلية في فرنسة واقتنع بجودته . فنسخه نسخاً وطبقه على الولاية الموكولة اليه . فنجح في عمله نجاحاً استرعى اهتمام اولي الامر في الآستانة . فوافقوه في رأيه واصدروا في الثامن من تشرين الثاني سنة ١٨٦٤ قانوناً جديداً للولايات على اساس القانون الفرنسي المعاصر .

الولايات الشامية

كانت الدولة منذ ايام السلطان سليم الاول قد قسمت البلدان الشامية الى **ايالات**

ثلاث حلب ودمشق وطرابلس جعلتها فيما بعد اربعاً مقتطعة ايالة صيدا من ايالة دمشق . وفي السنة ١٨٤٢ على اثر خروج المصريين من هذه الربوع ونظراً لتقدم بيروت التجاري والاجتماعي نقلت الدولة مركز ايالة صيدا من عكة الى بيروت .

تشكيل الولايات

ولدى ظهور قانون الولايات الجديد في السنة ١٨٦٤ أُلغيت ايالة صيدا وايالة طرابلس واضحت البلدان الشامية خارج لبنان ايالتين فقط ولاية حلب وولاية دمشق (سورية) ومرّ الحد الفاصل بينهما بالقرب من حماه والى شماليها . فشملت ولاية سورية الجديدة جميع ما سُلخ عن لبنان سنة ١٨٦١ وقُسمت الى سناجق والسنجق منها الى اقضية والقضاء الى نواحٍ وقرى فاصبحت كل من طرابلس وبيروت مركز سنجق . وأُلحق بطرابلس قضاء الضنية وقضاء عكار كما الحق ببيروت قضاءُ صيدا وقضاءُ صور وقضاءُ مرجعيون . وقسم كل من البقاع وأبنان الشرقي الى اقضية أُتبعت بمركز الولاية . وتولى امور ولاية سورية الجديدة في السنة ١٨٦٤ مخلص باشا وتبعه في الحكم بعد سنة واحدة راشد باشا . وكان هذا ماسونياً فاتبع سياسة حرة أدّت الى تعلق الناس به والتأسف على ذهابه عند انتهاء مدته في السنة ١٨٧١ . وقضى القانون على الوالي ان يصرف شطراً وافراً من وقته في بيروت فتعرف البيروتيون الى راشد واحبوه وتعلقوا به .

الوالي

وجعل القانون الجديد الوالي رئيس ادارة الولاية ومنفذ جميع اوامر الدولة فيها فأحال الى عهدته نظارة امور الولاية الملكية والمالية الضبطية والاجرائية والسياسية . واوجب عليه القيام بدورة تفتيشية مرة في السنة تستغرق ثلاثة اشهر يتنقل في اثنائها بين مراكز السناجق فيطلع بنفسه على سير الامور ويقترح ما تقتضيه الحاجة .

رؤساء الدوائر

وأحاط القانون الجديد الوالي بدفتردار يعين بارادة سنية ويعنى باموال الحكومة وحساباتها كما حتّم انشاء مكتب للمحاسبة يرتب مالية الولاية بموجب تعليمات وزارة المالية وباشراف الدفتردار نفسه . وكان يحيط بالوالي ايضاً عدد من المديرين يمثلون وزارات الدولة المختلفة ويعينون بارادة سنية بناءً على اقتراح الوزارة صاحبة العلاقة بينهم مدير الامور الخارجية ومدير الاشغال العامة ومدير الزراعة . وكان بين المديرين

ايضاً مدير للمخابرات يدعى مكتوبجي الولاية يعين بارادة سنية ويعنى بمخابرات الولاية وبمحفوظاتها وبمطبعتها .

المجالس

وقضى القانون الجديد ايضاً بتشكيل مجلس اداري يؤلف من مفتش حكام الشرع ومن الدفتردار والمكتوبجي ومدير الامور الخارجية ومن اربعة ممثلين للشعب ينتخب اثنين منهم السكان المسلمون واثنين آخرين سكان الولاية غير المسلمين وذلك للتشاور في امور الادارة العامة وفي القضايا المالية وعلاقات الادارة بقناصل الدول ورعاياها وفي الاشغال العامة وامور الزراعة . وحرم القانون عليهم التدخل في القضاء .

وأوجب هذا القانون تشكيل مجلس ادارة كبير يراسه الوالي وينتخب اعضاءه سكان السناجق بنسبة اربعة عن كل سنجق من سناجق الولاية يكون اثنان منهم مسلمين واثنان آخران غير مسلمين . وكان على هذا المجلس ان يجلس في مركز الولاية مدة لا تتجاوز اربعين يوماً في السنة يبحث في اثنائها في تسوية الطرق السلطانية والمحافظة عليها وفي تنشيط الزراعة والتجارة وجباية الضرائب وتكون صلاحيته في هذه كلها استشارية فقط .

السنجق والمتصرف

وكان يرأس كل سنجق من سناجق الولاية وبين هذه طرابلس وبيروت كان يرأسه متصرف يعينه الباب العالي بارادة سنية . وكان على هذا المتصرف ان ينفذ جميع اوامر الحكومة المركزية (الباب العالي) وجميع التعليمات التي ترد عليه من رئيسه المباشر والي الولاية . وكان يعاونه في الامور المالية « محاسبه جي » تعينه الحكومة المركزية بناء على اقتراح وزارة المالية، ومدير تحريرات يعنى بالمفاوضات الرسمية وبحفظ السجلات والاوراق . وكان على المتصرف ان يحيط نفسه بمجلس اداري محلي مؤلف من قاضي المركز والمفتي والرؤساء الروحيين غير المسلمين واعضاء اربعة منتخبين اثنين من المسلمين واثنين آخرين من غير المسلمين . وكان على هذا المجلس المحلي ان يبحث جميع الاجراءات الادارية المحلية والامور المالية وجباية الضرائب ودخل الاوقاف وتأمين الامن . ولكنه حرم عليه التدخل في القضاء .

القضاء والقائمقام

وكان يرأس كل قضاء من اقضية السنجق قائمقام يعينه الباب العالي ويعنى بامور

الادارة وشؤون المالية وحفظ الامن . وكان مسؤولاً تجاه متصرف السنجق مسؤولية هذا تجاه رئيسه الوالي . ووضع القانون الجديد تحت تصرفه كاتبين احدهما للاعمال الحسابية المالية والآخر للتحريرات الرسمية ولحفظ الاوراق والسجلات . وكان عليه اي على القائمقام ان يحيط نفسه بمجلس اداري محلي مؤلف من قاضي المركز والمفتي ورؤساء الطوائف غير المسلمة وكاتب القضاء وثلاثة اعضاء آخرين . وكانت صلاحية هذا المجلس المحلي صلاحية مجلس ادارة السنجق . وحُرِّم عليه التدخّل في القضاء .

السلطة في القرى

ومثّل السلطة في القرى مختارون ينتخبون انتخاباً من كل قروي تجاوز الثامنة عشرة من العمر ودفع ضريبة لا تقل عن الخمسين غرشاً في السنة وكان على القائمقام ان يشرف على هذه الانتخابات ويقر قانونيتها . وكانت الانتخابات هذه تجري مرة في كل عام . وكان يحق للمختارين ان يرشحوا انفسهم مراراً لاعادة انتخابهم . وقضى القانون الجديد بانتخاب مجلس اختيارية لكل قرية يربو عدد سكانها على العشرين . وكان على هؤلاء ان يعنوا بتوزيع الضرائب وتأمين الامن والمحافظة على الصحة واصلاح ذات الحال بين المتخاصمين من افراد القرية التي ينتمون اليها . اما المختارون فانهم كانوا يمثلون السلطة المركزية وينفذون اوامرها .

مجالس التفريق والاصول الانتخابية

وقضى القانون الجديد بتشكيل مجالس تفريق في مركز الولاية وفي مراكز السناجق والاقضية وذلك لانتقاء اعضاء المجالس الادارية واعضاء المحاكم . وكانت تتألف هذه المجالس من اعضاء طبيعيين هم الوالي ومفتش الاحكام والدفتردار والمكتوبجي والمفتي والقاضي والرؤساء الروحيون في مركز الولاية ومن شابههم في مراكز السناجق ومراكز الاقضية يجتمعون فينتقون من بين الوجوه والاعيان ثلاثة اضعاف عدد الاعضاء الذين يجب انتخابهم لمجلس من المجالس او محكمة من المحاكم ثم يرفعون نتيجة عملهم هذا الى المقام الذي صدر عنه امر الانتخاب فيستخلص مجلس تفريق هذا المقام ضعف المطلوب ويعرض ذلك على الوالي فينتخب الوالي نصف ما عرض عليه ويرفعه الى الباب العالي . وبعد الموافقة يصدر الوالي مرسوماً بفوز اعضاء مجلس الولاية ومجالس السناجق اما مرسوم فوز اعضاء مجالس الاقضية فانه يصدر عن المتصرفين .

وقضت احكام هذا القانون الجديد بان يكون في مركز كل قضاء من اقضية الولاية حاكم يفصل الدعاوى العائدة الى محاكم الشرع ومجلس للدعاوى ينظر في الجنح والقبائح والدعاوى الحقوقية البسيطة وان يكون في مركز كل سنجق حاكم ينظر في الدعاوى العائدة الى محاكم الشرع ومجلس مؤلف من ستة اعضاء نصفهم من المسلمين والنصف الآخر ممن هم على غير الاسلام ينظر فيما يستأنف اليه مـــن دعاوى الاقضية حقوقية وجزائية وفي غيرها مما هو اهم منها . وقضى القانون نفسه بان يكون في مركز الولاية مفتش لحكام الشرع يعينه « مقام الفتوى الجليل » ومحكمة تمييز تنظر في الدعاوى الحقوقية والجزائية التي تميز اليها من محاكم مراكز السناجق . وكانت تتألف هذه المحكمة العليا من مفتش الحكام رئيساً واعضاء ستة نصفهم من المسلمين والنصف الآخر ممن هم على غير الاسلام يتم انتخابهم بواسطة مجالس التفريق .

ولدى ظهور دعوى تستلزم « التدقيق العريض العميق » سواء حقوقية ام جزائية يشكل مجلس خاص للفصل فيها يدعى مجلس الجنايات .

محاكم التجارة

وقضى ذيل القانون التجاري الهمايوني الصادر في سنة ١٨٦٠ ان ترى جميع دعاوى التجارة في محاكم التجارة وان تشكل هذه على درجتين « اولى واستئناف » وان تقسم كل محكمة الى مجلسين بري وبحري وان يكون لكل مجلس رئيسان اول وثان وعضوان دائمان واربعة اعضاء « موقتين » وان يتم تعيين الرئيسين والعضوين الدائمين بارادة سنية بناءً على اقتراح نظارة (وزارة) التجارة وان اقتراح هذه يكون مبنياً على اللوائح التي يقدمها اكبر مأمور في المكان التي تنشأ فيه المحكمة لوائح باسماء « اهل العرض ومستقيمي الاطوار اصحاب الاهلية واللياقة والدراية الواقفين على قوانين التجارة » . اما الاعضاء الموقتون فانهم ينتخبون انتخاباً « من اقدم التجـــار المعروفين في محلهم بالاستقامة وحسن الحال ومن ارباب الادارة الحسنة والتصرف » .

وخصت بيروت بمحكمة تجارة من هذا النوع من الدرجة الاولى شملـــت صلاحياتها النظر في الدعاوى القائمة بين اللبنانيين وبين الافرنج الاجانب .

قانون المالية ١٨٥٥-١٨٦٤

وأدى حب الاصلاح في عاصمة السلطنة الى تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجبايتها . فظهر في الحقبة ١٨٥٥–١٨٦٤ نظام تحصيل الاعشار (١١ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢) ونظام الحرير (٥ آب سنة ١٢٧٣ مالية) ونظام ايفاء الواردات العشرية (٢ ذي الحجة سنة ١٢٧٤) ونظام الامور المالية (١٥ رجب سنة ١٢٧٧) ونظام سائر الواردات العشرية (٩ شعبان سنة ١٢٧٧) ونظام الايرادات الرسومية (١٠ شوال سنة ١٢٧٨) ونظام ديوان الحسابات (٣ ذي الحجة سنة ١٢٨١) . واليك اهمها :

الاعشار

كان العشر يستوفي عن المحصولات الارضية . وكان يؤخذ اما عيناً بوزن المحصول وكيله او بدلاً برضاء الطرفين . وكانت تحال الواردات العشرية على سنة واحدة وببدل يتقرر بالمزايدة العلنية ما عدا اعشار الزيتون فان القانون اجاز احالتها على سنتين . وحرّم القانون مزايدة اعشار الولاية او المتصرفية او القضاء او الناحية كلها دفعة واحدة وأوجب مزايدة كل قرية واحالتها على حدة . وأجاز مزايدة اعشار البلوط والافيون والحرير والزيتون وعرق السوس جملة واحدة على جميع القضاء او المتصرفية . وقضى القانون بان يكون الملتزم وكفيله عثمانيين والا يكونا من مأموري الدولة ولا من اولادهم او اقاربهم . وعند حلول وقت الاحالة كان يوفد الى كل قضاء مأمور احالة من طرف حكومة الولاية او المتصرفية للاشراف على مزايدة الاعشار واحالتها . وكان ينضم هذا المأمور الى هيئة مجلس الادارة المحلي ليكونوا جميعاً مأمورين على مزايدة الاعشار . وكان يجب على من يرغب التزام الاعشار ان يراجع مجلس الادارة المحلي قبل حلول مدة الاحالة باسبوع واحد على الاقل وان يبين باستدعاء خاص المبلغ الذي يريد ان يلتزم بقدره دون ذكر اسماء الاماكن التي يرغب التزام اعشارها . وكان لا يقبل من طالب الالتزام الزيادة على

قلم من اقلام الاعشار الاّ قدر ضعفي قيمة املاكه واملاك كفيله معاً . وكان يستثنى من هذه الاملاك بيوت السكن واراضي المعيشة . وبعد التثبت من هذا كله كان يُبادر للمزايدة العلنية في مجلس الادارة وبحضور مأمور الاحالة . وكان يحق للحكومة جباية اعشار القرى بوجه الامانة وعلى حساب الخزينة اذا لم يبلغ بدلها الحد اللائق في اثناء المزايدة . وكان على الملتزمين ان يدفعوا بدلات الاعشار التي تعهدوا بها على اقساط متساوية في مدة ستة اشهر اعتباراً من وقت ادراك المحصولات بالنسبة لمحلها . واذا لم يدفع الملتزم القسط حتى غاية المدة المنسوب اليها تنظم ورقة حجز وتبلغ في الحال الى الملتزم او الى كفيله .

ويركو الاغنام

هو الضريبة التي كانت تفرض على الاراضي غير المزروعة التي تكون في حالة المرعى . وكانت هذه الضريبة تؤخذ عيناً راساً واحداً من الغنم او الماعز عن كل عشرة رؤوس . ثم جعلت مقطوعة عن كل راس من الغرشين ونصف الغرش حتى الخمسة غروش في الولايات وفي لبنان غرشاً واحداً . ومن الخمسة حتى العشرة عن كل خنزير . وكان يصير تعداد هذه الاغنام وغيرها في اوائل شهر اذار من كل سنة وذلك بواسطة مأموري العد الذين تعينهم حكومة القضاء . وكان يتم تحصيل هذا الويركو قبل نهاية حزيران . وأعفى القانون حيوانات الزراعة كالخيل والبغال والحمير والجمال ولكنه أوجب دفع الباج عنها عند بيعها بمعدل ٢,٥ في المئة .

ويركو الاملاك والتمتع

وكانت تؤخذ عن البساتين والاراضي التي لا تدفع العشر وعن المساكن والعرصات والابنية المخصصة للتجارة والصناعة : اربعة في الالف عن المساكن التي تقل قيمتها عن عشرين الف غرش ومثل ذلك عن العرصات وثمانية في الالف عن المساكن التي تزيد قيمتها عن عشرين الف غرش وعن الابنية المخصصة للتجارة والصناعة التي تقل قيمتها عن عشرين الف غرش . وكان يؤخذ ممن يشتغل بالتجارة والصناعة والحرف تمتع بنسبة معينة للدخل . وكانت القيم تقدر بمعرفة مخمنين ينتقون من المجالس المحلية من اهل الاطلاع والخبرة ويحلفون اليمين القانونية .

عشر الحرير

وكان على اصحاب الحرير ان ينقلوا منتوجاتهم من هذا الصنف الى اقرب محل

تقيم فيه المالية ميزاناً للحرير فيؤخذ عشره وكمركه اما عيناً او بدلاً . وما لا يرسل منه الى محل الميزان كان يضبط لجانب المالية ومن يتجاسر على تهريبه تكراراً يقبض عليه « ويؤدب التأديب اللائق به ». وكان لا يجوز نقل الحرير من محل الى آخر بدون « تذكرة مرور » خاصة . وكان من اشهر موازين الحرير في البلاد ما اقامته الحكومة قرب الحدود السورية اللبنانية وعند مدخل وادٍ اشتهر باسم وادي الحرير نسبة الى هذا الميزان .

رسوم المسكرات

وكانت الحكومة تجبي عشرة في المئة من مدخول منتجي الخمر والعرق وسائر المسكرات فتعاين بيوتهم ودكاكينهم ومخازنهم عند القطاف وذلك بمعرفة مأمور مخصوص ومختاري وشيوخ المحلة . وكان على هؤلاء ان يخمنوا المسكرات ويستعبروها ثم يقيدوها في دفتر مخصوص . وبعد ذلك يستدعى بعض المعتبرين من المختارين واهل الخبرة الى مجلس الادارة المحلي فتقدر اثمان المسكرات على انواعها وينظم بها محضر رسمي وتعين الضريبة المتوجبة . وسمح القانون باعفاء مئتي اقة مما يصنع في البيوت من هذه الضريبة . وكان لا بد من دفع رسم كمركي عند تصدير المسكرات الى الخارج .

الملح

واحتكرت الدولة انتاج الملح وبيعه ومنعت ادخال الاجنبي منه بمعاهدة تجارية بينها وبين الدول المتحابة ابتداءً من اول آذار سنة ١٨٦٢ حساباً شرقياً .

مال الأعناق

وقضى النص باخذ الجزية من أهل الكتاب فأدوها جزيةً حتى منتصف القرن الماضي . وجاءت معاهدة باريز ومعها الخط الهمايوني الشهير فاستبدلت بما اسمته حكومة الباب العالي البدل العسكري واستوفي هذا من جميع من كان على غير الاسلام ولم يقم بالخدمة العسكرية . وبقيت الحكومات المحلية تطلق عليه اسمه القديم مال الاعناق اي الجزية ولا سيما في لبنان .

وتبين من الاحصاء الذي تم في السنة ١٢٧٠ (١٨٥٣–١٨٥٤) ان الذين قاموا بالخدمة العسكرية من المسلمين كانوا بنسبة واحد لكل مئة وثمانين ذكراً ولذلك جعل البدل العسكري لمن كانوا على غير الاسلام في الولايات خمسين ليرة ذهباً . وكان

يوزع مجموعه على الطائفة ويصنف ابناء هذه الطائفة اصنافاً فيدفعونه كل حسب طاقته . ويستثنى المعلولون والمتقاعدون عن العمل والفقراء والقسيسون والرهبان .

الكمرك

وهو لفظ لاتيني (Comm(ricum (وكان في هذه الحقبة من تاريخ الدولة العثمانية لا يزال مربوطاً بمعاهدة السنة ١٢٤١ (١٨٢٥–١٨٢٦) بين الدولة العثمانية وبين سائر الدول المتحابة فيؤخذ انواعاً ثلاثة : على الصادرات والواردات والترانزيت. وكان على الواردات ثمانية في المئة وعلى الصادرات والترانزيت غرشاً واحداً في المئة .

ديوان المحاسبة

وفي اواخر أيار من السنة ١٨٦٤ صدر نظام ديوان المحاسبات (٣ ذي الحجة سنة ١٢٨١) . وقضى هذا النظام بتشكيل ديوان للمحاسبات في عاصمة السلطنة يؤلف من رئيس واحد واثني عشر عضواً ورئيسي كتاب ومميزي محاسبة ومعاونين لرئيسي الكتاب . وكان يشكل هذا الديوان بمجموع اعضائه دائرتين احداهما للمالية والثانية للمحاكمة . ومنحت المادة الرابعة من هذا النظام جميع الاعضاء والرئيس حصانة كبيرة اذ قضت بعدم عزلهم بدون ذنب .

وكان على دائرة المالية التابعة للديوان ان تدقق في واردات ومصارفات جميع الولايات والسناجق التي ترسل اليها في ختام كل سنة بعد تدقيقها في الاماكن الصادرة عنها من قبل دفتردار المركز ومحاسبه جي السنجق . اما دائرة المحاكمات فانها كانت تنظر في الدعاوى القائمة بين الملتزمين والمتعهدين وبين السلطات المحلية .

البنك السلطاني العثماني ١٨٥٦ - ١٨٦٣

وشمل اهتمام رجل الاصلاح في عاصمة السلطنة التجارة فوقعوا اتفاقاً في السنة١٨٤٥ مع الخواجات أليون وبلطجي (١) قضى بتعهد هذين الصرافين بتموين اسواق العاصمة بحوالات على فرنسة ولندن يبقى سعر الليرة الانكليزية بموجبها مئة وعشرة غروش عثمانية وذلك لقاء مساعدة مالية من خزينة السلطنة بلغت مليوني غرش في السنة . وأدى نجاح هذا المشروع في نهاية سنته الاولى الى تجديده سنة ثانية . وعند انتهاء هذه أسس الخواجات أليون وبلطجي شركة برعاية الحكومة العثمانية اطلقا عليها اسم بنك الآستانة (٢) . ولكن ثورات السنة ١٨٤٨ في فرنسة وغيرها من بلدان اوروبة وتلكؤ الخزينة العثمانية عن القيام بتعهداتها أوقفت بنك الآستانة عن العمل عند السنة ١٨٥٢ .

ثم جاءت حرب القرم بنفقاتها الباهظة . فاضطربت اسواق الآستانة وهب صيارفة العاصمة لاستغلال الموقف فتلاعبوا بالاوراق المالية « القوائم » وبالعملة الرائجة . وجاءت معاهدة باريز وجاء معها ضغط الدول الغربية ولا سيما بريطانية بوجوب الاصلاح الداخلي لقاء ضمان سلامة الدولة فظهر الخط الهمايوني يعد بالاصلاح الكامل الشامل . ومما جاء فيه ما معناه : « ويصير اصلاح العملة والمالية وايجاد رؤوس الاموال اللازمة لاستغلال ثروة ممالكي المحروسة الشاهانية » . وما ان اطلع الصيارفة على هذا حتى تقدموا بمشاريع عدة كما تقدم من حكومة الباب العالي صيارفة افرنسيون اشتهروا بمشروع « تروفي – شوفيل »(١) . وكان بين المتقدمين جماعة من الانكليز قدر لهم النجاح لما اسدته حكومتهم من خدمات للدولة العثمانية ولما كان يكنه الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا من ثقة بالانكليز واعجاب بهم . وسمحت جلالتها البريطانية في السنة ١٨٥٦ بتأسيس بنك في لوندره يدعى البنك العثماني(٢) يكون مقر ادارته العالية في لندره ومركز عمله الرئيسي في

---

(١) MM. J. Alléon et Th Baltazzi

(٢) La Banque de Constantinople

(٣) Trouvé-Chauvel

(٤) The Ottoman Bank

الآستانة . وتنشأ له فروع في اهم مدن شرقي المتوسط وذلك برأس مال قدره نصف مليون من الليرات الانكليزية يمكن رفعه الى مليونين .

وتوفي مصطفى رشيد باشا في السنة ١٨٥٧ . وتناوب الصدارة زهاء عشر سنوات بعد ذلك كل من عالي باشا ومحمد فؤاد باشا . ولم يكونا أقل رغبة من مصطفى رشيد باشا في الاصلاح او اقل ثقة بالانكليز واعتماداً عليهم . ورأى فؤاد باشا ان الدولة كانت زراعية اكثر منها صناعية او تجارية وان موارد الخزينة كانت متقطعة تدر عليها في مواسم معينة من السنة وتنضب زهاء خمسة اشهر فتضطر الدولة الى اللجوء الى وسيلة من ثلاث او الى الثلاث معاً وذلك لايجاد النقد اللازم لتغطية نفقاتها غير المتقطعة : اما الاستدانة او الاستلاف على اساس ما سيلزم من ضرائب او اصدار الاوراق المالية . وبانت عواقب الثلاث وخيمة بالخبرة في السنوات الاخيرة . فأراد فؤاد باشا ان ينشىء بنكاً حكومياً يشابه بنك انكلترة وبنك فرنسة . وكان البنك العثماني قد قام بتعهداته خير قيام ففاتحت الصدارة ادارة البنك في ذلك وتم الاتفاق في الرابع من شباط من السنة ١٨٦٣ على ان يتحول البنك العثماني من بنك تجاري عادي الى بنك حكومي تجاري ويتخذ اسماً له « البنك السلطاني العثماني » وذلك برأس مال قدره سبعة وستون مليوناً وخمس مئة الف فرنك افرنسي ولمدة ثلاثين سنة . وجعلت اسهمه مئة وخمسة وثلاثين الف سهم ثمن الواحد منها خمس مئة فرنك منها ثمانون الفاً بيد المتمولين الانكليز وخمسون الفاً بيد المتمولين الفرنسيين وخمسة آلاف بيد الاتراك العثمانيين .

وكانت بيروت قد تقدمت تقدماً ملموساً منذ اوائل القرن التاسع عشر بفضل تيقظ ابنائها ومهارتهم في التجارة وانتشارهم في امهات مدن اوروبة وبفضل ميزات مرفئها الطبيعية وتوسط موقعها الجغرافي . وآثرها قناصل الدول الاوروبية ورعاياها لحماية متاجرهم وتأمين بضائعهم نظراً لقربها من مركز الحكومة اللبنانية . فأصبحت في منتصف القرن نفسه ثغر ثغور لبنان وسورية وفلسطين ونزح اليها عدد كبير من ابناء الجبل وابناء الداخلية فارتفع عدد سكانها من ثمانية آلاف في مستهل القرن الماضي الى اربعة وعشرين الفاً في منتصفه . وسجلت صادراتها ووارداتها رقماً قياسياً في النمو السريع ما بين السنين ١٨٥٣ و ١٨٥٦ و ١٨٥٧ . واليك الجداول التالية وقد بناها المستر لويس فارلي على معلوماته الخاصة وعلى تقارير قنصل بريطانية في بيروت آنئذ :

واردات بيروت بالليرات الانكليزية

المصدر	١٨٥٣	١٨٥٦	١٨٥٧
بريطانية العظمى	٢٢٥٨٧٥	٤٣٤١٦٦	٢٧٦٤٧٢
النمسة	٢٦٨٥٦٩	٢٦٨٠٨١	٣٥٣٠٠٥
فرنسة	١٠٩٠٢٠	٢٦٠٧٨٨	٤٥٣٥٨٠
علم القدس	٠٠٣٥٤٠	—	—
نابولي ورومه	٠٠٨٨٩٩	—	—
سردينيـــة	٠٠٤٤٢٠	٧٣٥٤	٣٣٥٥
توسكانـــة	٠٠٦٨٢١	٤١٥٦	٣٠٦٥
اليونـــان	٠٠٣٢٠٠	١٣٤٢	٢٨٧٨
روسيـــة	٠٠١٣٠٠	—	—
نـــروج	٠٠١٠١٥	—	—
هولنـــده	٠٠١٠٠٠	١٩٦٩	١٥٦٠
المجمـــوع	٧٢٢٨٦٤	١١٦٢٦٧٦	١٣٢٤٥٥٠

صادرات بيروت بالليرات الانكليزية

المكان المقصود	١٨٥٣	١٨٥٦	١٨٥٧
بريطانية العظمى	٠٤١٩٩٥	٠٤٥٣٣٠	٠٦٦٩١٢
النمسة	٣٣٢٨٧٨	٢٦٧٠٦٢	٣٤١٣٩٠
فرنسة	١٦١٠١٦	٢٤٧٢٤٤	٢٨٦٧٨٧
الاناضول وما يليها	٠٦٧٨٢٠	٢٠٢٢٣٩	٢٥٤٩٣٤
علم القدس	٠٠١٤٧٠	—	—
سردينية	٠٠١١٤٥	٠١٧٦٣٢	٠٠٥٠٥٠
توسكانـــة	٠٠١٠٠٠	٠١٢١١٥	٠٠٨٢٠٨
اليونـــان	٠٠٥٤٠٠	٠٠٣٧٧٩	٠٠٢٥١٧
روسيـــة	٠٠١٠٥٠	—	—
الولايات المتحدة	٠٠٩٠٠٠	٠٠٠٢٥٦	٠١٦٠٠٠
هولنـــدة	٠٠٠٧٧٠	—	٠٠١٦٠٠
المجمـــوع	٦٢٤٥٤٤	٧٩٥٦٥٧	٩٨٣٣٩٨

ولعله يلذ للقارىء ان يعلم اننا كنا نستورد في هذه الحقبة اكثر فحمنا الحجري من بريطانية وبعضه من النمسة وان معظم حاجتنا من البن والسكر كانت تُسد من اسواق الآستانة وازمير وان نحاسنا ورصاصنا كان يرد الينا في الدرجة الاولى من فرنسة ومستعمراتها وفي الدرجة الثانية من النمسة فالاناضول وبريطانية وان عقاقيرنا الطبية كانت ترد من النمسة وفرنسة وطرابيشنا من فرنسة فالنمسة وفولاذنا من فرنسة في الدرجة الاولى وبعدها النمسة والاناضول وبريطانية وبعضه من سردينية ومنسوجاتنا القطنية من بريطانية وفرنسة والنمسة والحريري منها من النمسة اولاً فالآستانة ففرنسة والصوفي من فرنسة فالنمسة والورق والسجلات من فرنسة اولاً فالنمسة فتوسكانة فسردينية .

ويستدل من بعض مخلفات التجار المحليين واقوال الرحالة من الفرنجة ان صيارفة بيروت كانوا يتقاضون بين الـ ٢٤ والـ ٣٦ في المئة على ما يسلفون للتجار لمدة شهرين او ثلاثة ورهائن من الاملاك الثابتة وغيرها . فجاء البنك العثماني وأسس في السنة ١٨٥٦ فرعاً له في بيروت متقاضياً ١٦ في المئة لمدة تسعين يوماً دون رهائن فنشطت التجارة نشاطاً محسوساً وقفزت ارقام الواردات الانكليزية من ٢٢٥٨٧٥ في السنة ١٨٥٣ الى ٤٣٤١٦٦ ليرة انكليزية كما سبق فأبنّا في الجدول الاول . وازداد عدد الفرنجة المقيمين في بيروت حتّى قارب الالف في السنة ١٨٥٧ وقامت في بيروت فنادق لايوائهم وفي مقدمتها فندق المنظر الجميل لصاحبها نقولا بسول فتقاضت عن الراكب الواحد في اليوم الواحد ليرة افرنسية ذهباً . وهكذا دواليك ولا سيما بعد ان أصبح البنك العثماني البنك « السلطاني » العثماني في السنة ١٨٦٣ .

العلم والتعليم ١٨٦٠ - ١٨٧٤

تمهيد

وكانت رومة عاصمةُ الكثلكة لا تزال تدفع بمن تهذب من اكليروس الطوائف الغربية الى لبنان فيعودون الى بلدهم الام مملوئين همة ونشاطاً ساعين في نشر العلم في ربوعه [وكانت مدرسة عين ورقة لا تزال ماضيةً في عملها تدرّس العربية والسريانية واللاتينية والايطالية وسائر العلوم الحديثة حتّى الفلسفة واللاهوت فتعزز بعملها هذا النهضة العلمية في لبنان وتدفع بخريجيها من مختلف الطبقات الى ميدان العمل المجدي . وفي طليعة هؤلاء البطاركة والمطارنة والعلمانيون . وأشهر هؤلاء المعلم بطرس البستاني وفارس الشدياق ورشيد الدحداح والشيخ بشاره الخوري والخوري فرنسيس زوين والخوري ارسانيوس الفاخوري]. وكان قد ظهر في بيروت مبشرون اميريكيون يعملون « في حقل الرب » بتسهيل الرجوع الى الكتاب المقدس والاطلاع عليه وذلك بما انشأوا من مدارس ابتدائية في قرى لبنان في قلبه وجنوبيه وبمدرستهم الثانوية التي اقاموها في عبيه لاعداد المعلمين لمدارسهم الابتدائية ولاخراج المبشرين الوطنيين في آن واحد . وانشأ اللعازريون مدرستهم الشهيرة في دير قديم لليسوعيين في عين طورة الزوق في السنة ١٨٣٤ وباشروا تدريس اللغتين العربية والفرنسية مع ميل خاص الى اتقان اللغة الفرنسية . وتبع الاميريكيين بعد وصولهم بثلاث عشرة سنةً (١٨٣١) الآباء اليسوعيون فأسسوا في غزير في السنة ١٨٤٣ في دار الامير حسن شهاب مدرسة ثانوية كان القصد منها فيما يظهر التعاون مع الروم الكاثوليك في تثقيف اكليرسهم كما بدأوا بتشكيل شبكة من المدارس الابتدائية في طول لبنان وعرضه للذكور وللاناث تضاهي المدارس الاميريكية وتحجز عنها احداث الطوائف الغربية . ونشط الروم الارثوذكس في هذه الآونة نفسها (فاسسوا مدرسة اكليريكية في دير البلمند بالقرب من طرابلس في السنة ١٨٣٣ ومدرسة الثلاثة الاقمار في بيروت في السنة ١٨٣٥) وكان الامراء والمشايخ والاغنياء لا يزالون يستقدمون « المعلمين » الى دورهم الخاصة يدرسون ابناءهم القراءة والكتابة والحساب . وقد تتوسع حلقة التدريس هذه فتشمل

ابناء الاصدقاء والاقارب فتصبح مدرسة صغيرة على نحو نشأ في المختارة حول الشيخ ابراهيم الاحدب . وكان قد استقدمه سعيد بك جنبلاط لتعليم ولديه نجيب ونسيب فالتحق بهما والتف حول الشيخ ولدا مدبر اموره الشيخ قاسم حصن الدين والشيخ قاسم حسين شمس من غريفه وحسن ابن الماس احد عبيد البيك وأسعد ابو صوان ابن احد خدام البيك وعلي حسين طليع ابن شيخ العقل من جديدة الشوف وشاكر الخوري من جزين . وذلك « مع حفظ المقام ومراعاة النسبة » بمعنى ان الشيخ الاحدب كان يبدأ بتدريس البكوات اولاً حتى اذا حفظوا انصرف الى الاهتمام بسائر الطلبة .

وكان قد نقل المرسلون الاميركيون مطبعتهم العربية من مالطة الى بيروت في السنة ١٨٣٤ واستحضروا لها ادوات جديدة وحروفاً مشرقة فاشتغلت بطبع مؤلفات عديدة معظمها ديني وتعليمي . وفي السنة ١٨٤٨ انشأ الآباء اليسوعيون مطبعة حجر ما لبثوا ان استبدلوها في السنة ١٨٥٤ بمطبعة على الحروف . وعادت مطبعة مار جرجس الارثوذكسية الى العمل في السنة ١٨٤٨ بفضل جهود متروبوليت ابرشية بيروت بنيامين . وانشأ خليل الخوري الشويفاتي المطبعة السورية في السنة ١٨٥٧ . وفي السنة التالية أحدث الطبيب ابراهيم النجار مطبعته الشرقية . وكانت مطبعة الشوير لا تزال ماضية في عملها منذ السنة ١٧٢٢ منهمكة في كتب الطقوس الدينية . وكان بين مطابع القرى خارج بيروت وطرابلس مطبعة دير طاميش انشأتها الرهبنة في ١٨٥٨ ومطبعة اهدن لصاحبيها رومانوس يمين والخوري (المطران) يوسف الدبس المؤرخ الشهير .

وشمل هذا المجهود الاول العمل العلمي المشترك فأسس عدد من الادباء اللبنانيين اول ناد علمي عربي في بيروت في السنة ١٨٤٧ – جمعية الاداب والعلوم – وكانوا يجتمعونَ في اوقات معينة ويلقون بعض المحاضرات الادبية والتاريخية والعلمية ثم ينشرونها كراريس صغيرة لتعميم فائدتها . وبين هؤلاء الشيخ نصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني وميخائيل مدوّر وسليم دي نوفل ويوسف كتفاكو وعالي سميث المرسل الاميركي المستعرب . وهب اليسوعيون لمجاراتهم فانشأوا في السنة ١٨٥٠ الجمعية الشرقية . وأشهر اعضائها الطبيب ابراهيم النجار والشيخ حنا ابي صعب والشيخ طنوس الشدياق والشيخ حبيب اليازجي وفرنسيس مسك . وفي هذه الآونة نفسها في اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٨٥٨ ظهرت جريدة حديقة الاخبار في بيروت لصاحبها خليل الخوري وهي اول جريدة اخبارية سياسية عربية . ثم انشأ لبناني آخر فارس الشدياق الجوائب الشهيرة في الآستانة سنة ١٨٦٠ تبعتها جريدة لبنان الرسمية سنة ١٨٦٣ .

وكان قد خطر لرجل انكليزي من اهل اليسار والسعة ان يخرج الى لبنان ليقضي فيه بقية ايامه . فركب البحر ونزل في بيروت سنة ١٨٤٣ . ولم يلبث ان صعد الى التلال المشرفة وضرب خيامه في ضاحية عاليه فكان فيها غريب الدار واللغة والاخلاق . واستغرب الاهلون حلوله بينهم فكانوا يخرجون الى مضرب خيامه للتفرج عليه والخاصة منهم يتحدثون في امره ويحسبون لمجيئه الف حساب . ثم نما خبره الى شرشر بك في بجواره فاستقدمه اليه وابتهج بملقاه وأشار عليه ان ينتقل ويسكن عنده . ففعل وابتنى لنفسه داراً صغيرة وجعل امامها حديقة يختلف اليها ويشتغل فيها . وكان بين ابناء بجواره شابان صليبيان سليمان والياس اخذا يحومان حوله ويسعفانه ببعض حاجاته . وبترددهما عليه تمكنا من التقاط بعض الكلمات والجمل في اللغة الانكليزية كانا يكتبانها بحروف عربية ويستخدمانها عند الاقتضاء . فحرك ذلك من اهتمام هذا الانكليزي المستر لوذيان بشأنهما وعطفه عليهما .

وكان من ضروب عنايته انه شوّق سليمان وسهّل له الدخول في مدرسة الاميركان في عبيه . وكانت لا تزال في حداثة عهدها والطلبة فيها قليلون لاهتمام شباننا آنئذ بما كان اهم عندهم بصيانة النفس وتحصيل الرزق . وارتحل سليمان الى عبيه لتحصيل العلم وارتضع معه على كرور الايام المذهب الانجيلي . اما الياس فاتسع نطاق معارفه باختلاطه مع اخيه ومع المستر لوذيان وتمرّس على التكلم بالانكليزية حتى أصبح قادراً ان يعبّر عن مراده بها .

ولما كانت السنة ١٨٥٢ عزم المستر لوذيان على العودة الى بلاده فاستصحب الياس معه لكي يتفرج على البلاد ويطلع على شيء من احوال الانكليز . وكان شوق الياس يزداد يوماً فيوماً الى التعرف الى الانكليز وبلادهم فقبل الدعوة ورحل مع من غمره بفضله . وبعد ان بلغا مدينة المستر لوذيان طاف الانكليزي بصديقه اللبناني في المدينة فبلغ الدهش من هذا مبلغه ولا غرو فالفرق بين مزرعة في لبنان ومدينة للانكليز كان عظيماً جداً . ومما نبّه فكرة الصليبي الدينية ما شاهده من الهدوء والسكينة ايام الآحاد وما سمعه من الكلام الحي في المعابد . فالناس كانوا لا يخرجون نهار الاحد من منازلهم الا للمعابد ثم يعودون ولذلك كنت ترى ازقة المدينة وشوارعها خاليةً خاوية . وأهل الدين على جانب عظيم من الورع والتقوى يخرج كلامهم من القلب الى القلب .

وذكر الصليبي عند ذلك ابناء وطنه وتمنى لو ساعد الانكليز بالمال لتنوير اذهان اللبنانيين بواسطة المدارس . وكاشف صديقه المستر لوذيان بأمنيته فاستحسن غيرته

ومحبته للخير وطفقا يسعيان معاً يقصدان أهل الاحسان ويستدران جودهم ويعقدان الاجتماعات العمومية والمستر لوذيان يعرّف القوم بالصليبي ويذكر لهم حاجة لبنان الى العلم والتهذيب . فتمّ لالياس بعض النجاح واجتمع لديه ثمانون ليرة انكليزية . وفي اياب الاثنين الى لبنان سنة ١٨٥٣ مكثا في بيروت اياماً فاوض في غضونها الياس الصليبي المبشرين الاميريكيين وقدّم لهم المبلغ اعتقاداً منه انهم يحسنون انفاقه في سبيل المدارس اكثر منه . فأبوا قبول التقدمة . وقالوا له تصرف انت واخوك بالمبلغ ونحن نتخلى لكما عن مدرستنا في بحوّاره .

ووصل الصليبي وصديقه الى بحوّاره فسُرَّ الاهل والاصدقاء بعودتهما سالمين . وبعد مشورة اخيه والتروي في الامر قرّ رأيه ان يبتني مدرسة . فوهبه شرشر بك ما اختار من الارض وبنى فيها بيتاً صغيراً . وأبى الياس الصليبي الا ان يشرك جيرانه في القرى القريبة بمال الاحسان ففتح ببعضها مدارس كان ينفق عليها مما بقي في يده : في بتاتر ١٨٥٣ وبتخنيه ١٨٥٤ وعاليه ١٨٥٥ . وكان الاهلون يثنون عليه ويشكرون له اعماله المبرورة وسعيه في سبيل التعليم . فشحذ ذلك من عزيمته وزيّن له وجوه الآمال . فحدثته نفسه بالسفر ثانية الى بلاد الانكليز لكي ينتجع فضل اصدقائه الذين ملأوا كفيه اولاً بمال الاحسان . واجتمع باخيه سليمان وبالمستر لوذيان وتفاوضوا في أمر المدارس وتوسيع نطاقها . فأظهر المستر لوذيان ريبه في نجاح « المعلم » الياس هذه المرة . ولكن الحاح الناس في القرى المجاورة بطلب المدارس زاده رغبة في السفر. فركب البحر في ربيع السنة ١٨٥٤ مزوداً برسائل التوصية . وحين بلغ مقاطعة كارليل منتجعه القديم زار معارفه وقدم اليهم الرسائل فلاقوه بالبشر واكرموا مثواه ووعدوه خيراً . وأشار أحدهم ان يؤلف المعلم الياس جمعية من كبار الرجال والادباء يكونون امناء على المال الذي يجمع . ففعل وشكل لجنة امناء برئاسة القس جايمس لمسدن عميد كلية اللاهوت في ابردين وعضوية عدد من مشاهير القسس وكبار الرجال بينهم المستر وليم لكي امين صندوق بنك سكوتلانده للتجارة والدكتور روبرت يونغ امين سر عام . ولم يلبث طويلاً حتى نشرت الجرائد اخباره فذاع امره وعقدت الاجتماعات الخاصة والعامة لتأييد مشروعه فتوفر لديه مبلغ كبير من المال . وكتب الى اخيه المعلم سليمان وصديقه الحنون المستر لوذيان بما لقيه من الحفاوة والاكرام وبما جمع من المال . فقام المعلم سليمان الى عبيه ليقف على رأي معلمه المستر كلهون الاميريكي بشأن المدارس . فكان من ذلك ان جرى في اواخر السنة ١٨٥٥ اجتماع بعض الكبار من اهل الفضل والعلم في دار المستر سكوط في شملان وهم المستر كلهون وقنصل «اميركة» والمستر سكوط والمستر لوذيان والمعلم بطرس البستاني والمعلم سليمان الصليبي .وقد اخذوا على انفسهم النظر في شؤون هذه المدارس.وعينوا

باجماع الرأي ان يكون المستر بلاك التاجر الانكليزي في بيروت الذي كان قد اشتهر بصدقه واستقامته في طول لبنان وعرضه ان يكون هو اميناً للصندوق .

وعاد المعلم الياس الصليبي الى لبنان سنة ١٨٥٦ ظافراً كبير الامل راسخ العزم فزاد في عدد المدارس على التدريج حتى بلغت خمس عشرة : مدرسة سوق الغرب اليومية للذكور سنة ١٨٥٦ ومدرسة عيناب سنة ١٨٥٨ ومدرسة بشامون ومدرسة الشوير سنة ١٨٥٩ ومدرسة بسكنتا ومدرسة معلقة زحلة سنة ١٨٦٠ ثم مدارس رأس المتن والعبادية وزحلة سنة ١٨٦١ ومدرسة سوق الغرب للبنات سنة ١٨٦٣ ومدرستا بحمدون وكفرزبد سنة ١٨٦٤ ومدرسة تولا البقاع سنة ١٨٦٦ ومدرستا دير قوبل ودير الغزال سنة ١٨٦٨ ومدرسة مجدليا للذكور ومدرسة بحمدون للاناث سنة ١٨٧٠ ومدرسة حمانا سنة ١٨٧١

وكان يجد صعوبة متزايدة في تدبير المعلمين لان المتخرجين من مدرسة عبيه الاميركية كانوا لا يزالون قليلين . ولم يجد باباً للفرج اقرب من انشاء مدرسة عالية في سوق الغرب تدرس الشبان العلوم وتدربهم في فن التدريس . ولما كانت سنة ١٨٥٩ حاول مراراً ان يقنع بعض الشبان بان يتعلموا ويستعدوا ثلاث سنوات ثم يخرجوا للتدريس فلم يُفلح . واخيراً اغراهم بالدراهم فتعهد ان يعطي كل واحد منهم خمسة غروش عن كل يوم تدريس تعويضاً عما يخسرونه من ترك اعمالهم . فكانوا يتعلمون نهاراً ويبيتون ليلاً في بيوتهم . وهكذا ابتدأت المدرسة بستة شبان كان سليمان الصليبي وابراهيم المعلوف يدرسانهم العلوم بالعربية والمستر اوذيان يعلمهم مبادىء الانكليزية .

وبقي المعلم الياس يتردد الى بلاد الانكليز كل سنتين او ثلاث مجهزاً باخبار اعماله والقصص التي تؤيد منافع المدارس . وكان اصدقاؤه يستقبلونه بالاكرام ويمهدون له سبل النجاح . وكان همه الاكبر ان يجعل المدرسة العالية على قواعد راسخة . فكاتب اصدقاءه في بلاد الانكليز مبرهناً وجوب تشييد بناية خاصة للمدرسة يجد فيها المعلمون والطلبة الراحة في الدرس والتدريس . وتعهد ان يقدم الارض مجاناً . وحين تم لهم جمع النفقة اللازمة للبناء كتبوا اليه بذلك . فأفرز من ملكه قطعة فسيحة في اعلى سوق الغرب . ولم ينقضِ الحول حتى تم البناء وانتقل اليه المعلمون والتلامذة سنة ١٨٦٥ .

وسنة ١٨٦٨ سافر المعلم الياس الصليبي الى بلاد الانكليز لامور عائلية . ولما درت جمعية المدارس بقدومه طلبت اليه ان يمكث فيها برهة يطوف في اثنائها على اهل الاحسان وينهض هممهم ويحرك اريحيتهم لعمل الخير . ففعل وجمع للمدارس ما ينيف عن ثمان مئة ليرة . وفي سفرته هذه تعرف بعقيلة بارفيلد وابنتها وهما من

ربات الوجاهة وعظيمات القدر . وكانتا في سياحتهما في لبنان قد زارتا مدارسه وعرفتا احوالها جيداً . ولما آنس منهما اهتماماً بشأن المدارس اغتنم هذه الفرصة وطلب منهما ان تسعيا في جمع النفقة لبناء مدرسة داخلية للبنات فوعدتاه خيراً . ولم ينقضِ الا اليسير حتى انجزتا وعدهما . وبعثت عقيلة بارفيلد تبشره بالنجاح .

وسنة ١٨٦٩ عاد الى لبنان وهو يجرّ اذيال الفوز والنجاح واستصحب معه شابين انكليزيين جعلهما في المدرسة العالية يعلمان الانكليزية فيها ويتعلمان العربية . وافرز قطعة ثانية من ارضه في سوق الغرب لبناء مدرسة البنات . ولم يكن يقتصر على الاهتمام بشؤون المدارس بل كان يلتفت احياناً الى الآلات الزراعية الحديثة فيأتي بها من بلاد الانكليز ويستخدمها في اعماله .

وبعد ان عاد الى لبنان هذه المرة اتهمه حساده باشياء مريبة كتبوا بها الى اعضاء الجمعية في بلاد الانكليز . فأرسلت الجمعية وفداً لزيارة مدارس الصليبي والوقوف على احوالها . ووقع انتخابهم على اثنين من كبار رجال الكنيسة المعروفين بالرصانة والامانة والتحقيق احدهما اسكندر دف الذي قضى سابق ايامه مبشراً في بلاد الهند والآخر جايمس لمسدن عميد كلية اللاهوت في جامعة أبردين . وبلغا بيروت في اواسط نيسان من السنة ١٨٧٠ ومكثا فيها اسبوعاً قضياه في زيارة مدارس المرسلين فيها لكي يتمكنا من مقارنتها بمدارس الصليبي . ثم صعدا الى سوق الغرب وشرعا فور وصولهما يفحصان المدارس ويزورانها الواحدة تلو الاخرى في الغرب والمتن والبقاع فوجداها في حالة حسنة من الترتيب والنظافة والعناية بالتعليم والتهذيب ورأيا ان منزلتها لا تنحط عن منزلة غيرها من مدارس المبشرين في البلاد . وركبا البحر وعادا في منتصف حزيران من السنة ١٨٧٠ وأسقطا عن الصليبي ما اتهمه به اهل الظنون فخرج بريء الساحة نقي الثوب .

وفي السنة ١٨٧١ استقدمت الجمعية المعلم الياس الى ادنبرج لياخذوا رأيه في تعيين مساعد له يكون راعياً للكنيسة في سوق الغرب ومديراً للمدرسة العالية فيها . فسافر اليهم ووقف على رغائبهم وتعرف بالرجل الذي توجهت انظارهم اليه وهو القس يوحنا راي فوافقهم على رأيهم . وجاء القس يوحنا راي الى سوق الغرب وتولى ادارة المدرسة العالية فيها واستلم زمام المدارس الاخرى لان المعلم الياس كان لا يزال في بلاد الانكليز . ولما رجع الى لبنان سنة ١٨٧٣ استلم الرئاسة العامة على المدارس وأقرّ القس يوحنا راي في ادارة المدرسة العالية وجريا في الاعمال معاً جرياً حسناً الى اواخر السنة . ثم بعدت شقة الخلاف بينهما وافضى الامر الى استعفاء الصليبي من الرئاسة .

وكان بين طلبة المدرسة العالية في سوق الغرب شاب شويري لبناني لم يتجاوز

الثالثة عشرة من العمر حاد الذهن عظيم الموهبة قوي الارادة فتعرف اليه المستر راي وأعجب بمقدرته في الترجمة وتعلّق به هو المعلم جرجس همام الذي اشتهر فيما بعد بثورته على اساليب تعليم القراءة في المدارس اللبنانية فأصدر « مدارجه » وأحدث انقلاباً عاماً في طرق التعليم في لبنان وغيره من الاقطار المجاورة . ورأى المستر راي بعد اختلافه مع المعلم الياس ان يرحل الى الشوير فيجعل منها مركزاً جديداً لاعمال المدارس ويبعد عن المعلم الياس الصليبي . ففعل وأسس مدرسة الشوير العالية في السنة ١٨٧٤ اما المعلم الياس فانه رحل بعياله الى لندن واقام فيها .

وكان ما كان من الحوادث في لبنان سنة ١٨٦٠ وكثر عدد اللاجئين الى بيروت فتحركت اريحية امرأة انكليزية كانت قد فقدت زوجها في انطاكية وجاءت الى بيروت لتؤاسي غيرها من الارامل مسز بواين طومسن (١) . وكانت قد كتبت الى صديقاتها في بلاد الانكليز تستحث الارامل الانكليزيات ان يعطفن على ارامل لبنان وايتامه فتجمع لديها مبلغ كبير من المال . وفتشت عن مترجم يعاونها في العمل فقدم المرسلون الاميركيون اليها شاباً كان قد نزح عن دمشق من جراء حوادثها المؤلمة هو المعلم سليم كسّاب . فتعاونا معاً في ايواء اللاجئات واليتامى وتقديم المعونة لهم . وما ان فعلا حتى ادركا وجوب الاعتناء باخلاق اليتامى وتربيتهم فانشأا المدارس لهذه الغاية في بيروت اولاً ثم في صيدا وصور وزحلة وحاصبيا وبعلبك . وأسسا بعملهما هذا كلية البنات الانكليزية في بيروت سنة ١٨٦٠ التي ما فتئت تخرج اللبنانيات على خوف الله وتقواه وعلى الشيء الكثير من العلم والادب . وشمل اللورد دفرون هذا العمل بعنايته فزار مسز طومسن في مركز عملها وأشرك صديقه محمد فؤاد باشا في هذه الرعاية فقدم الوزير التركي العثماني مبلغاً من المال وافراً وشوق زوجته وابنته الى زيارة مسز طومسن ثم استصدر لها فرماناً سلطانياً بمشروعها في اثناء زيارة ولي عهد بريطانية واشقائه للدولة ولبنان وبيروت سنة ١٨٦٢ .

هذه كلمة في مدارس الانكليز في هذه الحقبة جاءت طويلة لسببين رئيسيين اولهما انه قام من ابنائها من استفاض في الكلام عنها — المعلم جرجس همام والمعلم سليم كساب — والثاني اننا جعلنا من كلامنا عنها نموذجاً لاعمال المرسلين في حقل التعليم في لبنان في اوائل عهد المتصرفية . هذا ولو افسحنا لكل فئة من المدارس ما افسحناه لهذه لطال بنا الكلام .

---

(١) Mrs Bowen Thomson

وفي مطلع السنة ١٨٦٢ تقدم سعيد بك تلحوق وكيل الطائفة الدرزية في مجلس وكلاء الطوائف الكبير من داود باشا مبيناً حاجة طائفته للمدارس مقترحاً انشاء مدرسة « للعلوم العربية واللغات الاجنبية » مقدماً باسم « معتبري طائفته » ربع اوقاف الدروز العمومية لهذه الغاية مفرقاً بين هذه الاوقاف واوقاف المعابد مشيراً الى امكانية تحويل « خلوات » الشيخ احمد امين الدين في عبيه الى مدرسة تدعى المدرسة الداودية اعترافاً بفضل المتصرف واهتمامه « بتقديم جميع الطوائف وتمدينها » . فاهتم المتصرف لمعروض وكيل الطائفة الدرزية وأحاله الى مجلس الادارة الكبير للنظر فيه ولاعداد « النظامنامه » اللازمة للمدرسة . فاستصوب المجلس رأي وكيل الطائفة وأقر ما يلي :

اولاً : ان يصرف ربع الاوقاف العمومية المخصصة للمدرسة بواسطة مخمنين من ذوى الثقة يسموا من قبل شيخي العقل ومدير الطائفة (١) ووكيلها .

ثانياً : ان ينصّب على ايرادات الاوقاف المخصصة ناظر من طرف المدير والوكيل والشيخين المذكورين ويرتب له معاش منها بحسب استحقاق خدمته .

ثالثاً : ان يكون مركز المدرسة في قرية عبيه لانها متوسطة بين قرى الطائفة ولانها جيدة الهواء .

رابعاً : ان الناظر ينتقي معلمين للغة العربية ومعلماً للغات الاجنبية تكون فيهم الكفاءة لذلك التعليم ولتعليم الحساب ايضاً ويرتب لهم معاشاً حسب استحقاقهم .

خامساً : ان يقبل الناظر المذكور تلامذة بقدر احتمال ايرادات المدرسة انفقات اكلهم وشراء كتبهم .

سادساً : يعين الناظر خدامين من طباخين وفراشين ومكارية بقدر اللزوم .

سابعاً : ان يصرف الناظر المذكور على ما تحتاج اليه التلامذة من مأكل ومنزل ومشترى كتب فقط . واما فرشاتهم وكسوتهم وغير ذلك فيتكفل به اهلهم .

ثامناً : ان يكون تعليم التلاميذ سبع ساعات في النهار مقتطعة لا متواصلة .

تاسعاً : ان تكون رتبة التلاميذ الذين عند احد المعلمين في اللغة العربية تجهيزية والرتبة الاخرى التي تكون عند المعلم الثاني تكميلية وكلا المعلمين يعلمانهم اصول اللغة والحساب والخط ومراسم الادب . وكذلك معلم اللغات يعلم تلامذته ما ذكر في اللغات التي يعرفها .

---

(١) هكذا ولا نعلم من هو ولماذا سمي مديراً. وقد يكون مدير قضاء الشوف الامير ملحم ارسلان .

عاشراً : ان يعين للتلامذة في السبعة يوماً واحداً للتعطيل .

حادي عشر : ان يجري في السنة على ما تعلمه التلاميذ فحصاً عاماً بحضور المعلمين الثلاثة والناظر ومن شاء من معتبري الطائفة وابهات التلاميذ وخلافهم .

ثاني عشر : ان يقدم الناظر في كل سنة الى مدير ووكيل وشيخي الطائفة دفتراً موضحاً به مدخول الاوقاف المارة الذكر والمصاريف التي انفقت لتحصيل ذلك المدخول ولمقتضيات المدرسة المذكورة ليكون كل ذلك معلوماً ومصادقاً عليه منهم .

المدارس الرسمية

ولم يغفل المتصرف الاول عن اهمية التعليم الرسمي في بلد طائفي مثل لبنان . فأمر بانشاء بعض المدارس الرسمية للذكور والاناث نعرف منها مدرستي دير القمر (للذكور والاناث) ومدرسة شحيم للذكور .

مدرسة لبنانية لا طائفية

وكان المعلم بطرس البستاني يرى ان الطائفية الذميمة سُم قاتل للبنان الفتي المستقل فقاومها بنفيره اولاً ثم بمدرسته الوطنية فجمعيته العلمية .

هو بطرس ابن بولس البستاني ولد في الدبية في اقليم الخروب سنة ١٨١٩ ودرس مبادىء العربية والسريانية على الخوري مخائيل البستاني . ثم أرسله نسيبه المطران عبد الله البستاني رئيس اساقفة صور وصيدا الى مدرسة عين ورقة . فتلقى فيها الآداب العربية واللغات السريانية والايطالية واللاتينية ثم العلوم الفلسفية واللاهوتية والقانون الكنسي والتاريخ والجغرافية والحساب . وأراد البطريرك يوسف حبيش ان يرسله الى رومه لاكمال علومه فيها فلم ترضَ امه اذ كان ابوه قد توفي . فعيّن مدرّساً في مدرسة عين ورقة وبقي فيها حتى السنة ١٨٤٠ . وقدمت بوارج الدول الى بيروت لاكراه المصريين على الخروج من لبنان وسورية فاستخدمه الانكليز ترجماناً . وتعرّف حينئذ الى بعض القسس الاميركيين في بيروت فعلمهم العربية وعرّب لهم كتباً نشروها فتمكنت اواصر الصداقة بينه وبينهم حتى شايعهم وتابعهم على مذهبهم الانجيلي . وفي السنة ١٨٤٧ انشأ المرسلون الاميريكيون مدرستهم في عبيه وجعلوا الدكتور كورنيليوس فانديك رئيساً عليها فطلب الى المعلم بطرس ان يعاونه فيها ففعل وأقام على ذلك سنتين كاملتين وألف اذ ذاك كتابه الشهير « كشف الحجاب في علم الحساب » الذي دُرّس في كثير من مدارس لبنان زهاء نصف قرن من الزمن . ثم نزل الى بيروت فعيّن ترجماناً في قنصلية الولايات المتحدة . وعكف على التأليف والترجمة ودرس

في أثناء ذلك اللغتين العبرانية واليونانية . وعاون الدكتور عالي سمث الاميريكي على تعريب الكتاب المقدّس . ثم توفي عالي سمث فخلفه في عمل التعريب هذا الدكتور كورنيليوس فانديك . وكان المعلم بطرس يشتغل في الوقت نفسه بقاموسه العظيم محيط المحيط « كخدمة جزئية من محب للوطن اجلُّ مرغوباته ومقاصده ان يرى ابناء وطنه يتقدمون في الآداب والمعارف والتمدن تحت لغتهم الشريفة وان تكون وسائط ذلك ميسورة لخاصتهم وعامتهم على أتم مرام » . فانجزه في مجلدين ضخمين في السنتين ١٨٦٧ و١٨٦٩ وقال مذكراً :

قل لمن لا يرى الاواخر شيئاً ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديث قديما

وجاء محيط المحيط ممتازاً عن جميع ما ظهر قبله بترتيبه ترتيباً عقلياً باعتبار الحرف الاول من الثلاثي المجرد وبجمعه لكثير من اصطلاحات العلوم والفنون وبشرحه اصول بعض الالفاظ الاعجمية وبجمعه لكثير من الالفاظ العامية الشائعة آنئذ وبسهولة عبارته . وها هو بعد مرور خمسة وثمانين عاماً على ظهوره لا يزال افضلَ المراجع المطولة من نوعه . ووعد المعلم بطرس في آخر محيطه هذا بتأليف معجم لاسماء الاعلام المشاهير . ثم رأى ان يتوسع في مشروعه هذا فأخذ في تأليف دائرة المعارف .

وحزّت حوادث الستين في نفسه فهب يوزع في الاوساط السياسية سلسلة من « الوطنيات » دعاها نفير سورية . وبلغت اعدادها الثلاثة عشر كان يسميها الوطنية الاولى والوطنية الثانية الخ . فقال في الاولى منها في التاسع والعشرين من ايلول سنة ١٨٦٠ : « يا ابناء الوطن انكم تشربون ماء واحداً وتتنسمون هواء واحداً ولغتكم التي تتكلمون بها وارضكم التي تطأونها وصوالحكم وعاداتكم فهي واحدة . واذا كنتم لا تزالون الى الآن سكارى من شرب دم اخوتكم في الوطن او طايشين من عظم المصايب الواقعة عليكم فلا بد من انكم عن قليل تستفيقون من هذه الغفلة وتدركون معنى هذه النصايح وصالحكم العمومي » . وقال في وطنيته الثالثة : « ان الديانة الصحيحة من شأنها ان تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر . وكل ديانة ليست لها هذه المزية لا تستحق ان تسمى ديانة . ومن فضل الديانة المسيحية على سواها انها تأمر بمحبة الاعداء ايضاً وبتحويل الخد الايمن على الايسر وبمقابلة الشر بالخير » . وقال في وطنيته الرابعة في الخامس والعشرين من تشرين الاول من السنة نفسها : « يا ابناء الوطن نحذركم من اربعة التعنت والتحكم والتعصب والبطل . فانها ليست من الخير في شيء . وننبهكم الى الكلمة الذهبية كما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوا انتم ايضاً بهم » . وقال في احدى وطنياته الاخيرة في الثاني والعشرين من شباط سنة ١٨٦١ : « يا ابناء الوطن لقد اتصفتم واشتهرتم بالكرم والنخوة والحماسة والحذق والمروءة

والسماحة . وانتم الآن ممتطون سنام الجيل التاسع عشر جيل المعرفة والنور جيل الاختراعات والاكتشافات جيل الاداب والمعارف جيل الصنايع والفنون جيل التقدم والتمدن . لا تدعوا تلك الفتن الشديدة تحملكم على هجر هذه الحلال بل هبوا وشمروا عن ساعد العزم والهمة . ها الاداب والتمدن ووسائل الاتحاد والالفة واقفة من كل جهة . مزدحمة على ابوابكم تقرع بقوة وسرعة طالبة الدخول . فانبذوا عنكم تعصباتكم الدينية وتحزباتكم المذهبية وعداواتكم الطايفية واغراضكم النفسانية وافتحوا الابواب لتلك الضيوف الفاضلة » .

وفي خريف السنة ١٨٦٣ أدرك البستاني الكبير وجوب زرع بذور المحبة والوئام في افئدة صغيرة طاهرة في افئدة الاطفال فتنمو بنمائها ويجني المستقبل ثمارها فأسس مدرسة وطنية لا طائفية وقبل الطلبة من جميع الطوائف والمذاهب . فتقاطروا اليها من كل الجهات . فكان يدرس فيها اللبناني والسوري والمصري والتركي واليوناني والعراقي والعجمي جنباً الى جنب . وكان المعلم بطرس يتولى رئاستها ويعلّم فيها صفاً باللغة الانكليزية ويخطب في التلاميذ مرتين في الاسبوع يحثهم على التقوى والفضيلة ومكارم الاخلاق . وكان نهار الاحاد والاعياد يرسل كل فئة من الطلبة النصارى مع معلم الى كنيسة طائفتها . وكان ابنه سليم يتولى الرئاسة في غيابه ويعلّم الصف الاول الانكليزي وكانت ساره اخته تعلّم صفاً انكليزياً آخر . وتولى الشيخ نصيف اليازجي الصف العربي الاول والشيخ خطار الدحداح الصف الفرنسي الاول . ونرى بين اسماء المعلمين الآخرين اسماء الشيخ ابراهيم اليازجي والشيخ يوسف الاسير والشيخ قبلان الدحداح والمعلم سعد الله البستاني والمعلم يوسف الباحوط والمعلم ابراهيم نصيف والمعلم خليل ربيز والمعلم سليم تقلا . ونجحت المدرسة نجاحاً باهراً وكافأت الحكومة العثمانية البستاني بوسام مجيدي على انشائها وزارها الولاة مشجعين .

المدرسة البطريركية الكاثوليكية

واستقال اكليمنضوس الاول بطريرك انطاكية على الروم الكاثوليكيين . فالتأم مجمع اساقفتهم في مار يوحنا الشوير في خريف السنة ١٨٦٤ ونادوا باتفاق الرأي بغريغوريوس الاول بطريركاً عليهم . وكان قد درس منذ السنة ١٨٤٧ في مدرسة القديس اثناسيوس في رومه ونال لقب دكتور في الفلسفة . وانشق في اثناء ذلك الروم الكاثوليكيون على انفسهم بسبب تبديل الحساب الشرقي بالغربي وتزعم المطالبين بالبقاء على الحساب الشرقي يوانيكيوس اسقف بالميراس وعاد قسم منهم الى الكنيسة الارثوذكسية . وانشقت الرهبانية المخلصية على نفسها . فرأى البطريرك

الجديد ان لا بد من انشاء مدرسة « ترسل اشعة المعارف والآداب » بين ابناء طائفته فأسس في التاسع من تشرين الاول سنة ١٨٦٥ المدرسة البطريركية في بيروت . ودعا الى « كأس حكمتها » الشبيبة اللبنانية والسورية والمصرية من جميع الملل والمذاهب . وكتب على حجر الزاوية « حب الوطن » واستقدم الى مدرسته عدداً من كبار رجال الادب والعلم آنئذ وفي مقدمتهم الشيخ نصيف اليازجي . وراق عمل البطريرك لحكومة نبوليون الثالث فأيدته بالمال والعطف والحماية .

الجامعة الاميريكية في بيروت

وكان العمل في الكنيسة الانجيلية في الولايات المتحدة لا يزال يستهوي كبار العقول ويستولي عليهم . وكان من حسن حظ لبنان ان وفد عليه للتبشير في ربوعه في منتصف القرن الماضي ثلاثة من رجال الكنيسة الانجيلية الاميريكية جمعوا بين العلم ولطف الاخلاق والتقوى هم الدكتور وليم طومسن والدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور دانيال بلس . والجمع بين هذه الصفات الجميلة امر نادر بين الرجال فكم من تقي غريب الاطوار فظ الطباع جاهل وكم من لطيف دمث الاخلاق قليل العلم والورع وكم من عالم فظ قليل التقوى !

ولمس هؤلاء الثلاثة تطور الاحوال في لبنان وفي بعض الاقطار المجاورة وتنوع مطالب الحياة الجديدة واقبال الناس على العلم وتشوقهم اليه ورأوا ان مدرسة عبيه العالية كادت لا تؤمن العدد اللازم من المعلمين لمدارس الارسالية الابتدائية والعدد المطلوب من المعاونين الوطنيين للتبشير ووجدوا ان كليتهم في مالطة التي كانت قد انشئت لتثقيف الشبان في البلدان المطلة على البحر المتوسط وجدوا انها اخفقت اخفاقاً تاماً وان ارسال الشبان الى عواصم اوروبة وكبريات مدنها كان قد اخرجهم عن البيئات التي نشأوا فيها . ورأوا في الوقت نفسه ان مدرسة عين ورقة كانت قد نجحت حيث اخفقوا فاخرجت رهطاً من كبار العقول بينهم صديقهم وحبيبهم المعلم بطرس البستاني . رأوا هذا كلّه في اثناء السنة ١٨٦١—١٨٦٢ فاجمعوا على تأسيس كلية عالية في بيروت تلقن العلوم زهاء اربع سنوات بعد انتهاء الدورة الثانوية . وكانوا قد لمسوا حاجة البلاد الى اطباء وصيادلة قانونيين يحلون محلّ الدجالين في الطب والتطبيب فقر قرارهم على الحاق كلية للطبّ والصيدلة بالكلية العالية وفي الوقت نفسه .

وكانوا نظراً لقلة اهتمام حكومتهم بشؤون العالم القديم يلجأون لقناصل بريطانية في لبنان وسورية عند الملمات ونظراً لبعدهم عن وطنهم ولوحدة اللغة والتقاليد

بينهم وبين الانكليز يرون في التجار الانكليز في لبنان والمرسلين من الجزر البريطانية اخواناً تربطهم واياهم روابط لا تفصم . فاتصلوا بوجهاء الجالية البريطانية في بيروت ولا سيما بالخواجه جايمس بلاك الخبير في شؤون لبنان وسورية آنئذ وتشاوروا فلاقوا ترحيباً وتشجيعاً . ولا غرو فاجتماع اللجنة الدولية في بيروت في السنة ١٨٦٠–١٨٦١ ووجود اللورد دفرون ومعاونيه كانا قد أثارا في عقول افراد الجالية البريطانية في بيروت تفكيراً جدياً في مستقبل لبنان وفي مقدرات الدولة العثمانية ووسع آفاقهم وفتحا امامهم ابواباً وابواباً .

وهكذا فاننا نرى الجالية الاميركية البريطانية في بيروت آنئذ تقر في تلك السنة نفسها ما يلي : (١) انشاء كليتين للعلوم وللطب . (٢) تشكيل مجلس امناء للمعهد الجديد تعترف به فترعاه اما الحكومة البريطانية او الحكومة الاميريكية او الاثنتان معاً . (٣) تشكيل مجلس مديرين محلي من البريطانيين والاميريكيين المقيمين في بيروت وما جاورها من مدن الشرق ، (٤) جمع الاموال اللازمة لهذا المشروع في الولايات المتحدة وفي الجزر البريطانية ايضاً .

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني في سنة ١٨٦٢ اتخذ مجلس المبشرين الاميريكيين في بيروت قراراً تاريخياً بما تقدم ورفعه الى مجلس التبشير الاعلى في بوسطن للموافقة عليه . فوافق هذا المجلس متحفظاً موجباً اعداد الطلبة في الكليات المنوي انشاؤها في بيروت للمهن الحرة كي لا يصبحوا عالةً على المجتمع الذي يعيشون فيه واشراك العنصر الوطني في التعليم العالي كي يتمكن الوطنيون من الاستقلال بالتعليم في المعهد الجديد في اقرب وقت ممكن وتربية الطلبة على حب بلادهم وابعادهم عن كل ما من شأنه ان يربطهم باوطانٍ اخرى غير وطنهم الاصلي .

(وقام دانيال بلس وزوجته واولاده الى الولايات المتحدة فأقلعوا من بيروت في الرابع عشر من آب سنة ١٨٦٢ ونزلوا في مرفأ نيويورك في السابع عشر من ايلول من السنة نفسها . ووافق وصولهم انعقاد مؤتمر اميريكي عام للتبشير . فطلب الى دانيال ان يتكلم ففعل ولاقى آذاناً صاغية ولا سيما بين افراد اسرة دودج لدى وليم دودج وزوجته وابنه ستيوارت دودج وزوجته . وأصغى الى هؤلاء غيرهم من اهل البر والاحسان وتشكل مجلس امناء للمعهد الجديد الذي اطلق عليه اسم « الكلية السورية الانجيلية » وترأس هذا المجلس وليم بوذ ودخل في عضويته خمسة عشر وجيهاً من وجهاء الولايات الشرقية . وتقدموا من حكومة ولاية نيويورك يطلبون السماح بانشاء الكلية في بيروت وبمنح شهاداتها العالية . فوافقت الحكومة على ذلك في الرابع عشر من ايار سنة ١٨٦٤ . وشكل مجلس الامناء هذا مجلس المديرين المحلي من بعض البريطانيين والاميريكيين المقيمين آنئذ في لبنان وفلسطين ومصر بينهم

قنصلا بريطانية واميركة في بيروت وستة عشر آخرين من المرسلين البريطانيين والاميريكيين في هذه البلدان ومن التجار البريطانيين . وبقيت الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميريكية في بيروت) خاضعة لهؤلاء حتى السنة ١٩٠٢ عندما انهى الرئيس الاول دانيال بلس مدة رئاسته .)

وجاء دور المال فقضى دانيال بلس سنتين في الولايات المتحدة (١٨٦٣—١٨٦٥) قطع في اثنائهما ١٦٩٩٣ ميلاً في سبيل المال المطلوب وألقى ما لم يقل عن ٢٧٩ خطاباً ما عدا المئات من المقابلات الشخصية . فجمع مئة الف دولار . ونظراً لهبوط العملة الاميريكية آنئذ رأى مجلس الامناء ان تحفظ القيمة المجموعة الى ان يعلو سعرها وان يقوم دانيال بلس الى الجزر البريطانية فيجمع منها ما يلزم للمباشرة في العمل .

وأقلع الرئيس الاول الى الجزر البريطانية فلاقى فيها ترحيباً وتشجيعاً وشمله بالرعاية والعطف كل من دوق أرغايل وإرل شافتزبري واللورد ستراتفورد ده ردكليف سفير بريطانية في الآستانة مدة طويلة واللورد دفرون ممثل الحكومة البريطانية على اللجنة الدولية في بيروت وغيرهم . واحتفى به من اهل البر والتقوى عدد كبير من الرجال والنساء . ولم يغفل عنه كبار رجال الصناعة والتجارة . وعاد الى بيروت في آذار من السنة ١٨٦٦ مزوداً ببضعة آلاف جنيه استرليني استعان بها على نفقات السني الاولى من الكلية .

(وفي الثالث من كانون الاول سنة ١٨٦٦ افتتح الدكتور دانيال بلس الكلية السورية الانجيلية بصلاة قصيرة وبتلاوة آيات من رسالة بولس الرسول الاولى الى اهل كورونثوس): « أنا غرست وأبولس سقى لكنّ الله كان ينمي اذ ليس الفارس شيئاً ولا الساقي بل الله الذي ينمي » . وخطب في الطلبة الستة عشر كل من هنري جسب وستيوارت دودج وذلك في بيت متواضع لا يربو عدد غرفه على الخمس . وتولّى التدريس في تلك السنة كل من دانيال بلس نفسه وكرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات والشيخ نصيف اليازجي واسعد الشدودي . وقام المستشفى في بيت مجاور وكان عدد اسرته اربعة ! وفي السنة التالية وافقت رهبنة مار يوحنا البروسيانية على التعاون مع المدرسة الطبية الجديدة بان فتحت ابواب مستشفاها لطلاب هذه المدرسة واساتذتها . (وفي السابع من كانون الاول سنة ١٨٧١ وضع وليم دودج حجر الزاوية لبناية كلية الآداب والعلوم في رأس بيروت فهبّ دانيال وقال كلمته المأثورة : « ان كليتنا هذه هي لجميع الطبقات يأتيها الابيض والاسود والاصفر والمسيحي واليهودي والمسلم والوثني فيقضون فيها سنوات ويخرجون منها مؤمنين باله واحد او بعدة آلهة او بدون ايمان ولكنهم لا يلبثون معنا طويلا دون ان يعلموا الحق كما نعرفه نحن » .)

وكان اليازجي الكبير قد بلغ الاوج في هذه الحقبة يراسله كبار الادباء والشعراء من الشرق والغرب من بغداد والموصل ومصر حتّى المغرب الاقصى . تحدى القدماء وعارض افخم شعرائهم واقتفى انبغ علمائهم حتى أصبح بيته في زقاق البلاط في بيروت محطاً لرحال طلاب المعارف يتوافدون عليه من جميع الانحاء فيحيون شيخه الجليل . كان قد نشر في الصرف والنحو لمحة الطرف في اصول الصرف ، والجمانة في شرح الخزانة ، وطوق الحمامة والباب في اصول الاعراب ، ونار القرى في شرح جوف الفرا ، والجوهر الفرد ، وفصل الخطاب في اصول لغة الاعراب ، وفي البيان عقد الجمان ، واللامعة في شرح الجامعة ، والطراز المُعلم ، وفي اللغة مجمع البحرين ، وهو اشهر ما كتب جرى فيه على اسلوب الحريري في مقاماته وفي المنطق قطب الصناعة والتذكرة وفي الطب الحجر الكريم في الطب القديم .

هو نصيف ابن عبد الله اليازجي ولد في كفرشيما في السنة ١٨٠٠ وتعلّم القراءة والكتابة على يد القس متى الشبابي ودرس الطب القديم على والده . واشتهر بالعلم والدرس وحسن الخط في قريته كفرشيما فدعاه البطريرك اغناطيوس الخامس ليكون كاتباً عنده في دير القرقفة فوق كفرشيما فسار نصيف اليه وبقي عنده سنتين . وعاد الشهابي الكبير في السنة ١٨٢٤ منتصراً على اخصامه فامتدحه الشيخ نصيف برائية هذا مطلعها :

يهنيكَ يهنيكَ هذا النصرُ والظفرُ فانعمْ اذا أنتَ بل فلتنعَمِ البَشَرُ

فمال اللبناني الكبير اليه وجعله كاتباً في ديوانه في السنة ١٨٢٨ . وبعد خروج بشير الكبير من لبنان سنة ١٨٤٠ انتقل الشيخ نصيف الى بيروت واتصل بالمرسلين الاميريكيين وصادق الدكتور عالي سمث والدكتور فانديك والدكتور طومسن ووقف على منشوراتهم ولا سيما ترجمة الكتاب المقدس والف ما الف ودرس العربية في المدرسة الوطنية والبطريركية والكلية الاميريكية كما كانت تدعى آنئذ في الاوساط البيروتية .

ولم يزل محور الحركة الفكرية في بيروت حتّى منتصف اذار من السنة ١٨٦٩ حينما فوجيء بفالج نصفي . وتوفي في الثامن من شباط سنة ١٨٧١ فدفن في مقبرة الروم الكاثوليك في الزيتونة في بيروت .

فرنقو نصري باشا
٢٨ تموز ١٨٦٨ - ٢٤ شباط ١٨٧٣

وفاجأ المتصرف الاول داود باشا سفراء الدول وحكومة الباب العالي باستقالته فأسرع الصدر الاعظم محمد فؤاد باشا يفتش عن خلف يحل محله فوقع اختياره على فرنقو نصري باشا ناظر كمارك الآستانة وابن اسرة حلبية تنتمي الى بيت الكوسا . وشاور الصدر السفراء في امر تعيين فرنقو نصري باشا متصرفاً على لبنان فوافقوا ووقعوا والصدر المذكور بروتوكولاً خاصاً بذلك في الثامن والعشرين من تموز سنة ١٨٦٨ واليك تعريبه :

« لما كان جلالة السلطان قد قبل استقالة داود باشا من منصب متصرف لبنان ورشح خلفاً له فرنقو نصري باشا ورأى من الموافق حفظاً للنظام والراحة ان لا يحدد في فرمان التعيين مدة ولاية المتصرف الجديد .

« فان ممثلي الدول الموقعين على نظام جبل لبنان الاساسي بتاريخ ٩ حزيران سنة ١٨٦١ وفي ٦ ايلول سنة ١٨٦٤ ووزير صاحب الجلالة ملك ايطالية عقدوا مؤتمراً لدى ناظر الخارجية العثمانية اقروا فيه باجماع الرأي اثبات تفاهمهم بهذا البروتوكول بان الضرورة قضت فلم يتمكنوا من تبادل الرأي مع الباب العالي قبل انتهاء ولاية داود باشا بثلاثة اشهر كما نص على ذلك بروتوكول التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ وانهم على اتفاق مع الباب العالي بان ظروفاً خاصة تجعل عدم تحديد مدة ولاية متصرف لبنان مناسباً وان الباب العالي رغبةً منه في اجتناب التفاسير المخطئة التي قد تنجم عن سكوته ودفعاً لما قد ينشأ في النفوس من تأثير معاكس لمقاصده فان صاحب الدولة فؤاد باشا أعلن ان مدة ولاية فرنقو نصري باشا سوف لا تقل عن عشر سنوات ابتداءً من يوم تعيينه وان نصّ بروتوكول التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ الذي يتعلق بالعزل يبقى ساري المفعول سواءً قبل نهاية هذه المدة او بعدها .

« واشعاراً بذلك فان ممثلي الدول قد وقعوا هذا البروتوكول ووضعوا عليه نقوش اختامهم . تم في قانليدجا في الثامن والعشرين من تموز سنة ١٨٦٨ : فؤاد بروكش اوستن بوره هنري ايليوث برتيناني زافيه اوبال اغناتياف » .

وصول فرنقو باشا الى لبنان

واعتبر الصدر الاعظم الموقف حرجاً فاستصدر فرماناً سلطانياً بتعيين المتصرف الجديد قبل توقيع البروتوكول الدولي وأعجل الصدر المتصرف واستحثه على القيام الى لبنان ففعل المتصرف ووصل الى مركز حكمه في اوائل تموز وأمر بتلاوة فرمان تعيينه في السادس من هذا الشهر في سراي بتدين . فسجّل مجلس الادارة هذا الحدث مبيناً انتهاء مدة وكالة المجلس وابتداء عهد المتصرف الجديد « سائلاً الله تعالى ان يؤيد ويخلّد سرير السلطنة السنية مزيناً بالشوكة والانتصار والعز والافتخار ما كرّ الجديدان وتعاقب الملوان وان يحفظ وجود دولة المتصرف ويجعل جميع اعماله ومساعيه مقرونة بالتوفيق والنجاح والنصر والفلاح » .

موقفه من يوسف كرم

وكان يوسف كرم قد غادر الجزائر الى باريز لمقابلة عاهلها نبوليون الثالث . وبعد ان فعل واقام مدة في عاصمة الفرنسيس أفلت او أُفلت منها في اواخر اذار من السنة ١٨٦٨ وتنقّل بين عواصم اوروبة الغربية بما فيها لندن وبرلين وفيينه واتصل بحكوماتها ووصل الى رومه في الثالث عشر من تموز من السنة نفسها . فاتصل المتصرف الجديد بالخوري (المطران) يوسف الدبس وبالخواجه رزق الله خضرا صديقي كرم ورغب اليهما ان يحررا له ويطلبا اليه ان يوضح افكاره لكي يتمكن هو من مساعدته في اصدار التأمين وتسهيل عودة كرم الى لبنان . ففعلا وأجاب كرم في اول آب سنة ١٨٦٨ معرباً عن سروره بتولي المتصرف الجديد مؤكداً ان ماضي دولته يجعله يؤمل بتأييد « الشرائع والحق » وانه هو مستعد لخدمة دولته بشكل غير رسمي اذ لا يحب ان يضع المتصرف عليه شرطاً لا توجبه العدالة الى ان قال : « ومتى حصلت على التأمين بالاقامة في وطني تحت شريعة البلاد فحينئذ اذا وافق دولته ووافقني ان اخدمه خدمةً خاصة اقوم بها بناءً على مبادىء الانسانية لا بناءً على نكايات القوة الجبرية » .

رأى يوسف كرم بعد هذا ان الحرب العالمية قريبة فآثر البقاء في الغربة ريثما تنشب ورأى ان صالح الموارنة كان يقضي بالتريث قليلاً وبالاستعداد للدفاع عن انفسهم عند الحاجة وان هذا الاستعداد « واجب على ذمة كل من يرغب ان يبقى للنصرانية اثر في الاراضي المقدسة » . وكان يأسف كل الاسف ان ابناء وطنه المسكين يحبون الراحة شرط ان يضمنها لهم غيرهم كأن تمنحهم احدى الحكومات الاموال وتحامي عنهم لاكتمال رفاههم ولا يدركون ان الدول اذا فعلت ذلك فانما

يكون « لكي تضع على اعناقهم نيراً فوق نير » . رأى كرم هذا كله فجاء كورفو بعد سنة من وصول فرنقو باشا الى لبنان ففاوض الحكومة اليونانية بشأن حملة يتولى هو قيادتها فيدخل لبنان عن طريق مصر او اللاذقية واشترط على هذه الحكومة ان تقرضه عشرة ملايين من الفرنكات خلا المعدات والذخائر الحربية . وكتب الى الخوري يوسف الدبس يطلعه على الامر ويطلب اليه ان يساعد صديقه واكيم باخوس على ارسال خمسة وعشرين رجلاً لبنانياً الى الاسكندرية ليكونوا ضباطاً في الحملة وادلاّء للجيش . ومما قاله في رسالته التاريخية هذه التي صدرت عن كورفو في اواخر السنة ١٨٦٩ : « ونرجو ان تدفعوا كل ما يلزم لسفرهم . ويجب ان يكونوا من ذوي الشجاعة والحشمة ويكون حضورهم الى البابور بالتتابع وذلك باسرع ما يمكن . فاذا امكنهم ان يحصلوا على تذاكر مرور كان به والا فاذا سئلوا في مرفأ الاسكندرية عن التذاكر يجيبوا اننا حضرنا من سوريا لنشتغل في خليج السويس فلا يعترضهم احد . وان شاء الله قريباً نحاسبكم على المصاريف التي صرفتموها بهذا الخصوص . وانني اؤكد لكم ان الجميع في الجهات الشمالية باستعداد تام وانتظار بل ان الاكثرين في الجهات التي حولكم صاروا متحدين على ما يوافق شرف الجنسية والوطنية . وان شاء الله لا يقدر مسببو الحرب الاهلية ان يغروا احداً كما عرفنا انهم عازمون الآن وانهم راقدون على بساط الغفلة » . وقام الخوري يوسف فيما يظهر بما عهد اليه وتمّ ارسال الرجال ولكن الحكومة العثمانية علمت بالامر في حينه فقبضت على بعض هؤلاء وفرّ البعض الآخر .

وكان ما كان من امر الحرب بين فرنسة والمانية في السنة ١٨٧٠ وسقطت الامبراطورية الثانية في الرابع من ايلول وأعلنت الجمهورية الثالثة . وعاد يوسف كرم من كورفو الى ايطالية مضطرباً مخذولاً « بعيداً عن خدمة الراية المثلثة الالوان » . فاتصل بالحزب الملكي الفرنسي واتصل به غمبتا وارسل اليه معتمداً خاصاً « يريد تهييج » كرم والموارنة فأظهر كرم للمعتمد الفرنسي أسفه لموقف فرنسة من الموارنة ولبنان ولكنه وعده خيراً وأظهر « استعداده لخدمة نفوذها وسطوتها » شرط ان تتعرّف الى حقوق الموارنة . « فسُرَّ المعتمد من ذلك جداً وكتب الى فرنسة وبقي ينتظر في رومه . ولم اخف عنه ان الباب العالي أظهر لي من جديد احسن ملتقى وان دعواي ربما تنتهي قريباً . فسألني ان اطاول المسألة مدة شهرين » .

واضطر المتصرف الجديد ان يغض النظر عن عودة يوسف كرم الى لبنان وكان متواضعاً كريماً عطوفاً على الفقراء صبوراً رفوقاً حليماً ساذجاً قليل الدهاء فأحبه اللبنانيون ونسبوا افعاله الى حسن النية وتناسوا الماضي القريب واستقروا آمنين بعد ان تفسخوا وجاشوا وثاروا قبيل مجيء داود باشا وفي اثناء ولايته .

وأظهر فرنقو باشا فور وصوله الى لبنان اهتماماً شديداً بالضابطة اللبنانية . فأوعز الى مجلس الادارة الكبير بدرس احوالها واتخاذ القرارات اللازمة لاصلاحها . فأقر المجلس في السابع من تموز سنة ١٨٦٨ ما يلي :

« انه بمقتضى المفروض على هذا المجلس من كمال الجد على حفظ النظامات الجليلة اللبنانية مع ضبط واردات ومصارفات الجبل قد صار وقوع النظر لجهة الضبطية الكمانية بمعية القايمقامات والمديرين . لان المتقرر عن هؤلاء الضبطية عدا انهم غير منتظمين بامر الوقت والامد والعدد محصورة حركاتهم بأمر المأمورين الموما اليهم . كما انه مشاهد انهم مستخدمين لخاصتهم من الضبطية المرقومة المربوط معاشها من خزينة الحكومة وان كل قايمقام او مدير لازم له خادم شبق وسايس خيل وخادم في البيت وقهوجي واضعه من ضابطية الحكومة . ومن كون هذا الخلل مخالف وظيفة الضابطي التي هي مخصوصة بالخدمة العمومية من استحصال الاموال الميرية والربط وتحصيل الحقوق العادية حتى انه لا يجوز له ان يشتغل شيء آخر خصوصي لنفسه . فبحسب الايجاب لا بد من وضع نظامات مخصوصة حافظة استخدام المرقومين بصيغة واحدة . وعن قرب ستظهر هذه التعليمات المرقومة عن هذا المجلس . فالان تسبيقاً لها وجب تحرير هذا الاعلان الى كافة القايمقامات والمديرين عموماً لكي كل من منهم مخصص لخدمة واحد من الضبطية ام خايس من المعين له نفر واحد ولم يترك المستخدمه ولا يعين الخايس فعدا انه يدفع معاش ذاك النفر من ماله للخزينة يحصل عليه المسؤولية من طرف دولته » .

وفي التاسع من ايار سنة ١٨٦٩ وافق المجلس الاداري الكبير على اقتراح رفع اليه من قلم المالية هذا نصه :

اولاً : غب الوصول الى مركز القايمقامية يطلب من كاتب مال القضا دفتر باسماء الضباط والنفرات الموجودين في المركز والمدبريات مديرية مديرية كل نفر من اي قرية وملة واشكاله وسنه مختوم من القايمقام وكاتب المال والضباط ويحفظ عند كاتب التفتيش واذا كان نفر غايب يتحرر فوقه .

ثانياً : يصير طلب الضبطية المركزية الضباط والخيالة راكبين خيولهم والبياده مشاه . وجميعهم يكونوا مقلدين اسلحتهم وبيدهم تذاكرهم وعلى صدورهم النمرة . وعندها يطلب نفر نفر وتصير مراجعة اسمه واشكاله وسنه وتذكرته ونمرته على الدفتر مع ملاحظة حصانه اذا كان خيال واسلحته اذا كانت كفاية وشخصيته اذا كان ذو لياقة لمهام المأمورية ام لا .

ثالثاً : كل نفر اذا وجد مطابق الدفتر وموافق باللياقة والسن ومستوفي حقوق الاستعدادات للخدمة يتأشر فوق الدفتر انه مطابق والذي به شواز عن التذكرة او اللياقة يتأشر فوقه الاختلاف .

رابعاً : اذا كان نفر غايب يرسل خلافه محله من الذين صار تفتيشهم ويطلب سريعاً لرؤيته وملاحظته .

خامساً : يصير الفحص السري اذا كان من اصل النفرات او الخيالة شخص معين وهو بخدمة القايمقام الشخصية او خلافه ولا يرسل في المأموريات يتأشر عليه .

سادساً : يطلب من كاتب مال القضا بمسك دفتر بالاسماء والرفت والاخذ وكلما صار رفت شخص وتعين خلافه يقيد ذلك بالتاريخ ويرسل به علمين احدهما للمالية في المركز المتصرفي والثاني لمأمورية التفتيش لكي يتأشر ذلك فوق اسمه ويتبين سبب الرفت .

سابعاً : بعد خلاص تفتيش ضبطية المركز القايمقامي يصير الانتقال الى المديريات ويجري العمل طبق المركز .

ثامناً : يصير التفتيش على محافظين الطرقات في الذين مع الضابط والذين في الطريق يصير الطواف عليهم بحضور الضابط .

تاسعاً : كلما انتهى تفتيش قضا ومديرياته ومحافظين الطريق الذي به يصير تحرير دفتر من كاتب التفتيش في الاسماء ومأشر على كل اسم ان كان مطابق او مخالف مع ملاحظات سرية ويتقدم الى مركز المتصرفية وحينئذ يصير الانتقال الى قضاء ثاني .

عاشراً : بعد انتهاء القضاوات والمديريات والمحافظين على الوجه المحرر فالمفتش والكاتب يرجعون الى المركز المتصرفي ومنه يتوجهون الى القضاوات والمديريات بدون طواف مرتب بل تارة الى جهة الشمال وطوراً الى جهة الجنوب باعتبار تجسس فجائي بوصولهم يطلبون الانفار ويلاحظون مراجعتهم على الدفتر .

وهكذا فيكون المتصرف الجديد قد أوعز بوجوب تفتيش الدرك اللبناني وبوضع اسس لهذا التفتيش كي يصبح العمل بموجبها قانونياً كاملاً .

ووافق وضع هذا القانون اللبناني ظهور « نظام ادارة الضابطة » في دار السلطنة في اوائل تموز من السنة نفسها اي بعد مرور شهرين فقط على ظهور قانون التفتيش اللبناني .

وقضى نظام ادارة الضابطة السلطاني بتشكيل الاي من الضابطة في كل ولاية من ولايات السلطنة وبتقسيم الالاي الى طوابير والطوابير الى بلوكات والبلوكات

الى طواقم(١) ويجعل الالاي طابورين على الاقل وقد يكون عشرة والطابور ثمانية بلوكات – ثمان مئة رجل – والبلوك خمسة طواقم الى عشرة وطاقم الخيالة اربعة انفار والمشاة ثمانية . وأوجب هذا النظام فرز طابور لكل سنجق من سناجق الولاية وبلوك لكل قضاء من اقضية السناجق واقامة قائد الالاي « الاي بكى » وامين ادارته في مركز الولاية . وأطلق النظام لقب طابور اغاسى على قائد الطابور وبلوك اغاسى على قائد البلوك . وجعل مدة الخدمة في هذا الالاي سنتين كاملتين وأجاز تجديد التطوع . وقضى بألا يكون الانفار فوق الخمسين او دون العشرين من العمر وان يكونوا سالمين من النقائص البدنية التي تعيق المشي والحركة والقيام بايفاء الخدمة. ومن ذوي السيرة الحسنة كما أوجب تشكيل مجلس اداري لكل طابور مؤلف من كبار ضباطه ومجلس لكل الاي مؤلف من كبار ضباط الالاي .

وحدد الفصل الثاني من هذا النظام مخصصات الضباط والانفار واسلحتهم وملبوساتهم . فجعل معاش قائد الالاي يتراوح بين الالف والخمس مئة غرش في الشهر الواحد والالفين والخمس مئة ومعاش قائد الطابور بين السبع مئة والخمسين والالف وقائد البلوك بين الاربع مئة والخمس مئة . وجعل معاشات الخيالة تربو على معاشات المشاة بمعدل خمس وعشرين في المئة . وأضاف كميات محددة من الخبز والشعير . وجعل سلاح المشاة بارودة وسيفاً قصيراً وفرد طبانجه وسلاح الخيالة بالاسقة للخرطوش وزوج طبنجات وسيفاً . وعين لكل نفر من المشاة في كل سنة سترياً واحداً وبنطلوناً واحداً وطربوشاً واحداً وزوجين من الاحذية وكبوتاً واحداً في كل ثلاث سنوات . وكان لون اللباس لازوردياً فيما يظهر .

وبحث الفصل الثالث من هذا النظام باصول انتقاء ضباط عساكر الضابطة كما حدد الفصل الرابع درجات المكافأة التي تمنح للضابطة عند احالتهم على التقاعد .

وألحق بهذا النظام قانون « بحق وظائف الضابطة العسكرية » مؤلف من ثلاثين مادة . ومما جاء فيه ان الضابطة تخضع فيما يتعلق بوظائفها العسكرية الى اوامر رؤسائها العسكريين وفيما يتعلق بوظائفها الملكية الى مأموري الملكية بطريق ضباط الضابطة . وان حركات الضابطة العسكرية هي هي حركات العساكر النظامية . وان اليوقلمة العسكرية تجري في كل يوم عند المساء . وان الاسلحة والملبوسات تعاين مرة في الشهر على الاقل . وان الانفار الاغرار يتدربون مدة لا تقل عن شهر واحد يتعلمون فيها قاعدة القول والنوبة واصول الاحضار والمعاملة . وحرمت المادة الخامسة عشرة

(١) الالاي آنئذ كان يقابل الـ Régiment الغربي فيلقنا اليوم والطابور فوجنا والبلوك سريتنا .

تخصيص الانفار لخدمة الضباط الشخصية او خدمة احد من مأموري الملكية ما عدا الوالي والمتصرف والقايمقام والمدير . فناقض هذا الاستثناء الاخير التدبير اللبناني المشار اليه آنفاً .

وأبان ملحق آخر صدر بعد صدور هذا النظام باسبوع واحد ابان ان وظائف الضابطة الملكية نوعان المحافظة على الامن والراحة وحفظ اموال الدولة وتحصيلها . وان المحافظة على الامن والراحة انواع أهمها القاءُ القبض على اللصوص وقطاع الطرق والقتلة وحراسة المساجين والعناية بالسجون والقيام بدورة القول والمحافظة على الامن في الطرق والمعابر واطفاء الحرائق وايصال البريد والامانات والاشياء المتعلقة بالميري ومعاونة مأموري التذاكر وجوازات السفر وجلب انفار القرعة العسكرية والرديف .

واثر هذا فيما يظهر في نفس فرنقو باشا متصرف لبنان فأصدر تعليمات اخرى الى القائمقامين والمديرين لا تزال نسخة عنها موجودة في محفوظات المتحف الوطني اللبناني وقد قضت بوجود ضابطة النواحي بصورة مستديمة في قناق المدير وبقيامهم بمأمورياتهم على انواعها حتى النهاية بامتناعهم عن الرشوة . وحتمت هذه التعليمات على الضابطة الّتروي باللباس الرسمي واظهار النيشان والسلاح ومعونة رفاقهم عند الحاجة وما شاكل ذلك .

وكان من ظواهر اعتناء المتصرف بالضابطة ان شمل مدرستها في المركز بعطفه وانفق عليها الاموال اللازمة وأضاف على معلميها الفرنساويين واحداً على الاقل اسمه دَبرو . وانتهز فرصة وجوده في الآستانة فاتصل بمشير الضابطة السلطانية وحبّب اليه انتظام الضابطة اللبنانية وتقدمها فاقترح المشير على المابين السلطاني ترقية كل من سليم طرابلسي وسلمان شقير وابراهيم الهاشم الى رتبة « طابور اغاس » ولقب البكوية . فصدرت الفرمانات بذلك وتليت في بتدين على « الاعيان والمعتبرين » . وسجل مجلس الادارة الكبيرة في التاسع والعشرين من تموز سنة ١٨٧١ قراراً شكر فيه الى المشير السلطاني حسني باشا تعطفه مؤكداً «ان الانعام على البكوات المشار اليهم منة عظيمة عليهم وعلى جميع عبيد الدولة العلية المتوطنين تحت ظل حمايتها القوية في جبل لبنان ».واختتم قراره هذا بالدعاء بتخليد سرير السلطنة السنية محفوفاً بالتوفيقات الالهية والشوكة والاقتدار ما توالت الايام والاعصار وان يديم دولة المشير بالعز والتأييد . ويكلل العساكر الشاهانية باكاليل الظفر في جميع الامصار والاقطار .

ضبط الادارة

ونهج المتصرف النهج نفسه في حقل الادارة . فنراه في اول عهده يبين اهمية

هذا الامر لاعضاء مجلس الادارة الكبير فيتخذون في العاشر من تموز سنة ١٨٦٨ اي بعد وصول المتصرف الجديد الى بتدين باربعة ايام قراراً بهذا المعنى هذا نصه :

« كما ان النواميس الطبيعية محفوظة بعناية ربانية هكذا القوانين السياسية لازمها عناية مخصوصة من حكام السياسة لدوام حفظها . فالمأمورون اذا تغافلوا او تكاسلوا عن اجراء المعاملات المقتضية لانفاذ الاحكام والاوامر الرسمية بحقوق العباد يحصل الخلل والضرر . فلذلك استحسن وضع قوانين رسمية وترتيب المواد الآتية :

« المادة الاولى : يجب على القائمقام ان يكون حافظاً رسوم مأموريته بالتمام من القاء الهمة في الملاحظة التامة لرفع التعدي وايصال الحقوق لاصحابها . ومتى صدر له امر من دولة المتصرف يعطي جوابه حالاً بانه وصل اليه وانه يجري ايجابه في الحال . واذا اقتضى لذلك مهلة فيكون جوابه بنوع اصولي مقبول الاعذار . واذا حاول عن المجاوبة فمن اول مرة يدفع خمس ليرات مجيدية وفي الثانية عشر ليرات وفي الثالثة يستحق العزل .

« المادة الثانية : ان المديرين متى تحرر لهم من القائمقامين اوامر باي شغل كان يختص بالحكومة فيلزم على المدير ان يعطي جوابه حالاً كما مطلوب من القائمقام آنفاً . واذا تأخر عن الجواب ففي المرة الاولى والثانية يدفع جزاء نصف ما محرر على القائمقام وفي الثالثة يعزل .

« المادة الثالثة : لا يجوز للمدير ان يسكن خارج مديريته . واذا اقتضى له شغل خارج الجبل لا يتوجه بدون اذن القائمقام .

« المادة الرابعة : ان مشايخ القرى يقتضي ان يتصرفوا بوظيفتهم بكل حرية بحسب منطوق التعليمات التي بايديهم من دون معارضة من القائمقامين والمديرين .

« وهكذا ينبغي ان يحصل النشاط من المأمورين بنفاذ الاوامر الحكومية لهم ويستعملون وظيفتهم كالواجب كما انهم يستولون حقوقهم الواجبة من ولي امرهم بما يستحقون من المكافأة مقابل اعمالهم الحسنة كذلك يستوجبون الجزا عن اعمالهم الغير نافعة . ومع وجود حلم وعدالة المتصرف الافخم لا يليق بهم التكاسل والتشكي من شيء يعيقهم عن الاجراءات اللازمة عليهم لانه متاكد صريحاً ان دولة متصرفنا الحالي من اشفق من يرحم واعدل من ينصف . ولهذا متأملين بوجوده نحوز اعلا مراتب الراحة » .

ونرى المتصرف في الرابع من تشرين الاول سنة ١٨٧٠ يحض الموظفين على الحضور الى مراكز اعمالهم في الوقت المعين اي في الساعة الثالثة والنصف توقيتاً عربياً ويهدد من يتاخر بدون عذر مشروع بحسم معاش ذلك اليوم . ونراه في السابع من آذار من السنة ١٨٧١ يذكر الموظفين بالمادة الرابعة عشرة من نظام لبنان الاساسي

فيحرم عليهم مصادرة افراد الشعب شيئاً من الاجرة نقداً كان او عيناً .

اهتمامه بمجلس الادارة الكبير

وكان من اعمال فرنقو نصري باشا الاول انه اقال عمون عمون وعيّن محله عيد حاتم . ولا غرو فالاول اشتهر بتعاونه مع داود باشا والباب العالي . لم يرض على سياسة داود ولا سيما ما يتعلق منها بتكبير لبنان .

وضم مدنه الثلاث الكبرى اليه كما سبق فأبنا . وكان ضاهر عثمان ابو شقرا عضو الدروز عن قضاء جزين قد بلغ حداً من الكبر لم يمكن بعده من مزاولة اعماله بسهولة فاستبدله فرنقو باشا استبدالاً بقويدر حماده . وفي اواخر السنة ١٨٦٨ امر المتصرف بتطبيق نص النظام الاساسي والبدء بانتخاب اعضاء مجلس الادارة انتخاباً بعد ان كانوا قد عينوا تعييناً في عهد سلفه . ورأى ان يبدأ بقضاء البترون نظراً لما كان قد وقع فيه من حوادث في ايام يوسف كرم . فجمع قائمقام البترون شيوخ القرى في اول كانون الاول واجرى الانتخاب «بكل حرية تطبيقاً لامر دولته» وبمعرفة محكمة القضاء . ثم ارسل اوراق الانخاب الى مجلس الادارة في مركز المتصرفية . ولدى فرزها فاز الشيخ اسعد ابو صعب على مناظره جرجس باسيم بسبعة واربعين صوتاًضد سبعة وعشرين فاعتبر المجلس انتخاب اسعد ابي صعب قانونياً . «ورجا المصرف ان يصدر امره الشريف بتعيينه عضواً عن قضاء البترون» محل بطرس حنا الضاهر . ففعل المتصرف وباشر اسعد ابو صعب اعماله الرسمية ابتداء من اول آذار سنة١٨٦٩ حساباً شرقياً . وفي اواخر كانون الاول سنة ١٨٧١ وفي يوم عيد الميلاد كما نقرأ فيسجل المجلس الاداري ابرق المتصرف الى قائمقام زحلة يقول :

« عرفناكم بتوقيف الانتخاب بناءً على مسموعنا عن وقوع اختلاف . الآن ورد معروض من عموم وجوه زحلة بانتخاب سليم افندي مطران . فصار قبوله » .

وقد حفظ لنا طريقة الانتخاب في زحلة مؤرخنا الكبير الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في كتابه تاريخ زحلة فاتحفنا بما لا نجده في غيره من الآثار الخطية . ولم يكن في زحلة مدراء او شيوخ صلح .(ولهذا كان انتخاب العضو الاداري فيها باكثرية واحد واربعين صوتاً كانت توزع على حاراتها العشر هكذا : حارة الراسية سبعة اصوات وحارة سيدة النجاة ثلاثة وحارة مار الياس المخلصية سبعة اصوات ستة منها يشترك بها معها حوش الامراء وصوت للمسلمين وحارة مار انطونيوس والقديسة تقلا معاً ثلاثة وحارتا مار مخائيل ومار جرجس معاً اربعة وحارة سيدة البربارة صوتان وحارة الميدان صوتان وحوش الزراعنة صوت وجميعهم للروم الكاثوليك . وأما

الروم فستة اصوات والموارنة ستة واصوات هاتين الطائفتين مشتركة في جميع الحارات فلا يمكن حصرها في احداها . فتوزع كل حارة اصواتها على مكلفيها . فيتراوح معدل الصوت غالباً بين الثلاثين والاربعين وصوتاً من الحاضرين لا الغائبين . فيكون التصويت افرادياً ويترجح الانتخاب لمن ينال واحداً وعشرين صوتاً فما فوق . ويضيف الاستاذ المعلوف « وقد انتخب للمجلس الاداري الكبير على هذه الطريقة في اثناء كل ست سنوات كل من عبد الله ابي خاطر فاستقال وخلفه عبد الله مسلم وسليم مطران وناصيف غرة الخ » نقول مما لا ريب فيه بموجب قيودات سجلات مجلس الادارة الكبير ان انتماء الاعضاء لهذا المجلس تمّ طوال مدة داود باشا وفي اوائل ايام خلفه فرنقو باشا بمعرفة رؤساء الطوائف وكبراء رجالها بالمشورة وبتعيين من المتصرف . وما ورد في تلغراف فرنقو باشا الى قائمقام زحلة المشار اليه اعلاه يكفي للقول بان انتخاب سليم المطران العضو الثالث من زحلة تم بتختيم العرائض كما كان يجري في سائر الاقضية آنئذ وكما جرى في قضاء البترون مثلاً وقد سبق الكلام عنه .

وفي اوائل السنة ١٨٧٢ امر المتصرف بانتخاب عضو ارثوذكسي عن قضاء الكورة فتم في منتصف آذار انتخاب اسعد طالب بدلاً من والده ابراهيم طالب وبالطريقة نفسها التي اتبعت في قضاء البترون في انتخاب اسعد ابي صعب . وتلا انتخاب اسعد طالب انتخاب عضو ماروني عن قضاء جزين تم في اوائل أيار من السنة نفسها ١٨٧٢ هو انتخاب عبد الله غسطين الذي حلّ محل يوسف الخوري والد الدكتور شاكر الشهير .

وهكذا فيكون فرنقو باشا أول من طبق نص القانون الاساسي الذي قضى بانتخاب اعضاء المجلس انتخاباً فأبدل اربعة معينين تعييناً باربعة منتخبين انتخاباً . وأصبح مجلس الادارة الكبير في اواخر عهد هذا المتصرف مؤلفاً كما يلي : عن السنة عمر الخطيب وعن الموارنة عيد حاتم وكيل الرئاسة واسعد ابو صعب وسمعان غطاس ويوسف البيطار وعبد الله غسطين (او غصن) وعن الدروز قويدر حماده ووهبه ابو غانم وحسن شقير وعن الروم اسعد طالب ونجم الاسود وعن الروم الكاثوليك سليم مطران وعن الشيعة كاظم عمرو .

وساء المتصرف الا يكون وجوه البلاد اعضاء مجلسها الاداري منتظمين في اعمالهم محترمين بعضهم بعضاً مخلصين في خدمة الصالح العام كل الاخلاص فوجه اليهم في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٨٧١ « التعليمات » التالية :

اولاً : الصياح والزعيق الخارج عن حدود الآداب والوشوشة من الامور الممنوعة في المجلس .

ثانياً : تحرير المكاتيب الخصوصية من الاعضاء او لهم ممنوع داخل المجلس .

ثالثاً : لا يقتضي خروج احد من المجلس لاشغال خصوصية سوى بالساعة

السادسة او باذن وكيل الرياسة .

رابعاً : لا يجوز لاحد الاعضاء ان يقطع حديث الآخر قبل تمام خطابه .

خامساً : يلزم قطع النظر عن كل ميلٍ وغرضٍ وتعصب بما يكون واقعاً تحت المذاكرة .

سادساً : تعيين التكلم بالترتيب والهدو حينما يطلب وكيل الرياسة اخذ الافكار .

سابعاً : اي من وقع منه مخالفة لما ذكر يكون قابلاً للجزا الذي يستحقه ويكون اوقع نفسه تحت طايلة المسؤولية الشديدة .

ولعلّ افضل ما قاله فرنقو باشا لاعضاء المجلس جاء بمناسبة سفره الى الآستانة في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٨٧٠ فانه قبل مغادرته لبنان فوض الى المجلس الاداري الكبير « كامل مهام المتصرفية واشغالها » وأوحى بتلاوة مرسوم التفويض علناً . وحضّ فيه الاعضاء « ان يكونوا يداً واحدة متفقين مجتهدين باجراء كافة المهام بموجب القوانين المنيفة » وقال : « واول كل شيء ارفعوا التعصب الذي هو اكبر اسباب الخلل ولا تنظروا لامر الشخصية والجنسية مطلقاً بل وجهوا كامل افكاركم لما هو عايد للحق وراجع لخير الوطن العمومي » .

تعلّق المجلس بالمتصرّف

قال الدكتور شاكر الخوري في كتابه مجمع المسرات : اخبرني والدي عضو الادارة آنئذ انه « حضر فرنقو باشا الى لبنان بعد خراب شماليه واضطراب جنوبيه من حوادثّ داود باشا وكرم وانقسام اهليه وسخط اكليروسه على داود باشا . فمهّد بحكمته كل شيء فسكنت الخواطر . وعندما عرفت الاهالي نياته الصالحة وحلمه ومحبته للفقراء وعدم تكبره ورفقه بالاهالي اطاعته بكل ارادة . فصار مهما يفعل ينسبون فعله لقصد صالح بدون تغرض . وقد جمع بين الاحزاب ووظف من الحزبين واسكت الجميع بعدله وحسن نواياه » .

وهو ما لا يختلف فيه اثنان من المعاصرين فيما يظهر . وهذه سجلات مجلس الادارة فانها لا تزال تنطق بمثل ما تقدم وبمناسبات عديدة . ففي التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٧٠ تواردت الاجوبة من المناطق عن سير اعمال التشجير وفيها ما فيها من الشكر للمتصرف على عنايته بالصالح العام . فدوّن المجلس قراراً جاء فيه ان الاجوبة وردت مملوءة شكراً وحمداً على حسن افكار المتصرف « مظهرة بلسان عموم الاهالي كافة الممنونية ليس من هذا الابتكار الخيري فقط مبينة اسباب تشكراتهم العمومية من كامل تصرفات عنايتكم وسهركم الدائم على ما به راحة اهالي الجبل وامانتهم

واسترحامهم عما مضى ان كان من حسن ادارة الحكومة الماخوذة من عدلكم بكل شفقة وحنو ابوي لنحو الفقرا والضعفا ام من وجود اهدوء والسكينة الكائنتين بالحاضر لا سيما عندما توجهت مكارمكم بالمكافأة للمستحقين من خدمة الحكومة المحلية من وجوه ومعتبري اهالي لبنان باستعطاف مراحم ولي نعمتنا الدولة العلية صانها رب البرية بتوجيه رتب الشرف لهم من الرتبة الاولى والثانية والثالثة مع القاب البكويات الامر الذي صيرنا جميعنا غريقين أبحر احسانات الذات الشاهانيـــة الشريفة وبما وجدنا بالحال الراهن وكلاء عن عموم لبنان من جميع الطوائف وجب تقدم بلسانهم كلما مظهرينه من الممنونية والتشكر لجنابكم بهذه العريضة بيان لما تقدم من الاهالي شاكرين وحامدين احسانات عدلكم الشهير وحميد تصرفاتكم التي نشاهدها يوماً فيوماً العايدة لخير واصلاح ونجاح جبلنا وحالنا بدون امتياز بالكلية » .

والواقع انه ليس في سجلات مجلس الادارة بين مئات العرائض التي قدمت في عهد هذا المتصرف ما يشمّ منه رائحـــة التذمر والانتقاد سوى اثنتين احداهما من بروتستانت كوسبا الكوره يطالبون بها بعضو بروتستانتي في محكمة قضاء الكوره والاخرى من موارنة دير القمر يعترضون بها على وجود كنيسة بروتستانتية في بلدتهم . وجواب المجلس والمتصرف مترفع نبيل في الحالتين . ففي الاولى مخالفة صريحة لنص القانون الاساسي الذي قضى بتمثيل البروتستانت في مجلس المحاكمة الكبير لا في محاكم البداية . والرد على العريضة الثانية ملؤه الوعظ والارشاد بحرية المعتقد والعبادة وبالعدل والمساواة بين جميع الطوائف .

وليس في السجلات نفسها ايضاً ما يشير الى اختلال حبل الامن الا مرة واحدة عندما انتهز الشيخ سمعان الخازن فرصة تغيّب المتصرف في الآستانة (اوائل أيار حتى اوائل آب سنة ١٨٧٠) ففر من خدمة الضابطة على رأس جماعة من الانفار والتجأ الى كسروان والمتن يعكّر صفو الامن فيهما . وكان بين رفقائه شليطا مخلوف ووديع الاشقر وعبد الله النقاش ومنصور البريدي . والقي القبض عليهم ونالوا جزاء اعمالهم .

الوظائف والموظفون

وجمع فرنقو باشا بين الاحزاب ووظف منها جميعاً دون تحيّز ملموس . وأحدث فيما يظهر وظائف ثلاثاً جديدة وكالة المعارف ووكالة اوقاف السنة ووكالة اوقاف الشيعة . وانشأ قلماً للدفترخانه « لاصلاح قيود سندات الاملاك وما شابهها » وجعل حنا ابو صعب رئيساً ويوسف الحوري احد اعضائه . وأسند وكالة رئاسة المجلس الاداري الكبير الى عيد حاتم (١٨٦٨–١٨٧٤) ورئاسة مجلس المحاكمة الكبير الى

الشيخ اسكندر حبيش (١٨٦٩–١٨٧٠) فالشيخ رشيد الدحداح (١٨٧٠–١٨٧٣) ورئاسة قوميسيون المتأخرات الى الشيخ سعيد تلحوق ورئاسة قلم المالية الى اسماعيل افندي (١٨٧١–١٨٧٥) ورئاسة الترجمة الى اسكندر التويني (١٨٦٨–١٩٠٢) ورئاسة القلم الاجنبي الى فرانسوا دياب ورئاسة القلم التركي الى اسكندر الحداد (١٨٧٠–١٨٧٣) ورئاسة القلم العربي الى بشاره ابو نحول (١٨٦٨–١٨٧٤) ورئاسة قلم التحريرات (الدفترخانه) الى حنا ابي صعب (١٨٦٩–١٨٧٣) .

وأبقى على سياسة سلفه داود في تعيين القائمقامين فجعلهم كلهم من طبقة الامراء . ولم يخرج عن هذه القاعدة الا في قائمقاميّي زحلة والكورة وذلك لعدم توفرهم بين افراد الروم والروم الكاثوليك . فأبقى الامير ملحم ارسلان قائمقاماً على الشوف وأسند قائمقامية كسروان الى الامير رشيد شهاب (١٨٦٨–١٨٦٩) فالامير سعد شهاب (١٨٦٩–١٨٧٣) وقائمقامية البترون الى الامير ملحم حمود (١٨٦٩–١٨٧٣) وقائمقامية المتن الى الامير يوسف علي (١٨٦٨–١٨٧٣) فالامير سعد شهاب (١٨٧٣) وقائمقامية جزين الى الامير سعد شهاب (١٨٦٨–١٨٦٩) فالامير رشيد شهاب (١٨٦٩–١٨٧٠) فالامير مجيد شهاب (١٨٧٠–١٨٧٣) فالامير داود بللمع (١٨٧٣) . وبقي يوسف بشير قائمقاماً على الكورة طوال مدة المتصرف (١٨٦٨–١٨٧٣) . وتقلّب اثنان فقط في منصب قائمقامية زحلة فارس زلزل (١٨٦٨)وخليل الجاويش (١٨٦٩–١٨٧٣) .

المالية

واطلع المتصرف بادىء ذي بدء على حساب صندوق التضمينات في جبل لبنان فوجد الفائض فيه مليوناً وسبع مئة واربعة وستين الفاً وتسعة وخمسين غرشاً وثلاثين بارة صرف منها ٢٢٦٣١٧,٢٠ ثمن سراية الامير قاسم شهاب وثمن قطعة ارض امام باب السراية الكبيرة ونفقات طريق كروسه ومعاشات مدرسة دير القمر ومعاشات مأموري الملبوسات منذ اول آذار سنة ١٢٨١ مارتية حتى غاية شباط سنة ١٢٨٣ وبقي الباقي وقدره مليون وخمس مئة وثمانية عشر الفا ومئة واثنان واربعون غرشاً وتسع عشرة بارة نقداً وقونسيلداً . فاستلم المتصرف في الثاني عشر من آب سنة ١٨٦٩ جميع الحجج والسندات والكمبيالات ووضعها في كيس وختمها بخاتمه وخاتم صراف الخزينة .

وقدّم محاسب المالية دفتر موازنة الجبل عن السنة المارتية ١٢٨٣ (١٨٦٧–١٨٦٨) بعد موافقة مجلس الادارة الكبير عليها فاذا هي كما يلي :

ميزان محاسبة سنة ١٢٨٣

باره	غروش	البيان
٣٤	٥٥٤٦٦٩٧	بقايا ويركوى والتزامات وذممات وصندوق لغاية شباط سنة ١٢٨٢

اموال ومصارفات سنة ١٢٨٣

مال مقطوع

٣٥٠٠٠٠٠ ويركوى الجبل

٣٣١٢٠ راتب الكوره التحتانية — ٣٥٣٣١٢٠,٧

مال التزام

٣٨٣٢٦٣ قرايا واشجار اميرية

٣٠٣٠٤٧ اقلام ورسومات

٦٨٦٣١٠,٢٩	
١٧٢٢٨,٠٥	واردات تلغرافية
٣٥٣٢٥,٢٥	واردات سعي ميري
١٧,٢٥	تحصيلات عتيقة
٤٢٧٢٠٠٢,٢١	

باره	غروش	البيان
٢١	٤٢٧٢٠٠٢	
	٢٢٥٠٠٠٠	المرتب على ولاية سورية اسعاف ملوكاني
١٢	٠٠١١٧٣٤	المنصرف من الصندوق مصارف ومحولة على القضاوات سنة ٢٨٣
٢٧	١٢٠٨٠٤٣٤	
٣٦	١٠٦٧٥٦٨٨٢	منها منصرفات سنة ٢٨٣ كما بيانها املاه
٣١	٥٣٢٣٥٥١	

حق اربابه لغاية سنة ٢٨٣ يصرف من سنة ٢٨٤ وصاعداً

باره	غروش	البيان
١٦	٦٠٧٩٦٧	الباقي معاشات ومصارفات
٣١	٥٨٢٩٤١	الباقي لحساب المهمولات والامانات
٠٩	١٢٦٨٥٨	الباقي لحساب صراف المتصرفية

باره	غروش	البيان
١٦	١٣١٧٧٦٧	
١٥	٤٠٠٥٧٨٣	بقايا حق الخزينة من سنة ٧٧ لغاية سنة ٨٣
٣١	٥٣٢٣٥٥٠	

وتلاها قرار من المجلس مؤرخ في ٢٠ شباط سنة ١٨٦٩ هذا نصه :

« غب الاحالة صار الاطلاع على هذا الدفتر المتقدم من قلم المالية المبين فيه محاسبة خزينة جبل لبنان عن واجب سنة ٢٨٣ اثني عشر شهراً من ابتداء مارت لغاية شهر شباط من السنة المذكورة الحاوي اموال الجبل مع بدل التزامات عن السنة المرقومة وبيان بقايا السنين السابقة من سنة ٢٧٧ لغاية سنة ٨٢ والمرتب بالارادة السنية الملوكانية للجندرمه اللبنانية من ولاية سوريا جميع ذلك بحساب دار السعادة العلية مع بيان الاموال المدعوة باسم مهمولات العايدة رؤية محاسبتها تحت نظارة هذا المجلس والمتحصل في السنة المحررة من بقايا السنين القديمة لغاية ٢٧٦ الممنوحة لاصلاحات الجبل البالغ مجموع ذلك كما موضح بهذا الدفتر اثني عشر مليون غروش وثمانين الف غرش واربع ماية واربعة وثلاثين غرشاً وسبعة وعشرون باره . منه بحساب دار السعادة ١٠٩٣٢٤٢٥ ومنه بالحساب العايد لنظارة هذا المجلس ١١٤٨٠٠٩ غروش . وبلغ المتحصل من القلمين المسفورين سبعة ملايين وثلاث مابة الف غرش وتسعة آلاف وخمس مابة وستة وثلاثين غرشاً وتسعة عشر باره اي من الباب الاول ٣٤ باره ٦٦٠٢١٩٤ غروش ومن الباب الثاني ٢٥ باره ٧٠٧٣٤١ غروش فيكون الباقي من ذلك ٠٨ باره ٤٧٧٠٨٩٨ غروش وبلغت المصارفات الواقعة في المدة المسفورة عن الموقوف صرفه مبلغ سبعة ملايين واربع مابة وستة وثلاثين الف غرش وثلاث مابة واربعة وتسعين غرشاً وثمانية وعشرين باره التي صرف منها ٣٤ باره و٦٦٠٢١٩٤ غروش بحساب دار السعادة طبق الواردات وذلك عدا ما توقف ليصرف في السنة القادمة . وصرف منها بالحساب العايد لرؤية هذا المجلس ٠٢ باره ١٥٤٦٨٨٠ غروش وباقي منها ذممات ومصارفات ستصرف في سنة ٨٤ ٣٢ باره ٦٧٩٥١١ غروش التي منها دين للصراف ٠٩ باره ١٢٦٨٥٨ غروش فتكون بيان البقايا لغاية شباط ختام سنة ٢٨٣ من عموم الاموال المحررة خمسة ملايين وثلاث مابة وثلاثة وعشرين الف وخمس مابة وخمسين غرشاً وواحداً وثلاثين باره التي منها حق الخزينة ١٥ باره ٤٠٠٥٧٨٣ غروش ومنها حق اربابه معاشات ومصارفات ومهمولات وامانات يجري صرفها وتسديدها من سنة ٢٨٤ وصاعداً مليون واحد وثلاث مابة وسبعة عشر الف وسبع مابة وسبعوستين غرشاً وستة عشر باره.فلدى مراجعة جميع ذلك مع البيانات المشروحة عليه من قلم المالية وجد صحيحاً . وبناءً عليه تحررت هذه المضبطة من مجلس ادارة جبل لبنان مصادقة على ذلك ليعرض للاعتاب الكريمة لكي اذا لاق لدى الارادة الشريفة ان يصير حفظه في قلم المالية ويتنظم منه الدفاتر المقتضي تقديمها لدار السعادة والدفاتر العايدة لنظارة هذا المجلس . وبكل الوجوه الامر لمن له الامر » .

وفي منتصف اذار من السنة ١٨٦٩ نرى المجلس يعود للاموال فينظر في ضريبة

تفرض على معامل الحرير ويتخذ القرار التالي :

« انه بناءً على النظامات السنية الملوكانية الجليلة المقررة بحق جبل لبنان المعلن فحواها السامي باجراء مساحة اراضيه وعد نفوس اهاليه وتوزيع المال المقنن عليه بحد متساوى بدون استثنا محل ما قد صار اجرا مساحة عموم اراضي ومغروسات وحوانيت ومفالق وساحات وبنادر مع عدد نفوس الاهالي . وصار مقتضى النظر بتوزيع الاموال المطلوبة من الجبل على مجموع دراهمه وعدد نفوسه بنسبة واحدة .

« ومن كون للآن لم يتخصص شيئاً من الاموال الميرية على دواليب كراخين الحرير الكاينة في جبل لبنان التي منها للاجانب ومنها للاهلين نسبة حوانيت ومفالق الجبل . ومن حيث الكراخين المذكورة واقعة ضمن دايرته وتستنتج لازماتها واقتضاياتها من لوازماته فواجب من ذلك اشتراك حملها بمطلوباته غب تعديل ما يستوجب عليها بحسب القرار الجاري بهذا المجلس على عموم اراضي ومفالق الجبل وهو على محصول كل ثلاث ماية غرش وستين غرشاً قيمة درهم مساحة .

« فبالمذاكرة والنظر بما يستوجب تعيينه على الكراخين المذكورة بالنسبة لترتيب البنا المعد للاستيجار ومن كونها لم تكن ثابتة بل بعضها يتعطل بعض الاحيان وبعضها يزداد فرؤي بالتنسيب ان يتخصص على كل دولاب يشتغل من دواليب الكراخين سواءٌ كانت للاجانب ام للاهلين عشرة غروش صاغ في كل سنة على موجب تعدادها بالزيادة او النقصان يندفع لصندوق الجبل تحت طايل الاصلاحات اللازمة التي تفيد الكراخين باكثر نوع عما سواها .

« وعليه تحررت هذه المضبطة من مجلس ادارة لبنان لتعرض لاعتاب دولته لكي اذا لاق لديه صدور امره لمن يقتضي والى كافة قايمقامات الجبل بجمع الاموال المذكورة من كل اصحاب الكراخين اجانب واهلين ودفعه للخزينة نسبة التحصيلات الميرية بحسب الدفتر الذي يعطى من هذا المجلس بكمية عدد الدواليب بالكراخين جميعها عند دورانها وبكل الاحوال الامر لمن له الامر » .

وتمت اعمال المسح والعد فرأى المجلس الاداري الكبير ان يستعين باهل الخبرة والدراية لتوزيع الاموال الاميرية توزيعاً عادلاً فاقترح في التاسع عشر من أيار من السنة نفسها ١٨٦٩ ما يلي :

« لدى المذاكرة مجلسياً رؤي مستلزماً وجود اثني عشر شخصاً من اهل الدراية والمعرفة والذمة والنباهة لاجل مساعدة اعضاء هذا المجلس على تنسيب الاموال الميرية في عموم جبل لبنان منتخبين من كامل الطوايف من كل قضا على هيئة هذا المجلس بحسب التعليمات السنية وان يصير انتخاب ستة وثلاثين شخصاً اي من قضا جزين ستة اشخاص ثلاثة من طايفة المارونية وثلاثة من طايفة الدروز ومن قضا الشوف ستة

ثلاثة من الاسلام وثلاثة من الدروز ومن قضا المتن تسعة ثلاثة من الموارنة وثلاثة من الدروز وثلاثة من الروم ومن قضا زحلة ثلاثة من الروم الكاثوليك ومن قضا كسروان ستة ثلاثة من الموارنة وثلاثة من المتاولة ومن قضا البترون ثلاثة من الموارنة ومن قضا الكوره ثلاثة من الروم .

« فاذا لاق لدى دولته صدور امره الشريف الى كل من قائمقامي القضاوات المحررة ان يستدعي مشايخ القرى ومع شيخ كل قرية شخصين من وجوه المحل ينتخبوا الاشخاص المطلوبين بحسب درايتهم ومعرفتهم بالاشخاص المتصفة بالصفات المحررة اعلاه . وعند تمام الانتخاب المحرر يتقدم عرضحال عمومي من المشايخ والوجوه المرقومين عن يد القايمقام ويكون بلوغه لاعتاب دولته في اول شهر حزيران غربي سنة ٨٦٩ من دون تأخير لكي عند حضور المعروضات يصدر امره الشريف بتسمية اثني عشر شخصاً منهم الذين هم اكثر اهلية ومناسبة لهذه المادة المهمة .

« وعليه تحررت هذه المضبطة من مجلس ادارة جبل لبنان لتعرض لاعتاب دولته لكي اذا لاق لديه صدور الامر باجراء ايجابها والامر لوليه » .

وليس في سجلات المجلس ما ينبئنا عما آل اليه هذا القرار الهام فلا نعلم ما اذا وافق عليه المتصرف ولا ندري ما اذا تمّ انتخاب هؤلاء الوجوه والخبراء بالشكل الذي توخاه اعضاء المجلس الكبير . ولكننا نعلم ان توزيع الضرائب الاساسية تمّ على الوجه التالي :

اجمال	مال الاملاك	دراهم	مال الاعناق	اعناق	ذكور كل طائفة
٠٢٠٢٩٦٨	٠١٧٣٢٧١	٠٨٢٥١	٢٩٦٩٧	٣٣٩٤	مسلمون
١٨٤٧٠٥٥	١٣٤٤٦٣٠	٦٤٠٣٠	٥٠٢٤٢٥	٥٧٤٢٠	موارنة
٠٧٢٧٥١٥	٠٦١٨٤٢٩	٢٩٤٤٩	١٠٩٠٨٦	١٢٤٦٧	دروز
٠٤٠٨٦٣٢	٠٢٩٠٠٥٢	١٣٨١٢	١١٨٥٨٠	١٣٥٥٢	ارثوذكس
٠٢٠٨٨٥٣	٠١٣٣٤٥٥	٠٦٣٥٥	٧٥٣٩٨	٨٦١٧	كاثوليك
٠٠٩٦٥١٦	٠٠٥٩٦٦١	٠٢٨٤١	٣٦٨٥٥	٤٢١٢	متاولة
٠٠٠٨٤٥٧	٦٩٥٤	٠٠٠٣٢١	٠١٥٠٥	١٧٢	بروتستانت
					ارمن الخ

بحيث أصبح مجموع عدد الذكور ٩٩٨٣٤ وعدد دراهم الارزاق ١٢٥٠٦٩ ومجموع مال الاعناق ٨٧٣٥٤٧ غرشاً ومجموع مال الاملاك ٢٦٢٦٤٥٢ غرشاً او سبعة آلاف كيس .

وفي الثاني عشر من آب من السنة نفسها نرى المجلس يؤكد ان ليس في نفقات

الحكومة اللبنانية ما يمكن حذفه . وإليك اهم ما جاء من هذا القبيل :

« موازنة متقدمة من المالية بعلم الواردات عن سنة ١٢٨٥ مارتية والمصارفات المقتضي صرفها والذي يتبقى لغلاقة تسديد المصارفات

غروش	
٦٦٢٠٠٠٠	مجموع المصارفات من معاش دولته وساير المأمورين بالمركز والقضاوات والضبطية الجندرمه وفي القضاوات مع المعاشات المرتب احسانات ملوكانية
٣٦٢٠٠٠٠	واردات مقطوع الجبل بعد تنزيل ما الحق الى البقاع وبما فيه مرتبات الكورة والبكاليك واعشار ميريه وخلافه .
٣٠٠٠٠٠٠	

انه بحسب الامر الكريم صارت مطالعة هذه الموازنة المتقدمة من قلم المالية المبين بها واردات ومصارفات متصرفية جبل لبنان عن واجب سنة ١٢٨٥ وحيث وجدت المصارفات اكثر من الواردات فقد صار فحص المصارفات المذكورة اجمالاً وافراداً بكل دقة لينظر اذا كان ممكن تخفيف شيء منها للتوفير على صندوق الخزينة الجليلة الملوكية كما هو فرض الذمة وواجبات صدق الخدمة . فظهر ان ذلك غير ممكناً لان المصارفات المذكورة باعتبار تعيناتها لاربابها ليست هي شيئاً باهظاً بالنسبة الى لوازمهم الضرورية . كما وان تقليل المأمورين والموظفين هو ايضاً فوق الامكان لان هيئة المتصرفية بمقتضى التعليمات الملوكانية تستلزم وجود هذا كله ولا تستغني عن شيء منه استغناءً مطلقاً فضلاً عن ان دولتكم قد وفرتم عن صندوق الخزينة الجليلة نحو مابة الف للتوفير اكثر من ذلك . اما الذمة المطلوبة الى صندوق المتصرفية من سنة ٧٧ لغاية سنة ٨٤ ينبغي ان يصير الاجتهاد الكلي بتسديدها من التحصيلات الممكن حصولها من بقايا السنين المحررة . وبناءً عليه وحيث وجدت هذه الموازنة صحيحة فقد تذيلت بهذه العريضة من مجلس ادارة لبنان . وبكل الوجوه الامر لحضرة من له الامر » .

وتابع المجلس نفسه اعماله التاسيسية في حقل المالية فدرس بدل حاصلات الاملاك الاميرية ونظر في شكاوي الملتزمين وتأخرهم عن دفع اقساط الالتزامات باوقاتها فأقر في اواخر كانون الثاني من السنة ١٨٧٠ مرتبات القرى الميرية (البكاليك) ورسومها كما يلي :

اولاً : ان جميع قرايا البكاليك الكاينة في قضاء الكورة مع مجدليا ومزرعة عساف وحارة بيت شلالا في قضاء البترون محصورة مرتباتها الاميرية الى بدل اعشار على نوعين الاول على اشجار الملكية الوقفية خراج موظف راتب بفيئات مختلفة وهي على كل شجرة زيتون مثمرة سبع بارات ونصف باره وكل شجرة او نصبة

توت وتين ومختلف مع صرور زيتون الذي لم يعطي ثمراً ثلاث بارات وكل جفنة كرم باره ونصف . والثاني على الارض البيضاء التي بوضع يد الاهالي المدعو مشد مسكه قسم من السبعة واحد عيناً من ساير الحبوب والقطن والسمسم والتوتون وباقي المزروعات المتجربة من دون استثنا ولا امتياز لاحد . واما الاراضي التي ليس لها واضع يد يؤخذ منها ثلث الحاصلات . ثم وبما ان قريتي شمسطار والهرمل مع مزرعة سلوقية مستثناة عن نظام البكاليك تبقى على رسوماتها المفرزة لغاية سنة ٢٨٥ بدون احداث او الغاء شيء من مرتباتها .

ثانياً : ان الطاحون الكاينة على نهر الغدير الاميرية في قضاء المتن حيث انتهى التزامها عن السنتين الماضيتين لغاية سنة ٢٨٥ تطرح على سنتين مستقبلتين حسب عادتها .

ثالثاً : اشجار الزيتون ملك الميري الخاصة والمشتركة التي في قرايا البكاليك الالتزامية بما ان قسم الاهالي منها داخل المساحة وقسم الميري ليس عليه مال ولا خراج فاراضيها لا يسمع بها ادعا وضع يد او مشد مسكه وممنوعة الزراعة بها الا اذا كانت اشجار مفرقة في اراضي واسعة يترك لكل شجرة ضمنها حرم مخصوص حسب التعليمات وبقية الارض تعطى لمن يزرعها بقسم الثلث . واما الاشجار التي شركة الاهالي اذا شاء الشركا زرعها يعطون قسم الثلث عنها عن سهم الميري والسبع عن سهمهم الخاص بها ان زرعوها بانفسهم او زرعها آخرون ممن لهم العادة بزراعتها . وهذه الاقسام لا تدخل التزام القرايا الكاينة بها بل يصير جمعها على يد النظار او تلزيمها لوحدها . ولا حق للملتزم ان يطلب شيء منها ما دام بها اشجار ميرية ولو شجرة واحدة .

رابعاً : كل ما يزرعونه الاهالي بين الاشجار الخراجية التي بملكهم معاف من القسم الا التوتون يدفع قسمه اينما وجد . اما مشاتل الدخان التي تزرع في حواكير صخرية غير صالحة للزراعة معافة من القسم . واذا زرعت باراضي بيضاء صالحة للزراعة يؤخذ منها السبع كما ذكر .

خامساً : المزروعات التي توجد في البيادر تقسم من السبع باوقاتها المعينة وبالتماس الاهالي . والملتزم يأخذ منها قسم الميري عيناً او بدلاً بالاتفاق والرضى لا بالجبر . ويكون تسليم حصة الملتزم عن البيدر من دون تكليف الاهالي لحملها للخارج القرية . واما القطن والتوتون والحبوب النثرية مثل حمص وعدس وكرسنه وما شابه ذلك يصير تقديرها قبل قطافها عن يد مقدرين من الطرفين . وان وجد اختلاف بين المقدرين فنظار الاملاك يرسلون مقدر ثالث يفصل الاختلاف حكماً . وهكذا اذا وجد اختلاف بين الاهالي او الملتزمين على عدد الاشجار يصير عددها على يد نظار الاملاك . واجرة المقدرين والنواطير التي تتعين بمعرفة نظار الاملاك عن البيادر

نصفها على الملتزم ونصفها على الاهالي .

سادساً : ان كلما كان بالسابق على بعض القرايا فلوحية وسنوية ومرتبات ومصاريف وعليق خيول واجرة قوناقات ومخزن لقسم الميري فهو ملغاً ولا تسمع عنه دعوى .

سابعاً : ان المزاد يكون بالقضاوات بنفس المحاكم من نصف كانون ثاني الى نصف شباط ويكون علناً ليس بمعروضات سرية ولازم اظهار اسم الكفيل اذا كان مأموناً وقادر على الوفا . وفي نصف شهر شباط ترد مضابط وعليهم ختم القايمقام ونظار الاملاك . وكاتب المال يقرأ كل التزام بكل قرية لوحدها مع سندات موقتة على الطالب وكفيله وكفلاه لكي تصير نهاية المزايدة بمجلس الادارة لحد اول آذار ينتهي القرار وتعطى الشرطنامه . وبمقتضى النظامات يبقى باب الزيادة مفتوحاً الى ١٥ آذار انما الزيادة لا تقبل باقل في المائة عشرة .

ثامناً : يجب ان يتعرف كل ملتزم انه سيطلب منه اربع كامبيلات بما يلتزمه مسحوبة منه على كفلاه ومقبوضة منهم الاولى في غاية مايس والثانية في غاية اوغسطس والثالثة في غاية تشرين ثاني والرابعة في غاية شباط وقيمة هذه الكمبيالات ان ترد بعام استحقاقها الى مركز المتصرفية يجري عليها البروتستو بمجلس الادارة وتتحول لامر الصراف وهو يدفعها . ومتى وردت يأخذ عليها العطل في المائة واحد وعشرة فضة لمصاريف البروتستو .

تاسعاً : كل ملتزم وكفيل يتقدم للالتزام يجب ان يعرف ذاته بانه ملزوم بدفع الكمبيالات باستحقاقها ان ربح او خسر او اصيب التزامه بآفة ارضية او علوية مهما تشكى لا يسمع له . وانه باستحقاق القسط ملزوم بدفعه ولو باع شيئاً من املاكه بما عز وهان او استدان بأي عطلٍ كان .

عاشراً : كلما هو حق الميري خارج الخراج على الشجر والقسم على الارض من احكار مغالق او عمارات ميرية لا حق للملتزمين بمناولتها بل يصير جمع ذلك خارج الالتزام على يد نظار الاملاك . وهكذا اقسام الاراضي البيضاء التي من الثلث وحاصلات الاشجار الميرية الخاصة والمشتركة . وكلما هو ليس ولا قسم يبقى .

الاحراج والتشجير

وأفضلُ ما يُسجّل لهذا المتصرف الطيب الذكر أعماله العمرانية . فانه منذ ان وطأت قدماه أرض لبنان هاله عدم اهتمام أهله بالاحراج واقدامهم على قطعها دون تروٍ ولا تبصر . فقام يبين اهمية الاشجار لاعضاء مجلس الادارة ويحثهم على

حمايتها فلبوا نداءه وسجلوا في الثلاثين من كانون الاول سنة ١٨٦٨ اول تشريع رسمي في هذا الموضوع . واليك نصه :

« للاحراش في الاراضي المشحونة بالسكان فائدة كلية ان لمراعي الحيوانات او للتحطيب وصيانتها واجبة على الحكومة . ودولته أصدر اوامره مراراً لزراعة الاشجار وصون الباقي منها من الاتلاف . واراضي لبنان لم تكن عقيمة في الماضي ان في سواحلها او في جرودها .

« فبناءً عليه بما ان الاراضي الواقعة في الجبل المسماة بالزلقة المحدودة قبلة بأرض قلعة المضيق وشمالاً بالاراضي التابعة وادي الدلم وغرباً مقلب المياه وشرقاً اراضي تل الاخضر اذ كانت من القديم احراش كبيرة ينتفع بها اهل حمانا وفالوغا من المتن وبمهريه وعين داره وعين زحلته من قضاء الشوف قد صارت قريبة التلف من التعدي عليها فحصلت المذاكرة مجلسياً

« اولاً : يلزم ان يكون لها ناطورين بهما الكفاية لهذه المصلحة يمنعان كل احد عن الكسر والزراعة بها وعن عمل مشاحر من اي محل كان .

« ثانياً : ان اهل المحلات الذين لهم الحق بمناولة الحطب ولوازم بيوتهم من الحرش المذكور يكون قطعهم من الاشجار ما فوق الارض ولا يدعى احد يتجاسر على قلع قرمة واحدة من اصول الشجر وكافة النباتات الكاينة باراضي الحرش المذكور .

« ثالثاً : يمنعان اصحاب الطروش من رعاية مواشيهم في المحلات النابتة جديداً . واما اذا دخلوا لمحل الاشجار العامرة عند الاقتضا واللزوم فلا مانع من ذلك بحيث يكون بحضور النواطير .

« رابعاً : ان اجرة الناطورين المرقومين تكون على اهالي المحلات المرقومة اعلاه.

« وبناءً عليه تحررت هذه المضبطة من مجلس ادارة لبنان لتعرض لاعتاب دولته لكي اذا لاق لدى الارادة صدور الامر الكريم الى قايمقامي قضا الشوف وقضا المتن لكي كل منهما ينتخب ناطوراً يكون به الكفاية واللياقة ويقطعا اجرته سنوياً ويفيدان عن اسميهما ومعاشهما ليعطى لهما أمر شريف من لدن دولته بذلك . وبكل الوجوه الامر لمن له الامر » .

وفي الرابع من تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ عاد المجلس نفسه الى التشريع في هذا الحقل من العمل فأقر ما يلي :

« انه من كون افكار دولة افندينا المعظم منصرفة ليلاً نهاراً الى كل ما يؤول الى تحسين الجبل وتصليح طرقه وتشجير اراضيه لاجل نجاح اهاليه وازدياد عمارهم وجد من الواجب على ذمة هؤلاء العبيد ان يقتفوا اثاره الخيرية فيما يساعد هذه الافكار الحميدة . فالان لدى التفكر والتذكر في متفرعات هذا الموضوع الخيري وجد ان

اراضي الجبل الكاينة فوق اراضي العرقوب والشوف الحيطي من اعلا جبل عين داره والباروك الى نهاية حدود نيحا ورثها اهالي الجبل الحاضرين مشجرة باشجار متنوعة والان اضحت بيضا خالية من الاشجار . ومن كون واجبات نظام الخليقة تستدعي ان الآباء تجري كل ما من شأنه ان يكسب اولادهم خيراً ونجاحاً في المستقبل والقرايا المجاورة الجبل مضطرة جداً لوجود احراش ينتفعون بها سواء بالاحتطاب او لمرعى الطروش فرؤي اذا لاق بالارادة صدور الامر الشريف الى عزتلو قايمقام قضا الشوف كي يعطي التنبيهات اللازمة الى مديري النواحي الموجودة بها الجبال المذكورة بان ينبهوا على مشاريع القرايا ليباشروا زراعة الاراضي المحررة التي لا تصلح لزراعة الحنطة من بذر الاشجار التي تناسب حالها وقيامها كما كانت فيما سلف ويعتنوا الاعتنا التام بصيانتها بالنوع الذي يؤمل منه تشجير الاراضي المذكورة بسنين قريبة ويتمتعوا الاهالي بالانتفاع بها . فهذا ما رؤي واجب اعراضه بهذه المضبطة لتعرض لاعتاب دولته وبكل الوجوه الامر لحضرة من له الامر » .

اما الاعضاء الذين اقدموا على اتخاذ هذه الخطوة التاريخية فهم عيد حاتم عمر الخطيب اسعد بو صعب سمعان غطاس يوسف الخوري يوسف البيطار قويدر حماده وهبه بو غانم حسن شقير نجم الاسود ابراهيم طالب سليم مطران كاظم عمرو .

وعاد هؤلاء انفسهم الى الموضوع نفسه في الحادي والعشرين من كانون الاول من السنة نفسها فقالوا :

« انه مقدماً تحرر مضبطة من هذا المجلس بتاريخ ٣٠ رجب سنة ١٢٨٦ تحت نومرو ٧٨٧ تتضمن وجوب زرع الاراضي البيضا المعطلة التي لا تصلح لزراعة الحبوب الكاينة من اعلا جبل عين داره الى حدود قرية نيحا وان يصدر الامر الى عزتلو قايمقام قضا الشوف لينبه على الاهالي بان يبادروا لزراعتها من الاحراش البرية بحسب موافقتها . وبما انه يوجد ايضاً اراضي مشاعيه بيضا في جرود باقي القضاوات من حدود جبل الريحان الى نهاية البترون لا تصلح لزراعة الحبوب وقبلاً كانت مشجرة والآن اضحت بيضا والقرايا المجاورة الجبل مضطرة جداً لوجود احراش ينتفعون بها ان كان بالاحتطاب او بمرعى الطروش .

« فاذا لاق بالارادة صدور الاوامر الشريفة الى جناب قائمقامي قضاوات جزين والشوف والمتن وكسروان والبترون بان يجروا التنبيهات على المديرين الموجودة بها الجبال المسفورة لينبهوا على الاهالي بان يستحضروا على جانب من بذر السنديان والملول والابهل. وعند دخول شهر شباط القادم يبادروا لزراعة الجبال المحررة ويعتنوا الاعتنا التام بصيانتها بالنوع الذي يؤمل منه تشجير الاراضي بمدات قريبة . ويتاكد عليهم بان

من حصل منه تكاسل عن اجراء هذا العمل الخيري المفيد لنجاح الاهالي يحصل عليه المسؤولية من لدن دولته . وبكل الاحوال الامر لحضرة من له الامر » .

ويستدل من تقرير رفعه قائمقام الشوف في الرابع والعشرين من كانون الاول من السنة نفسها ان الموظفين والاهالي في قضاء الشوف اقدموا على الزرع والغرس بهمة ونشاط ولم يتلكأ عن القيام بهذا الواجب الوطني سوى الامير عبد الله شهاب مدير ناحية الشحار . فأشار المجلس بتشجيع الموظفين والاهلين وباستدعاء مدير الشحار لافهامه اهمية العمل المطلوب « اذ قد يكون فتوره ناجماً عن جهله » .

ولم يحصر المتصرف اهتمامه بالجرود في اعلى التلال والجبال فانه حضّ اللبنانيين على تشجير جميع الاراضي المهملة في السهول وفي السواحل . وجعل هذا العمل الخيري اجبارياً وعلى نفقة اصحاب الاراضي . فان كانت اميرية فعلى نفقة الحكومة . ورأى ان يعمم زرع الصنوبر في هذه الاماكن فطلب الى حسن شقير احد اعضاء مجلس الادارة ان يتولى هذا العمل بخبرته ودرايته كما طلب الى زميله ابراهيم طالب ان يقوم بالمهمة نفسها في قضاء الكوره . واشترت الحكومة بين ٢٤ نيسان سنة ١٨٦٨ وبين ١٠ آذار سنة ١٨٧٢ اربعة الاف مد ومئتين وثمانية عشر مداً من الصنوبر ووزعته على الاقضية فأصاب الشوف ٣٠٠ مد وجزين ٣٠٠ ودير القمر ٣٥٠ وزحلة ١٥٠ والمتن ١٨ وكسروان ٧٥٠ والبترون ٤٥٠ والكورة ٧٥٠ .

وزينت الحكومة طرقات العربات بشجر الزلزلخت فوزعت في هذه السنين الاربع ما لم يقل عن ١١٠٠٠ نصبة أصاب بتدين ودير القمر وبعبدا والحدث قسماً وافراً منها .

واهتم المتصرف بالاشجار المثمرة فاستقدم يوسف ابو شعيب من دير القمر واوفده الى حلب ودمشق لاستيراد مطعوم الفستق وتطعيم اشجار البطم المنتشرة في جميع انحاء الجبل .

بتدين وبعبدا

وكان داود باشا قد اشترى لحكومة الجبل سراي الشهابي الكبير في بتدين فقام فرنقو باشا يصلح ما تهدم منها . واشترى بعض الاراضي الملاصقة لها كما استأجر من المطران بطرس البستاني كمية من مياه قناة بتدين وجرها اليها فأعاد رونق صحنها وأحيا جنائنها وجنائن سراي الامير قاسم وانشأ سبل ماء ثلاثة لمنفعة سكان القرية . ثم رتب أمر الدفن خارج المركز بان انشأ مدفنين للنصارى ومدفناً للمسلمين .

ولمس منذ وصوله الى لبنان بعد المركز عن بعض الاقضية وصعوبة الوصول اليه

في فصل الشتاء فرأى ان يجعل لحكومة الجبل مركزين واحداً للصيف وآخر للشتاء . فاستأجر سراي الامير ملحم الشهابي في بعبدا بالفي غرش في الشهر وكانت كبيرة تحتوي على خمسة وخمسين مسكناً . وفي الثالث والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٦٨ التأمت حكومته في بعبدا لاول مرة في تاريخ المتصرفية وما فتئت تلتئم في بعبدا شتاءً وفي بتدين صيفاً حتى آخر عهد المتصرفية .

الاشغال العامة

وشكّل المتصرف لجنة للاشغال العامة دعاها قوميسيون ادارة النافعة . وعيّن المعلم يوسف سماحه ناظراً للطرقات بمعاش شهري قدره ست مئة غرش وقال المجلس الاداري عند تعيين المعلم يوسف « انه بعد المذاكرة مع قوميسيون ادارة النافعة رؤي ان المصلحة لا تحتاج الى كثرة المهندسين بل يكفيها مهندس واحد هو المعلم يوسف سماحه » . وكان بين المهندسين الاجانب المسيو هدن وفيشان آغا والترجمان انطون قيقانو . وبين الملتزمين المعلم متري رستم الشويري ونسيبه المعلم يوسف غصن والمعلم طنوس خنيصر والمعلم الياس الخوري والمعلم الياس زغيب والمعلم انطون سعاده .

وقدّم المتصرف بناء الجسور على غيره من الاعمال فأكمل انشاء جسر الدامور وأطلق عليه اسم « الركائز الخيرية العزيزية » وانشأ جسراً على نهر الرميله فأسماه « جسر الحمية » وعلى نهر بريح « الغيره » وعلى نهر المختاره « السلامه » وعلى نهر العزيبة (جزين) « الخلاص » وعلى نهر بحنّين « المرحمة » وعلى نهر الجعماني (المتن) « النجاة » وعلى نهر العرعار « الوقاية » وعلى نهر المتن بين العبادية وبيت مري « المساعدة » وعلى نهر الغدير « المساواة » وعلى عين اللبن « الاتحاد » وعلى نهر الحصاحيص « التسهيل » وعلى ساقية بحالا « التوفيق » وعلى نهر الفيدار (كسروان) « الصداقة » وعلى نهر رشعين (قضاء البترون) « الاتفاق » .

وشقّ طريقاً للعربات من بتدين حتى جسر القاضي وعنها شعبة لدير القمر وشعبة لبشتفين . ومهّد طريقاً للعربات ايضاً من بتدين حتى بعقلين من الجهة الواحدة وحتى كفرنبرخ من الجهة الاخرى وطريقاً معبدة من خان الشيخ على طريق الشام – بيروت حتى عاليه . ومهّد طريقاً عادية من جزين حتى كفرحونه ومن جزين حتى كفرفالوس ومن عين الشقره حتى الرمانة وطريقاً للعربات من كساره حتى زحلة ومن دكان الحازمية حتى كفرشيما ومن المديرج حتى وادي الدبور بالقرب من عين داره ومن دكان الشباك الى النهر في اراضي عين الرمانة وطريقاً عادية من جسر بيروت حتى اول الرمل ومن جونية حتى بكركي وما فوقها ومن حدود الجديدة حتى مزرعة جويا

واصلح الطريق عند نهر الكلب ونهر ابراهيم وعند المسيلحة .

وكان رحمه الله يحض الاهلين على البذل في سبيل تحسين المواصلات فيفرض نفقات بعض الجسور على القرى المنتفعة . ومثال ذلك ان بناء جسر السلامة على نهر المختارة وبينها وبين عين قنية تطلب انفاق خمسة الاف واربع مئة غرش وزعها المتصرف على القرى المجاورة بالشكل التالي : ١٠٠٠ على المختارة و ٧٢٠ على عماطور و ٦٠٠ على عين قنية و ٥٠٠ على المعاصر و ٥٠٠ على نيحا و ٤٠٠ على باتر و ٣٥٠ على بطمه و ٣٠٠ على حارة جندل و ٢٠٠ على جباع و ١٥٠ على مرستي .

وانشأ المتصرف قناة للماء في باتر فأحيا بها مئتي فدان من الارض . وأصلح سراي صليما وقلعة جبيل وانشأ في هذه الاخيرة محلاً لرفع العلم السلطاني كما أصلح محلات « مأموري الرسومات » . (واهتم بميناء البترون فأصلحها ورفع المستنقعات من جوارها . وبحث المجلس الاداري في عهده جر المياه الى جبيل والبترون وتوزيع مياه نبع العسل على قرى كسروان العليا .

ورأى « حضرة صاحب المكرمة والفضيلة عظمي زاده احمد مؤيد بك من اعيان محروسة دمشق الشام ان طريق المارة على نهر انطلياس صعبة السلوك عند طوفان النهر المذكور ولا سيما في فصل الشتاء فرغب في بناء جسر من حجر فوق هذا النهر تسهيلا للمرور على وجه البر والخير . وبما ان هذا الجسر يحتاج الى الترميم في اكثر الاوقات فاستصوب بناء طاحون بجانب الجسر ليكون ببقاء الطاحون المرقومة بقاء الجسر وان موقع بنيانها يكون بمسافة نحو من اربعين ذراعاً وان لا حق له بالمياه قبل خروجها من الطواحين القديمة وانفصالها عن البساتين قطعاً » رأى احمد بك المؤيد كل هذا وتقدم به من مجلس الادارة فأوفد المجلس كلاً من حسن شقير ونجم الاسود لاجراء الكشف اللازم . ففعلا وعادا يقولان ان المحل المذكور يبعد عن المينا التي كان قد شرع في بنائها حضرة الامير حيدر اسماعيل في المحل المذكور والى جنوبيه نحواً من ثلاثين ذراعاً وان محل الجسر واقع على طريق عام والباقي يخص اشخاصاً معلومين . وتذاكر المجلس فرأى ان الترخيص واجب وطني فقابل « نية البك هذه بكمال الممنونية واظهار التشكر » واشترط ما يلي :

اولاً : ان الارض التي تلزم لمركز الجسر المرقوم بما انها طريق عام وبناء الجسر محض خير للمارين فقد ترخص له بالبناء فيها دون ان يدفع شيئاً عوضاً عنها . اما ما يحتاجه من الارض لبناء الطاحون والحوانيت وغيرها من المحلات فعليه ان يشتري الارض من مالكيها بالثمن .

ثانياً : لا حق للبك ان ياخذ من المارة شيئاً البتة ويستمر ذلك الى ما شاء الله .

ثالثاً : جميع ما يبنيه من المغالق والحوانيت بجوار الجسر المذكور يخضع للاموال

الاميرية السنوية لدى الانتهاء من بنيانه كسائر حوانيت ومغالق جبل لبنان .

رابعاً : لا حق للبك بجمع مياه النهر المذكور قبل انفصامها عن البساتين والطواحين الموجودة الان ولا التعرض لاصحاب البساتين بسقاية املاكهم الحاضرة ولا ما يجددونه من البساتين . وليس لاحد منهم بعد ذلك ان يتعرض له بجر الماء الى مطحنته .

خامساً : واخيراً ان الشروط المحررة جميعها تكون معتبرة مرعية الاجراء سواء كانت الابنية المحررة باقية على ملك البك او انتقلت منه بالوقف الى غيره بوجه من سائر الوجوه الشرعية من دون نقض شيء منها البتة .

المدارس الرسمية

وظهر في خريف السنة ١٨٦٩ نظام المعارف العمومية في مئة وثمان وتسعين مادة وخمسة ابواب . وبحث الباب الاول في انواع المدارس ودرجاتها والباب الثاني في هيئة ادارة المعارف العمومية والثالث في الامتحانات والشهادات والرؤوس وامتيازاتها والرابع في المعلمين والخامس في المال .

وجعل الباب الاول المدارس نوعين عمومية او رسمية وخصوصية . فالرسمية كانت تلك التي تولت الدولة نظارتها وادارتها والخصوصية ما تولت الدولة نظارتها وتركت امر تاسيسها وادارتها الى الافراد او الى الجمعيات الطائفية . واشترط في تأسيس المدارس الخصوصية ان تصدر بها رخصة رسمية وان يكون بيد المدرسين فيها شهادات صادقت عليها نظارة المعارف او ادارة المعارف المحلية وان يكون منهاج الدروس فيها مصدقاً عليه من قبل السلطات نفسها . واعطى هذا النظام الدولة حق تفتيش هذه المدارس متى شاءت . وجعل هذا الباب الاول التدريس الرسمي على مراحل ثلاث رشدية واعدادية وعالية . فالاولى شابهت تعليمنا الابتدائي والثانية منهاجنا الثانوي والثالثة تدريسنا الجامعي . وقضت المادة التاسعة تحت هذا الباب نفسه بجعل التحصيل الابتدائي اجبارياً في جميع « الممالك المحروسة الشاهانية » . واستثنت المادة الثالثة عشرة الاولاد الذين لا يمكنهم الحضور لاسباب صحية واولئك الذين لا يستغني والدوهم عن عملهم نظراً لفقرهم ومن يكون مشغولاً بالزراعة او الحصاد ومن يكون محل اقامته بعيداً نصف ساعة او اكثر عن اقرب المدارس . وشمل التعليم الاجباري الصبيان منذ السنة السابعة من عمرهم حتى الحادية عشرة والبنات منذ السادسة حتى العاشرة . ومنع منعاً باتاً الجمع بين الذكور والاناث واللجوء الى الضرب .

وجعل الباب الاول المدارس الثانوية اعدادية وسلطانية واعطى المتخرجين من المدارس السلطانية شهادات في العلوم والادب اسماها « ملازمت رؤوس » . وقضى

بايجاد مدرسة سلطانية في كل مركز من مراكز الولايات . وخصص للتحصيل العالي داراً للمعلمين وداراً للمعلمات ودار فنون وصنائع ومكاتب للهندسة البرية والبحرية وللحقوق والطب والزراعة .

وجعل الباب الثاني مجلساً للمعارف كبيراً برئاسة نظارة المعارف وقسّمه الى قسمين علمي واداري . وجعل القسم العلمي منه يعنى بالتأليف والترجمة ووضع الكتب اللازمة للتعليم كما حتّم ايجاد كاتب ملم باللغة الفرنساوية قادر على مراسلة دور الفنون (الجامعات) في اوروبة . وخص القسم الاداري بالاشراف على المدارس والمجالس المحلية ودور الكتب والمطابع والآثار القديمة وبتوجيه المعلمين والنظر في مشاكلهم وباعداد الموازنة وعرضها على الهيئة العمومية . وقضى الباب نفسه بتشكيل مجلس للمعارف في كل ولاية ليكون شعبة لهذا المجلس الكبير في عاصمة السلطنة وواسطة اجرائية له . وكان يرأس هذا المجلس المحلي مدير للمعارف يعاونه في عمله معاونان احدهما مسلم والآخر غير مسلم واربعة محققين ومن اربعة الى عشرة اعضاء وكاتب ومحاسب وامين صندوق .

وقضت مواد الباب الثالث بثلاثة انواع من الامتحانات المدرسية : الامتحان الصنفي والامتحان المكتبي وامتحان الرؤوس . والاول سنوي يجري عند انتقال الطالب من صف الى صف والثاني عند انتقاله من مدرسة الى مدرسة اعلى منها والثالث ثلاثة امتحان الملازمة في آخر الدورة الثنوية وامتحان المأذونية في الآداب والحقوق وامتحان الانتهاء في الآداب والطب والحقوق والعلوم . ومن كان يتم تحصيله الاعدادي ويبرز اوراق شهادات المكتب الذي درس فيه كان يحق له ان يدخل ملازمة امتحان اقسام الادبيات والحقوق والعلوم . ولدى نجاحه في هذا الامتحان كان يعطى « رؤوس ملازمة طغرالية » بامضاء نظارة المعارف مصرحاً بها الاسم الشريف الهمايوني ومذكوراً اسم مجلس المعارف المحلي الذي يكون قد امتحن ذلك التلميذ . وكان يحق لحاملي رؤوس الملازمة ان يقبلوا في اقلام الدولة المهمة . ومن أتم مدة التحصيل في المدارس العالية وأبرز اوراق شهادات المكتب ورؤوس الملازمة كان يقبل في امتحان المأذونية . ولدى نجاحه فيه كان يعطى رؤوس مأذونية ويستخدم في الامور الملكية المهمة وفي المجالس والمحاكم النظامية .

وجاء في الباب الرابع من هذا النظام انه كان على المعلمين في المدارس الرشدية ان يحملوا شهادة دار المعلمين الرشدية ومثله على من فوقهم في المدارس الاعدادية والسلطانية فانه توجب عليهم حمل شهادة دار المعلمين الاعدادية والسلطانية . وكان لهم جميعاً ان يستفيدوا من نظام التقاعد العمومي .

وقضى الباب الخامس بان تتحمل خزينة الدولة نفقات المدارس الرسمية وان

تستوفي بعض المدارس بعض الرسوم وان يكون لادارة المعارف حق التمتع بواردات الاوقاف المندرسة وباعانة سنوية تجبى من الاهالي لصندوق المعارف وغير ذلك .

وحدد هذا النظام برامج التعليم فشمل برنامج المدارس الرشدية القرآن والتجويد والاخلاق والكتابة والحساب والتاريخ العثماني ودروساً مختصرة في الجغرافية . وكان على طلاب المدارس الاعدادية ان يجيدوا الكتابة والانشاء بالتركي واصول الحساب ومسك الدفاتر والهندسة والمساحة والتاريخ والجغرافية وان يلموا بمبادىء الفلسفة الطبيعية والمنطق وعلم المواليد والكيمياء والجبر والرسم واللغة الفرنساوية ⁽

وجاء في بيان رسمي صدر في هذه الفترة نفسها ان الفنون التي توجب تحصيلها في المدارس السلطانية كانت كما يلي :

اولاً : اللسان العثماني على الاطلاق وقواعد العربية والفارسية التي هي من اركانه.

ثانياً : اللسان الفرنساوي وآدابه .

ثالثاً : مبادىء اليونانية واللاتينية بقدر ما يلزم لتحصيل « فنون » القوانين والطب والصيدلة . ولا تكون اليونانية اجبارية .

رابعاً : التاريخ العمومي والتاريخ العثماني .

خامساً : الجغرافية العمومية لاعظم الممالك وخاصة جغرافية زراعة الممالك المحروسة وتجارتها وصناعتها واحوالها الملكية .

سادساً : اصول العلوم الرياضية يعني الحساب والهندسة والجبر والمقابلة والمثلثات والهندسة الرسمية .

سابعاً : علم هيئة الاراضي .

ثامناً : علم جر الاثقال وعملياتها .

تاسعاً : علم الفلسفة الطبيعية والكيمياء .

عاشراً : التاريخ الطبيعي علم المواليد .

حادي عشر : في المحاسبات ومسك الدفاتر .

ثاني عشر : المعاني والبيان واصول الادبيات .

ثالث عشر : الرسم الخطي ولونه وتقليده .

رابع عشر : الموسيقى .

خامس عشر : الرياضيات العالية . حقوق علم ادارة الملك . ولئن كان ذلك غير موجود الان الا انه سوف يترتب عن قريب .

سادس عشر : اللغات الانكليزية والايتاليانية والبلغارية والارمنية لا تعد من الدروس العمومية لكن اذا حصل الاستدعاء من طرف عائلاتها فحينئذ يتعلمونها

على نفقتهم . ويترتب علاوة بيت ادمان يمارس الطلبة فيه فن الزيمناستيق في كامل مدة تحصيلهم بواسطة كل نوع من الادوات والالات بحسب اعمارهم .

وقدر متصرف لبنان فرنقو باشا قدر المدارس الرسمية وعرف فائدتها لبلد مثل لبنان فأبقى على مدارس دير القمر وشحيم الرسمية التي كان قد انشأها سلفه . وأضاف اليها مدارس اخرى . وعين على جميع المدارس الرسمية وكيلاً أطلق عليه لقب « وكيل المعارف » . وكانت جميعها رشدية على غرار مدارس الدولة . واليك ما وجدناه عنها في سجلات مجلس الادارة :

البلـدة	اسم المدرسـة	ذكور	إناث	درجتهـا
برجـا	مضمار الطلبة	ذكور		رشديـة
بعقلين	منهل الادب	ذكور		رشديـة
بعقلين	روضة الخواطر		إناث	رشديـة
بتدين	العثمانيـة	ذكور		رشديـة
الحدث	النجاح	ذكور		رشديـة
الحدث	معائد الاحسان		إناث	رشديـة
الحدث	الاحسان الشاهاني		إناث	رشديـة
حمانـا	المحمودية	ذكور		رشديـة
دير القمر	العزيزية	ذكور		رشديـة
دير القمر	العواطف السنيه		إناث	رشديـة
دير القمر	جنة الناظر		إناث	رشديـة
زعروريـة	أنس النديم	ذكور		رشديـة
شحيم	ملتقى الطلاب	ذكور		رشديـة
عانوت	مورد الظرفا	ذكور		رشديـة
كفرشيما	الفلاح	ذكور		رشديـة
كفرشيما	الترقيـة		إناث	رشديـة
مزبود	أثمن النصائح	ذكور		رشديـة

هذا جل ما نعلمه عن هذه المدارس . ولعلها اتبعت منهاج المدارس الرشديـة العثمانية مشددة على اللغة العربية وآدابها . وهنالك اشارة في احدى مضابط مجلس الادارة الى ابتياع كمية من كتب الخوري يوسف الدبس في اللغة العربية لتوزيعها على المدارس الرسمية . وتحفظ لنا ضبطة اخرى نبأ ورود هدية من ناظر المعارف

في الآستانة للعثمانية في بتدين أطلس خرائط وكرة ارضية . وجاء في تقرير رفعه القس وليم راي رئيس مدرسة الشوير العالية الى مجلس المدارس اللبنانية الاسكوتلاندية سنة ١٨٧١ ان حكومة لبنان قررت فتح مدرسة رسمية في الشوير وانها عينت لها معلمين ثلاثة معاش كل منهم ثلاث مئة غرش في الشهر . وهو معاش ضخم بالنسبة الى ما كان يتقاضاه زملاؤهم في المدارس الخصوصية في لبنان .

الطب والتطبيب

وكان قد صدر منذ السنة ١٨٦١ فرمان سلطاني همايوني حرّم على من ليس بيده اجازة من مكتب الطب الشاهاني او من المكاتب الطبية الاجنبية ان يمارس الطب والتطبيب « حتى ولا شعبة من شعباته » كما حرّم على من ليس بيده اجازة ان يتخذ لنفسه لقب دكتور . وأوجب على الاطباء الذين يأتون من الخارج ان يقيدوا شهاداتهم اما في مكتب الطب الشاهاني او في مجلس من مجالس الايالات او لدى قناصل دولهم اذا كانوا من الاجانب . وحرّم الفرمان ايضاً على الاطباء اعطاء العلاجات في المحلات التي يوجد فيها صيادلة قانونيون. وفرّق هذا الفرمان بين دكتور في الطب و« أوفيسيه دو سانته » ونصّ في مادته التاسعة بحق التطبيب موقتاً لمن يقبل في مكتب الطب الشاهاني كأوفيسيه دو سانته ولمن يعطى رخصة بالتطبيب « من احد الذوات الذين كانوا سابقاً رؤساء الطب السلطاني او نظار مكتب الطب ولمن يمارس المعالجة في بيوت الشفا برخصة من مكتب الطب الشاهاني». وحرّم على هؤلاء اجراء عمليات الجراحة الكبرى . وقضت المادة الخامسة عشرة منه بالعمل بموجبه في الآستانة بعد مرور ثلاثة اشهر على صدوره وفي الولايات التي يوجد فيها اطباءُ قانونيون بعد مرور سنة واحدة . وحضّت نظارة المكتب الطبي الشاهاني بتدارك الامر وارسال اطباء الى المحلات التي لا يوجد فيها حملة شهادات رسمية .

صدر هذا كله في السنة ١٨٦١ ولكنه لم يُبدأ بتطبيقه في لبنان قبل عهد فرنقو باشا فاننا نرى يوسف بشير قائمقام الكوره يلفت نظر هذا المتصرف في السابع من كانون الاول سنة ١٨٦٨ الى الاضرار التي لحقت بالاهالي من جراء جهل « الذين يتعاطون مصلحة الطب » ويلتمس صدور الأمر الكريم « بما يتحسن بذلك » . فيحيل المتصرف عريضة القائمقام الى المجلس الاداري لدرسها ويتخذ هذا المجلس قراراً تاريخياً في هذا الموضوع في الحادي والعشرين من الشهر نفسه هذا نصه :

« لما كان هذا المجلس يعلم بانه يوجد اطباء كمثل هؤلاء في كامل قائمقاميات الجبل يتعاطون فن الطب ويضرون بالاجساد نظراً لعدم اتقانهم هذه الصناعة اصولياً

لذلك رؤي اذا لاق لدى دولته صدور امره الكريم لكامل قائمقامي المتصرفية ان يفحص كل منهم عن هؤلاء الاشخاص . فالذي يكون موجوداً بيده شهادة اصولية من المدارس الشهيرة فيترخص له بمعاطاة هذه الصناعة . والذي يجد بيده شهادة من أحد الاطباء فينبه عليهم بعدم معاطاة هذا الفن . ويحضرون الى المركز المتصرفي لاجراء فحصهم من طبيب المركز حبيب افندي الخوري . والذي يحصل منه مخالفة يكون تحت المسؤولية الشديدة » .

(وكان « مفتش أطباء جبل لبنان » السنيور كوسيني يقوم بدوراته التفتيشية فيصل الى جبيل ويتفقد احوالها الصحية فيوصي بوجوب تبليط المسلخ ونقل المدافن الى خارج البلدة وعلى بعد لا يقل عن الفي متر عنها ؟ ثم يزور فرقة الضابطة اللبنانية في قلعتها فيوجب نقلها الى الجرد لتبديل الهواء واستبدالها بغيرها . ويزور المفتش بلدة البترون فيأمر بطمر المستنقعات في ضاحيتها .

(ويعود مجلس الادارة في الخامس والعشرين من آب سنة ١٨٦٩ الى معالجة مشاكل الصحة العامة فيشير الى محتويات « النظامنامه » الصحية ويمنع الدفن في المعابد والكنائس وفي جوار البيوت .) ويقرأ أحد أعضاء هذا المجلس جريدة الجوائب لفارس الشدياق الصادرة عن الآستانة فيلفت نظر زملائه الى اهتمام حكومة السلطنة بمكافحة داء الجدري بالتلقيح المجاني ويتخذ المجلس قراراً في السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٧٠ هذا نصه :

«(يرى المجلس ان يتعين لكل قضاء أطباء له بحسب اهميته من الاشخاص الماهرين العارفين بعلم الطب والجراحة لقضاء الشوف ثلاثة ولقضاء جزين واحداً ولقضاء المتن ثلاثة ولقضاء زحلة واحداً ولقضاء كسروان اثنين ولقضاء البترون اثنين ولقضاء الكورة واحداً بمعاش شهري خمس مئة غرش تصرف لهم من صندوق الحكومة صدقة عن الذات الشريفة الملوكانية » .

(ويستدل من قيودات المجلس ان الحكومة اللبنانية رأت في هذه الفترة نفسها ان ترسل الى الآستانة ستة شبان معلمين ليلتحقوا بالمكتب الطبي الشاهاني)وان المتصرف اقترح على حكومة الآستانة شيئاً من هذا فصدر في الثامن عشر من تشرين الاول من السنة نفسها ١٨٧٠ عن مقر الصدارة العظمى « امرنامه » يفيد ان الصدارة اتصلت « بنظارة المكتب البهيه » فوافقت على قبول ثلاثة من هؤلاء الستة في حزيران من السنة ١٨٧١ وأرجأت قبول الثلاثة الباقين الى حزيران السنة ١٨٧٢ .

المقاييس والموازين

ومما تحفظه هذه السجلات التي نحن بصددها ورود مرسوم صادر عن مقام

الصدارة العظمى مؤرخ في الثاني والعشرين من ايار سنة ١٨٧٠ يوجب على الحكومة اللبنانية استعمال « القياسات الجديدة في معاملاتها ومبايعاتها » اعتباراً من اول اذار سنة ١٨٧١ وعلى الاهالي اعتباراً من اول اذار سنة ١٨٧٤ وينص الامر نفسه بوجوب اعلام الحكومة السلطانية عما اذا كان يوجد من يشتغل بالاوزان وعن امكانية بدل الاوزان الجديدة بالعتيقة . فرأى المجلس ان يعمم هذا الامر على كافة القائمقامين اللبنانيين .

وأمر الصدارة هذا ينفذ خطاً همايونياً صدر في السادس والعشرين من ايلول سنة ١٨٦٩ قضى بتبني النظام المتري فجعل الذراع متراً والكيلومتر ميلاً عشرياً والميريامتر فرسخاً عشرياً والدسي متر عشر ذراع والسنتيمتر عشير ذراع والميليمتر عشير ذراع والآر مربعاً والهكتار جريباً والليتر كيلاً والغرام درهماً عشرياً والكيلو غرام اقة عشرية والكنتال قنطاراً عشرياً والطن طونيلاته .

وأردف هذا الخط الهمايوني بنظام تطبيق المقاييس الجديدة في ثلاث وستين مادة وخمسة فصول : الاول في حق ماموري الاوزان والثاني في تطبيق المقاييس الجديدة ومعاينتها والثالث في تفتيشها والرابع في المجازاة والخامس في الرسوم التي تؤخذ عن تمنعات التطبيق والمعاينة .

مدرسة السجاد

وأراد المتصرف ان يشجع الصناعة المحلية فانشأ « معملاً في بندر دير القمر لتكثير الصنائع وازديادها » وبدأ بصناعة السجاد . فاستقدم اليه الشيخ قعدان الدحداح الذي كان قد اشتهر بهذه الصناعة وأحاطه بعدد من اللبنانيين ليأخذوها عنه . وقد عرفنا منهم حنا البعقليني من دير القمر ومحمود بو كامل من بعقلين وسليمان مناسا من عرمون كسروان ومرعي قزما من افراد الضابطة . وبدأ العمل في اواخر السنة ١٨٧٠ ودام فيما يظهر ثمانية اشهر صُرف في نهايتها اربعة الاف غرش للشيخ قعدان مقابل اتعابه و١٦٦٥ غرشاً ثمن الصوف اللازم للتعليم . وقدَّم الشيخ قعدان السجادات التي صنعها الطلبة للحكومة المركزية فنالت استحسانها .

وصرف المجلس الاداري ١٥٠٠ غرش لسليمان مناسا ليعد بها نولاً يشتغل به في بلدته عرمون في الارجح والف غرش لمرعي قزما لينشىء بها نولاً آخر في شرتون ويعلم بناتها هذه الصناعة الجديدة ومثله لحنا البعقليني ومحمود بو كامل وللغاية نفسها .

المتصرفية والولاية

وكانت اراضي ولاية سورية تحيط بلبنان من الشمال والشرق والجنوب . وقضت

التجارة والزراعة والصناعة بالتعامل بين اللبنانيين وبين سكان الولاية . فنتج عن هذا الاحتكاك مشاكل ومصاعب ولا سيما فيما يتعلق بالخدمة العسكرية وبدفع الضرائب. وأهم هذه المشاكل وأصعبها ما نشب منها بين حكومة لبنان وحكومة طرابلس . وتفصيل ذلك ان المادة الثالثة من نظام لبنان الاساسي ألحقت بقضاء الكورة ثلث الكورة التحتانية بما فيها من قرى واملاك ما عدا قصبة القلمون . وعند الشروع بتطبيق هذا النظام الاساسي طلبت حكومة لبنان الى حكومة طرابلس ان توافيها بدفتر يبين بالتفصيل مرتبات ثلث الكورة ورسوماته . ففعلت . وشمل هذا الدفتر جميع القرى والمزارع والاراضي وبين هذه اراضي المرجة والمعيصرة والعرايس والمريّح والخانوق والبقيعة المجاورة لطرابلس نفسها . وصدرت الارادة السنية بمسح اراضي لبنان وعدّ نفوسه فشكلت حكومته في عهد المتصرف الاول داود باشا لجنة لهذه الغاية . فمسحت هذه اللجنة اراضي ثلث الكورة كما مسحت غيرها من اراضي لبنان وسجلتها باسم مالكيها وشرعت الحكومة اللبنانية تجبي رسوم هذه الاراضي لحساب صندوق الجبل . فدفع بعض اصحاب الاراضي المجاورة لطرابلس الوارد ذكرها اعلاه والبعض الآخر « تعلل » . فوضعت الحكومة اللبنانية محافظين يمنعون هؤلاء من استلام حاصلات املاكهم حسب الاصول. فاحتج الطرابلسيون الذين تعللوا مدعين ان هذه الاراضي نفسها تابعة لطرابلس وانه « يحصل صعوبة لاصحابها الطرابلسيين ان هم راجعوا حكومة الجبل من قبيل الويركو والمرتبات » . ولم يرضَ اعضاء مجلس ادارة لبنان عن موقف الطرابلسيين هذا ولمسوا فيه شيئاً من المسّ بكرامة لبنان واللبنانيين . فأوصوا الى فرنقو باشا ان يراجع الباب العالي بذلك ويلتمس صدور ارادة ملوكانية « لرفع المداخلة الواقعة والاخذ والرد بوجه قطعي ولحفظ حقوق الجبل بموجب نظاماته » .

والغريب ان يتصلّف الطرابلسيون هذا التصلف في قضية خاسرة من الناحية القانونية . فالمادة الثالثة من البروتوكول الاول والثاني لا تستثني من « الكورة التحتية » سوى قرية القلمون . وحدث مثل هذا في جوار بيروت وصيدا فيما يتعلق بالجناح ومقام الامام الاوزاعي وجبل الاعور ولكن اللبنانيين والبيروتيين والصيداويين رضخوا للقانون وقبلوا بالتحكيم فعينت لجان مشتركة مؤلفة من اهل الذمة والخبرة ونفذت احكامها .

وكان قد قضى قانون اخذ العسكر بتجنيد المسلمين من اهالي الممالك المحروسة اعتباراً من بلوغهم سن العشرين كما قضى باعفاء غير المسلمين من الخدمة العسكرية وفرض بدل نقدي عليهم طائفةً طائفة . فطفق غير المسلمين من رعايا السلطان في جميع ولايات السلطنة يضبطون اعدادهم ضبطاً محكماً لتخفيف عبء هذا البدل

العسكري . ويقول اعضاءُ مجلس الادارة في مضبطة اعدوها في التاسع عشر من شباط سنة ١٨٧٠ ان اللبنانيين كانوا يترددون الى الاســاطل البحرية والدساكر البرية المجاورة – الى طرابلس وبيروت وصيدا وبعلبك والبقاع والضنية وعكار وبلاد بشاره ومرجعيون – للعمل بايديهم في سبيل الرزق وان الطوائف غير المسلمة في هذه الاماكن اعتبرت عدداً من اللبنانيين الموجودين بينها من ابناء محلاتها اتخفف بذلك عبء البدل العسكري المفروض عليها . فنتج عن ذلك مشاكل ومشاكل بين حكومة لبنان وحكومة ولاية سورية ولا سيما وان عدد اللبنانيين الذين عملوا في اراضي هذه الولاية كان كبيراً . ففي البقاع وحده بلغ عدد هؤلاء اللبنانيين بناءً على احصاء قامت به حكومة الولاية بلغ ٢٦٤١ شخصاً .

البقاع الغربي

كان لامراء لبنان منذ الفتح العثماني وحتى آخر عهد الشهابي الكبير ان يوحدوا في شخصهم معاملات ادارية ثلاث معاملة صيدا ومعاملة طرابلس ومعاملة دمشق . وكانت معاملة صيدا تشمل ست عشرة مقاطعة كسروان والقاطع والمتن وساحل بيروت والغرب الاسفل والغرب الاعلى والشحار والجرد والمناصف والعرقوب والشوف وجزين والشوف البياضي والتفاح والخروب والريحان . وكانت مقاطعة الشوف البياضي تشمل زحلة القاعدة ووادي العرايش والمعلقة وجديثة وثعلبايا وسعد نايل وتعنايل ومكسه وقب الياس ومزرعة البماهرة والمضيق وعميق ودير طحنيش وكفريا والحربة والحبس وسغبين وعيتنيت ومشغره وعين التينه وسحمر ويحمر . ولعله سمي البياضي لبياض تربته وصخوره في زحلة وبعض ضواحيها . وكان يقال له البقاع الغربي ايضاً . وسكانه نصارى ومسلمون وامراؤه اللمعيون .

ورأت اللجنة الدولية التي جلست في بيروت سنة ١٨٦٠ ان تفصل معظم هذه المقاطعة اللبنانية عن لبنان . ولكن داود باشا عاد فاستاذن بضمها الى لبنان . وسمح الباب العالي بذلك شرط ان تبقى ادارتها مربوطة بوالي ولاية سورية وان تدفع اموالها الى خزينة لبنان . وتولى ادارتها مباشرة كل من أسعد أفندي (١٨٦٥ – ١٨٦٩) وأشرف أفندي . ورأى فرنقو باشا ان لبنان وكيل مسخر على هذه المقاطعة فردها الى الولاية في نهاية السنة ١٢٨٥ مارتية غاية شباط سنة ١٨٧٠ .

وفاة المتصرف

وقضى المتصرف نحبه فجأةً في بيروت من جراء نوبة قلبية في الرابع والعشرين

من شباط من السنة ١٨٧٣ . وكان قد أحب لبنان كثيراً وخشي قرب الاجل فأوصى بدفن جثمانه فيه . وانتقى لذلك بقعة طالما وقف فيها وتلذذ بمناظرها في اثناء ذهابه من بيروت الى بعبدا وايابه منها – في بقعة تدعى الحازمية . وقام مجلس الادارة يكرّم حبيب لبنان بعد وفاته فأقرّ انشاء حجرة من الرخام الابيض في الحازمية لتضم رفاته . ولا تزال . وانفق على انشائها مئة وعشرين ليرة ذهبية . وأحب ذووه لبنان لحبه فزاروا مثواه . وتوفي ابنه فواد بك في لبنان فدفن الى جانب والده .

فرنكو خطير القدر تعريب إسمه   فحرٌ وللاحرار قد جاء مُنجدا
وأوصافه الحسناءُ جاءت عديدة   بفرد فريد الذات لن يتعددا
على الرُحم مفطور وشيمته التقى   حليمٌ سليم القلب فنٌ تفردا

« حنا ابو صعب »

رُسْتم بَاشَـا
٢٢ نيسان ١٨٧٣ - ٨ أيار ١٨٨٣

ما بالُ لبنانَ يبدي النور انوارا
هل وجه رستم أهدى النور انوارا
او تلك الطافةُ الحسناء مذ لمعت
أزاحت الشمس للتنوير استارا

فترة انتقال

وفوجىء الباب العالي بوفاة فرنقو باشا فوكل ادارة لبنان الى « وكيل رئاسة المجلس » فيه الى الشيخ عيد حاتم ريثما يوفق الى خلف توافق على تعيينه « الدول المتحابة » . وقام الشيخ اللبناني باعباء المهمة الموكولة اليه خير قيام . وبقي الحل والربط بيده شهرين كاملين (٢٤ شباط – ٢٧ نيسان سنة ١٨٧٣) أظهر في خلالهما حنكة وجرأة وحزماً وعدلاً .

وبعد وفاة المتصرف باقل من شهر على وجه التقريب بدت طلائع فتنة سياسية في ناحية المتن الاعلى – في حمانا وفالوغا وقرنايل وصليما . وجل ما نعلم عنها انها كانت سياسية اراد اصحابها ان يستغلوا خلو المركز من متصرف يدير شؤون البلاد .

وقامت فتنة في الشوير بين الروم وبين الروم الكاثوليك . فالروم الكاثوليك بعد انفصامهم عن الروم في اواخر الربع الاول من القرن الثامن عشر اختاروا لكنيسة مار بطرس التي انشأوها محلاً قريباً جداً من كنيسة السيدة ام الكنائس في الشوير . وبدأوا بذلك دوراً من النكايات القروية لم ينته الا بعد قرن ونصف قرن بعد بزوغ نور العلم والمعارف . وكان المدفن بطبيعة الحال مشتركاً فأحبَّ الروم الكاثوليك في اوائل عهد المتصرفية ان يفصلوا موتاهم عن موتى الروم وارادوا ان ينشئوا فاصلاً وقع بطبيعة الحال امام مدخل كنيسة الروم . فغضب الروم لكرامتهم ومنعوا الروم الكاثوليك عن العمل . وكادت الرجال تصل الى الرجال . وتدخل داود باشا بنفسه وأمر بحل نجهل تفاصيله . واستفحل الامر ثانية بعد وفاة فرنقو باشا فعين وكيل

رئاسة المجلس لجنة لدرس المشكلة قوامها عضوان من اعضاء المجلس القضائي الكبير وقاضي محكمة زحلة وكاتبا محكمة المتن . ووجدت اللجنة في عمل الروم الكاثوليك مخالفة لاوامر داود باشا واوجبت اكرام القبور امام مدخل كنيسة الروم كما قضت بان تكون الفسحة امام كنيسة الروم الكاثوليك ملكاً لطائفتهم . واحتجّ قنصل فرنسه على قرار اللجنة فأشار الشيخ عيد حاتم الى اجماع الرأي بين اعضاء اللجنة وقال بمراجعة المتصرف الجديد بعد وصوله الى لبنان .

وكان الشيخ عيد حاتم قد أرسل قائد الضابطة اللبنانية الى المتن على رأس قوة ارهاباً فعاد القائد الى بعبدا بعد القيام بمهمته مؤكداً ان المتنيين يستخفون بالسلطة المحلية وان المصلحة تقضي بنقل حكومة قضاء المتن من سن الفيل الى قرية متوسطة اقرب الى قلب القضاء — الى برمانا او بحنس او صليما .

ووصل في منتصف آذار من السنة ١٨٧٣ أمر صادر عن نظارة المالية بالغاء قلم الدفترخانه في لبنان « اسوة بكافة الممالك المحروسة » والاستعاضة عنه بمأمورين « لرؤية اشغال الطابو » . فاعترض المجلس الاداري مؤكداً ان قلم الدفترخانه في لبنان يختلف عن سائر اقلام الدفترخانه في جميع ارجاء السلطنة مبيناً ان لا لزوم لتعيين مأمورين للطابو في لبنان لان اراضي لبنان في معظمها ملك لاصحابها وان قلم الدفترخانه اللبناني انما شكل لضبط قيد سندات الاملاك وحفظ حقوق اصحابها .

بروتوكول ٢٢ نيسان سنة ١٨٧٣

وهبَّ الباب العالي يفتش عن خلف للمتصرف الراحل ترضى عنه الدول المتحابة فوقع اختياره على رستم باشا سفير الدولة العثمانية في بطرس برج . وقبلت الدول به فوقّع سفراؤها في الآستانة بروتوكولاً خاصاً لهذه الغاية في الثاني والعشرين من نيسان سنة ١٨٧٣ واليك تعريبه :

« لقد خلا منصب متصرف لبنان بوفاة فرنقو نصري باشا . ولقد تعطّف جلالة السلطان فعين رستم باشا السفير السابق في بطرس برج حاكماً جديداً .

« وان ممثلي الدول التي وقّعت نظام لبنان الاساسي في التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ وفي السادس من ايلول سنة ١٨٦٤ وبروتوكول السابع والعشرين من تموز سنة ١٨٦٨ بعد اجتماعهم مع ناظر خارجية جلالة السلطان وتداولهم في الامر اتفقوا في ان يعلنوا بهذا البروتوكول وصولهم الى تفاهم سابق مع الباب العالي حول هذا التعيين.

« ويؤيد الباب العالي وممثلو الدول الترتيبات التي وردت في بروتوكول السابع والعشرين من تموز سنة ١٨٦٨ التي جعلت مدة حكم المتصرف عشر سنوات كما يؤيدون

في الوقت نفسه محتويات البروتوكولات السابقة التي لم تعدل وما عدّل منها في هـذه البروتوكولات .

« وبناءً عليه فقد وقّع المطلقو الصلاحية هذا البروتوكول وختموه باختامهم في الآستانة في الثاني والعشرين من نيسان سنة ١٨٧٣ » .

الامضاءات : صفوت لودولف فوغويه إليوت
كوفاس اغناتييف كندل

وصول المتصرف الجديد

وقام رستم باشا الى لبنان فوصل الى بيروت في الثامن من ايار من السنة نفسها ونهض منها الى بتدين مركز حكمه . وليس في سجلات مجلس الادارة اية اشارة الى كيفية وصول المتصرف الثالث او استقباله . وجل ما هنالك عبارة بالحبر الاحمر هي التالية : قد كان تشريف حضرة افندينا صاحب الدولة والمهابة رستم باشا متصرف جبل لبنان الى بيروت صباح نهار الخميس الواقع في ١٢ ربيع الاول سنة ١٢٩٠ و٢٦ نيسان سنة ٢٨٩ نسأله تعالى ان يؤيد دولته بمزيد التوفيق والاقبال » .

ولم يصدر فرمان تعيينه فيما يظهر الا وقت صدور التوجيهات السلطانية في الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ١٢٩٠ اي الثالث من شباط سنة ١٨٧٤ وأهم ما جاء فيه ترقيته الى رتبة الوزارة فحاكمية لبنان والتأكيد ببقائه في وظيفته ما دام يحسن الادارة بموجب القوانين المرعية الاجراء . والباقي عادي جداً ورد في جميع الفرمانات السلطانية المماثلة .

رستم باشا

هو الكونت ماریاني الايطالي المولد العثماني التبعة . ولد في فلورنزة سنة ١٨١٠ ونشأ وترعرع فيها . وتلقى علومه في كليات ايطالية وأجاد الايطالية والافرنسية والانكليزية . وأمّ الآستانة وتعلّم التركية فيها وتقبل التبعة العثمانية فأصبح اسمه رستم ماریاني . وعين ترجماناً لنجيب باشا ثم رافق محمد فؤاد باشا الى بوخارست لدى تعيينه معتمداً سلطانياً فيها . وعاد معه الى الآستانة فتولى امانة سر الخارجية فمعتمدية الدولة العثمانية في تورينو في ايطالية فمندوبيتها في فلورنزة . وفي السنة ١٨٧٠ ارسل بمهمة سرية الى رومه فقضاها . ثم عين سفيراً للدولة في بطرس برج . وبعد انقضاء مدته في لبنان سنة ١٨٨٣ تولى منصب السفارة العثمانية في لندن فأحبه الانكليز كثيراً . وتوفي في لندن سنة ١٨٨٥ فكان بين المعجبين بمواهبه رجل الدولة

البريطاني آنئذ غلادستون الشهير .

وكان طويل القامة نحيف الجسم عبوساً وقوراً مجداً مجتهداً نزيهاً مخلصاً شديداً قاسياً . وكان عصبي المزاج سريع التأثر قليل التبصر احياناً فيما ينقل اليه سريع الاجراء شديد الانتقام .

البارود والسلاح والأمن

وفور وصوله الى لبنان عمّم على القائمقامين والمديرين وشيوخ القرى ما يلي : قائم مقام كسروان الى مدير ناحية جرود كسروان : « تشرفنا بمرسوم مشيري يشير سمو فحواه المنيف بانه غب وصوله الى جبل لبنان شاهد ان عادة اهاليه باظهار علامات السرور والافراح هي احراق البارود بالاسلحة حال كون العادة عند جميع سكان الممالك المتمدنة باظهار علامات كذا لدى وقوع سبب يوجب تكون باستعمال الاشغال الموسيقية والالعاب الادبية وتزيين البيوت بالانوار والاخضار وما شاكل ذلك . ومن كون احراق البارود يسبب اضرار على البعض الامر الذي يغم دولته صار الامر بمنع احراق البارود بالاسلحة وعادة القواس ممنوعة بأمره الكريم — ١٤ حزيران سنة ١٢٨٩ (٢٦ حزيران سنة ١٨٧٣) » .

والتفت رستم بعد هذا الى حمل السلاح . وكان سلفه داود قد حرّم حمله اكثر من مرة ولا سيما بعد أن أعلن كرم ثورته عليه . « ان شرائع السلطنة السنية تمنع منعاً صريحاً نقل السلاح ظاهراً او خفيةً . وتعين جزاءً للمخالفين القاء القبض عليهم ووضعهم تحت الترسيم . فنحن بالنتيجة نمنع كايناً من كان عن نقل الاسلحة بانواعها كالبواريد والطبنجات والسيوف والخناجر والسياخ وكل جارحة مضرة او واقية الا اذا اعطيت له رخصة سابقة من جانب الحكومة . وكل من يرتكب المخالفة من عاشر شهر صفر سنة ١٢٨٤ هـ. ١٣ حزيران سنة ١٨٦٧ فصاعداً يقبض عليه وتضبط اسلحته ويجلب الى جانب الحكومة المختص هو بها » .

ونجد الامير داود مراد قائمقام قضاء كسروان آنئذ يوجه امراً الى الشيخ ضاهر منصور الخازن مدير ناحية الفتوح في العاشر من تموز سنة ١٨٦٨ يقول فيه : « انه في هذا الاثنى تشرفنا بأمر مشيري كريم مآ له الوسيم اجراء التنبيهات القطعية والاعلان لكافة المديرين والمأمورين بممنوعية نقل الاسلحة على الطرقات وفي جهات جبل لبنان من دون تذاكر . وانه عندما يوجد اقتضا لذهاب احد الاهالي مسلحاً الى خارج الجبل فغب تقديم الكفالة حسب الاصول يعطى له تذكرة من المركز السامي بمدة ذهابه وايابه . انما من كون حمل السيف نوع اعتيادي وان يكن من جملة الاسلحة

الممنوع نقلها فلا بأس من نقله . والاجانب المسافرين حيث حضورهم من الخارج ومرورهم في لبنان وغير معلوم عندهم هذا الامر فلا يقتضي لهم معارضة . واما الضبطية وباقي الاشخاص الذين يذهبون من محل لمحل آخر داخل الجبل غب ان يقدموا كفلا معتبرين بسند يعطى لهم تذاكر من مركز القائمقامية » .

وقام فرنقو باشا بمثل هذا ولكن دون جدوى لتعلق اللبناني آنئذ بسلاحه ولعدم استقرار الامور ولقلة خبرة الناس بالنوع الجديد من الحكم . وجاء رستم فكرر الامر بعدم نقل السلاح ولاحق أمره بما اوتي من صبر وثبات وحزم وهيبة فنفذ كما يجب . « وكان لا يذكر لمأمور فضلاً ولا يُسمع منه مديح لاحد . واذا مال بوجهه الى احدهم وعطف عليه قال لقد قام بالواجب » واكتفى !

موقفه من كرم

وأول ما أكب عليه المتصرف الثالث من امور لبنان ومشاكله قضية كرم وامكانية عودته الى لبنان . فما كاد كرم يعلم بوفاة فرنقو باشا حتى أوفد ابن اخيه بطرس الى الآستانة ليشرف عن كثب على تطورات الموقف ويوافيه بما يستجد في حينه . فغادر بطرس رومه في التاسع عشر من شباط سنة ١٨٧٣ ووصل الى الآستانة في اوائل اذار من السنة نفسها . واتصل بالمتصرف الجديد وقدم له رسالة من عمه لا يزال نصها مجهولاً . فشكر المتصرف وقال انه تحدث الى وزير الخارجية في موضوع كرم وانه لا يمكنه ان يحكم في الامر قبل وصوله الى لبنان . واتصل بطرس ايضاً بسفير فرنسه وبجميل باشا احد اعيان السلطنة الذي كان قد تعرّف الى يوسف كرم في لبنان في السنة ١٨٦١ فأحبه كما اتصل براشد باشا وزير النافعة وراشد شرواني باشا الصدر الجديد . فأوصى جميل باشا رستم باشا بكرم فأجاب : « ان بوصولي الى لبنان ساهتم بذلك » . اما وزير النافعة والصدر فانهما اشارا بوجوب مجيء يوسف كرم الى الآستانة . واكد سفير فرنسه بحضور الشيخ طالب حبيش ياور السلطان انه سيفعل ما يمكنه ان يفعل لان كرماً صديقه ولانه متفق معه في الرأي « ولكن موقفه يضطره الى التصرف بحكمة » .

وجالت في رأس بطرس افكار شتى فاما ان يكون المتصرف قد سمع اشياء واشياء من اصحاب الغايات في لبنان والآستانة او ان تكون اخبار الحركة في لبنان قد اثارت مخاوفه « فاختشى من ان يكون وجود الشهم سبباً لتعاظمها او اختشى من ان يقال انه اخذه معه مسعفاً لخوفه » . نقول جالت في رأس بطرس هذه الافكار ولكنه لم يدر في خلده ان حكومة الآستانة عارضت منذ اللحظة الاولى تعيين حاكم لبناني على

لبنان وانها كانت تعلم العلم اليقين ان عمه قاوم داود باشا لانه كان يطمع في الوصول الى الحكم وانها لمست مطامع البطريرك الشخصية وتعارضها مع مطامع كرم فاغدقت على البطريرك بالنعم في اثناء وجوده في الآستانة سنة ١٨٦٧ وجعلت منه اداة فعالة لمحاربة كرم وابقائه بعيداً عن لبنان .

كرم في الآستانة

وكان كرم يرغب رغبة اكيدة في الوصول الى حل لقضيته فقبل اشارة الصدر الاعظم ووزير النافعة وقام من ايطالية الى عاصمة السلطنة فوصل اليها في الخامس من تموز سنة ١٨٧٣ ولدى وصوله اتصل بالوزراء والسفراء . ثم دخل على الصدر الاعظم نفسه راشد باشا . فرحّب به وأصغى اليه ثم اقترح عليه قبول وظيفة لائقة . وكأني به يقول لكرم هذا افضل حل لقضيتك . ولكن كرماً لم يقبل . ولدى خروجه من حضرة الصدر كتب اليه والى السفراء يقترح تعيين حاكم لبناني على لبنان :

« لقد عرفتم جيداً النتائج الوبيلة التي جرتها تجزئة لبنان الى قائمقاميتين درزيـــة ومسيحية وعرفتم ايضاً ان ترتيبات الجبل الجديدة اصبحت اثراً بعد عين وعرفتم ان متصرفي الجبل يزدادون تهديداً ووعيداً واستبداداً . فلهذه الاسباب التمس باسمي وباسم نفر كبير من اللبنانيين الصادقين ان يعين على لبنان حاكم وطني مستقل وفقاً لتقاليد لبنان القديمة . فهذا الحاكم الوطني يوفر على الباب العالي وعلى الدول العظام مبالغ طائلة وصعوبات جمة ويضمن للبنانيين الراحة والطمأنينة بعد ان ذاقوا الامرين من الحاكم الاجنبي » .

ولم يُجب الصدر ولا الوزراء ولا السفراء ولم يعترفوا بما تلقوا . فأعاد كرم الكرة وكتب في الثلاثين من تموز من السنة نفسها الى وزير الخارجية العثمانية والى سفير فرنسة مؤكداً ان تعيين حاكم وطني مستقل على لبنان يؤيد سلطة السلطان ونفوذ فرنسة « اذ انه يوفر من جهة على حكومة الباب العالي انشغالها المستمر بمقاومة سياسة الدول الاوروبية في لبنان التي تنازعها السلطة ويجعل الدولة الفرنسية مسرورة من مشاهدة اصدقائها اللبنانيين راتعين في بحبوحة العيش وعارفين جميلها » . فامتنع الوزير والسفير عن الاجابة مرة ثانية . واكتفى الصدر بان منح كرماً مرتباً شهرياً قدره خمسة الاف غرش . وكأني به يقول لكرم للمرة الثانية لا فائدة للبحث في هذا الموضوع . واذا كنت لا تقبل وظيفة لائقة تشغلك عن لبنان فاقبل معاشاً شهرياً وادعُ للسلطان !

ورأى كرم ان لا فائدة ترتجى من تدخل الباب العالي وسفراء الدول وفي طليعة

هؤلاء سفير فرنسة فعاد الى المشاغبة على المتصرف وحكومته والى اعداد العدة لثورة تعيده الى لبنان بالقوة .

واجتمع الرهبان اللبنانيون المارونيون في خريف السنة ١٨٧٤ لانتخاب الاب العام والمدبرين . فكتب القاصد الى الاب العام في الثلاثين من تشرين الاول يوقف الاجتماع الى اشعار آخر . وفي السابع والعشرين من كانون الاول دعا الاب العام القس افرام البشراني والمدبر القس لورنسيوس الشباني اليه الى حريصا وحجر عليهما بعد ان اخذ منهما ختمي الوظيفة . وفي مطلع السنة ١٨٧٥ دعا الرهبانية الى الانتخاب في طاميش . وعند التئام الجلسة وقف القاصد فيهم خطيباً ورغب اليهم باسم الحبر الاعظم رئيس الكنيسة الكاثوليكية ان ينتخبوا الاب مرتينوس الغسطاوي اباً عاماً . فاحتج الرهبان الشماليون على تدخله وخرجوا من الكنيسة ساخطين ومما زاد في الطين بلة ان البطريرك والمطران يوحنا الحاج سعيا لنزع الزيارة من يد المطران يوسف جعجع فكان لهما ذلك . وكتبوا الى رومة محتجين على القاصد وعلى البطريرك . اخبروا يوسف بك كرم بما جرى وطلبوا معونته (١) . وكان كرم لا يزال في الآستانة بعيداً عن رومه وجبرها فكتب اليهم ان يخلدوا الى السكينة ريثما يتمكن من مساعدتهم . فاشتدت عزائمهم وازدادوا تمرداً وعصياناً على القاصد الرسولي وعلى صديقه البطريرك .

وساء كرم تعاون البطريرك مع المتصرفين الثلاثة فأحب ان يوجد في لبنان هيئة مارونية عليا تشد ازره وتتزعم المعارضة لنظام المتصرفية . فكتب في التاسع والعشرين من ايار من السنة ١٨٧٦ الى كل من مطارنة الموارنة يستحثه على تأليف مجلس طائفي اكليركي علماني برئاسة البطريرك يوحد كلمة الموارنة وبعض احترام الحق والخير العام ويمنع العمل المنفرد بحيث « لا يعود يحق لفئة من الاشخاص ان تأتي باسم الحق عملاً يناقض ما يعمله هذا المجلس » . فلم يجبه فيما يظهر سوى ثلاثة من المطارنة عرفوا باخلاصهم لكرم وتعاونهم معه : مطران بيروت ومطران صيدا ومطران قبرص – يوسف الدبس وبطرس البستاني ويوسف جعجع ، ووافقه مطران بيروت على ما ذهب اليه (٢) . اما مطران صيدا (بطرس البستاني) فانه رأى « ان القرقعة بلا انفاذ تضر وان الصوفة حمراء وان الصباغين كثيرون منا وفينا » . ورأى مطران قبرص (يوسف جعجع) « ان قرائن الاحوال لا تأذن بالشروع لان الرياح تجري بما لا تشتهي السفن » (٣) .

---

(١) راجع الملحق ص١٢٠
(٢) راجع الملحق ص ٦–٧ وجواب الاخير له .
(٣) راجع الملحق ص ٨–١١ جواب كرم .

وكان كرم لا يزال في الآستانة فلمس ما كان قد بدأ يتمخض به البلقان من استعداد للتحرر من نير الاتراك العثمانيين فتراءى له ان تشمل حركة التحرر هذه لبنان فيعود هو اليه بالقوة ويستلم زمام الحكم فيه . فاتصل ببعض الشخصيات الروسية كالجنرال اينيوتييف والجنرال فلاديمير ده بيكر والجنرال كارول تافيس اليوناني وبحث معهم تفاصيل حملة يقوم بها لاثارة اللبنانيين . وعندما لمس انهم يرغبون في حركة اوسع مجالاً تراءى له قيام العرب على الترك لاعادة مجد بغداد (١) . ومن هنا رسالته فيما بعد الى « ابناء لغته العربية » كما سنرى .

وكان جسوراً فخوراً قليل الاحتياط فيما يقول ويفعل فبلغت اخباره حكومة الباب العالي وحكومة لبنان فاتخذ رستم باشا جميع الاحتياطات الممكنة وبات يراقب لبنان الشمالي واصدقاء كرم مراقبة شديدة وأوعز الى اصدقائه واصدقاء العهد المتصرفي في الشمال ان يوقعوا العرائض بطلب منع كرم عن العودة الى لبنان ففعلوا . وكان بين اصدقاء العهد المتصرفي رهط من كبار الموارنة منهم البطريرك ويمينه المطران يوحنا الحاج والحوارنة والاحابشة وعيون اعيان الشمال كاسعد بك كرم وراجي بك الضاهر وعبد الله بك مسعد ويوسف بك صعب وانطون بك طربيه ومن شد ازرهم وكانوا كثراً .

وكتب المطران يوسف الدبس الى كرم يشير الى « ركاكة » اهل البلاد وينصح الى صديقه الا يعتمد على « فراكيح » لبنان والا يخاطر بنفسه ولا سيما وان قنصل فرنسة زار البطريرك واكد له ان الحكومة العثمانية مستعدة لقمع حركة كرم بالقوة .

كرم والعرب والعروبة

واضطر كرم ان يبتعد عن الآستانة فغادرها في السادس عشر من تموز سنة ١٨٧٦ عائداً الى رومه للمرة الثالثة .

وأعلن السرب الحرب على الباب العالي في هذا الشهر نفسه وحذا حذوهم ابطال الجبل الاسود . وخُلع السلطان مراد الخامس عن العرش وتولى الحكم بعده عبدالحميد الثاني . وفي ربيع السنة التالية ١٨٧٧ أعلن الروس الحرب على العثمانيين وقطعت جيوشهم الدانوب وحاصروا بليفنه واخذوها عنوة . وفي مطلع السنة ١٨٧٨ احتلوا ادرنه بالقرب من عاصمة السلطنة نفسها . وتقدموا في آسية ايضاً فاقتحموا قبرص واحتلوا ارضروم !

فرأى كرم ان دقت الساعة وان اقترب اجل الدولة العثمانية فاتصل بالامير

(١) راجع رسالة ده باكر لكرم في الملحق ص ١-٥

عبد القادر الجزائري للتعاون في ثورة عربية كبرى تحرر البلاد من شر الاتراك فوجده في آذار السنة ۱۸۷۷ « مستعداً لاتمام المرغوب الذي يعتبره من اهم و اعظم واجباته » ولكنه يؤثر الانتظار قليلاً ريثما يدخل « الدب الشمالي » في معمعة البلقان ثم ريثما تدخل اليونان الحرب ليأمن شر الاسطول العثماني(١) .

وأعد كرم رسالة خاصة الى « ابناء لغته العربية » يحضهم فيها على شق عصا الطاعة والخروج على الدولة العثمانية لا تزال مسودتها محفوظة لدى الخوري اسطفان البشعلاني . ولا نعلم ما اذا كانت طبعت ووزعت آنئذ ام لا ومما جاء فيها « انه انطبع في الآستانة كتاباً منصوصاً من اعظم فصحايها واشهرهم ومنسوباً لغيره . وقد توزعت صوره في الممالك . وهي تعلن بان كافة ابناء العرب من القوم المترفضين اذ يقتل بعضهم بعضاً لسبب اختلاف مذاهبهم . ولا فهم لبعضهم ان يسوس البعض . وان جموعهم لا يحترمون ويتوقرون احداً من ذات ابنا جنسهم ولغتهم العربية . ولا توافق اطباعهم السياسة القانونية المهذبة بل القصاوة التامة وخفضهم جميعاً بواسطة جنس آخر يتولى ضبطهم واخضاعهم المطلق بالقوة الجبرية » .

وينتقل كرم من هذا الى القول : « ان الانسان الذي كانت يده الدامية سبقت وغرست الفتنة فيما بينكم هو ذاته قد نسب اليكم ما قد غرسته يده قاصداً بذلك ان يلقي ايضاً على اعناقنا جميعاً نير العبودية الوحشية الذي قد ارتفع في هذا الزمان عن اعناق السودان . امر شهير هو بان السيد عبد القادر المغربي واكثرية اعيان الشام مع اكثرية حارة الميدان بالخصوص كانوا يحاموا عن نصارى هذه المدينة حينما كانت العساكر التركية بواسطة بعض رعاع الاسلام تقتل وتنهب . ثم بعد ذلك قد اتممت هذه العساكر ذاتها ادمار الاسلام بحجة دمار النصارى . وهكذا في قبلي لبنان وحاصبيا وراشيا لم تحدث الدروز ادنى ضرر على النصارى الا في رفقة العساكر التركية التي قد اكملت اخيراً غايتها ضد النصارى والدروز معاً . ويكفينا ان نقول بان الدولة العثمانية كي لا تبقي حاكماً وطنياً من ابناء العرب ولكي تلاشي ما كان لحد سنة الستين باقياً من امتيازات الى لبنان قد لاشت ايضاً ما كان لها من رسوم السلطة الخصوصية على هذا الجبل ووضعت قوانين سياسته تحت سلطة دول اوروبه العظام » .

ويخلص في آخر رسالته هذه الى القول : « فالآن باقي علي ان اوضح الى ابناء لغتي ووطني بان دعواي الخصوصية لا تستحق اعتناء خصوصياً من لدن الدول العظام بل هي متروكة الى عناية حضرة حاكم لبنان الحالي . فوالحالة هذه ساحضر بحسب تصرفات العناية الربانية الى وطني السعيد لا لكي اطلب تعويض الخسايــر

---

(١) راجع الملحق ص. ١٥ صلة الوصل بين كرم وعبد القادر

والاضرار التي كان كابدها معي الكثيرون من آل لبنان كريمي النفوس بل لكي اخضع لقوانين السياسة الحالية . فان ارتضى الحاكم الغير مختار من اللبنانيين ان يظهر عدالته فاخضع لسلطته لانه مختاراً من ذوات الدول العظام . انما اذا اراد ان يبعدني عن وطني من غير محاكمة قانونية فلا يعود ممكناً لي ان افترضه حاكماً قانونياً لان الدول العظام قد فوضوه ان يفعل العدل لا الظلم . ولا اقف بهذه الدفعة على حدود المحاماة الخصوصية التي كنت وقفت عندها سابقاً حينما كنت اتعشم بان العدالة هي امرٌ ممكن مع الظروف الحاضرة بل بحسب الحق العام والاثبت سادفع حالاً القوة بالقوة . وبعونه تعالى جل وعلا سافني حيوة كل من يريد ان يفني حيوتي وطنياً كان او غير وطني »(١) .

البطريرك والمتصرف والرهبان

وازداد الرهبان اللبنانيون تمرداً وعصياناً بعد عودة كرم الى رومه . فاتصل البطريرك بالقاصد بواسطة المطران يوحنا الحاج في ايلول من السنة ١٨٧٧ فأشار القاصد باللجوء الى العنف عن طريق الحكومة لان دعوى الاب العام الاسبق البشراني ودعوى كرم واحدة سياسية في حد ذاتها ترمي الى انقلاب في الحكم .

فقام المتصرف على رأس قوة من الضابطة اللبنانية في اواخر ايلول من هذه السنة الى اهدن واستدعى اليه وجيه بشري ومديرها راجي بك الضاهر وطلب اليه ان يشرف بنفسه على تنفيذ اوامره لما كان له من الهيبة والسطوة في تلك المنطقة . وهكذا فاننا نرى راجي بك يقوم الى دير قزحيا في السادس والعشرين من ايلول فيرسل خمسين راهباً الى اهدن ثم ينتقل الى بان وعين بقرة فيسوق عشرين آخرين امامه الى اهدن . ثم يجمع المتصرف مدراء الجبة ويقرأ بحضور « التراجمين والياوريه » قائمة بثمانية عشر راهباً مؤكداً انه انما يفعل ذلك بناءً على طلب البطريرك والقاصد وَعلى موافقة قنصل فرنسه . وبعد ان أمر بالقاء القبض على هؤلاء امر البقية ان يرجعوا الى اديرتهم . فضجوا وصاحوا واحتجوا وقالوا انه « اذا كان مأمور على احدهم بالحبس فليحبسوهم كلهم » . فأمرهم المتصرف بالصمت فلم يفعلوا . فطلب عندئذ الى الضابطة ان تلقي القبض عليهم فازدادوا صراخاً « وكثر الضرب بالبواريد والسنكات واللطم والقبض على اللحى » . وفي الثاني من تشرين الاول ارسل المتصرف ثمانية عشر اخاً وقسيساً الى السجن في بتدين .

---

(١) لنص الرسالة الكامل راجع الملحق ص. ١٧-٢٣

وما ان قضى الرهبان ليلتهم الاولى في السجن حتّى تقدموا من البطريرك بعريضة احتجوا فيها على تسليمهم الى السلطة الزمنية وهددوا بخلع الطاعة والارتداد . واتصل غيرهم من الرهبان بقنصل فرنسة مهددين بالالتجاء الى « احدى الدول الاخرى » لتدافع عنهم وتصون راحتهم .

وهبّ مطران بيروت يؤكد للبطريرك ان معاملة الرهبان اثارت سخط الموارنة وان للباشا صالحاً في التقسيم والانقسام وان المصلحة تقضي بان يقول له « ما قالته الشوحة للثعلب عند ما طلب فراخها » . وامتنع المطران بطرس البستاني عن نزع الثوب عن الرهبان المطرودين . وكتب المطران امبروسيوس الدرعوني من رومه الى البطريرك يقول : « يكفينا مخاصمات في الطايفة . واذا شاهدتمونا في هذه ضد كلفونا باعمال يطلع منها خير للعموم . حين عرفنا ان اخونا يوسف الدبس كان محرك ضدكم جبنا له الضيق » .

وظهرت بعض النشرات الخطية توصم البطريرك بالحسد وحب الاستئثار بالسلطة وتجعل منه « هندية » ثانية . وقام رجال الزجل ينظمون القصائد ويغمزون (١) .

واضطر المتصرف ان يعالج انشقاقاً آخر بين رهبان الارمن الكاثوليك مُثّلت فصوله في دير بزمار بين من اطاع رومه وبين من تمرد عليها فقال رستم قوله الشهير : « للبنان عدوان وكلاهما اسود الماعز والرهبان » .

المطران بطرس البستاني

وكان اقرب المطارنة لمركز الحكم في لبنان واكثرهم احتكاكاً بالمتصرف وحكومته المطران بطرس البستاني رئيس اساقفة صور وصيدا .

ولد المطران بطرس في الدبيه سنة ١٨١٩ ولما اشتد ارسله عمه المطران عبد الله البستاني الى عين ورقة . ولدى تخرجه منها سامه المطران يوسف رزق رئيس المدرسة كاهناً سنة ١٨٤٢ وفي السنة ١٨٤٥ اتخذه البطريرك بولس مسعد كاتماً لاسراره . وما فتىء حتّى السنة ١٨٥٦ وفيها سامه البطريرك اسقفاً شرفياً على عكة ليكون مساعداً لعمه المطران عبد الله على ابرشية صور وصيدا فيكون له حق خلافته . وتوفي المطران عبد الله سنة ١٨٦٦ فأصبح الاسقف اصيلاً مكان عمه . وفي السنة ١٨٦٧ ذهب المطران بطرس مع البطريرك الى رومه وقابل الحبر الروماني . ثم قام منها الى باريز ومثل امام نبوليون الثالث وأمّ الاستانة بمعية البطريرك « فتشرف بالمثول بين يدي

(١) نبذة قصيرة عن حياة البطريرك بولس : الملحق ص. ٢٤-٢٦

السلطان عبد العزيز » ونال منه وسام المجيدية من الرتبة الثالثة .

وكان شديد التعلق بلبنان وبالموارنة يعمل في الشوف قلب لبنان السياسي وفي عاصمته بتدين . فراعه انتقال السلطة من يد الموارنة الى يد متصرف لاتيني غريب لا يرى في نفسه الا اداة تنفيذ لاوامر السلطان . وأفزعه حصر السلطة الادارية في المرتبة الثانية في الشوف بيد قائمقام درزي أمير غني كريم الامير ملحم ارسلان . ومما زاد في الطين بلة في نظر المطران بطرس ان الامير ملحماً بقي متربعاً في دست الحكم منذ انشاء المتصرفية سنة ١٨٦١ حتى آخر عهد فرنقو باشا سنة ١٨٧٣ . فعندما توفي المتصرف الثاني سعى المطران سعياً حثيثاً لايجاد درزي آخر يشاطر ملحماً النفوذ فيناظره ويناوئه . ووقع اختياره على أمير ارسلاني آخر كان لا يزال في مقتبل العمر ظنه قليل الخبرة قصير الباع هو الامير مصطفى ابن الامير أمين ارسلان . ووافق مطلبه هذا رغبة اكيدة في نفس الجنبلاطية الكبيرة الست بدر مان الدين ارملة سعيد بك جنبلاط . وتفصيل هذا ان سعيداً توفي عن دين كبير بلغ مجموعه مليوناً من الغروش وان ولديه كانا قاصرين لم يبلغ سن اكبرهما الثانية عشرة عند وفاة ابيه وان طمع الشركاء والنظار في المال المتروك بلغ اشده وان القائمقام نفسه الامير ملحماً لم يظهر شيئاً من الاريحية في تدبير الطابق يستحق الذكر . وبلغ منها الريب درجة أودت بها الى مخاصمة القائمقام وصديقه الحميم سعيد بك نخله سيد الباروك . وتوفي فرنقو باشا وعين رستم خلفاً له فراح المطران يستجير بقنصل فرنسه لابعاد ملحم عن القائمقامية . والتجأت الست الكبيرة الى قنصل انكلتره للغاية نفسها . واشار الاثنان المطران والست الكبيرة بتعيين الامير مصطفى ابن الامير امين ارسلان قائمقاماً على الشوف . وكان نسيب جنبلاط ابن الست الكبيرة لا يزال في طيش الشباب لاهياً بمن لم ترض عنه والدته . فقبل المتصرف الجديد نصيحة قنصلي انكلترة وفرنسة وعزل الامير ملحماً وعين الامير مصطفى قائمقاماً على الشوف . وما ان استلم الامير مصطفى ازمة الحكم حتى أدرك المطران خطأه اذ وجد الامير الجديد عالي الهمة شديد الذكاء فصيح اللسان قوي الحجة جريئاً قاسياً . فازداد تمسكاً بنظرية زميله مطران بيروت موجباً ايجاد زعامة زمنية مارونية تحمي مصالح الطائفة وتعيد هيبة الاكليروس ونفوذهم . « ومن احق بهذه الزعامة من كرم ! » .

وكان ما كان من امر انقسام الرهبنة اللبنانية وخروج بعض افرادها فضاق صدر المطران بطرس وعلا صوته محتجاً على اعمال البطريرك والمتصرف . واستغل تذمر الاهالي من الضائقة الاقتصادية التي حلت في البلاد من جراء الحرب البلقانية ومن محل بعض المواسم والجدل الذي قام بين اعضاء مجلس الادارة وبين المتصرف حول اعفاء الاهالي من « البقايا المتأخرة » منذ السنة ١٨٦٠ حتى السنة ١٨٧٣ وحول

ضريبة الاوراق الصحيحة والتمغة كما سيجيء تفصيله في محله. نقول استغل هذا كله فجعل ابناء ابرشيته وبعض من والاه من الدروز كآل عبد الصمد يقدمون العرائض الى الباب العالي والى قناصل الدول يشكون بها المتصرف مدعين انه نقض عدة مواد من نظام لبنان .

ورأى المتصرف ان قسماً وافراً من الشعب اللبناني لا يقول قول المطران بطرس البستاني وزميله المطران يوسف الدبس وصديقهما يوسف كرم فأوعز بتوقيع عرائض شكر وامتنان . وأبرق اعضاء مجلس الادارة في العاشر من ايار سنة ١٨٧٨ الى مقر الصدارة العظمى العريضة التالية :

« انه لقد بلغ هؤلاء العبيد ان ثمانية وعشرين شخصاً من اهالي لبنان قدموا معروضاً تلغرافياً لفخامتكم يتشكون به من جور متصرف لبنان المضاد عدل شرع والنظام وانه اتخذ وسائط التهديد لمنع الشعب عن التشكي لدولتهم وانه أمر المأمورين اعوانه بمباشرة عرض تشكر ويسترحمون توقيفه عن هذا الظلم لمنع القلق ولكي يتمتعوا بحرية عدالة النظام ويقدموا تشكياتهم القانونية عليه مع حفظ عبوديتهم الصادقة للدولة العلية .

« وحيث وجد هؤلاء العبيد بمثابة وكلاء عموم جميع قضاوات لبنان ومطلعين على تصرفات دولة المتصرف الموافقة العدل والنظام ومن الاشخاص الذين يهمهم راحة البلاد تعين علينا عرض الحقيقة لمقام فخامتكم . وهو ان جميع ما يتشكونه هؤلاء الاشخاص الذين هم من ذوي المآرب والغايات بحق دولته وجد مجهولاً عند هؤلاء العبيد لعدم وقوعه موقع الصحة . غير انه معلوم لدى الخاص والعام ان سياسة دولته مؤسسة على مراعاة الشرع والنظام مع السهر والمحافظة على الراحة العمومية . ولذلك اقتضى التجاسر بتقديم عريضة العبودية لمعالي فخامتكم تلغرافياً » .

وهب اللبنانيون مديريةً مديرية يوقعون العرائض المماثلة . ولا يزال نص بعضها محفوظاً . فقد جاء في عريضة اهالي مديرية القاطع ان من شكا المتصرف ممن اعتاد القاء الفتن وانهم قصدوا بشكواهم تنفيذ مطامع واغراض خصوصية وان المتصرف أجرى الامور على محورها الصحيح ضمن دائرة الشريعة والعدل ووفقاً للرضى العالي لا تأخذه بالحق لومة لائم وانهم معترفون بما له من المآثر الحسنى وما له من السعي والاهتمام بنجاح احوالهم واجراء مالحهم على محور العدل والانصاف الامور التي لم توافق مشرب « اصحاب الاغراض الخصوصية الذين من دأبهم الفتن والقلاقل وحب المداخلات » وان عمل هؤلاء « مما يخدش وجه السكينة العامة ويشوش راحة الجمهور ويعطي سبيلاً لمقاومة نفوذ الحكومة » (١) .

---

(١) لنص العربية بكامله راجع الملحق ص. ٢٧-٢٨

وكان المطران يوسف الدبس مطران بيروت يحفز زميله البستاني من وراء حجاب مؤكداً ان المطلب حق وان الطائفة وراءه فتصلّب المطران البستاني وعاند المتصرف معلناً ان القانون يسوغ لكل عثماني ان يتشكى بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن غيره . فاغتاظ المتصرف وأمسك عداوة المطران في قلبه وتربّص لفرصتها . واتصل بقناصل الدول في بيروت ولا سيما قنصل فرنسة . وكان المسيو كيز متولي ادارة القنصلية الفرنساوية في بيروت « قد تشرب اموراً جعلته يحنق على المطران بطرس » فتقرر لديه ان صالح فرنسه كان يقضي بصيانة الراحة في لبنان وان صيانة هذه الراحة كانت تتوقف على ابعاد المطران . فأبرق الى سفارة دولته في الآستانة وكتب اليها ايضاً بوجوب ابعاد المطران عن لبنان . ووافقه في ذلك زميله الانكليزي . وكانت الحرب في البلقان قد وضعت اوزارها وزال التوتر الذي نشأ عن توقيع معاهدة سان ستيفانو وبدأت الدول تنتظر انعقاد مؤتمر برلين فوافق سفيرا فرنسة وانكلترة على ابعاد الحبر الماروني وفوض الباب العالي المتصرف بذلك وجعل القدس محلاً جبرياً لاقامة المطران .

وفي اليوم الاول من حزيران سنة ١٨٧٨ وجد المطران بطرس كرسيّه محاطاً باكراً جداً بمئتي جندي من الدراكون والضابطة اللبنانية . ودخل قائدهم اليه وأطلعه على أمر المتصرف بابعاده الى القدس لانه « صاحب تحريك وقلق » . وأضاف البكباشي انه مأمور ان يأخذه اما طوعاً او جبراً . فأجاب المطران انه طائع لاوامر الدولة وان لا لزوم لاكراهه على المسير . وعلم المطران ان اهالي الدير قلقوا مما جرى وان الامير مصطفى ارسلان ذهب الى بعقلين « لايقاف الدروز على سلاحهم » فكتب الى الدير يقول « كما امرت الدولة بابعادنا ستأمر برجوعنا عندما تحقق براءتنا مما اتهمنا به فنرغب منكم جميعاً ان لا يغمكم ذلك ابداً ولا يظهر منكم ادنى قلق » . وقام من بتدين الى البراميه وقضى ليلته فيها محروساً بمئتي جندي . وفي الغد قام من البراميه الى صور ومنها الى عكة فشفاعمر فالناصرة فنابلس فالقدس مخفوراً بستة واربعين خيالاً منهم ثلاثة لبنانيون والباقون من الدراكون (١) .

وتلمّس المطران يوسف الدبس رأسه وهمّ بالسفر الى اوروبة ثم عدل عندما قدّم البطريرك احتجاجه على عمل المتصرف . ولكنه بقي متعلقاً بكرم وكتب له يقول « لماذا انت قاعد تقطع الوقت سدى بكتابة الكراريس ولا تحضر لوطنك خفية فلا احد يقدر يحاربك لا الدولة لانشغالها ولا رستم لضعفه ومنع الدولة له كي لا تفتح

---

(١) لدى وصوله الى القدس كتب الى صديقه الخوري الياس الحويك (البطريرك فيما بعد) مبينا كيفية ابعاده عن لبنان وما جرى له في ذلك . نص هذه الرسالة في الملحق ص. ٢٩-٣٠

باب جديد . الرجاء حفظكم سرّ رجل تعلق بكم كل عمره ! » .

وبعد نفي المطران الى القدس أمر المتصرف باستجواب كل من وقّع عريضة الشكوى وذلك امام مجلس الادارة الكبير . ولا نعرف من هؤلاء سوى صقر الباحوط احد صغار القضاة آنئذ . ويستدل من قرار اتخذه المجلس ان صقراً لم يجب عن الاسئلة التي وجهها اليه وكيل رئاسة المجلس الامير أمين منصور بل تهرب منها وأصرّ على تهربه . وأفضى الامر الى جدل تواقح فيه القاضي الصغير على وكيل الرئاسة ورفع صوته قائلاً : « لا انت ولا خلافك بيلزمني ان اجاوب » .

وكانت قد تظاهرت بعض الاوساط في دير القمر بالعطف على حركة المطران بطرس ولا سيما بعض انسبائه فيها وبعض اعضاء مجلس بلديتها . فأمر المتصرف بالتدقيق في اوراق هذه البلدية وفي حساباتها فأسفر التدقيق عن عزل جميع الاعضاء واستبدالهم بغيرهم .

وقُدمت في اثناء ذلك معروضات وكتابات الى الباب العالي والى سفراء الدول . وبعد ان مضى خمسة اشهر على ابعاده عاد الى لبنان على متن باخرة افرنسية ارسلت خصيصاً الى يافه لنقله الى بيروت . وكان ذلك في التاسع من تشرين الثاني من السنة نفسها .

واثر هذا كله وغيره في نفس يوسف كرم فترك السياسة وانعزل للصلاة والتعبد في نابولي ثم في رازينا بالقرب منها . وما فتىء حتى قضى نحبه فيها في السنة ١٨٨٩ .

رُستم باشا - ادارته

مركز الحكم

وقضى بروتوكول اضافي صغير وقع في التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ بان يتخذ المتصرف من دير القمر مركزاً لحكمه في لبنان . وحكم داود باشا لبنان في دورتيه من دير القمر وبتدين . ورأى فرنقو باشا ان تهاطل الامطار في فصل الشتاء وتراكم الثلوج ووعورة الطرقات يعرقل وصول اللبنانيين الى حكومتهم المركزية فاستأجر سراي الامير ملحم الشهابي في بعبدا ونقل الحكومة المركزية اليها في اثناء الشتاء . فكان « المركز » ينقل في عهده في اوائل الخريف من بتدين الى بعبدا ويعود الى بتدين في اوائل الصيف .

وجاء رستم فرأى في خريف السنة ١٨٧٥ ان يحكم البلاد في اثناء الشتاء من غزير فاستأجر سراي الامير عبد الله الشهابي من الآباء اليسوعيين واقام الحكم فيها وفي بعض بيوت الشيوخ الحبيشيين في جوارها وأبقى الدراكون في جونيه . وفي خريف السنة التالية آثر الاقامة في سبنيه في ضواحي بيروت فاستأجر سراي الامير فندي قعدان الشهابي فيها وجعلها سراي حكومته. واستقر ابتداء من السنة ١٨٧٧ وحتى اواخر عهده في لبنان في الحدث بالقرب من بيروت ينزل اليها من بتدين في خريف كل سنة ويعود منها الى بتدين في منتصف حزيران . واستأجر لدائرته بيت عبد الله الشدياق وللقلم الاجنبي بيت الياس واكد وللقلم العربي بيت يوسف الياس وللقلم التركي بيت جرجس الشدياق ولقلم المحاسبة بيت كنعان سعد وللعرضحالات بيت خطار واكد ولقائد الضابطة بيت نجا الشدياق وللضابطة بيت الامير قاسم شهاب وبيت الامير داود شهاب . وللسجن بيت الامير فارس سيد احمد وللمستشفى بيت الامير معن شهاب وللصيدلية بيت كنعان بو ياغي وللبريد بيت خليل الشدياق . واقام مجلس الادارة في بيت ابراهيم الشدياق ودائرة الحقوق والجنايات في بيت فهد الشدياق . واقام هو شخصياً في بيروت ينزل اليها في كل مساء ويعود منها في الصباح . واستأجر لاقامته فيها بيت سليم درويش واخيه محمود وذلك بايجار سنوي بلغت قيمته ثلاثة وعشرين الف غرش .

وكان رستم نحيف البنية عصبي المزاج يشكو من آلام عصبية تنتابه من حين الى آخر فاضطر ان يسافر الى اوروبة مرة في كل سنة يستحم بحماماتها المعدنية ويستجمع نشاطه. فكان يغادر لبنان الى الغرب في اوائل الصيف ويعود اليه في الخريف معرجاً على الآستانة. واليك ما جاء في احد سجلات مجلس الادارة في هذا الموضوع: «في عشية نهار الخميس الواقع في ١٣ حزيران سنة ١٢٩٠ (١٨٧٤) قد بارح دولته بيروت الى اوروبة والآستانة العلية. فنسأله تعالى ان يصحبه بالسلامة والاجلال ويعيده قريباً بحلل العافية والسرور والاقبال».

واضطر المتصرف والحالة هذه ان يستنيب عنه وكيل رئاسة مجلس الادارة في اثناء غيابه. فاقام مقامه كلاً من الشيخ عيد حاتم والامير امين منصور والامير سعد الشهابي. ولا تزال سجلات المجلس تحفظ لنا اوامر الاستنابة. واليك ما جاء في سجل السنة ١٢٩٢ مالية (١٨٧٦ – ١٨٧٧):

«افتخار الاماجد والاعيان وكيل رياسة مجلس الادارة الكبير عزتلو شيخ عيد حاتم زيد مجده:

«المنهى اليكم انه بناءً على الالتماس المتقدم منا قد تعطفت الارادة السنية الملوكية باعطائنا الرخصة الموقتة للذهاب الى دار السعادة واوروبا. وبما اننا عازمين على السفر بعونه تعالى اقتضى ان نحول وكالة المتصرفية لعهدة لياقتكم على هذا الوجه. وهو انكم مأذونون منا برؤية كافة المصالح اليومية مع ملاحظة المجالس والاقلام وساير دواير الحكومة بنوع ان تصرفوا غاية جهدكم وجدكم لانجاز الدعاوي الجنائية والحقوقية المحولة الى الدواير والمجالس بكل عدل وحقانية توفيقاً لارادة الذات العالية الملوكية وسرعة جريان الاشغال القلمية واليومية بالهمة والنشاط اذ لا يجوز لاحد المأمورين ان يبارح مأموريته بلا داعي. كما ونطلب منكم التيقظ والانتباه لمحافظة الامنية والراحة العمومية التي هي اهم كل شيء. وايضاً نرخص لكم بمخابرة الولايات والالوية والمواقع العسكرية مع الترخيص ايضاً بمخابرة الباب العالي دامت له المفاخر والمعالي. انما لا ينبغي منكم ان تتكلفوا لعمل شيء اساسي بدون مخابرتنا. كما والامور المالية يلزم ان تروها بالاشتراك مع مجلس الادارة الكبير. ولا يقتضي ان تأتوا بحركة ما من شأنها تغيير شيء في الهيئة الاساسية الحاضرة. وبالنتيجة اننا محولين لعهدتكم رؤية مصالح المتصرفية بوجه العموم على المنوال المشروح اعلاه. ولنا الامل بوفور همتكم وفطانتكم ان تتلقوا وصايانا هذه احسن تلقي وتنتبهوا لعدم وقوع ادنى ارتباك بكل فروع الادارة. واذا لا سمح الله تعالى ظهر باحد جهات

المتصرفية ادنى حال يوقع الخلل بالراحة والامنية العمومية فيلزم بالحال والدقيقة مداركته بكل نشاط وهمة وسرعة ودقة . وتجرون ايجاب ما يتقدم لكم الاستدعاء به من صنوف الاهالي على اختلاف مذاهبهم بكل عدل وحقانية وبدون اظهار ميل او تغرض تطبيقاً لرضى ولي نعمتنا وسلطاننا المعظم . وتنهو لدينا ما ترون لزوم افادتنا عنه اذ أن لاجله قد صار تسطير هذه البيورلدى من ديوان متصرفية جبل لبنان للعمل بموجبه ١٨ ج سنة ١٢٩٣ » .

مجلس الادارة

وتسلم رستم مقاليد الامور في اوائل ايار من السنة ١٨٧٣ فأبقى الشيخ عيد حاتم في منصب وكالة رياسة المجلس حتى اواخر شباط من السنة ١٨٧٤ . ولاسباب نجهلها أمر في الحادي والعشرين من شباط « بانفصال رفعتلو الشيخ عيد حاتم من وكالة رياسة المجلس » وعين محله « رفعتلو عمون بك يوسف » . وفي اواخر نيسان من السنة ١٨٧٥ توفي عمون بك يوسف عمون بداء القلب في بعبدا ودفن فيها . وكان ذكياً عادلاً جسوراً وقوراً . فانتقلت وكالة الرئاسة الى اخيه انطون بك عمون في الثالث من ايار من السنة نفسها . وفي العشرين من نيسان سنة ١٨٧٦ « شرف دولته المجلس ورسم بانه صدر أمره بفصل رفعتلو انطون بك عمون وانه عين محله الشيخ عيد حاتم » . ثم نقرأ في سجل السنة ١٨٧٧–١٨٧٨ بتاريخ السابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٧٧ « شرّف دولته المجلس ورسم بانه فصل الشيخ عيد حاتم من وكالة الرياسة وحوّلها لعهدة عزتلو الامير امين منصور . وفي النهار المذكور كان دخول المشار اليه الى المجلس بمعية دولته » . وفي الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٧٩ « شرف المجلس سعادة عزتلو افندم الامير سعد شهاب لايفاء مأمورية وكالة رياسة هذا المجلس » . والاشارة هنا الى الامير سعد ابن الامير خليل ابن الامير بشير الشهابي الكبير ولذا هذا التبجيل . وبقي الامير سعد في هذا المنصب حتى انتهاء ولاية رستم على لبنان – ١٨٨٣ .

وكان مجلس الادارة في ربيع السنة ١٨٧٣ مؤلفاً من عمر افندي الخطيب عن السنّة واسعد افندي ابو صعب وسمعان افندي غطاس ويوسف افندي البيطار وعبد الله افندي غسطين عن الموارنة وقويدر بك حماده ووهبة افندي ابو غانم وحسن افندي شقير عن الدروز ونجم افندي الاسود واسعد افندي طالب عن الروم وسليم افندي المطران عن الروم الكاثوليك وكاظم افندي عمرو عن الشيعة .

واستقال يوسف افندي البيطار لسبب نجهله فقبل المتصرف الجديد استقالته وأمر

بانتخاب خلف يحل محلّه . فكتب قائمقام كسروان الى مدراء النواحي في القضاء محدداً موعد الانتخاب موجباً حضور شيوخ القرى لاجل الاقتراع :

« جناب الاخ الاعز الاكرم الشيخ ضاهر منصور ابراهيم مدير ناحية جرود كسروان المحترم دام محفوظاً — انه لقد تشرفنا بمرسوم كريم من لدن دولة افندينا المعظم يشير فحواه المنيف بما ان يوسف افندي البيطار اعضا بمجلس الادارة قدم استعفاه لدى دولته ووجد مقبولاً يصير التنبيه على كافة مشايخ الصلح الموجودون داخل هذا القضا ليبادروا لاجراء الانتخاب القانوني حسب النظام . وحيث تعين وقت اجتماع المشايخ المرقومين بمركز القائمقام من تاريخ ٢٥ الى ٢٨ حزيران الجاري شرقي وعلى هذا الوجه قد تحرر الى كافة مديري هذا القضا بناءً عليه اقتضى افادة خوتكم تبادروا حالاً لاجراء التنبيه على كامل مشايخ الصلح الموجودين ضمن مديريتكم ليبادروا بالحضور لهذا الجانب بذاتهم لاجراء الانتخاب المحرر بحيث لا يحصل منكم ادنى اهمال ولا تأخير وتفهموهم بانه غير مقبول التوكيل عن احد منهم بل يجب ان يحضروا بانفسهم بالوقت المرقوم وبهذا غنايه — ١٤ حزيران سنة ٢٨٩ » .

وكتب مدير ناحية الجرد بدوره : « جناب اخونا المحترم وحضرة الاخوان العزاز مشايخ قرى ناحية جرود كسروان المكرمين حفظهم الله تعالى — غب تشرفكم بمطالعة امر سعادته ايده الله المبني عن الامر الدستوراني الاشرف لكي تتوجهوا جميعكم في ٢٥ الى ٢٨ شهر حزيران الجاري شرقي لانتخاب اعضا لمجلس الادارة عوضاً عن جناب يوسف افندي البيطار الذي قدم استعفاه لدى دولته ووجد مقبولاً يقتضي ان تتوجهوا في اليوم المعين ويكون توجهكم لمركز القائمقام في ٧ ايام من شهر تموز غربي الواقع يوم الاثنين القادم . والذي لا يتوجه منكم تقع عليه المسؤولية ويقتضي ان تفهموا انه غير مقبول التوكيل بل يجب ان تتوجهوا بنفسكم بالوقت المرقوم وبهذا غنايه والله يحفظكم — في ٢٩ حزيران سنة ١٨٧٣ » .

وتوجه شيوخ قرى كسروان الى مركز القضاء في الموعد المعين فانتخبوا باكثرية الاصوات فارس افندي الخوري كرم . وفتحت صندوقة الاقتراع بحضور القائمقام واعضاء المحكمة وحرر بالانتخاب ضبطاً رسمياً ارسل الى بتدين . فقبل وأعلن رسمياً ان فارس افندي الخوري كرم اصبح عضواً عن الموارنة محل يوسف افندي البيطار .

وكان المتصرف شديد التمسك بالقانون وبوجوب تطبيقه وتنفيذه فهاله أمر تغيب عبد الله افندي غسطين عن جلسات المجلس لاسباب لم يقره عليها المتصرف فأمر بعزله في اواخر آب من السنة ١٨٧٣ اي بعد مرور بضعة اشهر على تسلمه ازمة الحكم

في البلاد . ووجه الكتاب التالي الى الشيخ عيد حاتم وكيل الرياسة آنئذ :

« دائرة المكتوبجي نومرو ٨٣٨ عزتلو شيخ

بما ان عبدالله افندي غسطين احد اعضاء مجلس الادارة من ابتدا تعيينه للآن ما قام بحقوق واجبات مأموريته قطعاً بل اكثر الاحيان يكون غايباً عن المركز . ومن ثم يوجد عليه دعاوى مالية وصار مطلوب مراراً لاجلها من جانب ولاية سورية الجليلة وللآن لم ينه امر هذه الدعاوى فضلاً عن ان صار له غايباً نحو اربعة شهور برؤية مصالحه الذاتيّة ومراراً قد تبلغ ولم ينتبه . وبما ان وجود المأمورين دايماً بمحل مأموريتهم ومثابرة رؤية اشغالهم المأمورين بها هو من اهم الواجبات بناءً عليه لزم انفصال الافندي المرقوم عن عضوية المجلس . واقتضى افادتكم ليكون بمعلومكم الكيفية . كما وانه قد تحرر اللازم لقايمقام قضا جزين لاعلان ذلك على مشايخ القرايا لينتخبوا عضواً الى المجلس عوضاً عن المذكور . ولاجله صار اسطار هذه الشقة — رسم » .

وأمر المتصرف في هذه الفترة عينها بانتخاب عضو عن السنّة في قضاء الشوف وعضو آخر عن الروم في قضاء المتن . فجدد انتخاب الشيخ عمر الخطيب عن السنة وانتخب اسعد افندي الخوري عن الروم فحل محل نجم افندي الاسود . وانتخب شيوخ قضاء جزين منصور افندي المعوشي محل عبد الله افندي غسطين .

ولا يزال سجل مجلس الادارة يحفظ لنا خلاصة العريضة التي تقدم بها قائمقام الشوف ليرفع نتيجة الانتخاب الذي تم في قضائه :

« غب الاحالة صارت مطالعة المعروض المتقدم لاعتاب دولته من رفعتلو قائم مقام الشوف المؤرخ في ١٦ رجب سنة ١٢٩٠ وفي ٢٧ اوغستوس سنة ١٢٨٩ والعرضحال الذي طيه من كافة مشايخ قضاء الشوف المتضمن انه لدى اجتماعهم في مركز القائمقامية لانتخاب عضو مجلس الادارة وتبليغهم مآل امر دولته الشريف بان كل منهم له الحرية التامة بان ينتخب العضو الذي يراه موافقاً لهذه المأمورية . وغب ذلك صار وضع علبة مخصوصة . واخذ كل شيخ منهم يحرر بورقة صغيرة اسم ذاك الشخص الذي يصرح بانتخابه ويختم عليها بختمه الرسمي ويضعها بيده ضمن العلبة . واخيراً صار فتحها بحضورهم وحضور رفعتلو القائمقام ومأموري المحكمة . فوجد ان ثمانية اصوات لعلي افندي ابي خزعل واثنين وثمانين صوتاً الى مكرمتلو عمر افندي الخطيب . وانه وقع الانتخاب المرقوم بتمام رضاهم واختيارهم . ويسترحمون ابقاء عمر افندي عضواً بالمجلس لكون به الاهلية واللياقة لهذه المأمورية .

« وبناءً عليه وجد ان انتخاب عمر افندي المومى اليه هو اصولي وموافق الى النظامات السنية ولذلك صار قيده بقيود المجلس . واذا تحسن بالارادة صدور الامر

الشريف جواباً لرفعتلو القائمقام افادته بقبول انتخاب الافندي المرقوم عضواً للمجلس وان يبلغ الكيفية لمشايخ القضاء . وبكل الاحوال الامر لحضرة من له الامر » .

وفي الثاني عشر من آذار سنة ١٨٧٥ استقال سليم أفندي مطران من عضوية المجلس عن الروم الكاثوليك . وأمر المتصرف باجراء انتخاب في كل من اقضية زحلة وجزين والبترون فجاء نصيف افندي غرة محل سليم افندي مطران عن الروم الكاثوليك من قضاء زحلة والشيخ احمد افندي امين الدين عن الدروز من قضاء جزين وتجدد انتخاب الشيخ أسعد افندي ابي صعب عن الموارنة من قضاء البترون . وأعلنت النتيجة في السابع من حزيران سنة ١٨٧٥ . وفي الحادي والعشرين من تموز من السنة نفسها عاد قويدر بك حماده الى المجلس عن دروز الشوف فحلّ محل الشيخ وهبه افندي ابو غانم .

وعاد المتصرف الى الانتخاب في ربيع السنة ١٨٧٧ فأمر باجرائه في المتن والشوف وكسروان لمقاعد الدروز والسنة والموارنة . « فشرّف المجلس في السابع عشر من نيسان سنة ١٨٧٧ وفتحت الصناديق بحضوره » فنال الاكثرية حسن افندي شقير عن دروز المتن ودرويش افندي القعقور عن سنة الشوف وفارس افندي الخوري كرم عن موارنة كسروان .

وجرى مثل هذا في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٨٧٩ فأسفر عن انتخاب يوسف افندي الزغزغي عن الموارنة قضاء المتن محل سمعان افندي غطاس . وجُدّد انتخاب اسعد افندي الخوري عن روم القضاء نفسه . وحلّ فرحات افندي نصيف محلّ منصور افندي المعوشي عن موارنة قضاء جزين . وجدد انتخاب كاظم افندي عمرو عن الشيعة في قضاء كسروان . وارتفعت حرارة الناخبين هذه المرة في قضاء جزين فألحّ مشايخ جزين وبكاسين وقيتولي وبتدين اللقش وعاري وبحنين وبسري على القائمقام بوجوب تأجيل الانتخاب . ولكن مجلس الادارة اشار بطلب هؤلاء للانتخاب وبمجازاة من يتأخر منهم بموجب منطوق قانون الانتخاب .

وفي التاسع عشر من نيسان سنة ١٨٨٠ اعيد انتخاب عضو السنة في قضاء الشوف ففاز الشيخ عمر افندي الخطيب بستة وثمانين صوتاً مقابل خمسة فقط لمناظره القديم الشيخ علي افندي ابي خزعل . وحلّ عمر افندي محل درويش افندي « الاحمد » القعقور الذي توفي فيما يظهر في هذا التاريخ .

وفي التاسع من نيسان سنة ١٨٨١ انتخب الشيخ كنعان البيطار عضواً عن موارنة قضاء البترون فحل محلّ الشيخ اسعد ابو صعب . وفي السابع عشر من ايلول من السنة نفسها حلّ الشيخ الياس ابو صعب محل الشيخ كنعان البيطار . وجُدّد انتخاب الشيخ احمد امين الدين عن دروز قضاء جزين في الرابع من نيسان من السنة نفسها . وفي

الحادي عشر من الشهر نفسه حلّ حمد بك حماده محل قويدر بك حماده عن دروز الشوف .
وجاء دور الروم في السنة ١٨٨٣ فانتخب عبد الله افندي الحايك عوضاً عن اسعد بك طالب في الثاني من آب . وحلّ الشيخ قاسم صالحة محل حسن بك شقير عن دروز المتن في التاريخ نفسه . وجدد انتخاب فارس افندي الخوري عن موارنة كسروان في الرابع والعشرين من تموز من السنة نفسها – ١٨٨٣ .
ويقول الدكتور شاكر الخوري في كتابه مجمع المسرات ان هذه الانتخابات كانت في اول الامر تتم حسب رغبة المتصرف . فانه كان يحرر الى القائمقام انه يريد فلان فيجمع القائمقام مشايخ القرى وينقل اليهم رغبة المتصرف فينتخبون من يشاء . ويقول الدكتور شاكر ايضاً ان المتصرف كان في هذه الفترة الاولى يحسن الانتخاب اكثر بكثير من المشايخ انفسهم . وانه كان يصدف في بعض الاحيان ان يخلو مركز المتصرف فيقوم مقامه وكيل الرئاسة بالتعاون مع المجلس فيسيء هؤلاء العمل وتتأسف الناس لان صاحب الحاجة يمكنه ارضاء واحد كالمتصرف ولكن لم يكن بمقدوره ان يرضي اثني عشر عضواً . ويخلص الدكتور شاكر الى القول بانه عندما اعطيت الحرية للمشايخ لانتخاب من شاؤوا « صارت الدراهم المنصرفة هي المتصرفة فخسر لبنان شأنه » .
وقد يكون في هذا شيء من المغالاة ولكنه قول هام لانه صدر عن رجل عرف لبنان واللبنانيين جيداً وتعرف الى المجلس عن طريق والده يوسف الخوري الذي مثل فيه موارنة جزين مدة من الزمن .
ويبدو لنا ان الناخب اللبناني آنئذ شيخ القرية كان في غالب الاحيان نصف امي يجهل الديموقراطية واساليبها بل اكثر من هذا : كان قد عاش قروناً طوالاً بعيداً عن الحكم والحكومة يخشى سطوة الحاكم وظلمه ويعتبره غريباً عنه بعيداً عن الاهتمام بشؤونه . وكان علاوة عما تقدم لا يرى في الحكم سوى وسيلة للاثراء . ومن هنا هذا التذمر من مشايخ القرى في عهد فرنقو ورستم . ومما تحفظه سجلات المجلس شكوى اهالي كوسبا بشخص احدهم خليل سمعان على شيخهم يوسف اسحق :
« انه حديث السن لا يتجاوز الثالثة والعشرين يوقف النمر ولا يعطيها للفقراء الا بعد دفع خمسة غروش عن كل نمرة . وهو لا يسمع دعوى مالية تقع ضمن صلاحيته ما لم يأخذ شيئاً معلوماً من المتداعين . ويحصل جزاءً نقدياً من الذين لا يعزلون الطرقات المجاورة لملكهم . انه كان يحصل عن كل درهم مساحة اربعة وعشرين غرشاً ويأخذ عشر المعين لنواطير القرية . والذي لا يدفع يعمل له اسباباً لاخراجه

من النظارة . وكان يرخص لبعض الاهالي بنقل الاسلحة ليأخذ منهم بعض مـــا يصطادونه . وكان بالاشتراك مع الياس جرجس نصيف مختار القرية يهرب الدخان . وفي الخامس عشر من ايلول سنة ١٨٧٩ خرج من كوسبا بمعرفة الشيخ والمختار سبعة قناطير من الدخان الى الياس الحلون من زحلة . ان الشيخ يشتري بارودأ ويبيعه سرأ ولا يسمح لاحد ان يبيع خلافه . انه كان يرخص للقصابين ولبعض اصحاب الدكاكين ان يستعملوا عيارات حجرية غير معدنية فيخالف اوامر الحكومة بذلك . انه فسخ خطبة ابنة وزور سنداً على ابنة امتنعت عن التزوج به » .

وقد لا يكون من الحق ان يعتقد القارىء ان جميع مشايخ القرى او معظمهم ارتكبوا مثل هذا . ولكن الواقع الذي لا مفر منه هو ان شكاوى الاهالي من سوء تصرف مشايخهم ليست نادرة في صفحات سجلات المجلس . وعلى الرغم من شدة تذمر اهالي الكورة من شيوخهم فانهم لم ينفردوا بهذا الضعف في الجهاز الاداري . فالسجلات نفسها تحفظ مثل هذه الشكاوى من جميع الاقضية الاخرى مما اضطر المجلس الاداري ان يعزل بعض شيوخ القرى وان يوصي الى رستم باشا بالتعميم بان من يتقاضى « البارة الفرد » لقاء اعطاء نمر المساحة يقع « تحت طائل المسؤولية » .

ومن مظاهر سذاجة شيوخ القرى في الامور الانتخابية ان بعضهم في كسروان كتب اسمي شخصين متناظرين لمقعد واحد في آن واحد وان بعضهم وكّل غيره للتصويت عنه .

ـ وقضت المادة الرابعة من نظام لبنان الاساسي بان يكون لكل قرية شيخ « ينصبه المتصرف بانتخاب اهلها » . بيد انه كان لبعض القرى الكبيرة اكثر من شيخ واحد مثل بشري واشتركت بعض القرى الصغيرة في انتخاب شيخ واحد لها جميعها . وتمتعت زحلة بنظام انتخابي خاص حفظه لنا مؤرخها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في كتابه تاريخ زحلة : « لم يكن في قضاء زحلة مدراء ولا شيوخ صلح . ولهذا كان ينتخب ممثل زحلة في مجلس الادارة باكثرية واحد واربعين صوتاً وزعت على حاراتها العشر — حارة الراسية سبعة اصوات وحارة سيدة النجاة ثلاثة وحارة مار الياس سبعة منها واحد عن حوش الامراء وواحد عن المسلمين وحارتا مار انطونيوس ومار تقلا معاً ثلاثة وحارتا مار ميخائيل ومار جرجس معاً اربعة وحارة سيدة البربارة صوتان وحارة الميدان صوتان وحوش الزراعنة صوت وجميعهم من الروم الكاثوليك. واما الروم فستة اصوات والموارنة ستة ايضاً واصوات هاتين الطائفتين مشتركة في جميع الحارات ولم يكن بالامكان حصرها في احداها . وكانت كل حارة توزع اصواتها على المكلفين فيها فيتراوح معدل الصوت غالباً بين الثلاثين والاربعين مصوتاً من الحاضرين لا الغائبين . وكان التصويت افرادياً ويفوز بعضوية المجلس من ينال

واحداً وعشرين صوتاً فما فوق » .

وكانت قد جرت العادة بأن يوقع الناخبون عريضة يوجهونها الى المتصرف معلنين رغبتهم في ان يكون فلان عضو المجلس من الطائفة الفلانية من قضائهم . وكانت ترفق هذه العريضة بعريضة اخرى يوجهها القائمقام الى المتصرف ويؤكد فيها ان الانتخاب جرى بحضوره بموجب القانون . فيحيل المتصرف هاتين العريضتين الى المجلس لابداء رأيه ثم يصدر بيورلدى العضوية الى المنتخب كما يأمر باعداد قسيمة بالمعنى نفسه الى المالية لدفع المعاش .

وجاء رستم فجعل الاقتراع سرياً بالطريقة المألوفة آنئذ في الغرب وأمر بأن يجتمع الناخبون في مركز القضاء الذي ينتمون اليه وان يكتبوا اسم من يرغبون فيه على قطعة من الورق صغيرة وان يوقعوها ويختموها بختم المشيخة ثم يضعوها في صندوقة خاصة تفتح بحضور القائمقام واعضاء محكمة القضاء وتفرز اصواتها ويدون ضبط بالنتيجة يرسل الى المتصرف والمجلس . او ان تختم الصندوقة فترسل الى مجلس الادارة وتفتح فيه وتفرز اصواتها بحضور المتصرف .

وجرى مثل هذا في اوائل عهد رستم باشا في انتخاب شيخ رومية خاطر راشد في السادس والعشرين من حزيران سنة ١٨٧٣ فالسجل يقول « ولدى فتح علبة الاوراق » تبين ان اكثرية الاصوات كانت الى جانبه . وليس في السجلات ما يشير الى تكرر انتخاب الشيوخ بهذه الطريقة السرية . ولعل السبب في ذلك هو امية الاكثرية الساحقة من السكان آنئذ .

وكان المتصرف مستبداً بطبيعته فانفرد بسياسة لبنان واستقل بها ولم يشرك المجلس بشيء منها مطبقاً بذلك نص المادة الثانية من النظام الاساسي بحرفها .

وانحصرت اعمال المجلس طوال عهد رستم في توزيع الاموال الاميرية ومراقبة الواردات والنفقات على اطلاقها وتلزيم الاراضي الاميرية واقلام التعداد والمحافظة على المشاعات العمومية والترخيص بالبيع منها وعقد المقاولات والتعهدات والنظر في استدعاءات شركات الامتياز وغيرها والترخيص لطالبي البحث والتنقيب عن المعادن وانشاء الطرق العمومية والخصوصية والاشراف على البلديات والنظر في قراراتها المستأنفة الى المجلس والقول في قانونية انتخاب شيوخ القرى ومحاكمتهم وعزلهم والتحقيق في مادة الدعوى المقامة على احدهم واصدار قرار بوجوب احالتها الى العدلية اذ لا يجوز اخذ شيخ صلح القرية تحت تعقبات العدلية ما لم ينظر المجلس الاداري في مادة الدعوى المقامة اولاً . وكان من صلاحيات المجلس ايضاً اجراء التحقيق على حكام العدلية عموماً .

وبوصول رستم الى منصة الحكم في لبنان زالت الالفة والصداقة والمحبة التي

ربطت المجلس بسلفه فرنقو وحلّ محلها جو من الهيبة والجفاف يلمسه كل من يطلع على وقائع جلسات المجلس . وعلى الرغم من تصلب المتصرف الجديد وتصلفه في بعض الاحيان فان اعضاء المجلس لم يستسلموا لمشيئته بل قاوموه بجرأة وحزم عندما قضت الظروف بذلك . وسنرى في سياق الكلام عن المالية في عهده مثالاً واضحاً لما نذهب اليه . ومما لا يزال يروى من هذا القبيل موقف الشيخ عيد حاتم وكيل رئيس المجلس في صيف السنة ١٨٧٧ من تهور المتصرف في معالجة مشكلة من المشاكل الادارية جرت حوادثها في زحلة وادت الى احالة عدد من وجهاء هذه البلدة الى السجن وبينهم عدد من الروم كما أدت الى استفزاز متوديوس مطران الروم في زحلة والبقاع (١) ودفعته الى السجن يخلع بابه ويطلق سراح الموقوفين من ابناء ملته . وما ان علم المتصرف بما جرى حتى استشاط غيظاً وأمر سليم بك الطرابلسي ان يقوم الى زحلة على رأس قوة من الضابطة ليأتي بالمطران مكتوف اليدين الى بتدين . فقام سليم بك بالقوة الى عين زحلتا فالمديرج متجهاً نحو زحلة لتنفيذ أوامر المتصرف . ولمس وكيل الرئاسة الشيخ عيد تسرع المتصرف وتهوره فدخل عليه يراجعه بما صدر عنه من التسرع مبيناً سوء العاقبة من احضار المطران بالقوة مؤكداً امكانية الوصول الى الهدف بطريق أسلم وأفضل . فنزل المتصرف عند رغبة الشيخ اللبناني وأعاد القوة من المديرج الى بتدين . وقام اسكندر بك التويني ترجمان المتصرف واحد اعيان الروم آنئذ يعالج القضية فجاء بالمطران الى بتدين معتذراً .

الوظائف والموظفون

وكان يشرف على مالية لبنان محاسب عثماني يعينه الباب العالي . فأشغل هذه الوظيفة في عهد رستم كل من جمال بك (١٨٧٥–١٨٧٩) ورشاد افندي (١٨٧٩–١٨٨١) وهاشم افندي (١٨٨١–) . وتولى الترجمة طوال عهد رستم اسكندر بك التويني وعاونه فيها كل من غطاس افندي لبكي (١٨٧٦–١٨٧٧) وابراهيم افندي ديب (١٨٧٧–١٨٨٤) . وترأس القلم الأجنبي مورل بك (١٨٧٣–١٨٨٣) والقلم التركي اسكندر الحداد (١٨٧٣–١٨٨٤) والقلم العربي حنا بك ابي صعب (١٨٧٤–١٨٧٨) وغطاس افندي لبكي (١٨٧٨–١٨٨٤) .

وتولى قائمقامية الشوف الامير مصطفى ارسلان (١٨٧٣–١٨٨٤) وكان يؤثر

(١) هو ميخائيل ابن جرجس نصر صليبا من بتغرين لبنان تبوأ عرش ابرشية سلفكياس (زحلة والبقاع) في منتصف القرن الماضي وتوفي في السنة ١٨٨٥ .

في بعض الاحيان ان يدعى « الامير مصطفى الامين » . وتولى قائمقامية جزين كل من الامير ملحم حمود (١٨٧٣ – ١٨٧٦) والشيخ رشيد الخازن (١٨٧٦) والامير سعد شهاب (١٨٧٦–١٨٧٩) وقسطنطين بك الخازن (١٨٧٩–١٨٨٤) . ونرى على كرسي الحكم في زحلة الامير مجيد مراد شهاب (١٨٧٣–١٨٧٦) وحبيب بك عكاوي (١٨٧٦–١٨٨٢) وملحم افندي شميل (١٨٨٢–١٨٨٥) . وفي المتن الامير يوسف علي (١٨٧٣–١٨٧٩) والامير خليل مصطفى (١٨٧٩–١٨٨٠) والامير يوسف علي (١٨٨٠–١٨٨٤) . وفي كسروان الشيخ رشيد الخازن (١٨٧٦–١٨٨٠) والامير نجيب شهاب (١٨٨٠–١٨٨٣) . وفي البترون عمون بك عمون (١٨٧٢–١٨٧٤) والامير قيس شهاب (١٨٧٤–١٨٧٩) والامير نجيب شهاب (١٨٧٩–١٨٨٠) والامير ملحم حمود (١٨٨٠–١٨٨١) والامير قيس ملحم (١٨٨١–١٨٨٢) والامير ملحم حمود (١٨٨٢–١٨٨٢) والامير قيس قعدان شهاب (١٨٨٢–١٨٨٣) هذا ولم نعرف من قائمقامي الكورة في عهد رستم سوى اسكندر افندي الخوري الذي جلس في كرسي الحكم فيما يظهر في اواخر عهد هذا المتصرف .

وفي صيف السنة ١٨٨٠ قامت نظارة المالية تنبه الى وجوب التثبت من ان كل موظف من موظفي الدولة له كفيل يكفله مالياً. فاضطر مجلس الادارة في لبنان ان يتخذ قراراً في هذا الموضوع مثبتاً في متنه اسماء الموظفين واسماء كفلائهم . وهكذا فاننا نجد الآتية اسماؤهم قائمين بالوظائف التالية في الحادي عشر من تشرين الاول سنة ١٨٨٠ :

قضاء جزين : القائمقام قسطنطين بك الخازن كاتب المال نخله فارس الخوري مدير ناحية التفاح الامير عبد الحميد شهاب مدير ناحية الريحان سعيد اغا ابي ملحم .

قضاء الشوف : القائمقام الامير مصطفى الامين كاتب المال الشيخ حسين فارس تلحوق مدير الشوف الحيطي نجيب بك جنبلاط مدير الشوف السويجاني نسيب بك جنبلاط مدير اقليم الخروب علي افندي ابو خزعل مدير المناصف بشير بك الناصيف (ابو نكد) مدير الشحار اسكندر بك حبيش مدير الغرب الاقصى الامير مجيد ارسلان مدير الغرب الاعلى الجنوبي الشيخ حمد تلحوق مدير الغرب الاعلى الشمالي سعيد بك نخله مدير العرقوب الجنوبي عجاج بك عماد. مدير العرقوب الاعلى الشيخ فارس محمود العيد مدير العرقوب الشمالي يوسف بك مبارك مدير الجرد الشمالي عثمان بك عبد الملك مدير الجرد الجنوبي الشيخ رشيد الخازن .

قضاء المتن : القائمقام (الامير يوسف علي) (١) كاتب المال فارس افندي الزغزغي مدير المتن الاعلى الامير خليل سعد شهاب مدير الساحل الامير منقذ شهاب مدير القاطع الامير يوسف قايدبيه مدير بسكنتا الامير شديد عبد الله مراد مدير الشوير ابراهيم افندي قرطاس .

قضاء كسروان : القائمقام الامير نجيب شهاب مدير مال القضاء اسكندر افندي ديب مدير ناحية جبيل العليا رشيد بك الخوري مدير ناحية جبيل السفلى الشيخ اسد الدحداح مدير جرود كسروان الشيخ ضاهر منصور ابراهيم الخازن مدير الفتوح الشيخ سلوم الدحداح مدير غوسطا الشيخ يوسف البيطار مدير المنيطرة الشيخ احمد محسن حماده مدير جونيه طالب بك حبيش مدير الزوق الشيخ بطرس شمسين .

قضاء البترون : القائمقام الامير ملحم حمود شهاب . كاتب المال جرجس افندي عساف مدير الزاوية الامير درويش شهاب مدير اهدن اسعد بك كرم مدير قنات الشيخ عباس ابو صعب مدير حصرون عبد الله بك مسعد مدير ناحية البترون العليا انطون بك طربيه مدير البترون علوان بك حبيش مدير بشري راجي بك الضاهر مدير الهرمل الشيخ محمد سعيد محسن حماده .

قضاء الكوره : القائمقام اسكندر افندي الحوري كاتب المال اسعد افندي الحايك مدير ناحية الوسطى الشيخ راجي العازار مدير ناحية الشمالية الامير ابراهيم احمد حسان مدير ناحية القويطع الشيخ بشاره الحوري .

وكان قد أصبح النظام الاقطاعي غير شرعي في لبنان فلم يبقَ لرجاله سوى بعض الكرامات المعنوية السائرة حتماً نحو الزوال . فهبّ هؤلاء يستعيضون بنفوذ الوظيفة . وتهافتوا عليها وتكالبوا حتّى اصبحت في نظرهم كل شيء . وانفقوا الاموال في سبيل الوصول اليها والمحافظة عليها واستصغروا امام المتصرف وهانوا . فتكبّر رستم وتجبّر وراح يوظف ويعزل حسبما تملي عليه ظروفه السياسية . ولذا فاننا نرى اعضاء مجلس الادارة يقولون في الرد على الحسم من معاشاتهم ومعاشات غيرهم لصندوق التقاعد في اواخر السنة ١٨٧٩ « ان المستخدمين في لبنان يخدمون الحكومة غالباً مدة وجيزة وينفصلون عنها إذ ذاك يقيمون في بيوتهم متعاطين اشغالهم الخصوصية بدون ان يتعين لهم معاشات تقاعد . فلذلك لا يستفيدون من هذا الحسم ولو مهما استخدموا سيما ولا يوجد مراكز عديدة في لبنان ينتقل فيها المأمور من

(١) فراغ في الاصل

مامورية الى اخرى . ومعاشات المامورية جزئية لم تعد قابلة زيادة تنقيص » .

ونرى الدكتور شاكر الخوري يقول تحت عنوان « مستخدم الحكومة في لبنان » « ما من عيشة امرّ ولا من آخرة محزنة مثل عيشة وآخرة مستخدمي لبنان . وسبب ذلك ان كل الوظائف متعلقة بارادة المتصرف . ولا يعرف المستخدم ما يرضي دولته ولا من يفسد عليه امامه ولا اي قنصل او مطران يرضى . وكل متصرف جديد يريد ان يبدل المتوظفين القدماء ويعمل طقماً لحاله . فجميع هذه الاحوال تجعل المتوظف لا ينام ليلا ولا نهاراً . وكنت عندما احضر الى عند والدي الى دير القمر اراه يمضي لياليه مع بعض المستخدمين من اصحابه بالسهر والاستفهام عما قال الباشا اليوم واية حركة عملها وهل ابتسم بوجه فلان ام عبس وماذا قال خادمه الخصوصي وكيف المسألة الفلانية . وهكذا كنت انام وينام المرحوم اخي خليل فكان والدي يوقظه لكي يتعلم المباحث السياسية ويقول له ان اخاك لا يهمه ذلك واما انت فانك في السلك ويلزم ان تعرفه » . ومن هنا وصية هامان لولده فنحاس للدكتور شاكر نفسه :

تفقّـــه يـــا بنيّ وكن لبيبـــا	وخـــذ عني السيـــاسة والمبادي
ولا تخش مـــن الحكام جوراً	وشيمتنـــا لهـــم لثم الايـــادي
واقسم بـــين حكـــام وشعب	واشعـــل بينهم قدح الزنـــاد
وازرع دائمـــاً اخبار كذب	الى الحكام مـــن عمق الوهاد
واشغل فكرهم في الغير دوماً	وحـــاول ان تقيم لهـــم اعادي
ومن تحتاجـــه اخدمـــه مطيعاً	وفي تمداحـــه كن اي حـــاد
وقبّل في الهبوط مداس دون	ودس ان قد علوت ذرى الجواد

وخاف الموظفون رستم واجلّوه ووقّروه . وكان هو عادلاً نزيهاً حازماً فلزموا أعمالهم وداوموا عليها ولم يستخفوا بمصالح الناس . وكان من حسن حظ اللبنانيين والسوريين ان تولى الحكم في دمشق في هذه الآونة نفسها عدد من كبار الرجال كجودت باشا ومدحت باشا وغيرهما ممن قدر رستم حق قدره فتعاونوا ومتصرف لبنان على تأمين الامن ونشر العدل فشعر الموظف اللبناني بدرجة من المناعة والقوة والكبر لم يصل اليها زملاؤه لا قبل رستم ولا بعده . وشارك الموظف اللبناني في هذا بعض الرؤساء الروحيين خارج لبنان . فكتب صفرونيوس رئيس اساقفة طرابلس على الروم الى رستم في الثالث والعشرين من شباط سنة ١٨٧٦ يشكر له نجاحه في ارجاع مزرعة الحريشة الى حكومة لبنان .

القضاء

(وعني رستم باشا بتعزيز القضاء وبرفع مستواه فاستقدم الكتب القضائية اللازمة

من الآستانة كالدستور وغيره ودفع بها الى القضاة اللبنانيين لمطالعتها والانكباب عليها ونقلها الى العربية لتعميم فائدتها . فاينع عملُه وأثمر في عهد خلفه واصه باشا كما سنرى . وطلب الى القضاة ان يتركوا اللباس الشرقي القديم وان يرتدوا الثياب الافرنجية كما نصح ان يظهروا بمظهر الكمال امام الشعب فيلتحوا .

وشطر المتصرف مجلس المحاكمة الكبير فجعل منه دائرة للجزاء تطبق قانون الجزاء الجديد ودائرة للحقوق . وجعل على رأس دائرة الجزاء قاسم بك ابو نكد وأبقاه في هذا المنصب منذ تأسيسه في السنة ١٨٧٦ حتى خروجه من لبنان سنة ١٨٨٣ وجعل على رأس دائرة الحقوق كلاً من الامير نصوح شهاب (١٨٧٣—١٨٧٧) والامير نجيب شهاب (١٨٧٧—١٨٧٩) فبطرس بك كرم (١٨٧٩—١٨٨١) فالشيخ رشيد الدحداح (١٨٨١—١٨٨٣) .

وكانت محكمة التجارة في بيروت تنظر في الدعاوى القائمة بين اللبنانيين وبين الاجانب وذلك بموجب نص نظام لبنان الاساسي فاهتم المتصرف لامرها ورعاها بعينه الساهرة وانتقى لرئاستها قاضياً تركياً رفعت افندي كان قد اشتهر بسعة اطلاعه وجودة رأيه واستقامة اخلاقه وما فتىء يلح بوجوب تعيينه حتى تم له ذلك . فسُرّ التجار اللبنانيون به ولمسوا غيرته على مصالحهم . وفي خريف السنة ١٨٧٥ فصل رفعت افندي عن منصبه في بيروت فاتخذ مجلس الادارة قراراً جاء فيه « لا ننكر ما بذلتموه من الغيرة نحونا امام الباب العالي فخولتمونا نوعاً من راحة الفكر بسنوح الارادة السنية لتسمية رئيساً لمحكمة التجارة عزتلو رفعت افندي نظراً لحال كون الموما اليه حاوياً الصفات المطلوبة اللائقة بهكذا رئاسة ان كان لمعلوماته الصحيحة بقوانين التجارة او لاستقامته وعفته مع تلك الغيرة التي كان يظهرها نحو اللبنانيين . والآن وقد تأسفنا لفصله عن المحكمة المذكورة نرجو تشكيل محكمة تجارية في الجبل » .

وعلى الرغم من هذا كله بقيت هنالك ضروب من الفساد لم يقوَ على استئصالها كبير المتصرفين . منها التقيد بالطائفية في تعيين القضاة . وقد بلغ هذا التقيد حداً جعل بعده كل عمل اصلاحي شاقاً بطيئاً . ومثال ذلك ان بيت الحاج يوسف التابعين لقضاء البترون احتجوا في صيف السنة ١٨٧٣ ان ليس منهم احد موظفاً . فرفع القائمقام عمون بك عمون آنئذ عريضتهم الى مقام المتصرفية ملاحظاً ان ليس بينهم من يحسن القراءة والكتابة حتى ولا عباس ملحم « كاتب » المحكمة . فأحال المتصرف العريضة الى مجلس الادارة لابداء رأيه فيها . فقرر المجلس ما يلي : « حيث انه في حين تشكيل المحاكم قد تعين الكاتب الاول لمحكمة البترون من طايفة المتاولة فتغيير هذا القرار لا يوافق . فاذا تحسن بالارادة صدور الامر الشريف باجراء الفحص المدقق عن الذين يعرفون الكتابة بالطايفة المذكورة سكان القضا . واذا وجد

من به اللياقة باكثر من عباس المرقوم يقدم الاعراض عنه لاعتاب دولته » .

ومثل هذا ولكن أقل اساءة عريضة تقدم بها بروتستانت لبنان من المتصرف في اوائل حزيران من السنة ١٨٧٦ يسترحمون بها ان يكون لهم اعضاء في محاكم لبنان الاولى لان مساحة ارزاقهم اصبحت نحواً من ثمان مئة درهم ولان المال الذي يدفعونه اصبح نحواً من ثمانية وعشرين الفاً ولان عدد نفوسهم ارتفع من ثلاث مئة في السنة ١٨٦٠ الى ١٥٠٠ في السنة ١٨٧٦ فرفض التماسهم لانه وجد مخالفاً لنص النظام الاساسي . وكانت المادة السادسة من هذا النظام تنص بانه اذا قامت دعوى لبروتستانتي او يهودي أضيف الى مجلس المحاكمة الكبير حاكم ووكيل دعاوى رسمي من اهل هذين المذهبين علاوة على الاثني عشر عضواً .

واهم من هذا وذاك واعظم جهل القوانين وقلة رجال الاختصاص فيها ولا سيما ان حكومة الآستانة كانت قد تركت الشرع الشريف في حقلي التجارة والجزاء وان اقدر قضاة لبنان آنئذ الشيخ بشاره الخوري كان فقيهاً بالمعنى الاسلامي القديم لا قانونياً بالمعنى الحديث . ولا يخفى انه لم يكن هنالك اية مدرسة للحقوق خارج الآستانة .

ولعل اكبر اسباب الفساد وعلة العلل فيه كان ذاك النقص في الاخلاق العامة الذي عم الشعب على اختلاف طبقاته واوساطه تلك المطالبة بالحقوق دون اي شعور بالواجب نحو الآخرين ونحو الكل . وهكذا فاننا نرى قائمقام الكورة في اوائل عهد رستم في خريف السنة ١٨٧٣ يشكو مشايخ القرى فيقول انهم « يجمعون الاموال الاميرية ويصرفونها على ذواتهم ثم يلجأون للمحاولة » . ونرى مشايخ الصلح في قضاء البترون يضيعون اختامهم ويصنعون غيرها بدون اي اعلام او استئذان فيقوم المتصرف ويقعد ويأمر بتحقيق دقيق . ونرى المتصرف بعد سبع سنوات من الملاحقة والحض على النزاهة والاستقامة يأمر في اواخر تشرين الاول من السنة ١٨٨٠ بان « من يتوجه بمأمورية وينزل في بيت احد المتداعين او يختلي به على انفراد او يدخل معه بمخابرة سرية راساً او بالواسطة يجازى بالعزل ويحاكم شان المرتكبين والمرتشين » .

الضابطة

ويؤلمنا انه لم يبق من اخبار الضابطة اللبنانية في عهد رستم سوى النزر اليسير . وجل ما هنالك انه كان شديد التعلق بها معجباً بقائدها سليم بك الطرابلسي ايما اعجاب ان من حيث مقدرته او امانته او ولاؤه . وانه خصص لها في مطلع السنة ١٨٧٦ ثلاث مئة وستة وخمسين الف غرش من اموال البقايا لشراء اسلحة جديدة

ونصف مليون لشراء البسة . وانه في العاشر من تموز من السنة نفسها عقد اتفاقاً مع الخواجات أمسلر وهلز في بيروت لاستيراد خمسة آلاف متر من الجوخ الازرق مصبوغ قبل النسج سعر عشرة فرنكات ونصف للمتر الواحد . وانه في العاشر من كانون الثاني سنة ١٨٧٩ ورد الى لبنان من الطوبخانه العامرة في الآستانة الف بندقية مارتينية وثلاثون وينجستر للخيالة وثمانون سيفاً ومئتان وخمسون صندوقاً من « الفشك » . ونراه يأمر بطبع كتب النوتة اللازمة لجوقة الموسيقى وبتجليدها في مطبعة الاميركان في بيروت .

ويستدل من حسابات الضابطة في سجلات المجلس في هذه الآونة ان « شرذمة الدراغون كانت لا تزال باقية في المركز تساندها معظم الضابطة . وان الباقين من هؤلاء كانوا لا يزالون في مراكز الاقضية والنواحي». ويتبين من كتاب ارسله الامير نجيب شهاب قائمقام كسروان في السابع من ايلول سنة ١٨٨٠ الى الشيخ ضاهر الخازن مدير جرد كسروان ان المتصرف قضى بانقاص عدد الضابطة في مراكز النواحي من اربعة الى ثلاثة وبجعل عدد الملتحقين منهم بمركز القضاء ستة وعشرين « بياده وسوارى » : اربعة للحبس وثلاثة للمحكمة والمكتب وغرفة مدير المال واثنان للتلقيح ضد داء الجدري وواحد لنقل البرقيات الواردة وخمسة لتحصيل الرسوم والباقون للدوريات . ويستدل من رسالة اخرى ارسلها الامير سعد خليل شهاب الى هذا المدير نفسه بمناسبة استعفاء ضابطة ناحية الجرد من الخدمة ان هؤلاء كانوا لا يزالون ينتقون من ابناء الناحية نفسها فيرسلون الى مركز القضاء فينظر في الامر ضابط كبير فاما ان يقبلوا فيتمرسوا ويرتدوا اللباس العسكري او ان يرفضوا ويطلب غيرهم : « ارسلتم حنا طانيوس كميد من بقاعتوته ليتعين من اصل ضابطية الناحية فالمذكور وصل وما عجب رفعتلو البيكباشي فهو راجع فوالحالة هذه اسرعوا جداً بارسال انفار بهم اللياقة » .

المجالس البلدية

وعظم على المتصرف الشريف الانيق ما كان يراه من الاوساخ في طرق القرى وأزقتها . وكان سلفه داود قد خص دير القمر دون سواها بمجلس بلدي نظراً لظروفها الخاصة وما حلّ بها من خراب في اثناء السنة ١٨٦٠ فرأى رستم ان ينشىء في غيرها من مدن لبنان وقراه الكبيرة مجالس مماثلة تعنى بترتيب هذه القرى وتنظيفها والمحافظة على الصحة فيها .

وهكذا فاننا نرى اهالي زحلة وجونيه وطبرجا والعقيبة وجبيل والبترون

يتقدمون في اواخر السنة ١٨٧٨ من المتصرف بعرائض يسترحمون السماح لهم بانشاء مجالس بلدية مماثلة لمجلس دير القمر فيحيل المتصرف هذه العرائض الى مجلس الادارة للنظر فيها ولا سيما وانها كانت تتطلب بعض الترتيبات المالية .

وفي الرابع والعشرين من كانون الاول من السنة ١٨٧٨ اتخذ مجلس الادارة القرار التالي :

« رؤي مناسباً ان يتخصص لكل من زحلة وجونيه وجبيل والبترون وطبرجه والعقيبه ثلث ما ينتج من احتساب كل منها ويتسلم الى قوميسيون مخصوص تنتخبه الاهالي من الاشخاص اللايقين المشهورين بالاستقامة وحب التفتيش والاعتناء بخير العموم المبتعدين عن الاغراض الخصوصية وتصدر ارادتكم بتعيينه تحت رياسة قائمقام القضا الذي يعين توقيت اجتماعه وانصرافه .

« ويتكلف هذا القوميسيون بالنظر بالاصلاحات الضرورية العائدة لخير الاهالي . وينظم مضابط بكلما ينظره ضروري تتقدم لساحة مهابتكم متضمنة الرخصة والاستيذان من لدنكم العالي بالاجرا بعد مخابرة مجلس الادارة بها والنظر فيما يكون لازماً . واما الاصلاحات التي لا تتجاوز الثلاث مئة غرش فيصرفونها بمضابط اصولية مجرية من رئيسه بعد مهرها منه ومن الاعضاء كافة بدون رخصة .

« وعند نهاية كل سنة ينظم القوميسيون دفتراً للاعتاب الشريفة يكون حاوياً جميع اعماله وحسابات وارداته ومصارفاته ليحفظ في مجلس الادارة بعد مناظرته » .

وفي اوائل آذار من السنة ١٨٧٩ نجد مجالس هذه المدن والقرى مشكلة كما يلي :

(١) قوميسيون قصبة زحلة : يوحنا فرح المعلوف ناصيف جدعون انطون البريدي مراد مسلّم يوسف جحا حبيب العن نعمه شمعون امين شديد يوسف هاشم .

(٢) قوميسيون قصبة جونيه : جرجس سركيس البواري كنعان العظيمي فارس القزي كنعان البويز منصور ساسين (وطا طبرجه) فرسان القزي (العقيبه) .

(٣) قوميسيون قصبة جبيل : ايوب نخلة طنوس الطويلة ديب باسيل عمر شديد الحسامي حنا نخلة الصياد موسى يزبك (عمشيت) .

(٤) قوميسيون قصبة البترون : ضاهر بك البيطار يوسف ضو فارس نقولا الخباز راجي منصور فارس كنعان الفغالي يعقوب نادر حنا بو ساهب .

وفي العاشر من شباط من السنة ١٨٧٩ اشترع مجلس الادارة قانوناً اساسياً لبلدية زحلة في اربع عشرة مادة :

« المادة الاولى : يتركب قوميسيون بلدي من اعضاء تنتخبهم الحكومة بمعرفة مجلس الادارة من اوجه الاهالي . ويشترط ان يكونوا من اصحاب الاملاك ومن التبعة العلية وان تكون مأموريتهم الى مدة اربع سنوات وخدمتهم فخرية اي بدون

معاش وكل سنتين يصير تبديل نصفهم ويكون لهم رئيس .

« المادة الثانية : يجتمع المجلس المذكور مرة او مرتين في الاسبوع وعند الاقتضا يز اد اجتماعه عن ذلك بدعوة الرئيس . وعند غياب الرئيس ينوب عنه العضو الاكبر .

« المادة الثالثة : لا تجوز المذاكرة في المجلس ما لم يز د عدد المجتمعين عن النصف. وتعتبر اكثرية الآراء . فاذا تساوت يترجح رأي القسم الذي ينضم اليه رأي الرئيس او وكيله .

« المادة الرابعة : ان الرئيس والاعضاء مسؤولون عن حسن جريان معاملات القوميسيون . ويكون احد الاعضاء بصفة كاتب وعضو آخر امين صندوق تحت مسؤولية القوميسيون .

« المادة الخامسة : ان مصارفات البلدية لا يجوز ان تتجاوز الواردات وبقدر الامكان يلزم الاقتصاد . والمبالغ التي تتوفر تسلم الى احد الاعضاء الاكثر امنية تحت مسؤولية القوميسيون . واذا اقتضى يربط بكفالة لكي يصرف عند الشروع بعمل مفيد مهم .

« المادة السادسة : ان وظايف القوميسيون هي المناظرة بالدقة والاعتنا على جميع الابنية وتوسيع الطرق وتنظيمها وتصليح اقنية المياه العمومية وهدم الابنية التي يثبت لدى القوميسيون انها مشرفة على الخراب دفعاً لاخطارها . واقامة الدعاوى على من يلزم وعند الاقتضا للمحافظة على حقوق البلدية . وتنوير المحلات المقتضية ونظافة البلدة الدائمة . وفحص الاوزان والمكاييل والمقاييس . والاعتنا بان يكون الخبز تام الوزن نظيفاً كامل النضج وان لا يكون دقيقه فاسداً . وعدم بيع لحوم الحيوانات العليلة الضعيفة وتغطية اللحوم ضمن دكاكين القصابين باقمشة دقيقة ومنع الذبح داخل البلدة . ومنع بيع المأكولات التي تضر بالصحة . واجراء جميع الوسايل الآيلة لحفظ الصحة العمومية وانشاء اوبخانات في المواضع المناسبة وتنظيفها . وتنظيف جميع الازقة والطرقات . وملاحظة اصحاب الدكاكين لمنع الغش بحق المشترية .

« المادة السابعة : ممنوع مداخلة القوميسيون بالامور التي لا تتعلق به مثل المداخلة بالمال الميري والالتزامات والوظايف المختصة بالضابطة والدعاوى التي هي من متعلقات الحكومة والمحاكم .

« المادة الثامنة : بما ان الواردات المتعينة لمصارفات اصلاحات البلدية يمكن ان لا تكفي ذلك ولاجله يجوز طرح مبلغ ما على اصحاب الدكاكين والبيوت المجاورة للطرق المقصود تنظيمها او المحلات المقتضي تنظيفها .

« المادة التاسعة : على القوميسيون ان يقدم كل ثلاثة اشهر دفتر حساباته الى

مجلس الادارة . وكل سنة يقدم دفتراً عمومياً وغب فحص هذه الدفاتر من المجلس وعرضها على المتصرفية تترجع نسخة منها مصدقة الى القوميسيون لتحفظ لديه .

« المادة العاشرة : ان ضبطية القضاوات ملزومون بايفاء وظيفة مفتشي البلدية . وكلما يجدوه من الامور المغايرة يفيدون عنها القوميسيون . وتتقدم الشكوى للحكومة المحلية .

« المادة الحادية عشرة : ان الاصول الممنوعة بالنظر للقوميسيون هي هذه : طرح الاقذار والاوخام في الازقة والساحات واستعمال اواني نحاسية غير مبيضة في دكاكين الطباخين ومحلات اصطناع الجبن وجريان المياه القذرة وغير القذرة من البيوت والدكاكين على الطرقات ووضع بعض المواد المختصة بالمأكولات وباقي الاشيا على الطرقات نظير افراش وبراميل وزنابيل وسلال وقفف سواء كانت فارغة او ممتلية وما شاكل ذلك من المجاوزة على حدود الدكاكين ووضع كراسي من طرف القهوجية وخلافهم على الطرقات خارجة دكاكينهم ووضع احجار وساير ادوات البنا وما شابه ذلك على الطرقات العمومية حيث ذلك يضر بالمرور وذبح الابقار والعجول والاغنام الضعيفة العليلة وبيع لحوم واسماك فاسدة ومنتنة واثمار غير ناضجة ومأكولات فاسدة وخبز خميرة فاسد او سمن مغشوش واركاض الحيوانات او تركها في الازقة والشوارع ووضع مواد متعفنة في الدكاكين ورمي اوخام الحيوانات في الازقة او بجانب الجدران وفرش جلود طرية امام الدكاكين وترك لغم او قناة ماء مكشوفة . واذا تعذر سد ذلك في نفس اليوم الذي فتح به يجب ان يوقد قنديل ليلاً في ذاك المحل من قبل صاحبه حفظاً للمارين .

« المادة الثانية عشرة : يحق للقوميسيون البلدي لا بل يجب عليه تعيين جزاء نقدي على من بدا منه مخالفة ولكن لاجل التحصيل يلزمه ان ينهي الى الحكومة المحلية التي تجري التحصيلات لحساب البلدية .

« المادة الثالثة عشرة : على القوميسيون البلدي ان يجتهد بتوسيع الازقة وجعلها مستقيمة بحيث انه عند انشاء او هدم الابنية بقرب الطرقات يؤخذ المقدار اللازم الى الطريق .

« المادة الرابعة عشرة : كل من تبدو منه حركة مغايرة لقانونية البلدية وللتنبيهات التي تصدر من البلدية تجري معاملته وفقاً للمواد المحررة في الباب الثالث من قانون الجزاء . واذا كان فعله مما يستوجب الضمان يصير تضمينه على حدة ايضاً الضرر المسبب عنه . والذين لا يقتدرون على دفع الجزاء النقدي المحكوم عليهم به يعاملون بموجب المادة السابعة والثلاثين من قانون الجزاء » .

وأدى انشاء البلديات الى شيء من المشادة المحلية بين الوجوه احياناً وبين العائلات

احياناً اخرى . فهبَّ بنو السكاف في زحلة يحتجون على عدم تمثيلهم في المجلس البلدي وألحوا بوجوب تعيين الياس السكاف عضواً في هذا المجلس . ولكن مجلس الادارة ردّ اعتراضهم قائلاً ان التعيين تمّ وانتهى . واعترض اهالي عمشيت على تشكيل بلدية جبيل مطالبين فيها بدلاً من عضو واحد مبينين ان اكثر عقارات جبيل في الميناء هي لهم . فأقرهم مجلس الادارة فيما ذهبوا اليه وعين عضوين من عمشيت داود يوسف جبور وعساف جرجس ساسين .

وفي السابع من حزيران سنة ١٨٨٠ اتخذ مجلس الادارة قراراً بتشكيل مجلس بلدي لبشري وجعله مؤلفاً من رئيس راجي بك الضاهر مدير الناحية ومن قبلان بك الخوري والشيخ طنوس حنا الضاهر والشيخ سمعان غصيب والشيخ اسعد ابو رعد جعجع والشيخ مسعود حبيب خطار رحمه والشيخ مخايل ناصيف والشيخ فتوح الشدياق وحنا الخوري فخري ومنصور الخوري ويوحنا مخايل عريضه اعضاء . فاعترض راجي بك مبيناً ان بين هؤلاء ستة لا يقيمون في بشري بعضهم في اوروبة والبعض الآخر في بعلبك وجوارها وواحداً منهم منصور الخوري مجهول الهوية غير معروف . فاضطر مجلس الادارة ان يتقبل اعتراض مدير بشري ووجيهها وان يعمل بمشورته فيعين لعضوية البلدية كلاً من الشيخ جبرايل جرجس الخوري والشيخ اسعد امين الخوري والشيخ عبد الاحد جعجع والشيخ روحاني غصيبه وعبد الاحد عريضه وبشاره الخوري .

وفي السادس عشر من تشرين الاول من السنة نفسها وبناءً على طلب اهالي بسكنتا رأى مجلس الادارة ان « حاصلات بسكنتا من قصابه ومكيول » بلغت ثلاثة آلاف غرش وانها كافية لتشكيل مجلس بلدي فأقر بالاجماع تعيين كل من جبران الخوري وساسين ابو ناصر وساروفيم الخوري وحنا اسعد موسى وحنا حرب وابراهيم يوسف ابو حيدر ومخايل نصرالله ايوب وابراهيم كرم اعضاء برئاسة مدير الناحية . وهكذا دواليك في عاليه فسوق الغرب وغيرهما حتى أصبح في كل قرية كبيرة مجلس بلدية يعنى بامورها .

ويستدل من قرارين اتخذهما مجلس الادارة احدهما في الثالث والعشرين من ايار سنة ١٨٧٨ والثاني في الثالث من آب سنة ١٨٨٢ ان مجلسي دير القمر وزحلة أهملا الواجبات الموكولة اليهما فاستحقا تكدير مجلس الادارة والمتصرف :

« صارت مطالعة دفتر محاسبة بلدية قصبة دير القمر من بداية حزيران سنة ١٢٨٥ (١٨٦٩) لغاية مارت سنة ١٢٩٤ (١٨٧٨) البالغ مجموع وارداتها ٢٠٢٤٧٠ غرشاً ومصارفاتها بالمدة المحررة ١٩١٥٩١ غرشاً وموجود صندوقها ١٦٧٣ غرشاً وذمة مدير مال سابق سليم افندي فرام ٩٢٣٥ . وحيث وجود الذمة المحررة على سليم

المرقوم مما تستوجب مسؤولية التقصير على اعضاء البلدية نظراً لعدم حرصهم وتدقيقهم في ضبطها حال كونها حق عموم اهالي القصبة وققرائها الممنوحة لهم من ابتدا تشكيل المتصرفية بنوع ممتاز عما سواهم من محلات الجبل مساعدة لاحوالهم التي اوجبت النظر . ثم وجد جملة نفدات بالمصارفات بمدة سليم افندي المذكور بمبالغ ليست بيسيرة باسم مصارفات متفرقة من دون تبيان افرادها مع ان ضروري بيان ذلك لاجل النظر بصحتها . فبناء على ذلك كله ومن كون الاعضا المرقومين لهم مدة سنين بهذه المامورية ولم يجروا اتقانها اللايق فحق المصلحة يستدعي تغييرهم وطلب تبيان مفردات المصارفات المار ذكرها منهم ويصير انتخاب اشخاص من خلافهم بمعرفة وجوه البلدة من الاشخاص الغيورين على صوالح المحل وضبط وعدم تفريط واردات البلدية كيما تصرف في اللوازم الضرورية لانتفاع عموم اهالي البلدة. كما وذمة سليم افندي فرام يستلزم تحصيلها منه وحفظها في صندوق البلدية مع ساير الواردات وقت بوقت ويتحرر دفتر محاسبتها في ختام كل سنة ايراد ويصرف مصادق عليه من اعضاء البلدية وكاتبها وامين الصندوق ومدير القصبة . ويتقدم لاعتاب المتصرفية لتصير مطالعته والمصادقة عليه من مجلس الادارة بحسبما سبقت العادة » .

وفي صيف السنة ١٨٨٢ اكب المجلس الاداري على درس الجداول التي قدمها قوميسيون بلدية زحلة عن اعماله في خلال السنتين ١٨٨٠ و ١٨٨١ ونظر في الاصلاحات المندرجة في هذه الجداول فوجدها قليلة الاهمية . واتضح له ان اكثر مصارفات القوميسيون أنفقت معاشات لكاتب ومفتش وبوليس ولبدل اشتراك في جريدة لسان الحال . ووجد المجلس ايضاً ان واردات القوميسيون لم تتفق واهمية زحلة . ولفت نظر اعضائه رسم التمغة فوجد ان مجموعه لا يتجاوز مئتي غرش في الشهر . فعظم عليه هذا اذ لم يعقل لديه ان يذبح في زحلة اقل من عشرين راساً في اليوم . ولذا :

« رؤي مستحسناً الغاء وظيفة الكاتب والبوليس وابقاء مفتش موافق لهذه الخدمة وادارة اعمال القوميسيون الكتابية بواسطة احد اعضائه العارفين بذلك . واذا أحب الاعضاء ان يعتفوا من وظيفة العضوية فحينئذ سينتخب عن الامر الكريم اعضاء خلافهم من ابناء القصبة من اصحاب المعارف والحمية والغيرة الوطنية » . وانهى المجلس قراره هذا بان اقترح ان يقوم مهندس المتصرفية الى زحلة « لتخطيط ما يلزم اصلاحه عملاً بمقتضى اصول الهندسة » .

وبلغ دخل بلدية دير القمر في شهر كانون الثاني من السنة ١٨٧٩ ٣٣٧٦٨ غرشاً ولعله كان شهراً قياسياً ولكن دخل سائر الاشهر في عهد رستم لم يقل عن ال ٢٥٠٠٠ غرش . وليس لدينا ما يخولنا تقدير دخل بلدية زحلة . وهنالك اشارة الى ان دخل

بلدية جبيل منذ بداية كانون الاول سنة ١٨٨١ حتى غاية شباط سنة ١٨٨٢ كان ١٢٠٥ غروش وبلغت مصارفاتها في المدة نفسها ١٩١١ غرشاً . ونرى مجلس الادارة يقر بلدية بشري في جعل رسوماتها عند انشائها ٤٠ بارة عن شنبل الحنطة وخمسة غروش عن ذبح راس من البقر و ٦٠ بارة عن ذبح رأس من الماعز و ١٠ بارات عن كل « شقلة قبونه » .

الصحة

وكانت قد بدأت الحكومات المحلية في جميع انحاء السلطنة العثمانية تشعر باهتمام الحكومة المركزية في الآستانة بأمور الصحة العامة إن في جمع الاحصاءات الصحية او في توزيع التعليمات الضرورية او في مكافحة الاوبئة كالجدري والطاعون والهواء الاصفر . وكان من حسن حظ لبنان ان ظهر في ربوعه مدرسة طبية حديثة للاميركيين في بيروت (١٨٦٦) كانت الوحيدة في السلطنة بعد طبية الآستانة وان تولى الحكم فيه رجل مثقف حازم مستعد كل الاستعداد لتنفيذ اوامر « نظارة الطب الجليلة » .

وكان اول ما تلقى المتصرف من هذه الاوامر طلباً صدر عن نظارة الطب في الثالث والعشرين من تموز ١٨٧٣ يقضي بتقديم بعض الاحصاءات عن الصيدليات في لبنان : عددها واستعدادات اصحابها وامكانياتها . فأحال المتصرف هذا الطلب على مجلس الادارة . فأجاب المجلس بعد الاطلاع على التقارير الواردة من القائمقامين ان عدد الصيدليات واحد واربعون وان بعض اصحابها قانونيون وبعضهم مارس هذا الفن ممارسة ولكنهم لا يحملون اية شهادة قانونية . ومما قاله المجلس في هذا الصدد ان معظم الاهالي يستحضرون ما يلزمهم من الادوية من « اجزائيات » المدن المجاورة وبالتالي وعدد الموجود منها في الجبل كافٍ للقيام بحاجات اهله .

وفي اواخر ايلول من السنة نفسها توسّم الطبيب الاول حبيب افندي الخوري الخير في المتصرف فاندفع في سبيل الاصلاح وطلب بعد موافقة المتصرف الى مجلس الادارة فرض غرش واحد على كل عنق وكل درهم ليتمكن من تعيين طبيب قانوني لكل قضاء وانشاء صيدلية قانونية في مركز كل قضاء . ولكن المجلس رفض ذلك مدعياً بانه غير جائز .

ونرى الطبيب جورجي افندي الخوري منهمكاً في خريف السنة ١٨٧٤ بتلقيح الاولاد في قضاءي المتن وزحلة ضد الجدري كما نرى المجلس منهمكاً في صيف السنة ١٨٧٥ بطبع الاعلانات الصحية لمكافحة الهواء الاصفر وبالالحاح على المتصرف

بوجوب اقامة الكرنتينة بين الجبل وبين بيروت ولا سيما وانها خففت من شدة انتشاره قبلا عندما اقيمت في البقاع على حدود الشام .

ولم تسمح موازنة الجبل بتعيين طبيب لكل قضاء فارتأى المتصرف في صيف السنة ١٨٧٩ ان يصار الى تدريب عدد من رجال الضابطة في فن تلقيح الاهالي ضد الجدري عن يد حبيب افندي طبيب المركز والحاقهم بمراكز الاقضية للقيام بهذا العمل المفيد وهكذا فاننا نرى في صيف السنة ١٨٨٠ الامير نجيب شهاب قائمقام كسروان يشير الى ان اثنين من رجال الضابطة لديه منهمكان في اعمال التلقيح ضد الجدري .

وهنالك اشارات غامضة في سجلات مجلس الادارة في اثناء ولاية رستم الى خستخانة المركز والى الطبيب المشرف عليها ولعلها اختصت بمرضى الضابطة فقط .

وفي صيف السنة ١٨٧٩ نلمس اهتماماً بنقاوة المياه من اعضاء مجلس الادارة فانهم اتخذوا في التاسع عشر من تموز قراراً اشاروا فيه « الى الاوساخ والديدان والحيوانات النقيعية في قناة مياه بتدين » ورجوا المتصرف ان يأمر باصلاح هذه القناة اصلاحاً « محكماً » ! وكان لهم ذلك اذ امر المتصرف فوراً بابتياع قساطل لهذه الغاية قدمها التاجر الاسكوتلاندي في بيروت المستر سمرفيل .

وكان المتصرف قد لمس اضراراً صحية لحقت بالمساجين من اقامتهم في سجن مركزي لم يستوف الشروط الصحية . فعقد النية على انشاء سجن جديد ورأى ان يقيمه محل سراي الامير خليل بالقرب من سراي الحكومة في بتدين . فأوعز الى اعضاء مجلس الادارة ان يدرسوا اقتراحه ويوافقوا على الانفاق اللازم . فاتخذ المجلس قراراً بهذا المعنى في الثلاثين من تموز سنة ١٨٧٩ :

« انه لما كانت افكار حضرة دولتلو افندم متصرف الجبل رستم باشا المعظم متجهة نحو عمران البلاد وخير جميع اهاليه بدون امتياز وكان حبسخانه مركز متصرفية بتدين رطباً ناطياً من جراء تسلط المياه على جدرانه وارضه لوجوده لصيق حائط تعلوه اراضي راكبتها المياه ولما كان غير ممكن اصلاحه نظراً لرداءة مركزه وكان وضع المسجونين فيه مما ينشو عنه اضرار جسيمة تضر بصحتهم كما شوهد ذلك كل هذه المدات السالفة لعدم انقطاع الحميات منه . وحيث ارتأت دولته الفائقة وجوب النظر بوجوب انشاء حبسخانه موافقة لحالة كل صنف منهم وكان ذلك من جملة مآثر دولته الخيرية . ولما كان لا يوجد محل قريب لسراي الحكومة به المناسبة لذلك اكثر من الدار المعروفة بدار حيوة المرحوم الامير خليل الشهابي نظراً لاتصاله بسراي الحكومة . ومن كون وجدت هذه الدار على ملك كل من سيادة المطران بطرس البستاني وسيادة المطران يوسف الدبس وعزتلو الامير سعد خليل ونظراً لقبول

المالكين البيع والثمن ٤٢٤٠٠ قرش وقد صدر امره بتحرير صكوك الشراء من المالكين بموجب الاصول ولاسم متصرفية لبنان الجليلة بدائرة الحقوق الموقرة » .

وتم البيع كما تقدم وقبل الشراء عن الحكومة اللبنانية وكيل رئاسة المجلس الامير امين منصور وبوشر بالعمل حالاً باشراف مهندس المتصرفية وحبيب افندي يزبك .

وفي السادس من شهر شباط سنة ١٨٨١ وافق المتصرف على التحاق الطبيب الشيخ سجعان الخازن بخدمة الحكومة . وكان الشيخ سجعان قد درس الطب في مصر في مدرسة القصر العيني فاضطر ان يطلب موافقة نظارة الطبية في الآستانة على ممارسة مهنته .

وحارب المتصرف التدجيل وأحب ان يمنع كل من لم يحمل شهادة قانونية من ممارسة المهنة . ولكن عدد الاطباء القانونيين كان لا يزال ضئيلاً فاضطر ان يغض النظر بعض الشيء . ولكنه منع شهادة هؤلاء امام المحاكم والدوائر الرسمية . فاننا نقرأ للامير نجيب شهاب قائمقام كسروان انه لا يقبل عذراً صحياً ممن يتغيب عن المحاكمة « الا بشهادة طبيب تلميذ مدرسة » ! – ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٨٠ .

ولدى تسلمه الاحكام لمس رستم تراكماً في الديون على صندوق المتصرفية بعضها للبنك العثماني والبعض الآخر للمامورين والضابطة معاشات متأخرة تأخراً محسوساً .

محاسبة امين الصندوق

وكان حبيب افندي ثابت قد تسلّم امانة الصندوق منذ اوائل عهد المتصرفية ولم يجرِ عليه حساباً دقيقاً فأمر المتصرف الجديد بمحاسبته منذ السنة ١٢٧٧ مالية (١٨٦١ -١٨٦٢) حتى غاية ايار من السنة ١٢٨٩ (١٨٧٣-١٨٧٤) وبعد الفحص والتدقيق تبين انـه دخل عليه في هذه المـدة ٧١,٢٤٠,٣٠١ غروش وانـه صرف من يده ٧٠,٨٠٤,٦٨٨ غرشاً وان الباقي بذمته بلغ ٤٣٥٦١٣ غرشاً . وبعد التدقيق في حسابات السنة ١٢٨٦ مالية أضيف الى هذا الباقي مبلغ آخر قدره ٢٨٥٧٦٣ غرشاً بحيث اصبح مجموع الباقي بذمته ٧٢١٣٧٧ غرشاً . ومثل امين الصندوق امام مجلس الادارة في جلسة رسمية وأقر « طائعاً مختاراً » ان هذه المبالغ تشكل ديناً شرعياً يتوجب عليه اداؤه . وتبين ايضاً ان بعض اوراق الصندوق فقدت فاغتاظ المتصرف وأمر بعزل حبيب ثابت وملاحقته قانونياً . فحجزت الحكومة اللبنانية جميع املاكه وطرحتها بالمزاد العلني . واستبدل المتصرف المحاسبهجي القديم اسماعيل افندي بجمال بك .

صرف بغير حساب

واتضح لرستم من التدقيقات التي أمر باجرائها ان سلفه فرنقوانفق في اثناء حكمه ٣٢,٢٠٨٠٠٠ غرش ولم يجبِ سوى ٣١,٤٠٢٠٠٠ غرش وانه اضطر في صيف السنة ١٨٧١ ان يرسل قوة من الضابطة الى الاقضية لجمع الاموال المتأخرة وان هذه احضرت شيوخ القرى الى مراكز الاقضية وهددت بان الذي لا يحضر « ينوضع عليه المباشرة من الآغا مع ثلاثة خيالة ولا ينتقلون من قريته الى غيرها الا بعد احضار كوجان الخلاص » نقول اتضح لرستم ان سلفه فرنقو فعل كل هذا ولكنه لم يفلح

فخشي ان تتراكم البقايا سنة بعد سنة فتصبح في مستقبل قريب « ذمة جسيمة على صندوق لبنان الى الخزينة الجليلة » .

معالجة الموقف

لمس المتصرف الجديدهذا النقص الفاضحفأمر بادىء ذي بدء بحسم نسبة معينة من معاشات الموظفين لسد النقص في المال المطلوب بلدار السعادة . وتوج قائمة الحسم هذه بقطع خمسين بالمئة من معاشه . ولجأ الى تنقيص عدد رجال الضابطة توصلاً للغاية نفسها ثم أمر « باستخراج دفتر بالوارد على صندوق المتصرفية بوجه الامانة من المهمولات التي هي حق الاهالي ولا علاقة للخزينة الجليلة بها » وذلك ابتداء من السنة ١٨٦١ حتى السنة ١٨٧٤ وبعد ان تيقن من كمية الدخل من » رأى العدل ان يخصص الفائض من مال تعداد الماعز لتسديد ما يتعذر تحصيله سنوياً من الاموال الاميرية » .

وحاول من ناحية ثانية ان يحسن الجباية فأدخل نظام القوجانات الفردية « لتحاشي الارتباكات في تحصيل الاموال » وحتم على شيوخ القرى والمختارين ان يجمعوا وجوه القرية ويوزعوا بمعرفتهم الاموال المطلوبة وان يدونوا ما توصلوا اليه بدفتر خاص يوقعونه للموافقة ويسلمونه الى الشيخ للجباية .« وعلى الشيخ او المختار عندئذ ان يعطي سند وصل من اصل القوجان المسلم له » يبين فيه القرية والمديرية والقضا وكمية دراهم الارزاق وعدد الانفار وما اخذه منهم .

وهاله التدني في دخل القرى الاميرية في الكورة اذ اصبح في بعض الاحيان اقل من رسم الخراج والفلوحية المرتبين على هذه القرى اللذين لا يجوز تعديلهما . فارسل البعثة تلو البعثة للفحص والتدقيق وعزل الشيخ بعد الشيخ وانتقى افضل الضباط وصفوف الضباط للاشراف على المواسم عند نضوجها .

وكان الفلاح اللبناني لا يزال رازحاً لذهاب ما كان بيده من جراء الحوادث في سنتي ١٨٦٠ و ١٨٦٦ فنزح من كثر اعياؤه وهزاله والتجأ الى سهول الداخلية وصعب تحصيل اي شيء منه . وجاء موسم الحرير ماحلاً محلاً نادراً في ربيع السنة ١٨٧٦ وصيفها . وحل الجراد ضيفاً ثقيلاً في ربيع السنة ١٨٧٧ . ودارت رحى الحرب في البلقان في الوقت نفسه وكادت تصبح حرباً عامة فارتفعت الاسعار واشتد التكالب . وهكذا فان المتصرف لم يوفق الى زيادة التحصيل بالقدر الذي كان يتوخاه . وبقيت البقايا المتأخرة منذ السنة ١٨٦١ حتى السنة ١٨٧٨ كما يلي :

القضاء	اصل الاموال	المتحصل	الباقي
المتن	٨٣٤٦٧٨	٧٨٠٤٢٤	٥٤٢٥٤
دير القمر	٣٨٠٦٩	٣٥٨٦١	٢٢٠٧
الشوف	١١١٨٠٧٣	١١١٦١٩٣	١٨٨٠
جزين	٢٣٢٣٠٦	٢٣٠٦٤٢	١٦٥٨
زحلة	١٥٢٨١٠	١٣٢٨٥٥	١٩٩٥٥
كسروان	٨٢٤١٩٣	٧٣٧٦٧٢	٨٦٥٢٠
البترون	٨٨٢١٠٤	٨١٠٠٧٤	٧٢٠٢٩
الكوره	١١٠٨٣٦٨	٤٧٨٤٣٧	٦٢٩٩٣٠

ولدى التدقيق في حسابات ١٨٧٨–١٨٧٩ تبين ان نفقات دائرتي الداخلية والمالية بلغت ٢٦٥٦٩٠٨ وان ما دفع منها لم يتجاوز ال ١٩٤٢٦٧١ فبقي متأخراً قيد الدفع ٧١٤٢٣٧ غرشاً . وبلغت نفقات العدلية اللبنانية في هذه السنة نفسها ٤٥٣٩٤٨ ولم يدفع منها سوى ٢٦٥٣٥٢ بحيث بقي متأخراً قيد الدفع ٨٨٥٩٦ وقل الامر نفسه عن الضابطة اللبنانية . فان مجموع نفقاتها في هذه السنة بلغ ٣٠١٦٤١٨ ولم يدفع منها سوى ٢١١٧٩٥٨ فبقي للدفع في السنة التالية ٨٩٨٤٧٠ غرشاً .

المشادة بين المتصرف والمجلس

وفي خريف السنة ١٨٧٥ تعطف السلطان عبد العزيز على رعاياه فترك جميع البقايا الاميرية الباقية على ذمة الاهالي العاجزين المستوطنين في ظل حماه حتى غاية السنة ١٢٨٨ مالية — غاية شباط سنة ١٨٧٣ وأعلن رسم نص الفرمان مبشراً ثم عاد فعدل عن ذلك . فالتأم المجلس في الرابع والعشرين من حزيران من السنة ١٨٧٦ نفسها واتخذ القرار التالي مخاطباً به المتصرف :

« ان عبيدكم هؤلاء بعد نهاية ايام الفرصة قد عدنا من اوطاننا الى المركز المتصرفي وصدورنا وقلوبنا موعبة حزناً وغماً نظراً لما شاهدناه من تعاسة حال عبيدكم الاهالي من جراء محل موسم الحرير الفائق الحد والعادة فضلاً عن تغرقهم بالديون الماضية وبينما كنا منتظرين حلول ركابكم للتجاسر باعراض هذه المعلومات اذ احيل لنا دفاتر محاسبة القضاوات عن سنة ١٢٩١ لاجل المصادقة عليها . وأمرنا بسرعة المباشرة لعمل محاسبة دار السعادة عن السنة المذكورة . ومن كون الدفاتر المحررة لم تزل حاوية البقايا لغاية سنة ١٢٨٨ التي نالت منحة العفو من المراحم الشاهانية وكم من مرة اخذنا وعدكم الصادق بوجه قطعي للمساعدة على شطبها ورفعها من الدفاتر .

وقد ظهر لنا من عزتلو وكيل رياسة المجلس الشيخ عيد حاتم خلاف ما كنا نتعشمه حيث افاد ان دولتكم امرتم ان البقايا القديمة ينظر بايجابها انما البقايا الجديدة بمدة المتصرفية لا بد من تفريعها وتمييز ما كان من صنف الاغنيا والمقتدرين والوقوفات والملتزمين . والآن نكرر استرحام جميع عبيدكم اللبنانيين بشطب البقايا القديمة والتي بمدة المتصرفية اذ ليس في لبنان أحد من صنف التجار بل باجمعهم من امراء واصحاب اوقاف وخلافهم ينتظروا حاصلات املاكهم ليقتاتوا منها » .

ولم يرق هذا لرستم فوصم اعضاء المجلس « بالغباوة والتعنت ومخالفة الاوامر » فاضطروا ان يثابروا ويلحوا بوجوب الاعفاء .

وأراد المتصرف ان يفرض رسوماً خاصة على الوثائق « والاشيا السايرة التي يصير احضارها على المحاكم للتسجيل » وأصدر اوامره بذلك الى القائمقامين والقضاة وكتاب المال في الاقضية فاعترض المجلس على قرار المتصرف واشار الى فقر الاهالي والى اعفائهم من مثل هذه الضرائب بموجب المادة الخامسة عشرة من نظام لبنان الاساسي كما أشار الى نص المادة الثانية عشرة وأبان انها تبحث في قيد الصكوك ولكنها لا توجب فرض ضريبة عليها . وخلص المجلس الى القول : « وعدالة دولته مشهورة وافكاره الكريمة قد احاطت علماً في احوال اهل الجبل وما هم عليه من الاحتياج والديون المتراكمة . فالذي رؤي اصدار الامر الشريف الى القائمقامين بالغاء ذلك وابقاء الحال كما كان منذ اول عهد المتصرفية » .

الضرائب السلطانية المستحدثة

وكانت حكومة الباب العالي لا تزال منهمكة بالتجديد والتنظيم والتشريع تعمم على الولايات وبينها متصرفية لبنان الممتازة القانون تلو القانون وتدفع بالمذكرة اثر المذكرة . وهكذا فانها في اواخر صيف السنة ١٨٧٣ أمرت بوجوب فرض عقوبة مالية على كل من يُمسك عنده دخان مهرب . فاتخذ المجلس في الرابع من ايلول من السنة نفسها قراراً جاء فيه انه « لا يوجد في لبنان محلات يوضع فيها التوتون بقصد التهريب من الكمرك بل ان الذي يزيد عن مصروف اصحابه يباع في المدن المجاورة مثل بيروت وطرابلس وصيدا ويؤخذ كمركه في كمارك المدن من اصحابه » .

وفي اوائل آذار من السنة ١٨٧٤ كتبت نظارة رسومات بيروت تستعلم رسمياً من حكومة لبنان عن كيفية بيع الاوراق الصحيحة داخل حدوده . فافاد المجلس انه بموجب نظام لبنان الاساسي « مراجعة متصرفية الجبل في ساير المواد تكون راساً مع الباب العالي . ولذا لا يكون من المناسب استحضار هذه الاوراق الى الجبل من نظارة

رسومات بيروت بل راساً من الباب العالي » .

وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه أوجبت نظارة رسومات بيروت فرض ضريبة على المواد التي تصنع منها القوارب في جونية وجبيل والبترون كما أوجبت دفعها لرئاسة ليمان بيروت . فأشار المجلس الى نظام لبنان الاساسي والى اعفاء اهاليه من مثل هذه الرسومات وانه منذ القدم لم يدفع اللبنانيون شيئاً من هذا .

وفي الثامن عشر من نيسان من السنة نفسها ١٨٧٤ ردّ المجلس الاداري على أمر سام صدر عن مقر الصدارة العظمى في الثاني عشر من آذار من السنة نفسها بتنظيم ادارة الدخان في الممالك المحروسة نقول ردّ المجلس فاشار الى نظام لبنان الاساسي الذي قضى بتحديد المال المفروض والى فقر لبنان وضآلة منتوجه من الدخان والى ان مسح الاراضي اللبنانية شمل زراعة الدخان وانه لدى بيع الدخان اللبناني في المدن المجاورة يدفع اصحابه الرسوم المفروضة . ثم دوّن المجلس رجاءه الا يطبق النظام الجديد في لبنان .

وكانت الحكومة العثمانية قد لجأت الى اقتراض المال داخلاً وخارجاً لسد العجز في موازناتها . وتعهدت في السنة ١٨٦٢ بان تؤمن دفع اقساط دين اقترضته في تلك السنة من ضرائب فرضتها على التبغ والملح وعلى معاملات التسجيل . وحتمت استعمال اوراق متموغة في جميع المعاملات الرسمية سُميت في بعض الاوساط الاوراق الصحيحة . وقيل عنها ايضاً اوراق التمغة . وكان الدخل من هذه الاوراق قد ارتفع من ثلاثة ملايين ونصف المليون من الفرنكات في السنة ١٨٦٣–١٨٦٤ الى احد عشر مليوناً ونصف المليون في السنة ١٨٧٤–١٨٧٥ .

وحاول فرنقو باشا في منتصف عهده في لبنان ان يوجب استعمال « الاوراق الصحيحة » ولكنه عاد فرؤف وحصر استعمالها في المعاملات الرسمية الجارية في بيروت وطرابلس وصيدا بين اللبنانيين وبين تجار هذه المدن ومراجعها الرسمية .

وفي ربيع السنة ١٨٧٥ قام رستم باشا ينفذ اوامر الباب العالي فأوجب هذه استعمال هذه الاوراق في جميع المعاملات الرسمية داخل لبنان وفي الاراضي المتاخمة له فاعترض مجلس الادارة على هذه الاوامر ورجا المتصرف ان يعيد النظر فيما أصدره من اوامر في هذا الموضوع :

« يعرض هؤلاء العبيد انه مقدماً في الخامس من جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ وفي السابع والعشرين من ايار سنة ١٢٩١ (الثامن من حزيران سنة ١٨٧٥) تجاسرنا بتقديم عريضة لاعتابكم تتضمن بيان بعض افكار مستنتجة من افكار عموم عبيدكم اهالي لبنان عما يتعلق بمادة الاوراق الصحيحة الصادر الامر السامي باجراء تعاملها في الممالك المحروسة الذي بناءً عليه كانت قد صدرت اوامركم الكريمة وقتئذٍ

الى قائمقامي قضاوات الجبل دون مخابرة عبيدكم العاجزين بحسبما كنا نتعشم ان ننال ذلك من لدنكم . واسترحمنا حينئذ ان تتنازلوا ناظرين لمساعدة عبيدكم اللبنانيين بالاسترحام من لدن العواطف الشاهانية باعفايهم من هكذا حوادث فلم نتشرف عن امركم بجواب لا شفاهي ولا رسمي بنوع جعلنا مكسوري الخاطر ومشغولي البال . ملاحظين في ان دولتكم اعتبرتم ان مجاسرتنا بتقديم تلك الافكار لديكم هو وجه فضولي الى انه قد تشرفنا الآن بمطالعة امركم الشريف الصادر اعلاناً الى المأمورين رقم ١٤ حزيران (ش) سنة ٢٩١ المعلن مآله الوسيم انه من اكبر واجبات مأموري الحكومة ان يكونوا نموذجاً لغيرهم في الرضوخ لقوانين البلاد ونظاماتها لانه في الواقع اذا كان اولئك العارفون بالنظامات الموكول اليهم اجراؤها وانفاذها كل بقدر مأموريته لا يمتثلون احكامها فكيف يتصور لهم ان يقيدوا الاهالي بحفظها واتباعها . وبناءً عليه ترومون دولتكم ان يكون جميع المأمورين في كافة معاملاتهم حافظين نظام الاوراق الصحيحة بحيث تكون كل السندات التي يمضونها والوصولات التي تعطى لهم او يعطونها لغيرهم محررة على اوراق مدموغة تناسب القيمة . وكذلك صكوك الاجارة اذا اجروا بيوتهم تتحرر على الاوراق المخصوصة بذلك .

« افندم ان عبيدكم هؤلاء كما اعرضنا قبلاً والآن مستعدون بالا نخالف اوامر دولتنا العلية واوامر دولتكم غير اننا نرى انفسنا مجبورين بان نكرر الاعراض لديكم مسترحمين بان تتنازلوا بامعان النظر والحلم . فدولتكم تأمروا بان واجبات المأمورين ان يكونوا نموذجاً لغيرهم بالرضوخ لقوانين البلاد ونظاماتها وهذا هو جل ما كررنا الاسترحام فيه للمحافظة عليه ومسيولين عنه كما هو مصرح في المادة الاولى من نظامنامه جبل لبنان . والنظامات المشار اليها تعطي امتيازاً مخصوصاً الى اهاليه فلا تلزمهم الا لدفع ثلاثة آلاف وخمسماية كيس وعند مساعدة الاحوال يجوز ابلاغها الى السبعة آلاف كيس وانه يجب ان حضرت ولي نعمتنا الدولة العلية تحافظ على حقها هذا المعلوم كما مصرح في المادة الخامسة عشرة . ولا يظهر ان الاوراق الصحيحة هي من نظامات الجبل وقوانينه ولا جميع الحوادث الجارية في الممالك المحروسة لان الجبل مستثنى منها من المراحم الشاهانية . وهذا الامتياز قد صار وضعه بالعمل والاجراء منذ ابتداء المتصرفية فضلاً عن انه منذ القديم والاعوام الغابرة التي لايعرف بدءها نايلاً الامتيازات من المراحم الملوكانية عن باقي الممالك المحروسة .

« نعم انه في اواسط مدة المرحوم فرنقو باشا حاول ان يجري شيئاً من الاوراق الصحيحة فلم يتم معه ذلك الا في اوراق الكمبيالات التي يتعامل بها الجبليون مع اهالي المدن واكثر الاحيان يضطرون نظاماً لتقديمها لمحكمة التجارة في بيروت خارجاً

عن لبنان . كما واوراق العرضحالات التي كانت تتقدم للمركز فكان المرحوم المتصرف لا يقبلها الا ان تكون على ورقة صحيحة . وبعض احيان أعطى أوامر الى القائمقامين لادراج هكذا اوراق عرضحالات من اصحاب الدعاوي . وعندما نظر المشقة على الاهالي الفقرا وزيادة التكاليف ومس النظام رجع عن اوامره السابقة باوامر جديدة بمنع اوراق العرضحالات المدموغة وأمر القائمقامين بقبول عرضحالات الاهالي على أوراق بسيطة .

« فلأن اتمام امر دولتكم باجرا الاوراق الصحيحة الجديدة المتفرعة الاجناس هو فوق استطاعة هؤلاء العبيد لانه ينافي امتياز الجبل الممنوح من الاحسانات الملوكانية الذي لولاه لكانت جميع الحوادث المتنوعة الجارية في الممالك المحروسة جرت في لبنان من ابتدا تشكيل المتصرفية . وكم من مرة صدرت أوامر عمومية بهكذا حوادث على جميع المملكة وصار شرف صدور نسخة منها الى المتصرفين السابقين ولم يجريا ايجابها سنداً على الامتياز الممنوح للجبل .

« فبناءً على ذلك ومن كون دولتكم بمنه تعالى أوفر حكمة واشهر عدلاً من المرحومين المشار اليهما وذاتكم البهية هي القناة التي نستقي منها مياه المراحم من الابحر الشاهانية التي نتعشم ان لا يقل فيضانها السابق عن عبيدها اللبنانيين الفقرا الذين هم الآن في اسوأ حال نظراً لتغرقهم بالديون التي بالكاد كامل ارزاقهم تسددها ومحل مواسمهم في هذه السنة التي قلما تفي مال الويركو المطلوب منهم فنسترحم من عميم حلمكم الاخذ بيد عبيدكم ورفع احداث هكذا اقلام عليهم تفضي بهم الى كمال الاستغراق وتمس امتيازاتهم مساً بيناً . وحاشا ثم حاشا ان نكون بايام دولتكم خسرانين شيئاً مما نلناه من العواطف الشاهانية » .

وهكذا فاننا هذا نرى المجلس يلوم المتصرف لفرض ضرائب جديدة « بدون مخابرة عبيده العاجزين » ويذكره بوجوب التقيد بمنطوق النظام الاساسي والمحافظة على الامتيازات التي تضمنها هذا القانون في حقل فرض الضرائب وجبايتها . فيضطر المتصرف ان ينزل عند رغبات ممثلي الشعب اللبناني ويكتفي رستم باشا بان يستعمل اللبنانيون الاوراق الصحيحة في معاملاتهم الرسمية في اراضي الولاية خارج حدود لبنان .

الضرائب وأسعار العملة

وتحفظ لنا سجلات مجلس الادارة خلاصة أمر صدر عن « رياسة الوكلا المعظمة » مؤداه انه ابتداءً من مارت سنة ١٢٩٦ (١٨٨٠) كان على الحكومة اللبنانية ان تجبي

الليرة العثمانية بسعر مئة غرش والريال المجيدي بسعر ١٩ غرشاً وانها كانت تقبض الليرة العثمانية قبل هذا التاريخ بسعر ١٢٣ غرشاً والريال المجيدي بسعر ٢١ غرشاً .

المتصرف وصلاحيات المجلس المالية

واشتد حرص المجلس على صلاحياته المالية وتزايد اهتمامه بها حتّى بلغ حد المشادة . ففي منتصف ايار من السنة ١٨٨٣ علت اصوات الضابطة بالمطالبة برواتبهم المتأخرة منذ نهاية شباط . وكان المتصرف شديد العناية بهم عطوفاً عليهم رؤوفاً فاستدعى المحاسبهجي اليه وألح عليه بوجوب الدفع . فأبان المحاسبهجي ان رواتب جميع الموظفين متأخرة ايضاً وانه ليس في الصندوق سوى مبلغ قليل يكاد لا يكفي لدفع رواتب الضابطة عن شهر واحد . فأمره المتصرف بدفع هذا المبلغ الى الضابطة لأنهم اشد الموظفين حاجة . ففعل . فاعترض المجلس على الدفع « بدون موافقته » وحمّل المحاسبهجي مسؤولية عمله . وأدى الامر الى مشادة عنيفة بين المجلس وبين المتصرف اليك تفصيلها كما جاءت في سجلات المجلس :

« فكتب المتصرف الى الامير سعد خليل وكيل الرياسة بانه سيشرف المجلس بحضوره يوم الثلاثاء في الخامس من حزيران سنة ١٨٨٣ ليترأس بنفسه الجلسة وذلك في الساعة الخامسة والنصف مساءً . وما ان فعل حتّى وجد وكيل الرئاسة واكثرية الاعضاء غائبين . ولم يحضر من الاعضاء سوى فرحات بك ناصيف وحسن بك شقير واسعد بك الخوري . فافتتح المتصرف الجلسة وأمر بتلاوة امره الصادر الى محاسبهجي المتصرفية بدفع مرتبات الضابطة وبقيده في سجلات المجلس :

« انه لامر غني عن الايضاح ان التحارير الواردة حتّى الآن من نظارة المالية الجليلة حال كونها تقضي باعطاء معاشات صنوف العسكرية قبل الجميع فعساكر ضبطية جبل لبنان المنتظمة لم تصرف معاشاتهم منذ مارت بالوقت الذي امر معيشة العساكر المرقومين منحصر بمرتباتهم الشهرية اذ لا تعيينات لهم كما هو جار بباقي الولايات . وفي الصندوق والحالة هذه يوجد دراهم كافية لتسوية معاش العسكر عن شهر مارت فقط . فمجلس الادارة لم يراعِ احتياج العسكر وقضية وجود دراهم كافية لصرف معاش العسكر فقط بل أصرّ على صرف معاش مأموري الملكية عن الشهر المذكور ايضاً موضحاً انه ان لم يصر كذلك لا يوافق على صرف معاش العسكرية.

وحيث لا يجوز ترك العسكر في هذه الدرجة من الاحتياج والمضايقة حال كون يوجد دراهم في الصندوق فسنداً على التحارير العلية المشيرة بصرف معاشات العسكر قبل الجميع بحال وجود دراهم تفضلوا بالمهمة لصرف معاش عساكر ضبطية جبل

لبنان المنظمة عن شهر مارت من السنة الحالية على انه اذا ترتب مسؤولية من ذلك تكون عايدة لمخلصكم في ٣٠ ايار سنة ١٨٨٣ .

ثم امر المتصرف رئيس المجلس بتدوين ما حرره بعض اعضاء المجلس (عمر الخطيب الياس ابو صعب يوسف الزغزغي فارس الخوري حسن شقير اسعد الخوري اسعد طالب ابراهيم المعلوف كاظم عمرو) الى المحاسبهجي في الحادي والثلاثين من الشهر نفسه :

« نعرض بلغنا بان هذا النهار صاير المباشرة بصرف معاش العسكرية عن شهر مارت سنة ٢٩٩ . ومن كون النظام الملوكاني الممنوح الى اهالي لبنان يأمر باحدى مواده ان المصارفات والواردات هي تحت ادارة مجلس الادارة فبناء عليه وعلى التعامل الجاري من ابتدا تشكيل المتصرفية لحد الآن بعدم صرف معاشات بدون مضابط من هذا المجلس وكان صرفكم معاش العسكرية دون مضبطة بذلك توفيقاً للنظام والتعامل كما ذكر . فهذا الصرف لا نصادق عليه ولا نعرفه رسمياً بل ندرك كل مسؤولية تنتج عن ذلك على شخصكم وجب اعراضه .

« ثم صدر امره بتلاوة الامر الصادر من لدنه بتاريخ ٢٣ مايس سنة ٢٩٩ الى عزتلو وكيل رياسة المجلس . وغب تلاوته على الاعضاء الموجودين فيه وهم فرحات بك ناصيف وحسن بك شقير واسعد بك الخوري صدر أمره بقيده بالسجل وهذه صورته :

« لجناب وكالة مجلس ادارة لبنان عزتلو افندم

لقد اطلعنا على مضمون التحرير الذي صار تقديمه من اعضاء مجلس ادارة لبنان الى عزتلو محاسبهجي المتصرفية لاجل تدريك المسؤولية على شخصه بسبب صرفه معاش العسكرية اللبنانية عن شهر مارت من السنة الحالية . ولقد يسؤني ان اضطر للبيان هنا بان قيام الحجة من اعضا مجلس الادارة على صرف المتوجب للعسكرية هو امر يثبت خروجهم بالكلية من دائرة وظائفهم وحقوقهم على انه بموجب نظامات جبل لبنان كان من خصايص مجلس الادارة توزيع الاموال الاميرية والتفتيش على المصارفات كان المراد به ان مجلس الادارة له الحق ان يراقب بان الاموال الاميرية والمحاصيل الميرية بوجه الاخلاف لا يصير تخصيصها سوى للحل الذي تخصص لها في الميزانية . فوالحالة هذه مخصصات العسكرية موجود قيدها في ميزانية الجبل عن سنة ٢٩٩ وهذه الميزانية قد صادق عليها حضرة ناظر المالية . ومن ثم صدرت الاوامر المقتضية الى محاسبهجي افندي لاجل استحصال القيمة المذكورة من مجموع واردات المتصرفية . فاذاً وظيفة المجلس منحصرة على مراقبة صرف معاشات العسكر في اوقاته بموجب التخصيص الواقع في الميزانية وليس له الحق ان

يعارض بصرف هذه المعاشات . وعلى ذلك نقول انه اذا كان لحد الآن صار طرح دفاتر معاشات المأمورين الملكية ومرتبات العسكرية في مجلس الادارة لم يكن ذلك بوجه طلب المصادقة منه اذ عنه بغنى نظراً لوجود قيد هذه المخصصات في الميزانية ووجوب صرفها انما المقصود من طرحها لديه لكيما يجري فقط حقوق وظيفته بالتفتيش . وبناء عليه فهذا التفتيش يمكن اجراؤه قبل الصرف ام بعد دفع المعاشات الى العسكرية على حد سوى . واما الامر الذي بموجبه قد صرف محاسبهجي افندي معاش شهر مارت الى العسكرية فهو صادر مني وباعطائي هذا الامر قد اجريت بحسب صلاحية حقوقي . وقد حملني ايضاً على هذا الامر الاسباب الآتي بيانها : فان العسكر اللبناني كما لا يخفاكم ليس له تعيينات بل فقط يأخذ معاشه نقداً الذي بالكاد يكفي لسد احتياجاته الضرورية واكثرهم اذا لم ينصرف لهم المعاش فلا سبيل لهم للمعيشة . فوالحالة هذه ان العسكر لم يقبض معاش البتة منذ غاية شهر شباط اعني نحو ثلاثة اشهر فالانفار وقعوا في حالة الاحتياج الكلي . وحيث لا يوجد في صندوق الخزينة سوى ما يكفي لصرف معاش شهر واحد للعسكرية فقد فوضت بصرفه حباً بالشفقة وطبقاً لاصول حسن الادارة . واما مجلس الادارة باعتراضه على هذا الصرف وتقديمه التعليل بانه لم يقبض معاشه بالوقت نفسه من شهر مارت قد تجاوز ليس فقط حدود دايرة وظايفه بل يسوءني ان اقول بانه ابان منه ما يدل على قلة حب الوطن وكثرة حب الذات . ومن المعلوم ان صرف معاشات العسكرية باوقاتها هو من اجل شروط المحافظة على الراحة العمومية على ان الدولة العلية قد اعتبرت اهمية هذا الامر عندما اصدرت اوامرها بصرف معاشات مامورين العسكرية بدون ادنى تأخير وبافضلية على صرف باقي المعاشات . فأمر يستغني عن البيان اذا بان الضبطية الذي بالكاد معاشه يكفي احتياجاته اذا لم يقبض معاشه باوقاته فيضطر الى الفرار من سلك العسكرية ام الى ارتكاب الامور المغايرة في المحلات التي يكون تعين لها لاجل المحافظة على الراحة والامنية . وحيث ان من اول وظايف متوجباتي المحافظة على الراحة العمومية فقد اعتبرت علي فرضاً اعطاء الامر بدفع المعاش الذي صار صرفه واخذت المسؤولية علي به . لكنني أصرح لكم هنا بان المجلس ما كان له الحق ان يخاطب خطأً عزتلو محاسبهجي افندي لان ليس من صلاحية المجلس ان يتعاطى سوى الاشغال التي يصير طرحها لديه من جانب الريس . وقد عرف ذلك بعضاً من اعضايه الذين امتنعوا عن الاشتراك بالخطاب المذكور . فاكرر لكم بان المجلس قد خرج عن دائرة وظايفه الممنوحة له بموجب النظام بادعايه ان له حق الاعتراض على مصروف مقرر بالموازنة ومصادق عليه من نظارة المالية وذلك الاعتراض مبني على تعايل بغير محله ناشيء عن رغبة الحصول على دفع معاشات

مامورين الملكية مع معاشات العسكرية في وقت واحد يعود بذلك على دفع معاشات المجلس نفسه . فنؤمل منكم تلاوة هذا الخطاب على اعضاء المجلس وقيده في السجلات اذ لاجله صار ترقيم هذه الشقة لعزتكم افندم ٢٢ مايس سنة ٢٩٩ رسمي » .

رُستم باشا - أعماله العمرانيّة

الطرقات

وما كاد المتصرف يستلم ازمة الحكم في البلاد حتّى ادركه وجوه ناحية القاطع بعريضة يلحون فيها بفتح طريق معبدة تخترق ناحيتهم من بكفيا حتّى الساحل . فوافق المتصرف واحال عريضتهم على مجلس الادارة للدرس وابداء الرأي . فوافق المجلس بدوره في آخر حزيران من السنة ١٨٧٣ مبيناً كيفية ايجاد المال اللازم . ولاسباب نجهلها لم يبدأ العمل قبل اوائل السنة ١٨٨٠ عندما اتخذ المجلس قراراً آخر قضى بان يتحمل نفقاتها اهالي القاطع والشوير وبسكنتا ما يقابل اجرة ثمانية فعلة على كل مكلف من اهالي القاطع وما يقابل اجرة اربعة فقط على مكلفي ناحيتي الشوير وبسكنتا . وقبل الشويريون والقاطعيون بهذا القرار ولكن اهالي بسكنتا اعترضوا عليه ولم يوافقوا الا بعد اخذ ورد طويلين . وقبل التزام هذه الطريق كل من المعلم حنا منصور ابو الروس والمعلم شاهين الشايب .

وفي اواخر تشرين الثاني من السنة ١٨٧٣ أجاز مجلس الادارة الانفاق اللازم لانشاء مخفرين على طريق الشام بيروت احدهما في فرن الشباك والآخر في الحازمية .

وفي منتصف ايلول من السنة ١٨٧٥ تحرك اهالي عيتات واخذتهم الغيرة فتقدموا من المجلس طالبين الموافقة على شقّ طريق تصل بلدتهم بسوق الغرب . فوافق المجلس على ذلك وشرعوا في التنفيذ ولكنهم لم يتفقوا مع ابناء سوق الغرب في انشاء «المونّس» !

وفي خريف السنة ١٨٧٦ تم انشاء طريق غزير الساحل فبلغت نفقاتها ٩٥٦٩٧ غرشاً دفع منها اهالي غزير ٨٠٠٠ غرش وتحمّل الباقي صندوق المتصرفية . وفي التاسع عشر من نيسان سنة ١٨٧٧ وافق المجلس الاداري على عرض تقدم به المعلم يوسف سماحة لانشا مخفر في ضهر البيدر على بلاطة العلالي .

وكان الباشا قد احب وادي نهر بيروت لجماله الطبيعي وابتاع قطعة من الارض تطل عليه وجعلها منتزهاً له يتردد اليها للبسط وجلاء الهم . وفي اوائل السنة ١٨٧٧ طلب الى مهندس المتصرفية استوخلي افندي ان يعد تصميماً لبناء جسر على نهر بيروت

يمكنه من الوصول الى جنينته راكباً . ثم أوعز الى المجلس بانشاء هذا الجسر بموجب تصميم المهندس . وفي اول ايار من السنة نفسها التزم بناءه المعلم اسعد طانيوس الخوري البناء الشويري بمبلغ قدره ٢٣٠٠٠ غرش . ولا يزال هذا الجسر قائماً ويعرف باسم الباشا نفسه حتى هذه الساعة .

وفي اواخر حزيران من السنة ١٨٧٨ تم تخطيط طريق للعربات تصل نهر بيروت بنهر الموت . وفي خريف السنة ١٨٧٩ وافق المجلس على انشاء طريق للعربات ايضاً تصل طريق الساحل بالشويفات فعين عنوب فعيتات وفرض نفقاتها على قرى مديريات الغرب الثلاث ومديرية الشحار بحيث أصاب كل مكلف في هذه القرى بما يوازي اجرة اربعة فعلة . وكان قد تسلّم مهام وظيفة مهندس جبل لبنان يوسف افندي الياس فأصر على تقييد الملتزمين بشروط معينة في بناء الطرقات والجسور واهتم اهتماماً فائقاً بهذه فجعل شروطها عشرة : ١) في ان تكون الحجارة من صخرة جيدة جداً وان يكون تقصيبها بالبيك ٢) في ان يكون سمك الحلق ٢٥ سنتيمتراً والظهر ٣٠ ٣) في ان يكون سمك الريش وعلوه مساوياً للقنطرة ٤) في ان يكون علو المدماك في الحصر ٣٠ سنتيمتراً ٥) في ان تكون ركة الخواصر من الريش القوي المغموس بالطين ٦) في ان يكون الطين مركباً من الكلس والرمل وان يكون الكلس اربعين في المئة والرمل ستين . ٧) على الملتزم ان يتقيد بالتصميم الذي يعده مهندس المتصرفية ٨) يجب انهاء العمل في مدة اقصاها اربعة اشهر ٩) لا تقدم الحكومة سوى البارود ١٠) الدفع على اربعة اقساط .

وجاء « قونتراتو طريق مركبات قرية كفرشيما » في السادس عشر من ايار سنة ١٨٨٣ في خمسة عشر بنداً :

«اولاً : نحن الواضعين اسماينا واختامنا ادناه نتعهد لدى حكومة متصرفية لبنان الجليلة بعمل وبناء طريق مركبات كفرشيما المتشعبة من طريق الشويفات ماره في ثلاث حارات وهي حارة المجادين والعين والفرن ومنتهية الى طريق الشويفات وذلك بمقتضى خارطة الهندسة المقدمة لدولته من رفعتلو مهندس المتصرفية ومقبولة عن الامر الكريم ومحفوظة بمجلس الادارة على انه لو وقع منا اقل خلل بالشغل او بما يتعلق بالشروط الآتي ذكرها فنكون تحت طايل المسؤولية وخاضعين مع كفيلينا لما يترتب علينا نظاماً .

ثانياً : علينا نحن الملتزمين ان نقدم الفعلة اللازمة لشق الطريق وان نحضر بانفسنا على العمل او نوكل وكيلاً من قبلنا لاجل معرفة خطوطها وعلوها ومحلات الردم والترتيب ومنع تحويله عن محل الهندسة كثيراً كان ام قليلاً .

ثالثاً : عرض الطريق الصافي يكون خمسة امتار وذلك عدا عن محل المونس

والاقنية التي يلزم ان تكون بكل جهة ليس اقل من خمسين سنتيمتراً .
رابعاً : نتعهد بقيام حيطان على جانبي الطريق مؤسسة جيداً مسطحة بالماية خمسة وعشرين . واما سماكتها اي عرض كليتها فتكون مناسبة لعلوها والى الرك الذي يصير ضمنها .
خامساً : ملزومين بعمل اقنية على الطريق في كل محل سهل تمر به الطريق . وفي المحلات المرتفعة نعمل قناة واحدة لجهة لحف الجبل كما ونصنع لكل مابة متر من الطريق المرقوم مصرف تحت الطريق لاجل تفريغ المياه التي تنزل بالقناة . اما عمق القنا فيلزم ان يناسب كمية الماء الذي يجتمع فيه .
سادساً : ملزومين بعمل مونس للطريق في كل محل يكون ارتفاع حائطه فوق الخمسة وسبعين سنتيمتراً . ويكون بحجار مقصبة الواحد منها ثلاثين سنتيمتراً عرضاً وعلواً .
سابعاً : ملزومين بوضع وفلش بحص على جانبي الطريق بقطع ثلاث سنتيمترات مكعبة بمقدار كاف لفلشه على الطريق وذلك عند الشروع بحدالتها . وهذا البحص يلزم وضعه في وسط الطريق بسماكة خمسة عشر سنتيمتراً وعلى حافتيها بسماكة سبع سنتيمترات .
ثامناً : ملزومين نحن الملتزمين بان نتحفظ من وقوع التعطيل بالارزاق المجاورة للطريق ولا يجوز لنا هدم كل او بعض حيطان الارزاق لاخذ حجارتها الا اذا مرت الطريق فوق حايط ما فيمكننا اذ ذاك بعد سماح اصحاب الارزاق ان ناخذ المواد التي تتوجد على عرض الطريق فقط .
تاسعاً : علينا ان نبتدي بعمل الطريق المسطور غب مرور ثمانية ايام من تاريخ هذا القونتراتو وتسليمه لجانب الحكومة متمماً خالصاً ومحدولاً بحسب شروطه المحكية بعد اربعة اشهر من تاريخه ادناه .
عاشراً : ان الحكومة تقدم لنا البارود اللازم بالتدريج بقدر الاحتياج على يد المأمور الذي ستعينه لملاحظة ذلك واذا وقع منا طمعاً باستعماله في غير الطريق المرقوم او بعنا منه شيئاً او وهبنا ولو كان جزئياً فنكون خاضعين للقصاص بالجزاء النقدي والحبس وتجري بحقنا المعاملة كمعاملة مختلس .
حادي عشر : الحكومة تقدم لنا ما يلزم من الاوايل الحديدية لعمل الطريق وتأخذ منا وصلاً بما نكون استلمناه على اننا غب انتها الطريق المسفور ملزومين بارجاع ما نكون استلمناه تماماً . واذا فقد شيء منها فنلتزم بدفع ثمنه كما واذا تعطل منها شيء فنلتزم باصلاحه وارجاعه الى الحالة التي استلمناه بها .
ثاني عشر : يدفع لنا نحن الملتزمين مقابلة الى عمل كل متر عرض سبعة عشر

قرشاً معاملة دارجة بحساب الريال المجيدي اثنين وعشرين قرشاً وثلاثين باره .
ثالث عشر : لا يدفع لنا شيء من الدراهم الا بعد التحقيق على ما نكون اشتغلناه واخذنا به شهادة من المهندس عن عدد الامتار التي نكون تممناها وما نستحقه على ذلك .
رابع عشر : نتعهد نحن الملتزمين بان نبقى مسؤولين بما يحدث من العطل على الطريق لبعد مضي سنة كاملة اثني عشر شهراً من تاريخ تسليمه للحكومة الذي يكون في اثنين ايلول سنة ٩٩ (١٤ ايلول سنة ١٨٨٣) .
خامس عشر : اننا قدمنا كفيلين كفلانا وهما المعلم مارون الخياط والخواجه بشاره كنعان وهذين الكفيلين يتعهدا باتمام الطريق المسطر بحسب شروط هذا القونتراتو اذا تأخرنا عن عملها . ولا يحق لنا ادعاء الخسارة باية علة كانت سواء تصاعدت فيئات اجرة المعلمين والفعلة او بقيت على حالتها الحاضرة او وقع لهذا الالتزام ارباح او خسارة وعليه قد حررنا على انفسنا هذا الصك . تحريراً في ٢ مايس سنة ٢٩٩ .

ملتزم	ملتزم
رشيد الكلارجي	اسكندر كنعان »

ولعل أفضل ما عُني به رستم في هذا الحقل من العمل اصلاح شبكة الطرقات العادية التي كانت تصل القرى بعضها ببعض منذ مئات السنين . ففي الرابع عشر من آب سنة ١٨٧٩ نجد المجلس الاداري الكبير يتخذ القرار التالي :
« انه لما كانت جميع افكار حضرة دولتلو افندم متصرفنا المعظم منصرفة نحو عمران الجبل وخير العموم بدون استثناء فقد صدر امره الاشرف باحالة شفهية بوجوب المذاكرة بكيفية عمل الوسائط اللازمة لاصلاح عموم طرقات المتصرفية المؤدية من قرية الى اخرى ومن قضاء الى قضاء التي بعضها مخرباً خراباً تاماً وبعضها صعب المسالك . وطالما كانت علة موجبة لسلب راحة عابري السبيل حتى اضحى جميع المارين عليها سواء كانوا من الراكبين او المحملين غالباً يحصل تنقيص وتعطيل حيواناتهم بفقد حياتها من مجرد صعوبة المسالك ان كان بسبب تهوير وسقوط الحيول والبغال او كان بواسطة تعويقها بعرقلات صخرية . وحيث كان ذلك من الاشياء المضادة لمشرب دولته ومانع لقرب الاتصاليات فعن امره الكريم قد صار القرار بوجوب تعيين معلمين معمارية متوسطي الصناعة لكل ناحية (مديرية) من انحاء الجبل . وكل معلم يتعين له اجرة معلومة عن كل يوم يباشر الشغل فيه تحت مناظرة مدير تلك الناحية ليصير صرفها من صندوق المتصرفية على حساب المهمولات

العمومية . ويترتب على كل قرية من قرايا مديريته تقديم فعلة كافية تشتغل على مصروف الاهالي » .

وفي منتصف كانون الثاني من السنة ۱۸۷۸ تولى الحكم على ولاية سورية مدحت باشا « ابو الاحرار » فبدأ يفتح طريق للعربات « شوسه » تصل دمشق بحمص فطرابلس واهتم بالمواصلات بين البلد في طرابلس وبين المينا فشجع الطرابلسيين على انشاء ترامواي تجره البغال بين المينا والتل وجعل له قيوميسيوناً خاصاً برئاسة عبد القادر افندي المنلا وعضوية محمد افندي المحمد وجرجي افندي نقاش وقيصر افندي نوفل ونسيم افندي خلاط وابراهيم افندي وحنا افندي صراف . وتولى اعمال الكتابة لهذا القوميسيون نجيب افندي نوفل .

سير العربات

وفي اول آذار من السنة ١٨٧٤ تقدم عبد الاحد طبيب من مجلس الادارة يطلب الترخيص له بتسيير عرباته على طرقات لبنان « لخدمة الجمهور » . فاذن له المجلس بذلك مشترطاً اولاً ان يكون السواقون من ذوي السيرة الحسنة ثانياً ان يمتثل هؤلاء لأوامر ضباط الطرق ثالثاً ان يمتنعوا عن شرب المسكرات في القهاوي القائمة على الطرقات رابعاً ان يجتنبوا المزاحمة والمسابقة خامساً الا يتعالجوا ويتقاتلوا سادساً ان يوقدوا مصابيحهم عند بداية الظلام سابعاً ان يسلكوا بعجلاتهم سلوكاً لا تخشى عواقبه وثامناً واخيراً ان تتحمل القومبانية الضرر الذي ينشأ عن اهمال السائق وسكره.

جرّ مياه نهر الكلب الى بيروت

وكانت الحكومة العثمانية قد منحت المهندس الفرنساوي المسيو تيفينان(Tevenin) امتيازاً لتزييد مياه بيروت وتكثيرها وذلك في الثامن من جمادى الاولى سنة ١٢٨٧ (اوائل حزيران سنة ۱۸۷۰) . فوفد المسيو تيفينان على بيروت فنهر الكلب بتصاميمه وخرائطه واتصل بحكومتي بيروت والجبل . فتوجه رستم باشا بذاته « وبخدمته عزتلو الامير سعد خليل قائمقام كسروان والامير يوسف علي قائمقام المتن وعزتلو يوحنا بك الاسعد رئيس القلم العربي ورفعتلو الشيخ عيد حاتم وكيل رئاسة المجلس الاداري سابقاً وسمعان بك غطاس وحسن بك شقير من اعضاء المجلس ونظروا موقع مرور الماء وطرقاته وسائر جهاته وغب ايابهم افادوا بان الشغل جار طبق التخطيط المدروج بالخرائط المقدمة » . ولدى تعهد « القومبانية » بدفع قيمة الأملاك التي تتعطل بعد تخمينها من قبل قوميسيون حكومي لبناني وان حقوق الاملاك بالماء

تبقى محفوظة من دون اخذ شيء منها وافق المجلس على السماح للشركة بالمباشرة في العمل وعين لجنة لتخمين الاضرار مؤلفة من الشيخ الياس مسعد من عشقوت والشيخ شبلي كنج الاعور من قرنايل والشيخ اسعد ابو صعب والشيخ وهبه ابو غانم من اعضاء المجلس وأحد كتاب المركز ممن يعرف اللغة الفرنسية . وذلك في اوائل ايار من السنة ١٨٧٤ .

وفي العاشر من جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ (نيسان سنة ١٨٧٥) كتب المتصرف الى الباب العالي يطلب صورة المقاولة التي عقدت بين الشركة وبين الحكومة العثمانية فأجاب الباب العالي في الثالث من آب من السنة نفسها مبيناً ان « الرخصة » المشار اليها تفرض الشروط التالية : اولاً كافة الاضرار والخسائر التي تلحق باصحاب الاملاك تؤدي الشركة ما يقابلها بموجب تخمين المقومين الذين تعينهم الحكومة المحلية على ما هو مبين في فرمان الامتياز . ثانياً تعطي الشركة الماء للاملاك بحسب العادة القديمة . ثالثاً ان التعويض المفروض لا ينحصر في الاراضي والاملاك الواقعة في وادي نهر الكلب بل يشمل تلك التي تجري فيها العمليات حتى نهر بيروت .

وحدد الفرمان السلطاني مدة الامتياز فجعلها اربعين سنة اعتباراً من تاريخ فرمان الامتياز . وحتم على الشركة ان تضع عند انتهاء هذه المدة جميع المعامل والآلات والادوات والحيات تحت تصرف بلدية بيروت . وأعطى المشتركين حق المحافظة على صفتهم هذه طوال مدة الامتياز كما قضى بوجوب التعويض عن خسائرهم بموجب تعريفة ينظمها مجلس بلدية بيروت عند انقضاء مدة الامتياز ويصدق عليها الباب العالي .

وبدأت شركة المسيو تيفينان باستحضار لوازم العمل وبناء الحواجز والاقنية عند نهر الكلب كما استوردت الادوات لتصفية المياه ودفعها الى خزان بالقرب من كنيسة القديس ديمتريوس . نقول بدأت بهذا كله ولكنها عادت فباعت حق هذا الاستثمار الى شركة انكليزية تولى تدبيرها المستر مارتنديل (Martindale) برأس مال بلغ آنئذ ٣٦٢٨٨٠٠ فرنك وذلك في السنة ١٨٧٦ ولم توزع المياه على بيروت قبل السنة ١٨٨٤ .

وكانت بيروت تستقي مياهها من آبارها العديدة كما يدلنا على ذلك اسمها « مدينة الآبار » وآثارها . بيد ان هذه الآبار مع وفرتها وعلى الرغم من مياه راس النبع لم تف بحاجات البيروتيين الذين تكاثروا بعد حوادث السنة ١٨٦٠ من شرب وتنظيف ورش وسقي جنائن . وكانت تتسرب الى هذه الآبار مياه الامطار فتنقل اليها الجراثيم والفساد وتنشر بين السكان الاوبئة الجارفة كالتيفوئيد والهواء الاصفر والهيضة .

واستقدم المتصرف في صيف السنة ١٨٧٥ معدناً المانياً هو الدكتور اوسكار فازر للتفتيش عن المعادن في لبنان ولدرس امكانيات التربة فيه . وكان المسيو مورك دلك وشركاؤه في بيروت يفتشون عن الفحم الحجري في لبنان فتقدموا من مجلس الادارة راجين السماح لهم « بفتح معدن فحم حجري » في ملك المسيو دلك في قرنايل وفي اراضي صليما وبزبدين وفالوغة وبتخنيه وأرصون وبانشاء طريق حديدية لنقل الفحم . « ولدى المذاكرة في كل ما ذكره المسيو دلك وامعان النظر في جميع الاوراق والشهادات المعطاة له من اكثر رؤساء وامراء واعيان ناحيتي المتن والقاطع تبين للمجلس ان مشروع المسيو دلك غير مضر بل نافع بسبب التشغيل » . ولذلك أقرّ المجلس في الرابع من آب سنة ١٨٧٥ الموافقة على التماس المسيو دلك واحالة القرار الى المتصرف لان « اتمام الالتماس مرهون بارادة دولته الكريمة » . وفي الحادي والعشرين من ايلول من السنة نفسها نجد المجلس يدرس طلباً آخر تقدم به المهندس كوتسلوف « لفتح المعدن الواقع في اراضي حيتورة وزحلته ومراح المكنونية وخرخيا في قضاء جزين » .

وفي صيف السنة ١٨٧٦ بينما كان يوسف بك كرم يعد رسالته الشهيرة في الدور الذي لعبه البطريرك بولس مسعد في حوادث لبنان ما بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٦٧ ليرفعها الى البابا وذلك في بلدة فراسكاتي الايطالية تسنى له مشاهدة مناجمها فعادت به الذاكرة الى تلال اجبع واهدن وحدشيت وحدث الجبة وما حوته من الفحم الحجري . وكتب الى وكيل املاكه في لبنان ان يرسل اليه صندوقاً من فحم اهدن الحجري . ولدى تسلمه الصندوق دفع به الى مختبرات ايطالية لفحصه وتحليله . فجاءت النتائج حسنة . وعندئذ بدأ كرم مفاوضات طويلة مع الحكومة الافرنسية وبعض المؤسسات المالية الفرنسيّة مقترحاً فتح المناجم في لبنان الشمالي ومد خط حديدي الى الساحل الى طرابلس لنقل المواد الى الخارج . ولكن اصحاب الاموال الفرنسية آثروا التأني للتثبت من ان ما يستخرجونه من الفحم اللبناني يغطي الاموال الموظفة . فاقترحوا ابتياع ما يستخرجه كرم من الفحم اللبناني بسعر الفحم العالمي مؤكدين انهم يدفعون له الثمن مسبقاً . ولكن كرماً رفض العمل بموجب هذا الاقتراح قبل فتح المناجم اللبنانية واستثمارها باحدث الطرق الفنية .

الحرير

وكانت مواسم الحرير في لبنان لا تزال تتدنى منذ السنة ١٨٥٦ من سيء الى

اسوأ . فحاصلات لبنان في ربيع السنة ١٨٥٥ بلغت مليوناً وخمس مئة الف اقة . ثم تدنت فجأة في السنة ١٨٥٦ لمرض المّ بدود القز . فترك اللبنانيون التبذير البلدي واستوردوا بذوراً جديدة من قبرص ومصر وكريت فاصبح المحصول في السنة ١٨٥٧ مليون اقة . وفي السنة ١٨٥٩ استحضر اللبنانيون البذور من اليابان فتدنى الموسم الى سبع مئة الف اقة . وبعد هذا اتجهت انظارهم الى فرنسة وبدأوا يجربون البذور الفرنساوية وما فتئوا .

واهتمت نظارة التجارة للأمر فاصدرت في منتصف حزيران من السنة ١٨٨٠ تعليمات افادت بها ان مرض البيريتس اعترى دود القز منذ سنين عديدة فتدنت حاصلات الحرير في جميع الممالك المحروسة « لدرجة خارقة العادة » وانه لما كان من الضروري استحضار بذرسليم من المحلات التي لا مرض بها اقتضى ان « تحصل الافادة بوجه السرعة عن اسماء الالوية والاقضية التي يربى بها دود القز » وعن مقدار ما كان يجنى قبل انتشار المرض وعن مقدار المحصول في السنة ١٨٨٠ لواءً لواءً وقضاءً قضاءً وقريةً قرية مع تبيان نسبة انتاج كل درهم من البذور . فأحال المجلس هذا الطلب الى القائمقامين في اواخر تموز من هذه السنة .

الزراعة والتجارة

وأصدرت نظارة التجارة والزراعة في الثامن والعشرين من ايلول سنة ١٨٧٦ امراً الى جميع الولاة والحكام في جميع انحاء السلطنة تحضهم فيه على تنشيط الزراعة والتجارة وعلى تأسيس جمعيات للتجارة والزراعة في جميع مراكز الولايات والالوية والاقضية . فأحال المتصرف الامر الى المجلس لدرسه وابداء الرأي فيه . « وغب الاحالة والتشرف بمطالعة التحرير نعرض ان في جبل لبنان لا يوجد اراضي زراعية ولا تجارة تستحق ان يتعين لها هكذا جمعيات » . — ١٤ تشرين الثاني سنة ١٨٧٦ ولعل الدافع الاساسي لاتخاذ هذا القرار كان خوف الاعضاء من زيادة الاموال المطلوبة .

وعادت النظارة نفسها في صيف السنة ١٨٨٠ فأوجبت تشكيل قوميسيونات لدرس المواسم الزراعية وتقديم الاحصاءات الكاملة . فأجاب المجلس « ان اراضي جبل لبنان ضيقة وعرة قاحلة ليس فيها الا ما قل وندر من البقاع الصالحة للفلاحة والزراعة . وان الزراعين اللبنانيين الذين فطروا على الجد والاقدام يجمعون ما يتيسر من التراب بين جدران يقيمونها ويأخذون بزراعتها قهراً وكرهاً . ولذا فمبذر المد الواحد لا يعطي اكثر من ستة امداد » . وأبان المجلس بان محصولات الجبل تكاد

لا تكفي مؤونة اهله ثلاثة اشهر فيضطرون والحالة هذه ان يتناولوا الباقي من البقاع ومن حوران . واستطرد المجلس الى القول ان التجار في لبنان قليلو العدد وان جلهم من الدرجة المتوسطة لقلة رساميلهم . وانه ليس بينهم من المتمولين من يقدر ان يستجلب الحبوب من الخارج بل انهم يستوردون منها مقادير يسيرة اما نقداً او ديناً من تجار الاساكل والجهاسة ولذا فلا تصدير من الجبل الى الخارج مطلقاً . واذا جمعت جميع حاصلاته من جميع انواع الحبوب تبلغ ٣٨٧٠٠٠ مد . وهذا العدد يوازي مقطوعية السكان زهاء ثلاثة اشهر فقط فيضطرون والحالة هذه الى استيراد ١٦٠٠٠٠٠ مد في كل سنة .

وكان قد تولى وكالة الرئاسة الامير سعد خليل حفيد الشهابي الكبير فأضاف ان هذا التدني في الانتاج يعود الى سلخ اراضي البقاع عن الجبل التي كانت ملك امرائه وشيوخه واهاليه من طائفتي الدروز والنصارى وانهم كانوا يتقنون فلاحتها وزراعتها فيستغلون منها ما يسد اودهم ويفي باحتياجاتهم . « فمنذ ضبطت عنهم في عهد القائمقاميتين ورفعت عنها يدهم عادوا يعالجون صخورهم » !

ومما يذكر لرستم أمره الصادر في منتصف تموز من السنة ١٨٨٠ الذي قضى بفتح اسواق في بعض القرى اللبنانية وفي اوقات معينة « لتسهيل احوال الرعايا ومعاونتهم على تصريف الاشياء التي يرغبون بيعها » . فجعل لقضاء جزين سوقاً واحدة من هذا النوع تقام في يوم الجمعة من كل اسبوع . وجعل لدير القمر سوقاً واحدة ايضاً تقام في اليوم نفسه . واقام في قضاء الشوف اربعة اسواق اولها في مرج بعقلين في يوم الاثنين من كل اسبوع والثاني في برجا في يوم الاربعاء والثالث في رشميا في يوم الخميس والرابع في سوق الغرب في يوم الجمعة . وأمر بان تقام سوق زحلة على بيادرها في يوم الاثنين من كل اسبوع . وانشأ في المتن ست اسواق من هذا النوع الاول في راس المتن في يوم الاحد والثاني في الحدث في يوم الاثنين والثالث في بكفيا في يوم الثلاثاء ، والرابع في بسكنتا في يوم الاربعاء والخامس في الشوير في يوم الخميس . وخصّ كسروان بخمس اولها في غزير في كل ثلاثاء وثانيها في زوق مكايل في كل سبت وثالثها في مزرعة كفردبيان في يوم الاثنين من كل اسبوع ورابعها في جبيل في يوم الخميس وخامسها في قرطبا في يوم الاربعاء . وجعل في قضاء البترون خمس اسواق ايضاً واحدة في البترون وفي دوما في يوم الاثنين بالتناوب وواحدة في اهدن وفي بشري في يوم الخميس بالتناوب وواحدة في تنورين في يوم الاثنين صيفاً . واقام في قضاء الكورة ثلاثاً في اميون في يوم الاثنين من كل اسبوع وفي كفر حزير في يوم الخميس وفي بشمزين في يوم السبت .

وشدّد رستم على القائمقامين بوجوب السعي لنجاح المشروع ففعلوا وكتب

احدهم الامير نجيب شهاب قائمقام كسروان الى الشيخ ضاهر الخازن مدير الجرد في السابع والعشرين من ايلول من السنة نفسها يقول : « وحيث قد صار فتح السوق في غزير وحصل به رواج في أمر التجارة فنؤمل ان تبلغوا اهالي ناحيتكم ذلك وتستهموهم ليحضروا اليه مهما عندهم من الامتعة لاجل البيع كما وان من يلزمه شراء فليحضر ايضاً لمشتراه . واهتموا ايضاً لفتح السوق المعين في المزرعة بحيث تجروا جميع الوسايل والتشويقات اللازمة لرواجه . وافيدوا عن ذلك في جداولكم الشهرية بموجب الامر المشيري » .

ومما يذكر ايضاً لكبير المتصرفين في حقل الزراعة والتجارة اهتمامه الشديد في مكافحة الجراد في ربيع السنة ١٨٧٨ فانه أمر باتلافه وأوجب على كل لبناني « مكلف » ان يقدم لمدير ناحيته ربع مدٍّ من بيوض الجراد . وعاد الجراد فظهر للمرة الثانية في شباط من السنة ١٨٧٩ فعاد المتصرف الى مكافحته وغرّم من يتأخر عن القيام بالواجب بخمسة غروش عن كل يوم عمل يقوم غيره فيه باتلاف الجراد بدلاً عنه . وفي صيف السنة ١٨٨٢ ظهر داء الفيلوكسيره في كروم المتن الاعلى والقاطع . فاتصل المتصرف برجال الاختصاص في جامعتي بيروت ولا سيما بالدكتور جورج بوست النباتي الشهير في الجامعة الاميركية وأخذ عنه ما يجب عمله وأوفد عضو المجلس الاداري اسعد بك الخوري الى المناطق الموبوءة للاشراف على مكافحة هذا الداء .

اما عنايته بالارز فانها جاءت من باب المحافظة على الآثار القديمة كما أبان ذلك المجلس الاداري في قراره في التاسع عشر من تموز سنة ١٨٧٩ : « لما كان من الامور المهمة الواجبة حفظ الارز ووقايته باعتباره من الآثار القديمة المقصودة من جميع السياح والزوار الوطنيين والاغراب ومن ثم فخراً مخلداً للبنان رؤي ان يصدر الامر الكريم بعمل تصوينة محكمة البناء للارز لصيانته من الماعز والطروش » . وعُرض البناء للمناقصة فالتزمه المعلم يوسف سعد الله سماحة الشويري . وفي اول تموز سنة ١٨٨١ اقامت الحكومة المركزية ناطوراً على الارز احد ابناء بشري يوسف ابو حمد .

المكاييل والموازين

ويستدل من بعض قيودات المجلس الاداري ان المد اللبناني آنئذ اختلف حجمه ووزنه فكان في جبل الريحان ٨ اقات وفي زحلة ١٣ وفي دير القمر ١٤ وفي سائر الجهات ١٢ وان اللبنانيين لم يستعملوا الدوقم في قياساتهم « لان اراضيهم كانت وعرة » وانهم الغوا الفدان والكدنة للمغروسات وبذار المد لاراضي السليخ والدرهم

للمساحة وان هذا كان عبارة عن ارض تغل ما كان يقدر ثمنه بمئتين وخمسين غرشاً في السنة . وألغوا ايضاً الحمل في التوت والكيل في الزيتون والقنطار في الكرم .

البريد

ورأى المتصرف ان يستفيد اللبنانيون من سعاة البريد الرسميين الذين كانوا ينقلون البريد من بيروت الى امهات المدن عبر الاراضي اللبنانية . فتدخل في هذا الامر في أواخر عهده في لبنان ووافقت ادارة البريد في لبنان ان ينقل سعاتها بريد القرى اللبنانية التي يمرون فيها ذهاباً اياباً . اما ابناء سائر القرى فانهم كانوا يرسلون سعاة خصوصيين الى بيروت لايداع رسائلهم او استلام ما يرد عليهم منها .

المشاعات واوقاف الذرية

ولمس رستم باشا تزايداً في عدد الدعاوى القائمة حول مشاعات القرى واراضيها وغاباتها المشتركة . وتبيّن له نقص فاضح في دفاتر المشاعات في دوائر الحكومة المركزية . فأوجب على القائمقامين تقديم التقارير الدقيقة عن مشاعات القرى ضمن اقضيتهم . وحتّم على المجلس الاداري درس هذه التقارير واتخاذ الاجراءات اللازمة للمحافظة على المشاعات المختلفة ورفع التعدي عليها . وأوجب مثل هذا عن الاوقاف الذرية كما يستدل من أمر صدر عن قائمقام كسروان الى مدير ناحية الجرد اوجب فيه « سرعة تقديم الاعراض عن وقوفات الذرية الكاينة ضمن هذا القضاء سوى انكانت مسجلة او بدون تسجيل بحيث يكون ذلك باقرب وقت ليصير النظر بذلك بما يوافق الشرع الشريف » . – اول شباط سنة ١٨٧٨ – .

وكانت « نظارة الاوقاف الجليلة » تعين محاسباً لاوقاف لبنان الخيرية الاسلامية وقد عرفنا من هؤلاء حقي افندي وصوفي زاده عبد الرحمن افندي ولكن حزم المتصرف وامانته ونزاهته دفعوا به الى اخضاع محاسبة نظار هذه الاوقاف الى سلطة مجلس الادارة وهكذا فاننا نقرأ في سجلات المجلس الاداري تحت تاريخ الحادي والثلاثين من تموز سنة ١٢٩٦ (١٢ آب سنة ١٨٨٠) تفاصيل المحاسبة التي جرت باشراف المجلس بين « ناظر اوقاف الاسلام في اقليم الخروب الشيخ يوسف افندي الخطيب وبين خلفه الشيخ عمر افندي الخطيب » وذلك عن السنوات ١٢٩٠ – ١٢٩٥ مالية .

واللذيذ المفيد في هذه المحاسبة هو كمية دخل هذه الاوقاف فدخل وقف قرية شحيم بلغ ٦٤٤٤ غرشاً ودخل النبي يونس ٢٨٠٤ ودخل عانوت ٢٦٧٤ ودخل

جون ٢٣٦٧ ودخل برجا ١٨٥٦ ودخل مزبود ١٤٩٣ ودخل القرى الباقية البرجين وبعاصير وسبلين وحصروص والوردانية والزعرورية وبسابا وداريا فانه كان الفاً او دون الالف .

الادارة في سنجقي بيروت وطرابلس والاقضية الشرقية
١٨٦٤ - ١٨٨٣

ولاية سورية

ولدى تطبيق قانون الولايات الجديد الذي صدر في السنة ١٨٦٤ برزت الى حيز الوجود ولاية شامية كبيرة عرفت باسم ولاية سورية . وشملت هذه الولاية الجديدة ثمانية سناجق او متصرفيات : سنجق الشام وسنجق بيروت وسنجق طرابلس وسنجق اللاذقية وسنجق عكا وسنجق حما وسنجق البلقا وسنجق حوران . وقسمت هذه السناجق الى اقضية فكان بين اقضية سنجق الشام قضاء البقاع وقضاء بعلبك وقضاء راشيا وقضاء حاصبيا . وتألف سنجق بيروت من قضاء بيروت واقضية صيدا وصور ومرجعيون كما تشكل سنجق طرابلس من اقضية طرابلس وعكار وصافيتا والحصن (١)

حكومة الولاية المركزية

وجلس في دمشق وال يحيط به « اركان ولايت » هم الدفتردار والقاضي والمفتي والمكتوبجي والالاي بكي . وتولى الحكم على ولاية سورية في اثناء المدة التي نحن في صددها كل من اسعد مخلص باشا ومحمد راشد باشا وعبد اللطيف صبحي باشا ومحمد خالت باشا وأسعد باشا واحمد حمدي باشا وراشد ناشد باشا وضيا باشا وعمر فوزي باشا واحمد جودت باشا ومدحت باشا (١٨٧٨) وحمدي باشا . وكان اركان الولاية في عهد هذا الاخير في السنة ١٣٠٠ هجرية (١٨٨٢ — ١٨٨٣) الدفتردار رضا افندي والقاضي حقي افندي والمفتي السيد محمود افندي حمزه والمكتوبجي يوسف بهاء الدين بك وقائد الالاي عمر شوقي بك .

وكان مجلس ادارة الولاية مؤلفاً من اعضاء طبيعيين واعضاء منتخبين . امـا

---

(١) والاقضية الاربعة التي تناولتها الامس في بعض الاوساط السياسية في آخر عهد الانتداب وبدء عهد الاستقلال هي بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا .

الاعضاء الطبيعيون فانهم كانوا الدفتردار والقاضي والمفتي والمكتوبجي . وفي السنة ١٨٨٢ - ١٨٨٣ كان هؤلاء هم المشار اليهم اعلاه . وكان هنالك سبعة اعضاء منتخبين : محمد سعيد باشا وهولو باشا عابد واحمد رفيق باشا شمعه وعلي بك مردم بك وجبران افندي اسبر وسليم افندي ايوب وعبد الله افندي غسطين الذي عزله رستم باشا من عضوية مجلس ادارة جبل لبنان .

وجاء بعد اركان الولاية ومجلس ادارتها مأمورو الولاية . وهؤلاء كانوا في السنة ١٨٨٢ - ١٨٨٣ كما يلي : محمد سعيد باشا « محافظ موكب الحج الشريف » واحمد عزت بك « مفتش الامور العدلية » وسرّي افندي « قبو كتخدا الولاية » اي ممثلها لدى الباب العالي ومحمد شريف افندي « رئيس قوميسيون المهاجرين »[وخليل افندي خوري « مدير الامور الاجنبية والمطبوعات »]وعثمان وافي افندي « مفتش الدفتر الخاقاني » وزكي افندي « مدعي عموم محكمة الاستئناف » ونوري بك « محاسب الاوقاف » واميل افندي « باش مدير البوسته والتلغراف » ونوري افندي « ناظر اعشار الغنم » وامين افندي « رئيس تحصيلدار » وفريد بك « مدير تحرير الويركو » واحمد حافظ افندي « مدير اوراق الولاية » وبغوص افندي « مأمور الاحراج » وبشاره افندي « رئيس المهندسين » وعثمان نوري افندي « رئيس بياطرة الولاية » .

وكان هنالك قوميسيون « لسجل الاحوال وانتخاب المأمورين » ترأسه الوالي في هذه السنة نفسها التي نحن بصددها وتألف من متصرف المركز والدفتردار والقاضي والمكتوبجي ومن المفتي السيد محمود افندي حمزه وحكمت بك ومردم بك وجبران اسبر افندي .

وترأس المفتي مجلس معارف الولاية وجاء بعده برتبة رئيس ثان علاء الدين افندي عابدين وبرتبة مفتش الشيخ طاهر افندي المغربي . وقام بعضوية هذا المجلس كل من احمد رفيق باشا شمعه ومحمد علي افندي الايوبي وسليم افندي مفتي الالاي والقول اغاسى خلقي افندي واحمد نائلي افندي وعثمان افندي الجابي وعارف افندي الجابي ومفتي الالاي محمد اديب افندي وحسن افندي الجابي واحمد افندي منيمني وامين افندي مميز المكتوبجي واسعد افندي نقش بندي وصالح افندي ركاب وصادق افندي الميداني ومصطفى واصف افندي مأمور الليثوغرافية .

وترأس هولو باشا غرفة الزراعة . وجاء بعده برتبة رئيس ثان مراد افندي القوتلي. وشملت عضوية هذه الغرفة كلاً من الشيخ علاء الدين افندي عابدين واحمد افندي قنواتي وعبد الرحيم افندي الغزي ومحمود بك بوظو وعبد الله افندي تقي الدين ومحمود افندي شيخ الارض وهاشم اغا المهايني وخليل بك القدسي .

وكان المفتي بطبيعة الحال رئيس قوميسيون الاوقاف يعاونه فيه كل من احمد

باشا شمعه واحمد بك العظم واحمد افندي الحلبي ومحاسبه جي الاوقاف .

وتألف قوميسيون الويركو من المدير وعبد القادر افندي الاسطواني ومحمود افندي طحان وعبد الرزاق افندي الالشي وعبد الله افندي مشهداني ومحمد افندي القضماني وموسى افندي القدسي وسليم افندي البيطار وموسى افندي لزبونا .

وشمل قوميسيون اسكان المهاجرين الناظر والرئيس كامل بك واحمد افندي الحلبي ومحمود بك بوظو وعبد المجيد افندي السقطي .

وكان على رأس عدلية الولاية احمد عزت بك مفتش العدلية يعاونه قوميسيون مؤلف من رئيسي محكمة الاستئناف الاول والثاني ومدعي عموم الاستئناف ورئيس محكمة البداية الأول ورئيسها الثاني ورئيس محكمة التجارة . وكان هنالك « دائرة محكمة استئناف » مقسومة الى « قسمين » الحقوق والجزاء . وكان قاضي الولايــة رئيس قسم الحقوق يعاونه كل من علي افندي الايوبي وابي السعود افندي الكوزبري وابراهيم افندي عبسي واسبر افندي السبع . وترأس قسم الجزاء رشاد بك وتالفت هيئة الاعضاء من اسعد افندي حمزه ومحمد امين افندي النابلسي وميخائيل افندي صيدح وأسعد افندي بدوي .

وكان هنالك هيئة عليا للبوليس والجندرمة والضبطية يرأسها قائد الالاي عمر شوقي بك ويعاونه فيها كل من محمد نظمي افندي امين الالاي ونجمي افندي سرور كاتب الالاي . وكان مجلس الالاي مؤلفاً من قائد الالاي وامينه والبيكباشي محمد راشد افندي وكاتب الالاي واليوزباشيين محمد افندي واحمد افندي والملازم الاول احمد اغا والملازم الثاني مصطفى اغا .

الجيش المرابط

وكان يرابط في ولاية سورية في السنة ١٨٨٢–١٨٨٣ القول اردوى الهمايوني الخامس – الجحفل الهمايوني الخامس – بقيادة المشير حسين فوزي باشا . وكان هذا الجحفل مؤلفاً من الالاي التاسع والثلاثين النظامي والالاي الاربعين النظامي وفرقة الخيالة الخامسة ومن اللواء الثالث عشر بقيادة امير اللواء عاكف باشا واللواء الرابع عشر بقيادة امير اللواء طيار باشا واللواء الخامس عشر بقيادة امير اللواء بكر سامي باشا . وجميع هذه الالوية الثلاثة من الخيالة . وكان هنالك اللواء الخامس للمدفعية بقيادة امير اللواء محمد توفيق باشا . وكان كل لواء مؤلفاً من الايين ما عدا لــواء المدفعية فانه شكل من الاي واحد . وكان الالاي يقدر بثلاثة الاف والطابور بالف رجل .

اما هيئة اركان حرب هذا الجحفل فانها شملت الامير الاي رأفت بك والامير الاي نظيف بك والبيكباشيين اسماعيل بك وعلى منصور بك والقول اغاسيين حميد افندي وصفوت افندي واليوزباشي عثمان بك وياور المشير اليوزباشي عزت افندي والملازم الاول حالت بك .

حكومة متصرفية بيروت

وتولى الحكم في سنجق بيروت المتصرفون أدهم باشا (اذار ١٨٦٥) (١) والصدر السابق كامل باشا (٦ تشرين الثاني ١٨٦٥) وعبد الهادي باشا (٢٣ شباط ١٨٦٨) ورؤوف باشا (١٤ تموز ١٨٧٠) وعبد الهادي باشا للمرة الثانية (٥ اذار ١٨٧٢) وزهدي افندي (٢٩ حزيران ١٨٧٢) والصدر كامل باشا للمرة الثانية (١٢ آب ١٨٧٢) وابراهيم حقي باشا (٢٦ حزيران ١٨٧٣) ورائف افندي (١٤ شباط ١٨٧٥ (وعلي بك) ١٠ اذار سنة ١٨٧٦ (والصدر كامل باشا للمرة الثالثة (٢١ ايلول سنة ١٨٧٦) ورائف افندي للمرة الثانية (٩ اذار سنة ١٨٧٧) ونجيب باشا (٢٨ شباط سنة ١٨٨١) وابراهيم حقي باشا للمرة الثانية (٢٦ اذار سنة ١٨٨٣) ونصوحي بك (٢٢ شباط سنة ١٨٨٤) .

وجاء في سالنامه السنة ١٣٠٠ هجرية (١٨٨٢ — ١٨٨٣) تحت عنوان مأموري اللوا في بيروت القاضي « النائب » جمال الدين افندي والمفتي عبد الباسط افندي الفاخوري والمحاسبهجي شريف افندي ومدير الاوقاف عبد اللطيف افندي وترجمان الحكومة يوسف افندي (عرمان) ومدير التحريرات حنا افندي .

وكان القاضي والمفتي والمحاسبه جي مدير التحريرات اعضاء طبيعيين في محل ادارة سنجق بيروت . اما الاعضاء المنتخبون فانهم كانوا محيي الدين افندي بيهم وسعد الدين افندي قباني ومحمد بك شجعان وانطون افندي نصر الله وخليل افندي الدباس .

وعاون مدير التحريرات حنا افندي كل من الرفيقين الاول والثاني محمد فريد افندي وانطون افندي والرفيق الثالث شكري افندي والملازم محمد نسيب افندي . وكان كاتب مجلس ادارة السنجق محرم بك ومقيده محمد سعيد افندي . وتألف قلم المحاسبة من الرفيق الاول نيقولا افندي والرفيق الثاني بشاره افندي والرفيق الثالث شكري افندي والمقيد قسطنطين افندي وامين الصندوق حبيب فارس افندي . وتولى ادارة الاعشار سليم افندي يعاونه الباشكاتب حسن تحسين افندي والرفيق احمد

---

(١) هو تاريخ تولي الحكم جاء اساساً بالتاريخ المارتي حساباً شرقياً .

مختار افندي . وكان هنالك قلم للاملاك مؤلف من مأمور الويركو عبد البديع افندي وكاتب الوقوعات حبيب افندي والرفيق محمد علي افندي و « ديكرى » (١) احمد افندي والدفترجي نوري افندي .

وترأس مأمور الويركو قوميسيون الاملاك وقام بعضوية هذه اللجنة كل من عبد الغني افندي رمضان وخليل افندي دبه ومحمود خرما افندي وجرجي افندي بسول ولطف الله افندي فيعاني وابراهيم افندي النحاس .

وتشكلت هيئة التحصيل من سليم افندي ثابت « سر تحصيلدار » ومن خليل شكري افندي وعبد الرحمن افندي وامين افندي وسليم افندي عز الدين وحبيب افندي وحبيب افندي غلاييني . وتولى الدفتر الخاقاني كامل افندي وعاونه فيه الرفيق الاول اسكندر افندي والرفيق الثاني حليم افندي وكاتب الاملاك نجيب افندي .

وأشرف على سير المعارف « بيروت معارف مجلسى شعبه » برئاسة القاضي ومحيي الدين افندي حماده وعضوية محمد اياس افندي وحسن افندي بيهم والشيخ احمد قباني وبشير افندي البربير ومحمود خواجه افندي والحاج حسن افندي الطرابلسي .

وترأس الحاج محيي الدين افندي حماده مجلس البلدية ايضاً وأحاط به عشرة اعضاء من وجوه بيروت واعيانها : موسى افندي فريج ومحمد افندي اياس وجورج افندي النقاش وحبيب افندي واسعد افندي سرسق وبشاره افندي ارقش وبشاره افندي الهاني وملحم افندي فياض ويوسف افندي الجدي وجرجي افندي طراد والطبيب البلدي جبور افندي . وتولى الكتابة سعيد افندي الجاويش وامانة الصندوق عبد الرحيم افندي البربير وقسم الهندسة يوسف افندي يعاونه نخله افندي واعمال التفتيش احمد افندي رمضان واعمال القونتراتو اسعد افندي والطبابة نخله افندي مدور .

وكانت هيئة محكمة البداية مؤلفة من دائرتين حقوقية وجزائية . وكان رئيس الدائرة الحقوقية القاضي جمال الدين افندي واعضاؤها عبد القادر افندي وميخائيل افندي والملازم سليم افندي. وترأس الدائرة الجزائية نعوم افندي يعاونه الاعضاء بكري افندي وفارس افندي والملازم خليل افندي . وتألفت هيئة القلم من الباشكاتب محمد توفيق افندي وكتاب الضبط ابو حسن افندي وسليم افندي ومحمد افندي و« ديكرى » رشيد افندي ومستنطق واحد احمد افندي ومأمور اجراء رشيد ومحرر مقاولات حبيب افندي .

---

(١) وغيره ؟

وتألفت هيئة محكمة التجارة من الرئيس عبد القادر افندي والاعضاء نقـولا افندي نقاش ونجيب افندي بيهم وعبد الله افندي بيضون وفضل الله افندي فيعاني وفرنسيس افندي راهبه ومحمود افندي خواجه. وكان يمثل الفرنساويين في الاحكام المختلطة وعند الاقتضاء السادة ده برتوي وشارلييه وديبلان وبيرون والروسيين عند الاقتضاء السادة حبيب بسترس وكريستمان وفالناكي وبدروني والانكليز عند الاقتضاء ايضاً السادة نيكسون وسميث وهودوين والالمانيين السيدان فانك هنير وكندر والنمساويين السيدان سكريست وهدمل والايطاليين السيدان بدروني وماركوبولي واليونانيين السادة سكريني وكريسنفور وسكرمدى والايرانيين السيدان ميخائيل افندي سابا وميخائيل افندي جهشـان والاميريكيين السيدان شارلييـه وميخائيل غرزوزي والدنيماركيين السيدان شارلييه وسميث .

وترأس قلم محكمة التجارة الكاتب الاول الفائق جبرائيل افندي غرغور وعاونه فيه الكاتب الثاني سعد الدين افندي حماده والكاتب الثالث يوسف افندي واكـد والترجمان فتح الله افندي جاويش والكاتب رزق الله افندي طوقاتلي والمقيد الاول محمد افندي حمود والمقيد الثاني عبد الرحيم افندي بربير .

وكان اميل افندي سر مدير البوسته والتلغراف يعاونه مفتش الولاية حمـدي افندي وسر كاتب الولاية مصطفى افندي وسبعة مأمورين لاجل المخابرات التركية وخمسة مامورين لاجل المخابرات الاجنبية .

وكان هنالك نظارة للرسومات يرأسها الناظر محيي الدين بك ويعاونه فيها المفتش نوري بك واثنان من رتبة باشكاتب احدهما في قلم المحاسبة نوري افندي والآخر في قلم التحريرات شاكر افندي وجاء بعد نوري افندي في قلم المحاسبة رفقاء ثلاثة ومقيد وفي قلم التحريرات بعد شاكر افندي مترجم ورفيق اول علي رضا بك ورفيقان ومبيض . وكان هنالك امين صندوق عبد المجيد افندي يعاونه مقيد .

وكان لسنجق بيروت مديرية للرسومات يرأسها المدير حسني بك ويعاونـه باشكاتب الحاج عبدي افندي وامين صندوق عبد القادر افندي. ومأمور في جبيل يوسف افندي ومامور آخر في جونية شوكت افندي . وكان لدى هذه المديرية « بابور همايوني » حربي عليه سواري اول قول اول القبودان عمر افندي والسرجرخى الصاغ قول اغاسي وامق افندي وغيرهما .

وخصّ والي ولاية سورية بيروت بطابور الجندرمه السادس لصيانة الامن فيها وفي ملحقاتها . وكان هذا الطابور مولفاً من واحد وستين خيالاً ومئة وخمسة وستين من المشاة . واضاف الوالي الى هؤلاء تسعة وثلاثين ضبطياً من صنف المشاة وخمسة وعشرين بوليساً . وتألفت قيادة الطابور من البيكباشي فوزي افندي والكاتب صدقي

افندي واليوزباشيين كامل اغا واسعد افندي والملازمين الاولين يوسف اغا وسليمان اغا والملازمين الثانيين عبد الله اغا ومحمد افندي .

ممثلو الدول في بيروت

وآثر القناصل بيروت على سواها لقربها من قلب لبنان ولانها كانت قد اصبحت منذ عهد المصريين ثغر الاقطار الشامية . وكان يمثل انكلتره فيها القنصل الجنرال المستر ألدريدج يعاونه نائب القنصل المستر ادم سامسويا والتراجمة اسبر افندي شقير وخالمبكاريوس افندي وسليم افندي بسول واسكندر افندي مسك .

ومثل المانية القنصل الدكتور شرودر ونائب القنصل الهر هارتمان والتراجمة أسعد افندي تابت وجرجي افندي سرسق وفرنسيس افندي مطر وموسى افندي سرسق .

ومثل فرنسة القنصل المسيو باتريموتيو والتراجمة ميخائيل افندي مدور والياس افندي غانم ونجيب افندي مدور .

ومثل روسية القنصل الجنرال المسيو تيقوويج والتراجمة ميخائيل افندي شحاده وجرجس افندي التويني وسليم افندي طراد .

ومثل ايطاليا القنصل الجنرال المسيو قولوجي والتراجمة يوسف افندي مسعد ويعقوب افندي قماطي والياس افندي مسعد ونقولا افندي قماطي .

ومثل هولندة القنصل الجنرال المسيو سيور والتراجمة يواكيم افندي نجار وجرجس افندي عيد والياس افندي صالحاني وفضل الله افندي سيور .

ومثل النمسة والمجر القنصل الجنرال المسيو شولس والتراجمة حنا افندي مدور وابراهيم افندي اصفر وعبد الله افندي صوصه وسليم افندي فريج .

ومثل اسوج ونروج نائب القنصل المسيو التينا والترجمانان سليم افندي زحيل وبطرس افندي خضرا .

ومثل الدنيمارك القنصل المسيو نيكسون ونائب القنصل المسيو لوتويد والتراجمة بشاره افندي دهان وميخائيل افندي جدي ويعقوب افندي كفوري واسعد افندي نصر .

ومثل الولايات المتحدة الاميركية القنصل جون زيسون ونائب القنصل ساموئيل هالوق والتراجمة داود افندي زلزل وجرجي افندي دباس وحبيب افندي الدوماني وقسطنطين افندي الحوري .

ومثل اليونان القنصل المسيو ايسموماخر والتراجمة دياس افندي وميخائيل

افندي كميد ونخله افندي جهشان .

ومثّل بلجيكة القنصل الجنرال المسيو نيكس والتراجمة سليم افندي قشوع وحبيب افندي غدراسي وميشال افندي عربيله .

ومثّل ايران الشهبندر اسكندر افندي سرسق والتراجمة اسكندر افندي طراد وجرجس افندي بيابا والحاج احمد افندي الحبال ونخله افندي سابا .

ومثّل البورتوغال القنصل المسيو بارودي والترجمانان خليل افندي خياط ونصر الله افندي خياط .

ومثّل اسبانية القنصل دون اميليون يرا والتراجمة يوسف افندي تيان ورشيد افندي الخوري وديمتري افندي كسيب .

الحكومة في ملحقات بيروت

(١) قضاء صيدا : القائمقام احمد شكري افندي والنائب سليمان سري افندي والمفتي عثمان افندي ومدير المال مظهر بك وكاتب التحريرات محيي الدين افندي وامين الصندوق سعيد افندي . وكان مجلس ادارة القضاء مؤلفاً من القائمقام برتبة رئيس ومن النائب والمفتي ومدير المال وكاتب التحريرات اعضاء طبيعيين ومن حاجي محمود افندي المجذوب ودرويش بك الحسن وبشاره افندي قنواتي ويوسف افندي كرم اعضاء منتخبين ومن الكاتب محمد افندي . وترأس النائب محكمة البداية وعاونه في الحكم الاعضاء عبد الحي افندي لطفي وابراهيم افندي فاضل والشيخ علي افندي الحر وحنا افندي لطوف والمستنطق المعاون كامل افندي مغربي والكاتب توما افندي نمّور ومعاون الكاتب توما افندي الخوري . وكان لشعبة مجلس المعارف رئيسان اول وثان النائب والمفتي . وقام باعباء عضوية هذه الشعبة كل من كامل افندي مغربي وعبد السلام افندي زنتوت ومحمد افندي زنتوت وابراهيم افندي القطب ومحمد افندي نعماني وعبد اللطيف افندي وحسين افندي جوهر ومحمد افندي وحاجي يوسف افندي . وتألف المجلس البلدي من الرئيس ابراهيم افندي الجوهري والاعضاء علي افندي البزري ومحمد افندي صالح وحاجي احمد افندي ومحمد افندي وشيخ اسماعيل افندي وجبور اغا نمور ومن الطبيب مراد افندي العازوري والكاتب يونس افندي وامين الصندوق عبد اللطيف افندي. وكان هنالك ايضاً كاتب للويركو وكاتب للطابو وكاتب وقوعات ومامور تلغراف ومامور فنار وكرنتينه ودائرة رسومات وماموريه الرسوم الستة ومأمورو تحصيل .

(٢) قضاء صور : وتولى الحكم في هذا القضاء القائمقام سليمان افندي والقضاء

النائب عبد الملك افندي ومديرية المال عبد الرحمن افندي وادارة التحريرات ابراهيم افندي وامانة الصندوق جرجي غسطين افندي .

وكان هنالك مجلس ادارة ومحكمة بداية ومحكمة تجارة ومجلس بلدي . وتألف مجلس الادارة من القائمقام والاعضاء النائب ومدير المال وكاتب التحريرات والشيخ مصطفى افندي ملا واحمد افندي عز الدين وحبيب افندي البيروتي ويوسف افندي النجار والكاتب ابراهيم افندي . وجلس على منصة القضاء في محكمة البداية النائب يعاونه الاعضاء خليل افندي يتيم وقسطنطين افندي صالحة والحاج علي افندي الخليل وخليل اغا خريش . وكان هنالك كاتب نجيب افندي جار ومعاون مستنطق عثمان افندي ومباشر جبران اغا . وترأس النائب نفسه عبد الملك افندي محكمة التجارة ايضاً وعاونه فيها الاعضاء حاجي خليل افندي وقسطنطين افندي وخليل اغا وحاجي علي افندي ابي عرب ومرّي افندي . وترأس سليم افندي يونس المجلس البلدي وعاونه الاعضاء يوسف افندي حلاوي ومحمد افندي دادا واسكندر افندي فرح وسليم افندي جبور . وتولى طبابة البلدية الطبيب اسكندر افندي الطرابلسي وقام باعمال الكتابة الياس افندي وبامانة الصندوق فضل الله افندي .

وكان هنالك بالاضافة الى ما تقدم مأمورية للرسوم الستة ودائرة للرسومات ومأمور كرنتينه ومأمور فنار وكاتب وقوعات ومأمور تلغراف وكاتب طابو . وترأس دائرة التحصيل ابراهيم افندي حلاج يعاونه الفرسان سليم نوري افندي وبشاره نادر افندي وحسن افندي والتحصيلدار المشاة سليم حسون افندي .

(٣) قضاء مرجعيون : الموظفون القائمقام رشيد افندي والنائب علي رضا افندي ومدير المال سليم افندي ايوب وكاتب التحريرات مصطفى افندي وامين الصندوق روفائيل افندي .

وكان مجلس ادارة ومحكمة بداية ومجلس بلدية . وتولى القائمقام رئاسة مجلس الادارة وقام بمهام العضوية كل من النائب ومدير المال وكاتب التحريرات ومصطفى افندي دياب والحاج حسن افندي ويعقوب افندي جباره . وتولى الكتابة بطرس افندي نادر وتولى القضاء في محكمة البداية النائب علي رضا افندي . وكان يعاونه فيها الاعضاء ملحم افندي راشد والحاج محمود اغا وسعيد افندي . وقام بالاعمال الكتابية محمد افندي وبالاستنطاق الشيخ علي افندي وباعمال التبليغ المباشر سويد افندي . وترأس المجلس البلدي مسعود افندي يعاونه الاعضاء عيد افندي ومخائيل افندي وفارس افندي وفرحات افندي وعيسى افندي . وتولى الطبابة الحكيم سليم افندي جلخ وكان ملحم افندي كاتب المجلس وامين صندوقه .

وكان هنالك ايضاً كاتب ويركو وكاتب طابو ومأمور للرسوم الستة وثلاثة مأموري تحصيل .

وتولى الحكم فيها في هذه السنة التي نحن بصددها ١٨٨٢ – ١٨٨٣ المتصرف محمد يوسف باشا . وتولى القضاء النائب واصف افندي وكان يحمل شهادة « كبار مدرس » والافتاء مصطفى افندي كرامه والمحاسبة نجيب افندي نوفل ونقابة الاشراف علي افندي وادارة التحريرات حسن فايز افندي واعمال الطابو محمد افندي وادارة الاوقاف عبد الرحمن افندي .

وتولى المتصرف رئاسة مجلس ادارة السنجق . وعاونه في ذلك الاعضاء الطبيعيون النائب والمفتي والمحاسبه جي ومدير التحريرات ونقيب الاشراف والاعضاء المنتخبون احمد افندي اسماعيل ومحمد بك المحمد وجرجي افندي نقاش وقيصر بك نوفل وخليل افندي الخوري .

وتنوعت اقلام الحكومة فكان هنالك قلم التحريرات وقلم مجلس الادارة وقلم المحاسبة وقلم الاعشار والاغنام وقلم الويركو وقلم التحصيل وقلم الدفتر الخاقاني .

وترأس شعبة المعارف النائب بصفة رئيس اول والشيخ علي افندي بصفة رئيس ثان . وكان بين الاعضاء ثلاثة من بيت الصوفي عبد الرحمن افندي ومحمد افندي واحمد افندي . وقام بمهام العضوية ايضاً كل من عبد القادر افندي كمال وعبد القادر افندي منلا ومحمود عزيز افندي . وتولى الكتابة عبد الرحمن بك وامانة الصندوق مصطفى افندي .

وكان هنالك قوميسيون املاك يرأسه مأمور الاملاك ومجلس بلدي يرأسه محمود افندي ويقوم باعمال العضوية فيه كل من امين افندي المغربي والشيخ سعيد افندي عز الدين وعبد الحميد افندي الحسيني وعبد القادر افندي كريمه ومحمد افندي ومحمد افندي القرق ونسيم افندي خلاط وعبد الله افندي . وكان مدير التلغراف والبوسته توفيق بك .

وانقسمت هيئة محكمة البداية الى دائرتين حقوقية وجزائية فترأس الدائرة الحقوقية النائب وعاونه فيها الاعضاء احمد افندي ورفول افندي والملازم حنا افندي . وترأس الدائرة الجزائية توفيق بك وعاونه فيها الاعضاء محمود عزيز افندي وميخائيل افندي وعبد الرزاق افندي وقام باعمال الاستنطاق ارسلان افندي .

وترأس محكمة التجارة نقولا بك نوفل وقام بمهام العضوية فيها كل من محمد افندي النعنعي وجرجي افندي مسعد وبشاره افندي ومحمد علي افندي ومحمود افندي ونسيم افندي .

النواحي الملحقة

وجعل من اسكلة طرابلس ناحية مستقلة تولى ادارتها المدير محمد شريف بك يعاونه الكاتب اسماعيل شوقي افندي وتولى ادارة ناحية الضنية المدير احمد اغا يعاونه الكاتب اسحق افندي .

قضاء عكار

وكان بين الاقضية التابعة لسنجق طرابلس قضاء عكار . وتولى الحكم فيه القائمقام عبد اللطيف بك والقضاء النائب محمد امين افندي والافتاء مصطفى افندي وادارة المال اسعد افندي وامانة الصندوق ميخائيل افندي .

وتولى القائمقام رئاسة مجلس ادارة القضاء وعاونه في ذلك الاعضاء الطبيعيون النائب والمفتي ومدير المال وكاتب التحريرات والاعضاء المنتخبون محمد بك ومصطفى بك وطنوس افندي وطنوس افندي ضاهر .

وكان هنالك محكمة بداية تولى رئاستها النائب محمد امين افندي وعاونه فيها الاعضاء علي بك المحمد وحسين بك العثمان وانطونيوس افندي ومنصور افندي . وتولى مهام الكتابة فيها الباشكاتب محيي الدين افندي والاستنطاق الكاتب نسيب افندي .

وبالاضافة الى ما تقدم كان هنالك كاتب ويركو وكاتب طابو وستة مأمورين لاجل تحصيل الضرائب يرأسهم السر تحصيلدار اشرف افندي .

حكومة الاقضية الشرقية

وكان قد سلخ عن لبنان في السنة ١٨٤١ البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا وتوابعها. وقضت الظروف الدولية في السنة ١٨٦٠ ان تبقى هذه الاماكن خارجة عن لبنان . وعند تشكيل ولاية سورية سنة ١٨٦٤ الحقت هذه الاراضي بسنجق دمشق فقسمت الى اقضية اربعة :

(١) قضاء بقاع العزيز : وقام باعباء الحكم في هذا القضاء في السنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ القائمقام محمود بك وتولى القضاء فيه النائب محمد رشيد افندي النابلسي والمال المدير ابراهيم شلهوب افندي والافتاء ابو السعود افندي قادري والتحريرات فضل الله افندي وامانة الصندوق بشاره افندي .

وترأس القائمقام مجلس ادارة القضاء . وعاونه فيه الاعضاء الطبيعيون النائب والمفتي ومدير المال وكاتب التحريرات والاعضاء المنتخبون يوسف افندي فرعون

وحسين جود افندي ومنصور افندي الدبس وناصيف بك حجيج .

وتولى منصة القضاء في محكمة البداية النائب وعاونه مميزان محمد جراح افندي واسكندر كحيل افندي وملازمان اسعد عبيد افندي وحنا نور افندي . وتولى الكتابة فيها الكاتب الاول يوسف افندي والكاتب الثاني خليل بركه افندي والاستنطاق يعقوب عزيز افندي .

وكان هنالك كاتب ويركو محمد نوري افندي وكاتب طابو يوسف افندي عطايا ومأمور الرسوم الستة ملحم افندي باز وسر تحصيلدار افندي عبد المعني افندي شراني يعاونه ثمانية من الفرسان والمشاة .

وقام في مركز القضاء مجلس بلدي رئيسه حنا افندي فريجه واعضاؤه ضاهر افندي والحاج موسى افندي الحداد ونجم افندي موسى وخليل افندي لطف الله ويوسف افندي فريجه وموسى افندي تامر . وكان كاتب المجلس البلدي خليل افندي فريجه وطبيبه ميخائيل افندي درعوني وجاويشه فارس اغا .

(٢) قضاء بعلبك : ومثل السلطة الادارية العليا في هذا القضاء في السنة التي نحن بصددها القائمقام احسان بك . وتولى القضاء فيه النائب محمد سعيد افندي والافتاء علي افندي ومديرية المال سليم افندي وكتابة التحريرات فضلو افندي وامانة الصندوق الياس افندي .

وتولى القائمقام احسان بك رئاسة مجلس ادارة القضاء وقام بمهام العضوية فيه الاعضاء الطبيعيون النائب والمفتي ومدير المال ووكيل الاوقاف ووكيل نقيب الاشراف جواد افندي والاعضاء المنتخبون دعيبس افندي سكرية واحمد اغا شبلي وكسرى افندي مطران وفارس افندي روفائيل .

وتشكلت محكمة البداية فيه من النائب محمد سعيد افندي رئيساً ومن محمد قاسم افندي ومحمد سعيد افندي وعبده افندي مطران وابراهيم سعيد افندي اعضاء . وتولى الكتابة فيها شبلي افندي حيدر ومرعي افندي والاستنطاق سليم افندي . وكان محمد رضا افندي مباشراً ومثله اسماعيل اغا .

وتولى رئاسة بلدية بعلبك سعيد افندي وشملت عضويتها كلاً من ابراهيم افندي ومحمد حسن افندي ومحمد زين افندي وسليم ابو صافي افندي واسعد اغا حيدر والياس افندي فرح ويوسف هراوي افندي . وقام باعمال الطبابة من قبل هذا المجلس الطبيب ناصيف افندي مطران وباعمال الهندسة عمر افندي . وعيّن المجلس سليمان اغا وحمد اغا جاويشين بلديين .

وكان هنالك كاتب ويركو عبد الله افندي صبري وكاتب طابو نيقولا افندي الخوري ومأمور تلغراف وبوستة . وتولى اعمال التحصيل السر تحصيلدار محمد

حمدي افندي وعاونه فيها ثلاثة من الخيالة واثنان من المشاة .
(٣) قضاء راشيا : وفي هذه السنة نفسها كان قائمقاماً على راشيا وتوابعها سعيد بك ونائباً فيها احمد افندي لبابيدي ومدير مال اسعد افندي ابو حمد وكاتب تحريرات اسبر افندي الحوري وامين صندوق ابراهيم افندي عزيز .

ولم يكن لمجلس ادارة هذا القضاء اعضاء منتخبون فاكتفى القائمقام بالاعضاء الطبيعيين النائب ومدير المال وكاتب التحريرات . وقل الامر نفسه عن محكمة البداية فان النائب احمد افندي اللبابيدي تولى القضاء وحده بدون اعضاء يعاونونه .

وترأس الشيخ عباده زاكي المجلس البلدي وعاونه فيه الاعضاء الشيخ محمود البيطار ومحمد افندي سيور وسليمان افندي داود وميخائيل افندي بركات وجرجي افندي اللحام .

وكان هنالك كاتب نفوس واملاك نيقولا افندي وكاتب طابو نعمان افندي وكاتب يوقلمه ابو سعدى افندي ومامور تلغراف نائلي افندي ومأمور الرسوم الستة ناطق افندي وكان امين افندي الحاج سر تحصيلدار . وعاونه في ذلك كل من سليمان افندي زاكي وابراهيم افندي زغيب .

(٤) قضاء حاصبيا : وتولى الحكم في قضاء حاصبيا القائمقام حسن اغا بوظو والقضاء النائب محمد يس افندي والمال المدير سيم افندي والتحريرات الكاتب رشيد افندي .

وترأس القائمقام مجلس الادارة . وقام بمهام العضوية في هذا المجلس الاعضاء الطبيعيون النائب ومدير المال وكاتب التحريرات والاعضاء المنتخبون الامير اسعد شهاب وقاسم خير الدين ويوسف افندي لطيفه وناصيف افندي الريس .

وتولى منصة القضاء في محكمة البداية النائب محمد يس افندي . وعاونه في ذلك الاعضاء الامير علي سيد احمد شهاب وفارس افندي وداود افندي الحوري . وتولى الاعمال الكتابية في هذه المحكمة الباشكاتب نجيب افندي والاستنطاق اسعد افندي . وكان مباشرها كامل اغا .

وترأس المجلس البلدي الامير كنج شهاب وقام باعباء العضوية كل من الشيخ محمد افندي وعبد الله افندي كنيس . وتولى الاعمال الكتابية ابراهيم افندي لطيفه والطبابة الحكيم شاكر افندي دبغي وامانة الصندوق حسين افندي . وعيّن المجلس مباشراً لديه بشير افندي .

وكان هنالك كاتب ويركو وكاتب طابو ومأمور تلغراف ومأمور رسومات . وتولى اعمال التحصيل السر تحصيلدار الامير محمد سعيد شهاب. وعاونه في ذلك كل من اسعد افندي وحبيب افندي .

وتوالت الكتابات طوال هذه المدة بين حكومة الولاية وبين حكومة المتصرفية بما قضت به ظروف الادارة العادية . فمن لبناني في بيروت وطرابلس او دمشق يمتنع عن دفع مال الاعانة الى صندوق الولاية بداعي لبنانيته ومن بقاعي يقطع الحدود اللبنانية بغنمه وماعزه تهرباً من ضريبة « التعداد » ومن مجرم هنا او هناك يفر من وجه العدالة فيلتجىء اما الى لبنان او الى سهول حوران ومن تاجر في بيروت يطالب بمال له لدى احد اللبنانيين في قرى لبنان الى ما هنالك من حوادث ادارية عادية تطلبت المكاتبة بين الحكومتين للقيام بالواجب الحكومي .

وقامت في الوقت نفسه مشاكل غير عادية تطلبت جهوداً غير قليلة لحلها . وكان في مقدمة هذه المشاكل مسئلة الحدود ومسئلة الصلاحيات وفرض الضرائب وجبايتها واجراء التفتيش وغير ذلك مما أدّى في بعض الاحيان الى تشبث الطرفين كل بنظريته ورأيه فتأتى عن ذلك خصام وتوتر في العلاقات .

رئيس ليمان بيروت

وفي اواخر تموز من السنة ١٨٧٣ كتب متصرف بيروت الى الحكومة اللبنانية يفيد ان المصلحة تقضي بمراقبة حركة الدخول الى المرافىء اللبنانية والخروج منها ولا سيما في اسكلتي جونية وطبرجة وانه تنفيذاً للأمر الصادر عن نظارة البحرية الجليلة يرى رئيس مرفأ بيروت نفسه مضطراً الى تعيين مراقبين من قبله لتفتيش السفن الداخلة والخارجة . فأحال رستم باشا هذه المراسلة الى مجلس الادارة لابداء رأيه فيها فكان جواب المجلس « ان هذه المصلحة ما صار اجراها بجبل لبنان منذ القديم للآن . وبما انها تخالف النظامات الممنوحة بحق اهاليه فاذا شاء دولته فليصدر امره على هذا الوجه » .

مياه نهر الاولي

وفي صيف هذه السنة نفسها احدث مجلس ادارة صيدا بناء جديداً على جانبي

القناة السلطانية التي كانت تنقل مياه الاولي الى مدينة صيدا فرفع جوانبها نصف ذراع وغير فوهات المياه فيها فخفت المياه عن طواحين اللبنانيين عند جسر الاولي وتوقفت وحلّت ببعض البساتين خسارة جسيمة . وكان معظم هذه البساتين والطواحين ملكاً لآل جنبلاط زعماء الشوف فاحتجوا على ما استجد ولكن دون جدوى . وعندئذ اضطروا ان يهددوا باللجوء الى العنف للمحافظة على حقوقهم الموروثة فاضطر مجلس ادارة صيدا ان ينظم ضبطاً بالواقع ورفعه الى المتصرف في بيروت . فكتب هذا بذلك الى جاره المشير رستم باشا راجياً احقاق الحق . فأحال المشير حاكم لبنان الاوراق الواردة الى مجلس ادارة لبنان للدرس والتحقيق وابداء الرأي . فاستدعى المجلس الشيخ قاسم شعلان « وكيل ارزاق البكوات في سقي صيدا » واستمع الى شهادته ثم اتخذ القرار التالي :

« ان المعلوم لدى هذا المجلس هو ان موقع العيارات المختلف عليها وقناة مدينة صيدا حتى مصبها هو داخل ضمن كنار الجبل والمطاحن المختصة بالبكوات جاري دورانها على الماء المذكور صيفاً شتاءً بدون انقطاع منذ زمن لا يعلم ابتداؤه . وهذا الامر معلوم ومشهور لدى كثيرين من اهالي الجبل وقائمقامية صيدا حتى ان طحن مدينة صيدا والمحلات المجاورة لها هو قايم على المطاحن المحررة . فانكار حق هذه المطاحن والاملاك من الماء المرقوم استناداً الى ما قرره القناواتية هو مناف لحقيقة الحال المشهورة والمعلومة حتى انه لم يسمع قط فيما مضى من الزمان بانه في وقت ما تحول قسم المطاحن والاملاك من الماء عنها الا بهذه السنة . كما والماء الجاري بقناة السلطنة ليس هو خاصة اهالي صيدا بل انه يوجد بساتين متعددة ربما تزيد عن مايتي فدان للبكوات الموما اليهم ولغيرهم من اهالي الجبل لها حقوق معلومة من الماء الجاري بالقناة المسطرة بنسبة املاك اهالي المدينة الموما اليها .

« وبما ان العدالة السنية والاحوال الشرعية تقضي بابقاء القديم على قدمه فاذا تحسن بالارادة صدور الامر الشريف لسعادتلو متصرف بيروت الافخم على الوجه المشروح».

حادث خان مراد

وفي الثامن والعشرين من كانون الاول من السنة نفسها ١٨٧٣ بينما كانت فرقة من العساكر الشاهانية مارةً من دمشق الى بيروت ولدى وصولها الى خان مراد تنازع بعض افرادها مع بعض مستخدمي قومبانية طريق الكروسة اللبنانيين . وأطلق العسكر عياراتهم النارية فاصابوا النمرهجي على طريق الكروسة الياس ابن جرجس شديد في رأسه فمات للحال وجرحوا خليل جبور في بطنه . فهب اقرباؤهما في حمانا للقتال .

ولكن المتصرف رستم باشا أرسل فرقتين من الضابطة اللبنانية « لمنع الاسباب والمحافظة على الراحة » ووعد باحقاق الحق . وعينت لجنة عسكرية مختلطة للتحقيق وأصر مجلس الادارة على جلب المتهمين من العساكر الى لبنان لاكمال التحقيق فكان له ذلك على الرغم من بعض المعارضة .

لبنان ليس من ملحقات بيروت

وفي العاشر من شباط سنة ١٨٧٤ تسلّم المجلس الاداري اللبناني امراً وزاريا صادراً عن نظارة البحرية الجليلة ينبىء حسن قبودان « صاغ قول اغاسى عساكر بحرية شاهانية » رئيساً على ليمان بيروت « وملحقاتها » صيدا وصور « وجبل لبنان » ويبين صلاحياته وكيفية استعمالها . فاعترض المجلس على نص القرار الوزاري العثماني مبيناً ان لبنان ليس من ملحقات بيروت وانه معفى منذ القــدم من « هكذا رسوم وعوايد » !

ووصل بعد ذلك بقليل القبودان عمر الطرابلسي بمركب شراعي من بنغازي الى جونية وأفرغ حمولته من الملح فيها باسم احد الاهالي اللبنانيين . فحاول رئيس ليمان بيروت ان يستنطق عمر الطرابلسي بواسطة معاونه ادهم افندي ولكن المجلس الاداري اللبناني رفض اقتراح رئيس مرفأ بيروت واوصى باستنطاق عمر بواسطة الحكومة اللبنانية .

وقذف البحر في هذه الآونة نفسها اخشاباً وبضائع اخرى الى اساكل لبنان فطالب رئيس ليمان بيروت بها ولكن المجلس اللبناني أبى ان يسلمها .

طرابلس وزغرتا

وفي منتصف آب من السنة ١٨٧٤ وردت على الحكومة اللبنانية برقية من متصرفية طرابلس تحتج فيها على موقف البعض من ابناء زغرتا من مأمور تحرير طرابلس الذي اراد ان يقيد بعض الاراضي الداخلة ضمن حدود قرية عردات فأكره على الخروج منها بالقوة . والتمس متصرف طرابلس تأديب المذكورين وارسالهم سريعاً الى طرابلس لتبيان املاكهم الواقعة ضمن حدود الولاية . وأحال المتصرف رستم باشا البرقية الى مجلس الادارة لابداء رأيه فيها فأجاب المجلس « بان الاراضي المرقومة هي منذ القدم لبنانية وانها مسحت مع سائر الاراضي اللبنانية المجاورة مثل سائر ارزاق جبل لبنان » . وأضاف بان طلب تحريرها مجدداً في دفاتر املاك طرابلس مخالف للاصول والنظام الى ان قال « ولا بد بعد تشريف دولته للجبل من اتخاذ طريقة حازمة لهــذه القضية

وخلافها من القضايا الواقع التعليل بها بين المتصرفيتين بما لا يمس حدود الجبل المقررة بالنظامات الملوكية » .

ومما زاد اعضاء المجلس اللبناني تشبثاً بظنهم بحكومة طرابلس ومجلسها الاداري ان متصرف طرابلس اعتبر في هذه الآونة نفسها اولاد جبور الصيفي من سكان ميناء طرابلس المعدودين بدفاترها وراسل الحكومة اللبنانية بذلك . ولدى التدقيق في هذه القضية أبرز اولاد جبور هؤلاء كشفاً سابقاً رسمياً صادراً عن مجلس ادارة طرابلس نفسها ينص بانهم غير معدودين في ميناء طرابلس وان اسماءهم وردت في دفاتر حردين اللبنانية !!

وتتالت المناورات بين المجلسين اللبناني العام والطرابلسي حول الحدود . ولعل اكمل ما دوِّن في هذا الموضوع في عهد رستم هو ما جاء في المضبطة المؤرخة في الثلاثين من كانون الثاني سنة ١٨٨٣ واليك نصها بالضبط :

« انه لدى الاحالة صارت مطالعة التحريرات الواردة من جانب وكالة ولاية سورية الجليلة المؤرخة في ١٧ صفر سنة ١٣٠٠ و٢٥ كانون الاول سنة ١٢٩٨ نمرو ٦١٤ المتضمنة بانه حيث كان غير ممكن تسوية الاختلافات التي ظهرت من مدة فيما بين متصرفية لبنان الجليلة ومتصرفية طرابلس البهية بشأن تابعية الاراضي والاملاك الكاينة في مزرعة الحريشة الواقعة في قرية القلمون التابعة لسنجق طرابلس وفي بعض قرى معلومة من اعمال السنجق المذكور المتصرف بها بعض اشخاص من اهالي جبل لبنان . وانه حيث تسبب من هذه الاختلافات عدم تحصيل اثمار ويركو الاراضي والاملاك المذكورة فصار تقديم المضبطة الصادرة من مجلس ادارة الولاية الى نظارة الداخلية الجليلة ليحصل التفضل بمراجعة قيود الدفترخانه الخاقانية والتكرم بالافادة عنها . وحيث من المقرر اجراء الايجاب بالنظر للجواب الذي يرد فرسل عن طي التحريرات الموما اليها صورة المضبطة المسطورة الصادرة عن المضبطة الواردة من مجلس ادارة لواء طرابلس المتضمنة :

«ان قرية القلمون التابعة طرابلس الملحقة بها مزرعة الحريشة المذكورة كاينة داخل قرى ثلث الكوره الذي كان تابعاً طرابلس . وان سبعة عشر قيراطاً من القرية المذكورة مختصة بخزينة طرابلس والسبعة قراريط الاخر تختص بالجامع الشريف المعمور الموجود هناك . وان اموالها الاميرية القديمة كان جارياً دفعها سنوياً لجهة صندوق مال طرابلس غير انه في سنة ٧٧ الماضية انفردت قرية القلمون المذكورة عن الكورة والحق ثلث قضاء الكورة المذكور بالجبل . وصارت تتصرف اهالي القلمون بمقدار من الاراضي والاملاك الكاينة ملكها في الحريشة المار ذكرها . والقسم الآخر انتقل لدير البلمند ولاهالي قرية ذكرون التابعة الجبل والمجاورة قضا الكورة

الملحق بالجبل انما مرتباتها الاميرية القديمة كانت تندفع لخزينة طرابلس .

« وفي مدة المرحوم داود باشا المتصرف الاسبق قد امتنع بعض المتصرفين بالاراضي المذكورة بوجه الشراء عن دفع المرتبات الاميرية لصندوق طرابلس . وفي غضون مساحة جبل لبنان اخذوا يحاولون ادخال هذه الاراضي في خراج الجبل بدعواهم انهم لبنانيون . اما الآخرين اي القسم العظيم من اصحاب الاملاك المذكورة حال كونهم من اهالي الجبل قدموا معروضاً لحكومة طرابلس مصادق عليه من رئيس اساقفة الروم المقيم الآن في طرابلس بعدم رضاهم بالحاق املاكهم هذه الكاينة في الحريشة بقضاء الكورة وبسلخها عن قرية القلمون المذكورة (١) .

« وبناء عليه غب اجراء المخابرة بهذا الشأن كان حرر المتصرف المشار اليه لقائمقامية الكورة بوجوب ابقاء الاملاك المذكورة داخل قرية القلمون على ما كانت عليه وبلزوم تأدية مرتباتها الاميرية لخزينة طرابلس على المنوال القديم .

« وبقيت هذه الصورة على حالها ولم تتغير في مدة المرحوم فرنقو باشا المتوفي متصرف جبل لبنان سابقاً . ثم عندما وضعت الاعشار الشرعية بدلاً عن الاموال الاميرية المرتبة على سنجق طرابلس قديماً فاللبنانيون المرقومون قد ادخلوا بمساحة الجبل املاكهم واراضيهم الكاينة في مزرعة الحريشة السابق ذكرها بزعمهم ان الاعشار هي تزيد عن المرتبات القديمة . ومن ذلك الوقت لم يؤخذ منهم لا مرتبات قديمة ولا اعشار شرعية . واهالي القلمون يؤدون الاعشار والاموال الاميرية سنوياً عن املاكهم وارضهم التي هي في المزرعة المذكورة الى خزينة طرابلس دون تأخير .

« وحيث ان الحركات المشروحة الواقعة من اللبنانيين المرقومين قد نشأت عن كونهم من الجبل فتقدم الاعراض دفعات عديدة لمقام الولاية والمتصرفية الجليلتين بتواريخ مختلفة لتبليغ الاشخاص المرقومين بوجه قطعي بان وجودهم لبنانيين لا يوجب الحاق املاكهم الكاينة في المزرعة المذكورة للجبل .

« وفي سنة ١٢٩١ كان تشكل قوميسيون بموجب قرار الولاية والمتصرفية المشار اليها وكان حاضراً اذ ذاك عزتلو اسكندر بك التويني المأمور من جانب حكومة جبل لبنان في القوميسيون المذكور . لكن الموما اليه قد رجع وقتئذ للجبل بدون ان يظهر نتيجة لهذه المسألة . وانه حيث لم يكن انجاز هذا الشغل في مدات كثيرة قد اصبحت اموال الاملاك المذكورة ومرتباتها العشرية (متراكمة) على اصحابها على انه دفع مقدار ما لخادم الجامع الشريف الكاين في القلمون عن حصة السبعة قراريط التابعة

---

(١) ومما تجدر الاشارة اليه ان رئيس اساقفة طرابلس هذا كتب الى رستم باشا يشكر له اهتمامه لابقاء الحرية داخل حدود لبنان

لها . وقد فهم ان هذا كان لغاية ان لا تعود تقع دعوى من هذا القبيل . وان مزرعة الحريشة المذكورة هي من قديم الزمان اي من مئات من السنين داخلة في صندوق القلمون . ومن المعلوم ان ادخالها اخيراً بمساحة جبل لبنان لم يكن ناشياً عن كونها من اصلها تابعة الجبل بل مقصوداً به اكتساب املاك من سنجق طرابلس لتخفيف الويركو المقطوع المرتب على الجبليين . وانه لو تم اجراء التحقيقات بمعرفة القوميسيون الذي تعيّن بموجب القرار لا شك كانت ظهرت حقيقة المسئلة .

« ثانياً ان بعض اراضي واملاك قرية ايعال وعردات وعلما ودير نبوح التابعة طرابلس قد انتقلت في المدات الاخيرة لبعض اهالي قرية زغرتا المضافة للجبل بالشراء الشرعي من بنو فاضل رعد من الضنية وبنو زعبي والمفتّي من وجوه طرابلس . وبينما كانت مرتبات هذه الاملاك الاميرية تندفع لخزينة طرابلس فحينما صار تبديل المرتبات الاميرية القديمة بالاعشار برزت اصحاب الاملاك مدعين ادعا واهياً على ان الاملاك المذكورة تابعة الجبل قاصدين تخليصها من المرتبات العشرية وموقعين شغل الملتزمين بانواع الصعوبات . ولهذا السبب بقيت بقايا كثيرة على الاهالي المرقومين ولم يؤدوا الاموال الاميرية والحاصلات العشرية في السنين التي اديرت بها الاعشار بوجه الامانة . فحينئذ قد تحررت كتابات عديدة من المتصرفية المشار اليها لقائمقامية البترون بناءً على المراجعات الواقعة بهذا الخصوص لكي يصير تحصيل المرتبات المذكورة من اربابها وارسالها لخزينة طرابلس . وان مدير اهدن كان طلب ارسال املاك طرابلس اربابها وارسالها لخزينة طرابلس . وان مدير اهدن كان طلب ارسال مأمور املاك طرابلس وبرفقته الدفاتر اللازمة لتصحيح القيود حيث حصلت مشكلات بالتحصيل لان اهالي زغرتا يدعون ان ويركو الاملاك السالفة الذكر لم يجرِ تخمينه كما يجب وان ملك زيد مقدر على عمرو وانه غب المخابرة مع متصرفية جبل لبنان الجليلة وردت منها تحريرات بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٩٦ تتضمن استصوابها ما ذكر . وبموجبها جرى الايجاب . وتوجه المأمور الموما اليه لعند مدير اهدن . ومن ثم صار ارجاعه دون ان يرى ادنى شغل لانه تجاوب ان البعض من اصحاب الاملاك خرجوا للمصيف والبعض ليس موجودين الان وانه سينظر بايجاب المقتضي بوقت آخر وانه لامر غني عن الايضاح والبيان ان كل قرية هي محدودة من جهاتها الاربع منذ القديم اعني من زمن التخطيط ومعين لها حد فاصل يفصلها عن غيرها ومقيدة في قلمي المحاسبة والاملاك وفي الدفترخانة العامرة وعليه تكون هذه الحدود معلومة في الدواير المذكورة وعند الاهالي المجاورة . ولا يجوز لمجلس ادارة جبل لبنان ان يغيّر الطريق العام الموجود في قرايا علما وعردات السالفة الذكر حداً فاصلاً وان يترك الحدود القديمة المقيدة بقيود كثيرة في حكم كان لم يكن . وانه لو كان يجوز اتخاذ الطريق العام الموجود

بكل قرية حداً فاصلاً كان من باب الاولى ان يكون الاملاك الكاينة في الطريق الآخر من الجهة الشرقية للطريق العام الذي هو داخل قريتي زغرتا وكفرحوره التابعتين جبل لبنان الممتد لحد قرية بنشعي هي تابعة قريتي دير نبوح وايعال التابعتي طرابلس . على انه حيث كان حصر اتخاذ الطريق العام حداً فاصلاً في الاراضي المتنازع عليها فقط مغايراً للاصول والقاعدة اذ كان من اللازم اعتبار حدود كل قرية من القرى القديمة المعروفة . ومن الامور البديهية ايضاً عدم قبول الادعا الواقع في هذا الخصوص . وانه من جملة المستندات اشتراء اهالي زغرتا الاملاك والاراضي المعروفة بتلة النصيرية الكاينة في قرية عردات من زيني زاده احمد افندي وعبد الله افندي المتصرفين بها بوجه المالكانه . وقد تحرر صريحاً في حجج وسندات الاملاك والاراضي المذكورة ان اموالها الاميرية المرتبة عليها باسم الخراج هي عايدة للميري . وفي سنة ٢٧٥ قد الغيت المرتبات القديمة ومع العموم صارت مساحة هذه الاراضي ايضاً وترتبت اموالها الاميرية مجدداً .

« ومن هذا القبيل ايضاً املاك الزغرتاويين المذكورين الموجودة في قريتي دير نبوح وعردات كما يتضح من الشهادات التي يؤدونها الذوات الذين كانوا حاضرين عقد المبيع وتحرير صكه واهل الجوار . فقط مجلس ادارة جبل لبنان باحدى عبارات مضبطته ان عدم ادخال هذه الاملاك بمساحة الجبل هو ناشيء عن اخفاها على مأموري المساحة من قبل اصحابها لان مرتبات الجبل باهظة كان ناتجاً عن سهو عظيم في الجبل لان المكلفات الماخوذة بصورة مقطوعة على الاملاك في جبل لبنان ليست كما قيل بل هي في نفس الامر اقل جداً من بدل الاعشار والاموال الاميرية الجاري استيفاها هنا . فاجراء اصحابها في هذا الخصوص هو لغاية ان يتخلصوا من بدلات طرابلس العشرية واموالها الاميرية التي هي لحضاً باهظة بالنسبة لمكلفات الجبل . وانه لم يزل اهالي جبل لبنان بدعوى ان ما يشترونه من الاملاك والاراضي الكاينة داخل طرابلس والمجاورة للجبل هو جميعه تابع الجبل ممتنعين عن دفع مكلفاته الاميرية لخزينة طرابلس . وانه حيث كان غير ممكن نظاماً منع الاهالي المرقومين من المشتروات كان ملافاة هذه الاحوال من الان مهماً جداً .

« وانه حيث ما حصل نتيجة من مراجعات متصرفية لبنان الجليلة فتسبب من ذلك تراكم بقايا كثيرة على الاملاك والاراضي المرقومة وحدوث انواع المشاكل بخصوص رؤية كثير من المواد الحقوقية والجنائية الواقعة هناك واعطاء الشرح على بوسيلات المزاد بان واردات الاعشار التي لا تتحصل من اللبنانيين سيصير تنزيلها من اصل بدل الالتزام لكي تتحصل مؤخراً لحساب خزينة طرابلس الامر الآيل لتراكم حقوق الخزينة الجليلة سنة فسنة وللخساير التي تتجاوز سنوياً اربعين خمسين الف قرش ولوقوع

انواع المحاذير حالاً واستقبالاً . اه .

« وانه لدى مراجعة القيود تبين بان قد مضت مدات كثيرة من حين ظهـور الاختلاف فيما بين متصرفية جبل لبنان ومتصرفية طرابلس بخصوص الاملاك والاراضي المذكورة لحد الان . والاشعارات الواردة من الجبل وطرابلس في هذه المدة كانت عبارة عن تاييد تابعية هذه الاراضي التي يدعيها كل طرف . وقد ثبت من القيود العتيقة ان الاراضي والاملاك المذكورة مرتبطة قديماً بطرابلس حتى ان صور الدفاتر العتيقة والحجج الشرعية المثبتة مربوطيتها هذه قد صار تقديمها سابقاً لمقام الصدارة العظمى برفق تحريرات مؤرخة في ٢٨ ربيع الاخر نمرو ٤٨ وحتى الان لم ترد ارادة جوابية . واصحاب هذه الاملاك والاراضي لم يزالوا ممتنعين عن تـادية الاموال الاميرية والاعشار . وقد مضت مدات متطاولة بالمخابرات بدون فائدة الامر الذي كان داعياً لاضاعة اموال كثيرة على الخزينة . وحيث انه لا يمكن اعطاء الحكم هنا في هـذا الخصوص وبما ان من قيود الدفترخانه السلطانية تتضح كيفية تحديد الجبل المذكور عن حدود طرابلس ومن اي قرى صار تحديده . وحيث من التفصيلات الواقعـة المبحوث عنها ايضاً يمكن حل هذه المشاكل فان حسن ارسال المضبطة المذكورة لجانب نظارة الداخلية الجليلة لاجل اعطاء نتيجة قطعية بهذه القضية .

« فعن ذلك نعرض بان التشبثات الحاصلة من جانب متصرفية طرابلس البهية لجهة تابعية مزارع الحريشة لجهتها فذلك واقع في غير محله ومضادد لمبادي نظامات لبنان الاساسية الممنوحة له من لدن العواطف الملوكانية الابدية القرار . ولقد طالمـا حصلت المراجعات بهذا الشان مع ان البراهين قاطعة على صحة تابعية المزارع المرقومة الى ثلث الكورة التحتانية الملتحق بجبل لبنان بالارادة الملوكانية الجليلة . ومع ذلك لم يصر الاقناع من طرف متصرفية طرابلس البهية . وبناءً عليه قد وجد لازماً تقـديم البراهين الاتية تكراراً وهي : ان مزرعة الحريشة هي الجانب الاسفل الى اراضي ثلث الكورة الملتحق بالارادة السنية الى جبل لبنان من سنة ١٢٧٧ وهي تحتوي على دير ناطور واوقاف ومزرعة دير البلمند المشتملة على املاك وبيوت معدة لسكـن شركائه ومزرعة تدعى شريعه وبستا وبعدوس وصربا والقطربيه وحقل زوين والنهيره والحميره والبريج . والاسم العمومي لهذه المزارع هو الحريشة . وفي الازمنة الماضية كان الدير المرقوم واوقافه مع المزارع المحررة تابعة لحكومة جبل لبنان . ثم ألحقت الى حكومة طرابلس عند الحاق ثلث الكورة اليها . ثم انتقلت سياسة الناحية المرقومة الى الامراء الشهابيين . ثم صار ارجاعها ثانية الى حكومة طرابلس . وبكل هذه التقلبات والدير والمزارع المذكورة لم تكن من توابع قصبة القلمون بل انها كانت قايمة لوحدها . ولم يستثنى في الفرمان العالي الملوكي الصادر سنة ١٢٧٧ الدير المرقوم ولا المزارع المحررة

عن بقية ثلث الكورة عندما استثني قصبة القلمون . على انه من الواضح البيان ان استثنى قصبة القلمون لوحدها كما تقرر بالنظام الملوكي الجليل بالمادة الثالثة حيث يقول يقتضي ان ينقسم جبل لبنان الى سبعة قضاوات مركبة من الكورة مع التحتانية ومن الاراضي المجاورة التي سكانها من مذهب الروم خارج قصبة القلمون الكاينة على ساحل البحر التي اكثر اهاليها من اهل الاسلام . وهذا (لا) يوجب استثنا غيرها من الاديرة والمزارع الواقعة في ثلث الكورة . ولا يصح ان يقال ان استثنا قصبة القلمون يشتمل الحريشة ايضاً اولاً كون الاراضي المذكورة ليست هي من الاراضي التابعة بالوضع لقصبة القلمون لاننا نرى بين بساتينها واراضي الحريشة فاصلاً طبيعياً ظاهراً للعيان ويثبت التسمية المختصة بكل منها . ثانياً ان اهالي القلمون انفسهم يقررون بوجود مزارع من اراضي الحريشة ملكاً لاهالي أنفه وهي القطربية وحقل زوين والنهيره ويدفعون المرتبات الميرية عنها لجانب حكومة لبنان . وهولا المزارع متخللة بين المزارع المار ذكرها . فاذاً لا يتصور ان يكون فيما بين اراضي لبنانية وضمن حدودها ارضاً غير لبنانية . وبناءً على هذه الملاحظات اعتبرت ساقية الوليه حداً فاصلاً فيما بين المتصرفيتين لكونها واقعة بآخر حدود بساتين واراضي قرية القلمون . وعليه قد مسحت اراضي الدير . والمزارع المار ذكرها من جملة اراضي لبنان .

« واما القول بان مشترى الجبليين املاكاً واراضي في المزرعة المرقومة لا يكون موجباً لتغيير نظام الادارة المربوطة به تلك الاراضي والحال ان سند متصرفية لبنان باتباع اراضي الحريشة ليس مبنياً على مشتراهم بعض الاملاك فيها بل استنادهم على الفرمان الملوكي الجليل الذي لا استطاعة لمخالفته . واي سند يكون اعظم من ذلك والمتصرفيتان خاضعتان للارادة الملوكية . وتملك الجبليين المزارع المحررة لم يكن حديثاً كما يقال وانما هو من مئات السنين واخص ذلك دير ناطور الغير معلوم بداية وجوده وتملكه بها . ولم يكن لاهالي قصبة القلمون في المزارع المحررة الا الجزء الاقل كما ظهر ذلك من دفاتر المساحة العمومية .

« ومما يؤكد هذه الملاحظات والبراهين المتقدم ذكرها برهاناً اخر قطعياً وهو انه عندما طلبت متصرفية لبنان من متصرفية طرابلس ارسال دفتر بقايا ثلث الكورة التي الحقت الى الجبل فارسلت اليها دفتراً مستخرجاً من قلم محاسبة طرابلس مصادقاً عليه من هيئة مجلس ادارة اللواء الموما اليه ببيان البقايا المذكورة ومن جملتها بقايا الحريشة ايضاً . على ان المجلس الموما اليه اعتبر تلك المحلات من جملة ثلث الكورة الملحق الى الجبل . ولو كانت من جملة اراضي القلمون كما هو حاصل الادعا الان فلم يكن لها قيد فيه لوحدها ولا ايجاب للافادة عن بقاياها لاجرا تحصيلها لصندوق الجبل . كما انه يوجد قطع اوراق متعددة بيد بعض اللبنانيين مثل صكوك شراء من نفس محكمة

طرابلس وسندات قبض مرتبات الاملاك من مأمورين سياسة ثلث الكورة تدل وتبين وتبرهن باجلا بيان بان الدير المرقوم والمزارع المحررة هي تابعة ثلث الكورة قائمة بنفسها غير تابعة لقصبة القلمون .

« فبناءً على هذا كله لا يكون مجالاً لتكرار البحث والمراجعات بالاخذ والرد فيما بين المتصرفيتين بهذا الشان اذ انه لاشهر من نار على علم بان المحلات المرقومة لم تكن من توابع القلمون كما يتضح مما مرّ آنفاً .

« واما قول مجلس ادارة الولاية المشار اليها من تقديم صورة مضبطة الى نظارة الداخلية الجليلة ليحصل التفضل بمراجعة الدفترخانه الخاقانية العامرة والتكرم بالافادة عنها فالجواب عليه هو ان هذا القول لا ايجاب له لان متصرفية جبل لبنان معلومة الحدود بموجب نظاماته السنية . ولذا فكانت الحدود المبنية في الدفتر الخاقاني الموما اليه قبل نظامات لبنان لا تكون سنداً لما يحتج به مجلس ادارة الولاية اذ انه من المؤكد المعلوم بان الاعتماد واقع من متصرفية لبنان على النظامات المشار اليها . ولذا كانت هذه المتصرفية اخذت بتحصيل اموال مزرعة الحريشة وتوابعها الاميرية من اربابها وصار قيدها بالمحاسبات السنوية العمومية من جملة واردات الاملاك الاميرية المتقدمة لنظارة المالية الجليلة لغاية سنة ١٢٩٧ وعليه فلا يكون محلاً لما اتى بذكره مجلس ادارة الولاية الموما اليه بمضبته من ان متصرفية لبنان تقصد بالحاق الاراضي المذكورة تخفيفاً لأموال ويركو الجبل .

« واما لجهة ما تذكره مضبطة ادارة المتصرفية المشار اليها وتطلبه عن املاك اللبنانيين الكاينة في قرايا عردات وعلما وايعال والضنية وانه سابقاً بناءً على القرار الذي كان جرى بين المتصرفيتين المشار اليهما كان ارسل مامور من متصرفية طرابلس لعند مدير اهدن وبرفقه الدفاتر اللازمة لتصحيح القيود الى اخر ما ذكرته بهذا الشان اذ لا حاجة لاعادته فعن ذلك نجيب بانه قبلاً بناءً على التحريرات الواردة من متصرفية طرابلس والدفتر المتقدم طيها بما تطلبه من الاشخاص اللبنانيين على اراضيهم بالمحلات المدروجة آنفاً المزعوم تابعيتها لمتصرفية طرابلس فقد جرى الفحص وقتئذ فيما اذا كانت داخلة كنار لبنان ام خارجة عنه . ومن ذلك اتضح بان الاملاك التّي تطلب عليها المتصرفية المدروجة بالدفتر المذكور كائنة في اربع محلات . وهي المحل الاول ايعال وهذا يوجد منه املاكاً ممسوحة بدفاتر شمسية من نفس بلوكات المساحة واملاك غير ممسوحة . فالممسوحة هي مفصولة عن اراضي ايعال بطريق عام والغير ممسوحة وهي الاقل كاين ضمن اراضي ايعال . والمحل الثاني يدعى الحريق يحده قبلة وادي يفصله عن اراضي دير نبوح التابعة الولاية الجليلة لجهة الشرق وينعكف للشمال . ويحده شرقاً اراضي دنحه ورشعين وشمالاً اراضي كفرد لاقوس وغرباً الخالدية .

وجميع هذه المحلات تابعة لبنان وداخلة من ضمن حدوده بموجب نظاماته السنية . والمحل الثالث المحرر بدفتر طرابلس انه تابع علما فهذا يفصله عن اراضي علما لجهة الشمال طريق عام شهير واما لجهة القبلة والشرق والغرب فلا يوجد له حدود شهيرة انما املاكه مختلطة باملاك قرية اردة لجهة الشرق والشمال بكفردلاقوس والقبلة بمجدليا وقسم منه مختلط باراضي عردات التابعة طرابلس وبارزاق كفردلاقوس التابعة جميعها جبل لبنان . والمحل الرابع المحرر بالدفتر المذكور تحت اسم عردات فهذا يدعى ضهر النصيرية يفصل بينه وبين عردات طريق عام لكامل اهالي الجبة والزاوية بنزولهم الى طرابلس ولجهة الشمال طريق عن اراضي مجدليا والغرب لا يوجد له حد شهير فيما بينه وبين ارزاق مجدليا وللقبلة ارزاق مختلطة بارزاق دفتر زغرتا دون ان يوجد رسم للحد .

« فاعتراض مجلس ادارة متصرفية طرابلس لجهة الغير ممسوحة من الاراضي الواقعة ضمن المحلات الآنفة البيان بسبب تركه من الاهالي بحجة تخلص اصحابه من دفع مال الويركو عليه فذلك لا يصح حجة لاخراجه عن تابعيته لمتصرفية لبنان والحاقه بمتصرفية طرابلس طالما ان الاراضي المذكورة هي اراضي لبنانية ولها حدود شهيرة من الجهات الاربع تفصلها عن اراضي طرابلس . وهي تابعة متصرفية لبنان بموجب النظام الملوكاني العالي . وعلى ذلك فلا سواغية للمتصرفية الموما اليها الى ان تطلب اموالاً املاك كاينة ضمن خراج لبنان .

« وعليه قد تحررت هذه المضبطة من مجلس ادارة جبل لبنان لكي غب تشريفها بانظار دولته العالية يعود امر تقديم صورة عنها لمحل الاقتضى ومجاوبة الولاية الجليلة على الوجه المشروح آنفاً رهين الارادة الكريمة . وبكل الاحوال الامر لوليه . في ٢٠ ربيع اول سنة ١٣٠٠ ١٨ كانون الثاني سنة ١٢٩٨ : وكيل الرياسة والاعضاء عمر الخطيب الياس ابو صعب يوسف الزغزغي فارس الخوري فرحات ناصيف محمد امين الدين حمد حماده حسن شقير اسعد الخوري اسعد طالب ابراهيم المعلوف كاظم عمرو » .

بير حسن وجناح ببيروت

وعادت في هذه السنة نفسها ١٨٧٤ قضية رمال الجناح الى نطاق البحث بين حكومة بيروت وحكومة لبنان فعينت لجنة مشتركة لدرسها مثل الجانب اللبناني فيها كل من سمعان افندي غطاس وسليم افندي مطران عضوي المجلس الاداري اللبناني والجانب البيروتي كل من عبد الغني افندي رمضان ويوسف افندي فياض وباشكاتب

الاملاك خالد افندي . ومما جاءَ في تقرير العضوين اللبنانيين ما يلي :

« عندما شرع المرحوم امين مخلص باشا باصلاح طرقات مدينة بيروت وحدودها فقد اخذ من اراضي الجبل بعض مزارع مجاورة البلد مع مزرعة العرب وادخلها كنار حدود بيروت . وكانت خزينة ايالة صيدا تخصم اموال هذه المزارع من اصل مقطوع الجبل لحد الغاء القائمقاميتين .

« ولدى الفحص والتحري والتدقيق من اصحاب المعلوميات من اهالي الجوار ممن لهم الخبرة الكافية والذين لهم ارزاق في مكان واحد ومشطورة شطرين الواحد داخل حدود بيروت والشطر الآخر داخل حدود الجبل فقد تقرر ان الارمال الكاينة غربي مزرعة بير حسن المعروفة من آخر حدها الشمالي جميزة جدوع الى آخر حدها الجنوبي هي من القديم مشاع لانتفاع اهالي الشياح وحارة حريك وبير حسن وغيرهم من اهالي قرايا الساحل الجنوبي لينتفعوا منها لرعي طروشهم وقلع الحجار لعمار بيوتهم واعتيادياً يقضون اكثر مدة الصيف بموقع الجناح نظراً لوجود الماء فيه » .

الباب العالي وتفتيش الضابطة اللبنانية

وفي السادس عشر من شباط سنة ١٨٧٥ احتج المجلس الاداري اللبناني على تعيين هيئة تفتيشية ضابطية مؤلفة من لطف الله بك امير الالاي الاول من القول اردوى الهمايوني الخامس والبيكباشى حمدي افندي من « اعضاء مجلس الفرقة » مهمتها تفتيش الضابطة اللبنانية . وابان ان في هذا ما لا يتفق ونظام لبنان وان مشيرية الضبطية الجليلة اجازت في التاسع والعشرين من حزيران سنة ١٨٧١ لامير الاي الضابطة اللبنانية ان يراجع متصرف لبنان في جميع شؤون هذه الضابطة الاستخدامية والانضباطية والمالية .

المسلمون اللبنانيون والخدمة العسكرية

وفي اواخر ايلول من هذه السنة نفسها نرى المجلس اللبناني يحتج على قرار اصدرته نظارة المالية قضى بجمع البدل العسكري من مسلمي لبنان مبيناً انهم لبنانيون كسائر اللبنانيين وبالتالي معفون من هذا البدل . وأبرق البطريرك الماروني بالمعنى نفسه فأجيب طلب المجلس .

وكانت جامعة بيروت الاميركية (الكلية السورية الانجيلية) قد خرجت من قماطات مهدها على حد تعبير الاب لويس شيخو . فكان مؤسسها ورئيسها الاول الدكتور دانيال بلس يربي الاخلاق ويوجه النفوس . وكان اساتذتها وفي طليعتهم الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور جورج بوست والدكتور يوحنا ورتبات يعلمون ويثقفون ويؤلفون ويعربون . وكانت المطبعة الاميركية تسهل عليهم النشر وتدفع بمؤلفاتهم الى اسواق لبنان وسورية ومصر والعراق .

الدكتور دانيال بلس

ولم يلاق الرئيس المؤسس صعوبة تذكر في ضبط تلامذته « لان الشرقيين في نظره كانوا اشد احتراماً من الغربيين للوالدين ورجال الدين والمربين والمسنين » . وكان هو يؤثر ذكر محامد طلابه اكثر بكثير من تبيان مساوئهم وينبذ التجسس والبحث عن عوراتهم فخالف بذلك غيره من رؤساء مدارس لبنان ونظارها واساتذتها . وكان يثق بتلاميذه « لان الثقة بالطالب تجعله ممن يوثق به » . وكان يعلم في بعض الاحيان ان ما كان يقوله بعضهم لم يكن الحقيقة باكملها ولكنه كان يتعامى عن ذلك ويعاملهم كانهم رووها كلها بدون زيادة او نقصان . ولذا كان بعضهم يقول لزوجته : « ليس بمقدورنا ان نكذب على الدكتور بلس لانه يثق بنا » . وكان اذا تخاصم اثنان من الطلاب يطلب الى اثنين او اكثر من صف المنتهين ان يسووا الامر بينهما . واذا جاء احدهم يشكو غيره راوياً ما وجهه اليه من شتائم يطلب اليه حالاً ان يقول له ما قاله هو لخصمه . ثم يستدعي الخصم ويلح عليه بالطلب نفسه فتنتهي المشكلة عند هذا الحد .

وكان التدخين ممنوعاً في الغرف . وفي ساعة متأخرة من ليالي تشرين الثاني شاهد الرئيس حثالة سيكارة تتساقط من نافذة غرفة في الدور الرابع من بناية كلية الآداب . فصعد الرئيس الى الغرفة وقرع الباب . فاذن له بالدخول . واذا بالدخان عابق يملأ الغرفة . فقال الرئيس لساكن الغرفة « مساء الخير . وهل درست علم الفلك ؟ » فاجاب

الطالب متلجلجاً « نعم » . فقال الرئيس : « وهل يتوقع ان يكثر سقوط النيازك في مثل هذه الليلة ؟ » فتلعثم الطالب وقال انه لا يذكر . فقال الرئيس « ظننت انك تذكر ! تصبح على خير » . وكان هذا منتهى ما فعله الرئيس الوقور . ولكن الطالب انقطع عن التدخين في الغرفة .

وطلب احدهم الى الدكتور بلس ان يسمح بتغيبه ثلاثة ايام بمناسبة وفاة والدته . فكان له ذلك . وبعد سنتين عاد الطالب الى الطلب نفسه وللسبب نفسه . فاذن الرئيس وكتب له بذلك وسلمه بطاقة الخروج ولكنه قال : « ظننت ان لك والدة واحدة » . فامتنع الطالب عن التغيب وعاد الى غرفته مخجولاً .

ويروي الدكتور بلس هذا وغيره ولكنه يلفت النظر الى انه آثر هذه الاساليب في معالجة الصغائر وانه عند ارتكاب الكبائر لم يتردد قط عن اللجوء الى الفرز او الطرد نهائياً .

ثم يستطرد فيقول انه عني منذ الساعة الاولى بتهذيب العقل وتشجيع التفكير وتقوية الارادة وتغذية الضمير وانه لم يكتفِ بحشو عقول ابنائه الطلبة بالحقائق العلمية والمعلومات العامة . وكثيراً ما قال في عظاته الاحدية : العلم سيف قاطع ذو حدين نافع في يد الرجل الصالح مضر كل الضرر في يد رجل لا ضمير له .

الدكتور كرنيليوس فانديك

ولد في كندرهوك من اعمال ولاية نيويورك من ابوين هولنديين في الثالث عشر من آب سنة ١٨١٨ وكان والده طبيباً وله في كندرهوك صيدلية . فكان كرنيليوس يقضي ساعات الفراغ في هذه الصيدلية ويعمل على اكتساب العلم في آن واحد . ونكب والده وذهب كل ماله ولم يعد في وسعه تعليم اولاده . ولكن كرنيليوس لم يفتر لحظة عن تدبير الوسائل للحصول على الكتب وهو في البيت . ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى بلغ من العلم مبلغاً حسناً ولا سيما الكيمياء والنبات والحيوان . ثم عكف على دراسة الطب على والده فرأى بعض اقاربه ان يكمل دروسه في مدرسة قانونية وتحملوا جزءاً من النفقات وادخلوه كلية فيلادلفيه . وهنالك نال شهادة الطب مع لقب دكتور .

ثم اختاره مجمع المرسلين مرسلاً وطبيباً للبنان وسورية فخرج من الولايات وهو لا يزال في الحادية والعشرين ووصل بيروت في ربيع السنة ١٨٤٠ . وقضت القوانين الصحية في اواخر عهد المصريين في هذه الربوع ان يقيم الدكتور كرنيليوس في الكرنتينة اربعين يوماً . ففعل ولكنه لدى خروجه منها كان قد حفظ مئتي كلمة عربية ! وشرع في تعلم هذه اللغة فتعرف الى المعلم بطرس البستاني الكبير . وكانا

عزبين فأقاما معاً في غرفة واحدة وتمكنت بينهما اواصر الصداقة والمودة وما برحت متينة حتّى النهاية . قال جرجي زيدان : « نذكر اننا شهدنا الصلاة على المرحوم البستاني يوم وفاته وقد طلب من الدكتور فانديك تأبينه . فوقف وقد تلعثم لسانه وارتعشت شفتاه وخنقته العبرات ولم يقو على الكلام ما خلا قوله « يا صديقي ورفيق صباي » كررها مراراً بصوت ممتزج بالبكاء فابكى كل من حضر ! » وما فتىء فانديك يتابع دروسه العربية حتّى اتقن فنونها على الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير . وبرع فيها واتقن التلفظ بها فاذا نطق ظننت انه احد ابنائها دون اي ريب .

وفي خريف السنة ١٨٤٢ انتقل الى عيتات وتزوج من السيدة جولية ابنة المستّر بيتّر أبوت قنصل انكلترّه في بيروت ثم انتقل من عيتات الى عبيه لينشىء مدرسة ثانوية تعد المعلمين لمدارس الارسالية الاميريكية الابتدائية . وكانت كتب التدريس بالعربية قليلة فألف في الجغرافية والجبر والمقابلة والهندسة واللوغارثم والمثلثات البسيطة والكروية والطبيعيات . وبعد ان قضى اربع سنوات في عبيه انتقل منها الى صيدا للوعظ والتبشير . وما برح يعمل فيها حتّى توفي عالي سميث في بيروت سنة ١٨٥٧ فاضطر مجمع المرسلين ان ينتدب فانديك لمتابعة عمل سميث في ترجمة التوراة والانجيل . ولدى اتمام هذا العمل العظيم في السنة ١٨٦٤ قام الى الولايات المتحدة لتصفيح صحائف « الكتاب » بالكهرباء . فدام عمله هذا سنتين كاملتين وعاد الى لبنان في السنة ١٨٦٧ الى « حيث كان قد ترك قلبه ! »

ولدى وصوله الى بيروت باشر تأسيس المعهد الطبي الاميريكي بالتعاون مع صديقه الدكتور يوحنا ورتبات . « ووضعا نظامه وشرعا في التعليم لا يحاسبان على اتعاب ولا ينظران الى مكافأة او مدح . ولما رأى الدكتور فانديك ان المدرسة تفتقر الى استاذ يدرّس الكيمياء اقبل من فوره على تدريسها وهو انما عين استاذاً لعلم الباثالوجيا لا لغيره . ولم يكن في المدرسة حينئذ من ادوات الكيمياء الا قضيب من زجاج وقنينة عتيقة فانفق مئتي ليرة انكليزية من ماله لاستحضار ما يلزم من الادوات وألف كتابه المشهور في مبادىء الكيمياء لتدريس التلامذة وطبعه على نفقته وهو يعلم انه لا يسترجع نفقات طبعه قبل مماته » . وبعد ان جاء من يدرس هذا العلم تولى الدكتور فانديك تدريس علم الفلك في كلية الاداب والعلوم وألف له كتاباً كما وضع كتاباً في الانساب وغيره في المثلثات والمساحة والقطوع المخروطية وسلك البحار . وانشأ في هذه الفترة مرصد الجامعة الفلكي وابتاع له من ماله الخاص ادوات علمية فنية بمبلغ سبع مئة ليرة انكليزية . وبدأ الرصد العلمي الفلكي لاول مرة في الشرق العربي الحديث .

ويذكر له تلميذه وصديقه جرجي زيدان حسن طويته واخلاصه في عمله واقتداره على العمل وحرية ضميره قولاً وفعلاً واقدامه ورباطة جأشه وتخلقه

باخلاق اللبنانيين والتزيي بزيهم وتذوق طعامهم وشرابهم .

« وكان اثناء اقامته في عبيه يلبس اللباس الخاص بالامراء وهو السروال الابيض والزنار الحريري الطرابلسي والكوبران الازرق المطرز بالقيطان السود والطربوش المغربي ذو الشرابة الطويلة . فكان اذا مشى او ركب حسبته من الامراء . ثم اضطر الى العدول عن هذا كله كرهاً . وسبب ذلك انه دعي مرة لتطبيب احد وجهـاء عبيه فركب وسار في ركابه خادم . فاتفق في اثناء عودته الشروع في فتنة السنة ١٨٦٠ فرآه بعض الدروز بذلك اللباس فظنوه من امراء بني شهاب فهموا بقتله . ولم ينجُ من بين ايديهم الا بعد الجهد . فعوّل من ذلك الحين على اللباس الافرنجي . على انه ما انفك ميالاً الى اللباس الشرقي فلبس في منزله طربوشاً من المخمل الاسود او الازرق مطرزاً بالقصب تتدلى منه شرابة من القصب . والتف بعباءة واسعة ودخن النارجيلة » .

فنديك الثاني

وشارك الدكتور كرنيليوس فانديك في تاسيس المعهد الطبي الاميركي وفي العمل العلمي العالي في هذه الحقبة الدكتور يوحنا ورتبات . وقد لقب فانديك الثاني لاخلاصه وصدقه واستقامته واستعداده لخدمة الفقير وقلة اكتراثه بالمال . قال زيدان :

« وكان طيب السريرة مخلص الطوية يميل الى البساطة في كل شيء حتى في اعتقاده وآرائه وفي عشرته وسيرته . فاذا استوصفه مريض وصف له ابسط العلاجات . ولم يكن يعوّل في الطب الا على الوسائل الهيجينية كالاستحمام بالماء البارد وتبديل الهواء والاعتماد على التغذية البسيطة . وكان يميل في انذاره الطبي الى التهوين على المريض . وكان قنوعاً في مطالبه لا يهمه جمع المال انما يهمه ان يشفى المريض وان يكون وسيلة لتخفيف الآلام والمصائب . فاذا كان مريضه فقيراً أحسن اليه بما يستعين به على الغذاء والدواء لا يفرق بين المسيحي وغير المسيحي . ولذلك سموه فنديك الثاني لاشتهار الدكتور كرنيليوس بهذه المناقب من قبل » .

ولد يوحنا ورتبات من ابوين ارمنيين في بيروت سنة ١٨٢٦ وتلقى علومـه الابتدائية والثانوية في مدارس المرسلين الاميركيين وكانوا لا يزالون حديثي العهد في البلاد وفي لغتها يعلمون العلوم باللغة الانكليزية فاتقن يوحنا ورتبات لغتهم فهماً وتعبيراً. وتعلم العربية على اليازجي الكبير وغيره فأتقن هذه ايضاً . وكان تقياً متديناً محباً للوعظ والارشاد فرأى ان عمله يكون اكثر نفعاً ان هو تعلم الطب فدرسه على الدكتور كرنيليوس فانديك . وأرسله المرسلون الى حاصبيا مبشراً فأقام فيها مدة طويلة . ووفق الى كتب الدروز وهو فيها فدرسها درساً دقيقاً ظهرت نتيجته فيما بعد في كتابه في

الاديان الشائعة في لبنان وسورية . وكان ما كان من الحوادث في حاصبيا سنة ١٨٦٠ فنزح ورتبات مع من نزح الى بيروت من اهلها . وأشـار عليه استاذه الدكتور كرنيليوس ان يطلب الطب في بلاد الانكليز ويكمل درسه فيها فسافر الى ادينبرج وتخرّج من معهدها الطبي . وعاد الى بيروت وكانت عمدة الجامعة الاميريكية فيها بحاجة الى طبيب يتقن اللغتين العربية والانكليزية فأشار عليه استاذه الدكتور كرنيليوس ان يسافر الى الولايات المتحدة للتخصص في التشريح والفيزيولوجية وللحصول على شهادة اميريكية تسهل على العمدة تعيينه استاذاً في بيروت . ففعل وعين استاذ التشريح والفيزيولوجية . وما فتىء حتّى السنة ١٨٨٧ .

وأخرج الدكتور يوحنا ورتبات في أثناء هذه الفترة التي نحن بصددها مؤلفات عدة اهمها كتاب اصول التشريح وكتاب الفيزيولوجية وكتاب كفاية العوام في حفظ الصحة وكتاب التشريح الصغير وكتاب اديان سورية وقاموسين احدهما من الانكليزية الى العربية والآخر من العربية الى الانكليزية .

الدكتور جورج بوست

وكان قد قدم الى لبنان للتبشير الدكتور جورج بوست . فاقامه مجلس المبشرين في طرابلس مبشراً مطبباً سنة ١٨٦٣ . وفيها اخذ يدرس العربية فنال منها حظاً وافراً . وبقيت لهجته فيها كثيرة الشبه بلهجة الطرابلسيين طوال حياته . وخرج يوماً الى دوما للوعظ . فحضر وعظه رجال من بسكنتا . وما ان بدأ به حتّى صاحوا وهموا بقتله وضربه احدهم بالعصا على كتفه فعطلها وأطلق آخر الرصاص فأخطأه . وعاد الدكتور الى اميركة تاركاً التبشير لغيره . وفي السنة ١٨٦٧ عينه صندوق امناء الجامعة في نيويورك استاذاً فيها للنبات والمواد الطبية والجراحة . فرجع الى بيروت وتولى تدريس هذه الفروع . وما فتىء حتّى سنة وفاته — ١٩٠٩ .

وألف في ما درّس فأخرج مبادىء التشريح والهيجين والفيزيولوجية وعلم الحيوان ومبادىء علم النبات وكتاب الاقرباذين في المواد الطبية والمصباح الوضاح في صناعة الجراح وفهرست الكتاب المقدس وقاموس الكتاب المقدس .

وكان شديد الولع بالنبات فجمع اكبر مجموعة لنبات لبنان وسورية وفلسطين وسيناء واكتشف كثيراً من انواع لم تعرف قبله فسمّي بعضها باسمه . ثم ألف فيما بعد كتابه الشهير « نبات فلسطين وسورية » .

الاساتذة اللبنانيون

وتولى تدريس الرياضيات والفيزياء في هذه الحقبة المعلم اسعد الشدودي . وكان

من نوابغ عصره . ولد في عاليه سنة ١٨٢٦ ودرس في مدرسة عبيه الاميركية . وعندما انشئت الجامعة في بيروت كان في عداد اساتذتها الاولين . وأشهر ما أخرج العروس البديعة في علم الطبيعة وفيه ابواب متقنة افضلها باب البصريات وباب الميكانيكيات .

وعني بهذه الحقبة بتدريس العلوم الطبيعية والرياضية كل من يعقوب صروف وفارس نمر . وكانا قد درسا في الجامعة ونالا لقب بكلوريوس في العلوم الاول سنة ١٨٧٠ والثاني سنة ١٨٧٤ واظهرا اهتماماً فائقاً منذ بداية عهدهما بالعلم العالي بنقل اخبار تقدمه الى قراء العربية وتشجيع هؤلاء على متابعته ودرسه فانشأا في السنة ١٨٧٦ مجلة المقتطف لهذه الغاية النبيلة. وما فتىء حتى اصبح المقتطف قبلة انظار العرب في هذه الحقول من المعرفة . واليك قولهما بالضبط :

« ورأينا في تلك الاثناء انه يستحيل علينا ان نجاري الامم الغربية في العلوم والمعارف اذا اقتصرنا على ما يترجم ويؤلف من الكتب لان العلوم الحديثة جارية جرياً حثيثاً فما يؤلف فيها هذا العام يمسي بعضه قديماً في العام التالي . وانه لا بد من جريدة تقطف ثمار المعارف والمباحث العلمية شهراً فشهراً وتذيعها في الاقطار العربية . فعقدنا النية على انشاء المقتطف لهذه الغاية ورسمنا خطته التي سار عليها منذ انشائه الى الآن . ولم نختر له اسماً بل قمنا كلانا وذهبنا الى استاذنا الدكتور فانديك . وكان في المرصد الفلكي حيث كان يقضي اكثر اوقاته . فاستشرناه بما عزمنا عليه وسألناه ان يختار لنا اسماً له . فأبرقت اسرته وجعل يشدد عزائمنا ويسهل علينا الصعاب . وقال سمياه المقتطف واجعلاه كاسمه وحسبكما ذلك . ثم كتب الى صاحب السعادة خليل افندي الخوري الشاعر المشهور وكان مديراً للمطبوعات في ولاية سورية يطلب اليه ان يسعى لنا في جلب الرخصة السلطانية باسرع ما يمكن . ففعل ولم يمض شهر من الزمن حتى اتتنا الرخصة السلطانية . فذهبنا وبشرنا استاذنا بها . فقال سيرا في عملكما والله معكما . وانا ساشرع من هذه الساعة في كتابة بعض الفصول للمقتطف . فكتب فصول اطباء اليونان والشرق ونشرنا اول فصل منها في الجزء الثاني من المقتطف الذي صدر في غرة تموز سنة ١٨٧٦ وأباح لنا كل ما عنده من الكتب والجرائد والآلات والادوات لكي نستعملها كما نشاء من غير سؤال » .

الطلبة

وكان التعليم في جامعة بيروت الاميركية طوال هذه الحقبة باللغة العربية . ولم يكن فيها كتب تلائم التدريس لان ما كان قد ظهر في عصر محمد علي باشا في مصر كان قد اصبح قديماً متأخراً فأخذ اساتذة الجامعة من اميركيين ولبنانيين يؤلفون

فيلقنون الطلبة تلقيناً وهؤلاء يستنسخون في دفاترهم ويدرسون في منازلهم .

ولم يفتّ هذا في سواعدهم ولم يصرفهم عن مرادهم لشدة تعطشهم الى العلم وكثرة طمعهم فيه . وكان معظمهم من الطبقة الوضيعة وقد شلح احدهم وزرته (جرجي زيدان) وآخر معوله ورفشه (حبيب همام) وثالث طبق خبزه . وجدوا وكدوا ولم ينثنوا حتى اصابوا وظفروا ! ويقول جرجي زيدان « ولم نجد في ذلك مشقة لان اساتذتنا كانوا قدوة لنا بالنشاط والهمة والمواظبة » . وقال يخاطب ابنه اميل « وقد كنت اشعر بشوق للعلم مثل شوق العطشان الماء . وهذا الشوق هو الذي دفعني تلك الدفعة . فدخلت مدرسة الطب والناس لا يصدقون » .

وجاءوا من جميع انحاء لبنان من الشمال والجنوب ومن الساحل والجرد والبقاع بينهم الماروني والدرزي والارثوذكسي والكاثوليكي واللاتيني . وعادوا الى هذه البيئات المختلفة ليتبوءوا فيها افضل المراكز حاملين اليها علماً حديثاً وادباً غزيراً وشيئاً كثيراً من مميزات الخلق السكسوني . واشتهروا بالصدق والامانة وبالاعتماد على انفسهم . واليك جدولاً بمن تخرج من المعهد الطبي بين السنة ١٨٧١ والسنة ١٨٨٣ وفيه ما يؤيد بعض ما ذهبنا اليه :

صف السنة ١٨٧١

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
سليم دياب	طرابلس	روم ارثوذكس	طبيب في الاسكندرية
سليم فريج	بيروت	لاتيني	طبيب في الآستانة
يوسف حجار	بمكين	انجيلي	طبيب في بمكين
ناصر حاتم	حمانا	ماروني	طبيب في حمانا
رشيد شكرالله	بعبدا	ماروني	طبيب في بعبدا
شبلي الشميل	كفرشيما	روم كاثوليك	صاحب مجموعة الشميل ومجلة الشفاء

صف السنة ١٨٧٢

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
ابراهيم عربيلي	دمشق	روم ارثوذكس	طبيب في وشنطون
سليم عطيه	سوق الغرب	انجيلي	طبيب في سوق الغرب

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
خليل عازوري	عازور	ماروني	طبيب في القاهرة ثم عضو مجلس الادارة في لبنان
اسعد حداد	طرابلس	روم ارثوذكس	طبيب في الاسكندرية
ابراهيم مشاقه	دمشق	انجيلي	طبيب في دمشق
الياس شكرالله	بعبدا	ماروني	طبيب في بيروت
ايلي فيتالي	اللاذقية	روم ارثوذكس	طبيب في الاسكندرية
بشاره زلزل	بكفيا	روم كاثوليك	عالم شهير وطبيب في بيروت

صف السنة ١٨٧٣

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
سليم معلوف	زحلة	روم كاثوليك	طبيب بلدية زحلة
امين حلبي	بعقلين	درزي	طبيب في بعقلين
نعمان عيسى	بحمدون	روم ارثوذكس	عضو محكمة قضاء المتن
سليم جلخ	دير القمر	ماروني	طبيب بلدية مرجعيون وطبيب في بيروت
شهدان نهرا	حمانا	ماروني	طبيب في صفد

صف السنة ١٨٧٤

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
قيصر أبيلا	صيدا	لاتيني	طبيب في صيدا
قيصر غريّب	عبيه	انجيلي	طبيب في يافه
جرجس روحانا	وادي شحرور	ماروني	طبيب في وادي شحرور
اسكندر طرابلسي	مشغرة	روم كاثوليك	طبيب في مشغرة وصور

صف السنة ١٨٧٥

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
يوسف أبيلا	صيدا	لاتيني	طبيب في صيدا ونائب قنصل
سليمان مشاقه	دير القمر	ماروني	طبيب في دير القمر

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
فارس صهيون	كفرشيما	انجيلي	طبيب في كفرشيما

صف السنة ١٨٧٦

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
سليم عمون	دير القمر	ماروني	وكيل رئاسة مجلس الادارة
فضل الله عربيلي	دمشق	روم ارثوذكس	طبيب في اتلانتا الولايات المتحدة
ملحم فليحان	عين زحلتا	انجيلي	طبيب في قبرص
ميشال ماريا	طرابلس	روم ارثوذكس	طبيب في طرابلس
داود مشاقه	دير القمر	روم كاثوليك	احد اطباء المركز (لبنان)
امين مغبغب	عين زحلتا	انجيلي	طبيب في قبرص

صف السنة ١٨٧٧

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
امين ابو خاطر	زحلة	روم كاثوليك	طبيب بلدية زحلة
داود ابو شعر	دمشق	روم ارثوذكس	طبيب في دمشق
مراد عازوري	عازور	ماروني	طبيب بلدية صيدا
بشاره منسى	بيروت	انجيلي	طبيب في برمانا
اسكندر مشاقه	دمشق	انجيلي	طبيب في دمشق
ابراهيم تقلا	كفرشيما	روم كاثوليك	طبيب في القاهرة

صف السنة ١٨٧٨

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
يوسف عنحوري	دمشق	روم ارثوذكس	طبيب في دمشق
اسعد بشير	دوما لبنان	روم ارثوذكس	طبيب في بطرام
يوسف كحيل	دير عطية	انجيلي	طبيب في دمشق
بطرس اللبكي	بعبدات	ماروني	طبيب في ادنه
يعقوب ملاط	بعبدا	ماروني	طبيب في بعبدا

صف السنة ١٨٧٩

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
سليم ابو خليل	مشغره	روم ارثوذكس	طبيب بلدية المعلقة
امين حداد	جزين	روم كاثوليك	طبيب في الفيوم
عبده موسى	شبانيه	ماروني	طبيب في الشبانيه
حبيب طبّجي	دمشق	روم ارثوذكس	طبيب في بيروت
ضاهر الزعني	البترون	ماروني	طبيب بلدية البترون

صف السنة ١٨٨٠

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
فارس ملاط	بعبدا	ماروني	طبيب في بعبدا

صف السنة ١٨٨١

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
اديب قدوره	بيروت	مسلم	طبيب في بيروت
اسعد سليم	جباع الشوف	درزي	طبيب في برج البراجنة
حبيب شحلاوي	طرابلس	روم ارثوذكس	طبيب بلدية بيروت
ديمتري سيوفي	طرابلس	روم ارثوذكس	طبيب بلدية طرابلس
ابراهيم زعرب	علما الشعب	انجيلي	طبيب بلدية صور

صف السنة ١٨٨٢

الاسم	محل الولادة	المذهب	ملاحظات
شكري بوتاجي	الناصرة	روم ارثوذكس	طبيب في يافه
سليم داود	النبك	انجيلي	طبيب في طبريه
شاكر دبغي	حاصبيا	انجيلي	طبيب بلدية حاصبيا
سمعان خوري	حامات	روم ارثوذكس	طبيب في بيروت
مخائيل مسلم	زحلة	روم كاثوليك	طبيب في زحلة
ناصيف مطران	بعلبك	روم كاثوليك	طبيب بلدية بعلبك
وهبه صليبي	سوق الغرب	انجيلي	طبيب في سوق الغرب
يوسف سليم	جباع الشوف	درزي	طبيب قضاء الشوف

وهكذا فتكون هذه الجامعة قد اخرجت في اثناء الفترة ١٨٧١ – ١٨٨٣ اثنين وستين طبيباً جلهم من لبنان –٥٥– ومعظمهم من النصارى . وبين هؤلاء ١٥ مارونياً و١٠ كاثوليك و٣ لاتين و١٦ ارثوذكسياً و١٤ انجيلياً . ومسلم واحد ودروز ثلاثة .

جمعية سرية سياسية عربية

وأدى درس التاريخ والفلسفة وتاريخ العرب وآدابهم وشحذ العقول وتثقيفها في كلية العلوم والاداب الى الاحساس بالحيف الذي لحق بالعرب عموماً من جراء الحكم العثماني والى التغني بامجاد العرب في ميادين القتال وخدماتهم في حقول المعرفة .

ومما قاله لنا الدكتور فارس نمر في الثالث والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٣٠ انه عاد الى غرفته متأخراً في ليلة من ليالي الخريف من السنة ١٨٧٣ وكان لا يزال طالباً في كلية العلوم والاداب فوجد سليم عمون رفيقه في الغرفة لا يزال ساهراً يقرأ في كتا ب بيده . فلامه على سهره ورجاه ان يطفىء القنديل وينام . ولكن سليماً مضى في قراءته بضع دقائق اخرى حتى انتهى من الكتاب . وكان قد شبع من خيال الكساندر دوماس واثرائه الفكري وتفوقه في التعبير عن تاريخ فرنسة في روايته التاريخية الفرسان الثلاثة فبادر الى الكلام وقال لفارس : « وهؤلاء الاتراك اما آن الاوان للتخلص من حكمهم وظلمهم ؟ لم لا نؤسس جمعية لهذه الغاية ؟ » قال الدكتور فارس نمر هذا لنا وأضاف انهما سعيا منذ ذلك الحين الى تحقيق هذه الفكرة . ووفقا الى ذلك فأسسا في السنة ١٨٧٥ جمعية سرية سياسية عربية هدفها الاسمى الوصول الى سلخ لبنان وسورية عن جسم السلطنة العثمانية . وكان بين الاعضاء المؤسسين ضاهر الزغبي وأمين مغبغب ومراد البارودي وامين ابو خاطر وملحم فليحان وابراهيم اليازجي وابراهيم الحوراني ويعقوب صروف وبشاره زلزل وشاهين مكاريوس وسليم موصلي وداود نحول ووليم فانديك . ومما ذكره الدكتور فارس لنا ان الاعضاء المؤسسين رأوا ان يجتذبوا الى عضوية الجمعية بعض المسلمين الاكفاء . ولما لم يجدوا بين طلاب الجامعة من كان اهلاً لذلك قرروا الانخراط في عضوية المحفل الماسوني في بيروت لاجتذاب حسين بيهم او غيره عن هذا الطريق . ودخلوا في المحفل ووصلوا الى اعلى رتبه وتسلموا رئاسته وخطابته اذ جعلوا من يعقوب صروف رئيساً ومن فارس نمر خطيباً وادخلوا حسيناً في عدادهم . ولم يروا غيره من المسلمين لائقاً بالعضوية نظراً لموقف الاعضاء من الدولة العثمانية وتمردهم عليها . وأكد الدكتور نمر انهم ابتعدوا عن مدحت باشا « لوطو اخلاقه » (١) ولم يعتمدوا عليه في شيء . بيد انهم انتهزوا فرصة

(١) واللفظ له. ووافقه في هذا اسبر افندي شقير ترجمان القنصلية البريطانية في بيروت آنئذ.

وجوده على منصة الحكم للخروج الى الشارع . فاوعزوا الى احدهم الشيخ ابراهيم اليازجي ان ينظم في مبادىء الجمعية وسياستها فأعد في السنة ١٨٧٩ سينيته الشهيرة وشاركه في انتقادها وتمتينها عدد من الاعضاء وفي مقدمتهم ابراهيم الحوراني . ثم اعدوا نسخاً عديدة منها وألصقوها على ابواب الجوامع والكنائس في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا في وقت واحد :

دع مجلس الغيد الاوانس ... وهوى لواحظها النواعس
واسلُ الكؤوس يديرها ... رشأٌ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطاعم ... والمشارب والملابس
ايُّ النعيم لمن يبيتُ ... على فراش الذل جالس
ولمن تراه بائساً ... ابداً لذيل الترك بائس
ولمن أزمته بكف ... عداه يُظلم وهو آيس
ولمن غدا في الرق ليسَّ ... يفوتُه غير المناخس
ولمن تباع حقوقه ... ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى أوطانه ... خرباً واطلالاً دوارس
كسيت شحوب الثاكلا ... ت وكنَّ قبلا كالعرائس
عج بي فديتك نادباً ... ما بين ارشمها الطوامس
واستنبط الآثار عما ... كان في تلك البسابس
من عزّه كانت تذل ... لها الجبابرة الانشاوس
وكتائب كانت تها ... بُ لقاءَ سطوتها المتارس
ومعاقل كانت تعزز ... بالطلائع والمحارس
ومدائن غناء قد ... كانت تحف بها الفرادس
ايـن المتاجر والمكا ... تب والصنائع والمدارس
بل ايـن هاتيك المرو ... ج بها المزارع والمغارس
بل اين هاتيك الالو ... ف بها فسيح البر آنس
هلكوا فلست ترى سوى ... قفر تزور بها الهواجس
بيدٌ صوامت ليس يسمع ... في نداها صوت نايس
الاّ رياح الجو يكسح ... وجهها كسح المكانس
أمست خرائب لا ترى ... الا بابصار نواكس
ضحكت زماناً ثم عا ... دت وهي كالحة عوابس
غضبت على الانسان واتخذت عليها الوحش حارس

هــذي منــازل مــن قضى ... مــن قومنــا الاسد القناعس
دُرست كمــا درسوا وقــد ... ذهب النفيس مــع المنــافس
مــاذا نــؤمّل بعــدهــم ... الا مقــارعــة الفــوارس
فــإليكــم يــا قوم واطرحوا ... المــؤانــس والمــدالــس
وتشبهــوا بفعــال غيركــم ... مــن القــوم الاحــامس
بعصــائب اتفقــوا فجــا ... دوا بــالنفــوس وبــالنفائس
هبّت طلائعهـــم يليهــا ... كــل صنديــد لحــارس
تركوا جموع الترك يقصف ... فوقهــا الركب الروامس
مــلأوا البطــاح بهــا فــدا ... س على الجماجــم كل دارس
وخــذوا لانفسكــم مثــا ... ل اولئــك القــوم المــداعس
فالترك قــومٌ لا يفــو ... ز لديهــم الا المشاكس
- أولستــم العــربَ الكــرا ... مَ ومــن هــم الشُمُّ المعــاطس
فاستــوقــدوا لقتالهــم ... نــاراً تــروّع كــل قــابس
وعليهــم اتحــدوا فكلكم ... لكلكــم بجــالس
ودعــوا مقــال ذوي الشقــاقِ مــن المشايــخ والقمــامس
٤ مــا هــم رجــال الله فيكــم ... بــل هــم القــوم الابالس
يمشون بين ظهــوركــم ... تحت الطيــالس والاطــالس
- فالشر كــل الشر مــا ... بين العمــائــم والقلانس
دبّت عقــاربهــم اليكــم ... بــالمفــاسد والــدسائس
في كــل يــوم بينكــم ... يلقي التحزبُ حــرب داحس
يُلقــون بينكــم التبــا ... غض والعــداوة والــوساوس
نثــروا اتحــادكــم كمــا ... نُثرت مــن النخــل الكبابس
ســاد الــفساد بهـــم فساد الــتركُ فيــه بــلا معاكس
قــوم لقــد حكمــوا بكم ... حكــم الجــوارح بالفرائس
وعــدَت عــوادي الغــدر تقذفكــم بأنيــاب النواحس
كــم تــأملون خــلاصهم ... ولهم فساد الطبع مايس
ويغركم برق المنى جهلاً ... وليــلُ اليــأس دامس
أو مــا ترون الحكــم في ... ايــدي المصادر والمــوالس
وعــلى الرشى والــزور قــد ... شادوا المحاكــم والمجــالس
والحــقّ أصبــح عنــد مــن ... لبس الخــلاعــة والخــلابس
عمّت قبــائحهــم فأمست ... لا تُحيــقُ بهــا الفهارس

حـــال بهـــا طـــاب التيمّ   للـــوغـــى والمـــوتَ عابس
وحـــلا بهـــا سفك الدمـــا   ء فسفكهـــا للجـــور حابس
بَرِح الخفـــاء ومـــن يعش   يـــرَ مـــا تشيب لـــه القوانس

ثم اتبعوا بائية بهذه السينية من نظم اليازجي نفسه فلاقت قبولاً ليس بعد قبول وتغنى اللبنانيون والسوريون بها وترنموا ولا يزالون فخلّدت اعمالهم الى ما شاء الله !

ايها العرب

تنبهـــوا واستفيقـــوا ايها العرب   فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ
فيمَ التعلل بالآمال تخـــدعكـــم   وأنتم بين راحات الفنـــا سُلُبُ
الله اكبر مـــا هذا المنـــام فقـــد   شكاكم المهـــد واشتاقتكم الترب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم   تستغضبون فلا يبـــدو لكم غضبُ
ألفتم الهون حتى صار عندكـــم   طبعاً وبعض طباع المرء مكتسب
وفارقتكـــم لطول الذل نخوتكم   فليس يؤلمكـــم خسف ولا عطب
لله صبركـــم لـــو ان صبركـــم   في ملتقى الخيل حين الخيل تضطرب
فشمروا وانهضـــوا للامر وابتدروا   من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
لا تبتغوا بالمنى فـــوزاً لانفسكـــم   لا يُصدق الفوز ما لم يصدق الطلب
خلوا التعصب عنكم واستووا عصباً   على الوئـــام ودفع الظلم تعتصبوا
لانتم الفئة الكثرى وكـــم فئـــة   قليلة تمّ إذ ضمت لهـــا الغلب
هذا الذي قد رمى بالضعف قوتكم   وغادر الشمل منكم وهـــو منشعب
وسلّط الجور في اقطاركم فغدت   وارضها دون اقطار المـــلا خرب
وحكم العلج فيكـــم مع مهانتـــه   يقتـــادكم لهـــواه حيث ينقلب
من كل وغد ذميـــم ما له نسب   يدري وليس لـــه دين ولا أدب
وكل ذي خنث في الفحش منغمس   يزداد بالحك في وجعائـــه الجرب
سلاحهم في وجوه الخصم مكرهم   وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهـــم عهد اذا عقـــدوا   ولا يصح لهم وعد اذا ضربـــوا
اذا طلبت الى ود لهـــم سببـــاً   فما الى ودهم غير الخنى سبـــب
والحق والبطـــل في ميزانهم شرع   فلا يميـــل سوى ما قيل الذهب
اعتاقكم لهـــم رق ومالكـــم   بين الدمى والطلى والنرد منتهب

[illegible] وبـات غيركـم للدر يحتلـب

فصاحب الارض منكم ضمن ضيعته مستخدم وربيب الـدار مغترب

ومـا دماؤكم اغلى اذا سفكت من ماء وجه لهم في الفحش ينسكب

وليس اعراضكم اغلى اذا انتهكت من عرض مملوكهم بالفلس يجتلب

بالله يا قومنـا هبوا لشأنكـم فكم تناديكـم الاسفار والخطب

ألستم من سطوا في الارض وافتتحوا شرقاً وغرباً وعزّوا اينما ذهبـوا

ومن اذلوا الملوك الصيد فارتعدت وزلزل الارضَ مما تحتها الرهب

ومن بنوا لصروح العز اعمـدةً تهوي الصواعق عنها وهي تنقلب

فما لكم ويحكـم اصبحتم هملاً ووجـه عزكـم بالهون منتقب

لا دولـة لكم يشتـد ازركـم بها ولا ناصرٌ للخطب ينتـدب

وليس من حرمـة او رحمة لكم تحنـو عليكـم اذا عضتكم النوب

اقداركم في عيون الترك نازلـة وحقكم بين ايدي الترك مغتصب

فليس يدرى لكم شان ولا شرف ولا وجـود ولا اسم ولا لقب

فيا لقومي وما قومي سوى عـرب ولن يُضيّعَ فيهـم ذلك النسب

هب انـه ليس فيكم اهل منزلة يقلّـد الامر او تعطى لـه رتب

وليس فيكم اخو حزم ومخبرة للحل والعقد في الاحكام ينتخب

وليس فيكم أخو علم يحكـم في فصل القضاء ومنكم جاءت الكتب

اليس فيكم دم يهتـاجه أنـف يوماً فيدفع هـذا العار اذ يثب

فأسمعوني صليل البيض بـارقةً في النقـع اني الى رنّاتهـا طرب

وأسمعوني صدى البـارود منطلقاً يدوي به كل قـاع حين يصطخب

لم يبقَ عندكم شيءٌ يُضنُّ بـه غير النفوس عليهـا الذل ينسحب

فبادروا الموت واستغنـوا براحته عن عيش من مات موتاً ملؤه تعب

صبراً هيا امة الترك التي ظلمت دهراً فعمـا قليلٍ ترفع الحجب

لنطلبنَّ بحدّ السيف مأربنـا فلن يخيبَ لنـا في جنبه أربُ

ونتركـنَّ علوج الترك تندب ما قـد قدمتـه أياديهـا فتنتحب

ومن يعش يرَ والايـام مقبلـة يلوح للمرء في احداثهـا العجبُ

وكانت مجادلات ومشاحنات في محفل بيروت الماسوني حول هذه الامور وغيرها فخشي اعضاء هذه الجمعية السرية ان يتبع التناصح تفاضح فتنكشف اعمالهم ومآربهم في عهد كان قد أصبح « حميدياً » فاخذوا اوراقهم وسجلاتهم واحرقوها في ليلة دامسة من ليالي تشرين الثاني من السنة ١٨٨١ وفي قعر اخدود من الارض بين مدرسة

الطب في الجامعة وبين بيت الدكتور جورج بوست .

ولدى عودتنا الى بيروت في مطلع السنة ١٩٣٠ اتصلنا باستاذنا الدكتور وليم فانديك وفاتحناه كلاماً بهذا الموضوع نفسه فأكد التحاقه بهذه الجمعية السرية وأيد كلام الدكتور فارس نمر قبل ان يعلم اننا حدثناه في هذا الموضوع . ونقل مثل هذا الينا شحاده شحاده عن الدكتور سليم موصلي باشا وأضاف ان المعلم الياس حبالين الذي كان يدرس اللغة الافرنسية آنئذ في الجامعة ويتولى تمريس الطلبة في فن الالقاء والخطابة كان ينفخ في صدورهم البغضاء للاتراك ويجسم جورهم واستهتارهم .

وجاء في كتاب يقظة العرب لصديقنا المرحوم جورج انطونيوس انه وجد في محفوظات لندن العامة (Public records) بين تقارير قنصل بيروت التي صدرت في النصف الثاني من السنة ١٨٨٠ بيانات ثلاثة لهذه الجمعية السرية كانت قد الصقت على جدران الشوارع في بيروت وان الاول والثاني منها يُنكران على اللبنانيين والسوريين تقاعدهم وتقاعسهم ويقبّحان انقسامهم على انفسهم وتفككهم ويبينان تأخر الاتراك وتباطؤهم عن القيام بما وعدوا به من اصلاح وان في الثالث مطالب اربعة : اعطاء سورية استقلالاً ذاتياً يماثل استقلال لبنان ودمج هذين القطرين تحت حكومة واحدة والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في البلاد ورفع المراقبة واطلاق حرية القول وابقاء المجندين من السوريين واللبنانيين في خدمة عسكرية محلية .

موقف مدحت باشا

وتتناصر الادلة على ان « ابا الاحرار » شجع بعض اللبنانيين والسوريين على التكتل في سبيل الاستقلال . فالمرحوم السيد عارف بيهم اكد لنا نقلاً عن السيد عمر بيهم الكبير ان فواد باشا فاتح اعيان بيروت كلاماً بهذا المعنى في السنة ١٨٦٠ — ١٨٦١ وان مدحت باشا عاد الى الموضوع نفسه في ليلة من ليالي رمضان . ومما رواه لنا صديقنا المرحوم رياض بك الصلح في الثالث عشر من اذار سنة ١٩٣١ ان عمه منح بك الصلح انتمى الى جمعية سرية سياسية عاد عهدها الى ايام مدحت باشا وان هذا الوالي اراد ان يحيط نفسه بابناء العرب فعين متصرفين لاول مرة منهم — احمد باشا الصلح على اللاذقية . وأيد هذا القول بمجمله المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر وأضاف ان طرابلس كادت في ايام مدحت ان ترفع علم الثورة على الاتراك .

فتنة في الجامعة

وكان الدكتور جورج بوست عصبي المزاج حاد الطبع سيء الظن بخيلاً حسوداً .

وزاد في اساءة ظنه صمم اصاب احدى اذنيه . فكان « اذا رأى اثنين يتخاطبان سبق الى ذهنه انهما يتكلمان عنه فيحكم بالظن وقد يعاقب على الشبهة » . وأدى هذا بطبيعة الحال الى شيء كثير من التنافر بينه وبين تلامذته . ولم يتجاوز الحكيم العالم عن شيء من اجرته ولو كان قرشاً واحداً . ولم يرأف بالفقراء والمعوزين . ولم يقدم على معالجتهم قبل دفع الاجرة بتمامها .

وكان زميله الدكتور كرنيليوس فانديك واسع الخلق ينبسط كل الانبساط الى المعروف يعين الفقراء من مرضاه بثمن الدواء والطعام فضلاً عن الاجرة . وكان طلق المحيا وديعاً لطيفاً مخلصاً فأحبه تلامذته وتعلقوا به وتكلموا عنه في الاندية والمجامع وتغنوا بمدحه فحسده زميله « الجراح » وتمنى زوال هذه النعم . وأضمر له السوء ودس عليه دساً عند رئيس الجامعة وامام مجلس الادارة .

وخشي الدكتور دانيال بلس نفوذ الدكتور فانديك في داخل الجامعة وخارجها . واقض مضجعه علم فانديك المتزايد وذكاؤه اللامع وصراحته المتناهية وجرأته فأضمر هو بدوره وجوب التخلص من فانديك واخراجه من الجامعة .

وفي السنة ١٨٨٢ تجسم الخلاف بين طلبة الطب وبين استاذهم الدكتور بوست فأجمعوا على الكتابة بنقائصه الى رئيس الجامعة وعمدتها ومجلس ادارتها ثم الى مجلس المبشرين الاعلى . وكان جرجي زيدان احد اولئك الطلبة . وقدر له ان يكتب في هذا الموضوع واليك ما قاله في كتابه مشاهير الشرق الذي ظهر في السنة ١٩٠٢ : « واجتمعت لجنة المبشرين من انحاء سورية للنظر في ذلك الخلاف ولكنها لم تحسن السياسة في حكمها . فخرج معظم طلبة الطب من المدرسة » . وجاءت نهاية السنة المدرسية وخطب في المتخرجين الاستاذ لويس الاميريكي استاذ الكيمياء آنئذ وصديق فانديك الحميم فأتى على ذكر داروين ومبدأ النشوء والارتقاء . فاعترض دانيال بلس وجورج بوست على ذلك واعتبراه كفراً والحاداً . فهب كرنيليوس فانديك بما اوتي من ذكاء وصراحة وجرأة يقارع زميليه وينتقد موقفهما من طلبة الطب ومن الاستاذ لويس . ولما لم يفز باقناعهما استعفى وخرج غاضباً ثائراً .

وتسنى لنا نحن ان نفاتح الدكتور وليم فانديك بهذا وهو ابن الدكتور كرنيليوس لنكون على بينة من امرنا فحدثنا بما ورد اعلاه وباكثر منه . وأيده في ذلك القس ستيوارت كروفرد استاذ الفلسفة الادبية آنئذ في الجامعة .

الآبـاء اليسوعيّون ١٨٦١ - ١٨٨٣

الحكومة الفرنسية والآباء اليسوعيون

وزداد اهتمام فرنسة بمصير لبنان وسورية بعد السنة ١٨٦١ فكتب قنصلها في بيروت المسيو دي بنتيفوليو (M. de Bentivoglio) الى حكومته بوجوب المساواة بين الآباء اليسوعيين وبين الآباء العازاريين ومنح اليسوعيين الامتيازات نفسها التي تمتع العازاريون بها في دوائر وزارة الخارجية . فأجيب طلبه ودخلت الرهبنة اليسوعية منذ تلك اللحظة في دور جديد من العمل والنشاط .

وأحب الآباء ان يستغلوا عطف الدولة العثمانية على المنكوبين اللاجئين واستعدادها لمعونتهم . فتقدم الاب لافيجيري (Lavigerie) من سفير فرنسة في الآستانة بطلب يبين فيه عمل الآباء في ميتم معلقة زحلة وضرورة الحاق مساحة من الارض في البقاع بهذا الميتم . فاتصل السفير بالصدر الاعظم وفاوضه في الامر فوافق الصدر على ذلك وتخلّى عن مئتي هيكتارٍ من الاراضي الاميرية في جوار المعلقة لاغاثة الايتام . وآثر الاباء ان تكون هذه الاراضي قريبة من طريق الشام بيروت ومن الحدود اللبنانية فوقع اختيارهم على تعنايل على الرغم من مستنقعاتها وفساد مناخها آملين بتجفيفها وبزراعتها زراعة فنية حديثة تدر عليهم ما يكفي لسد حاجات الميتم في المعلقة وتوسيع العمل في البقاع .

وفي السابع عشر من نيسان سنة ١٨٦٣ تلقى سفير فرنسة موافقة الارادة السنية على منح سفارة فرنسة في الآستانة ثلاثة ملايين واربع مئة وثلاثة واربعين الفاً ومئتي ذراع مربع من الارض في سهل البقاع لانشاء مدرسة للايتام المشردين . فحولت السفارة حق التصرف بهذه الاراضي البقاعية الى الاباء اليسوعيين شرط ان يدفعوا الضرائب عنها الى الحكومة العثمانية وان ينفقوا ريعها في سبيل الخير في لبنان وسورية وفي سبيل تعليم ابناء هذين البلدين . ثم استحصلت السفارة على قرار وزاري استبدل ضريبة العشر السنوية بمبلغ مقطوع من المال قدره الف فرنك .

وفي هذه الاونة نفسها اكبرت الحكومة الفرنسية عمل الآباء في غزير في مدرستهم

الاكليريكية فخصتها بخمس وعشرين منحة سنوية وزعت عشرين منها على مختلف الابرشيات الكاثوليكية .

الآباء وأعمالهم

وجوبه الآباء في مطلع السنة ١٨٦١ بما لم يتهيأوا له بايواء خمس مئة يتيم وبتعمير الدير في زحلة بعد خرابه وباكمال ديرهم في دير القمر وبتوسيع العمل في غزير لقبول عدد متزايد من الطلبة وباطعامهم واكسائهم نظراً لما كان قد حلّ بذويهم من التقتيل او التشريد . وكانوا قد اعطوا بسخاء في اثناء الحوادث فبذلوا ما ملكت ايديهم متوكلين على الله الكريم !

فجاءهم رئيس جمعية مدارس الشرق الخيرية الاب لافيجيري وتبرع ببستين الف فرنك لانشاء ميتم للايتام وبمئة الف فرنك في كل من السنتين الاولى والثانية لاغاثة هؤلاء الايتام . فبدأ الاباء بتعمير ميتم في بساتين الامير الشهابي الكبير في معلقة زحلة ووزعوا الايتام – الى ان يتم البناء – على اديرتهم في بيروت وبكفيا وصيدا . فأشرف على ايواء الايتام وتربيتهم في بيروت الاب فيوروفيتش الدلماسي وفي بكفيا الاب لابورد . ومما جاء في تقارير الاب فيوروفيتش ان صغاره في بيروت كانوا في بداية عهدهم يجهلون كل شيء حتى « أبانا والسلام عليك يا مريم » ولكنهم تلقوا بتعطش شديد وتعبدوا بما لا مزيد عليه . وكان بينهم من أصبح فيما بعد كبيراً السيد نعمة الله سلوان اسقف قبرص . وأعجبت الاب فيوروفيتش امانة صغارهم « فانهم على الرغم من بؤسهم وحداثتهم لم يلمسوا نجاصات الميتم حتى أينعت فاذن لهم بها » .

وقام الآباء ينشئون الميتم في المعلقة . وأسرعوا في العمل . فتم لهم ذلك في ظرف سنتين . فآووا في السنة ١٨٦٣ ثلاث مئة يتيم . وأخذوا يعلمونهم العلوم البسيطة ويدربونهم في مشاغل الميتم المختلفة في الخياطة وفي صنع الاحذية وفي النجارة والحدادة . فقدموا للبنان وسورية عدداً من أمهر رجال الصناعة ممن تتلمذ على رجال الفرنجة في ذلك . وأصبح ميتم الآباء في المعلقة المركز الرئيسي لاعمالهم في زحلة والمعلقة وسائر البقاع . وجاءتهم تعنايل في السنة ١٨٦٣ كما سبق فأشرنا فاصبحت مقراً للاباء ومدرسة زراعية مزدهرة .

ومع ان ابنية الدير في غزير لم تُصب باذى فانه لم يكن من السهل فتح المدرسة فيها ثانية في بلاد مخرّبة . ولم يكد الاب كوش رئيس هذه المدرسة يعلن عزمه على فتحها في تشرين الاول من السنة ١٨٦٠ حتى تقدم عدد كبير من الاهالي لتسجيل ابنائهم في عداد الطلبة الداخليين راجين في الوقت نفسه اعفاءهم من الرسوم . وما

كاد الاب لا فيجيري يعلم بذلك حتّى تبرع باسم مؤسسته برسوم مئتي طالب بمعدل اربع مئة فرنك عن كل طالب وبخمسة عشر الف فرنك لانشاء جناح جديد . وهب الآباء يسعون بدورهم فحصّلوا مبلغاً آخر من المال اشتروا به معمل حرير مجاوراً للدير واضافوه الى ابنية المدرسة . وأعجب قادة الحملة الفرنسية وضباطها بما شاهدوه في مدرسة غزير فكتبوا بذلك الى حكومتهم كما سبق فأشرنا فجاءت المنح المدرسية الخمس والعشرون . وجاء ارنست رينان يمضي شهري تموز وآب من السنة ١٨٦١ في غزير فكثّر احتكاكه بالآباء وقدر عملهم الخيري حق قدره وخرج من حفلة تمثيلية اقاموها في المدرسة باكياً . ولم يكن قد كتب كتابه في حياة يسوع . وأسف الآباء انهم لم يتمكنوا من معاونة نفسه « المتعجرفة » لتخلص من النار !

ولم يدم الصفاء طويلاً في غزير . فالأب كوش ابتاع الميدان من الامراء الشهابيين . وقام خلفه الاب بيان يُضيف معظمه الى المدرسة ليجعل منه ملعباً للطلبة واستقدم الفعلة والبنائين لبناء حائط فيه يضم معظمه الى ممتلكات الاباء المجاورة . وما أن علم الغزيريون بذلك حتّى هجموا على البنائين والفعلة يريدون منعهم عن العمل فلم يفلحوا . وفي صباح العيد الكبير هجموا ثانية ففتحوا ثغرتين في هذا الحائط مدعين ان لهم حق المرور عبر الميدان . ويقول الاب جوليان في كتابه تاريخ الرهبنة اليسوعية في سورية ان الباعث لهذا الكدر انما كان رغبة الغزيريين في اقتسام المساعدة التي كانت ترسلها الاوساط الاوروبية الخيرية الى المدرسة . فالغزيريون طالبوا بقبول جميع الطلبة الغزيريين مجاناً وبحصر الاستخدام في الدير والمدرسة بابناء غزير . وتألّم الاب بيان ان يرى في شخصه سبباً للخلاف والشقاق . وعاد الى بيروت وانحطت قواه فاستدعي الى فرنسة وتوفي فيها في السنة ١٨٦٧ مردداً شعاره في الحياة « ! «Ego vinctus Christi»

وكان قد تسلّم رئاسة الرهبنة العامة في سورية ولبنان الاب زافييه غوترله (P. Xavier Gautrelet) فأرسل سلفه الاب كنوتي مديراً لمدرسة غزير في تشرين الاول من السنة ١٨٦٤ . وقام الاب كنوتي بما اوتي من حكمة ودهاء يصلح ذات الحال في غزير بين الرهبنة وبين الاهالي فسمح لهم باستعمال الميدان عند الحاجة واعترفوا هم بملكية الرهبنة للميدان وأصلحوا ما كانوا قد خربوا فيه .

وكان الاب زافييه غوترله رئيس الرهبنة الجديد وديعاً رفوقاً طاهراً انيساً في علاقاته الخارجية لطيفاً ظريفاً . ولكنه كان عبوساً صارماً في ادارة الرهبنة الداخلية . ومذ تسلم مقاليد الرئاسة هب ينظم حياة الرهبان الداخلية فجعل من الدير المركزي في بيروت في خلال سنوات رئاسته الخمس مثالاً للنظام والانضباط يضاهي افضل اديرة الرهبنة في فرنسة . ولا غرو فانه لم يطلب من غيره من الرهبان ما لم يقم هو به خير قيام .

وكان منذ وصوله الى بيروت «زائراً» في ايار من السنة ١٨٦٣ وقبل ان يتسلم مقاليد الرئاسة قد التفت الى كلية غزير معلقاً على عملها اهمية كبرى لما توخاه من نجاح للكثلكة في سورية ولبنان بتهذيب الاكليروس وتثقيف الطبقة صاحبة النفوذ في المجتمع الكاثوليكي . وهكذا فانه زاد عدد الرهبان المدرسين في غزير وطبق في كليتها مساق الدروس نفسه الذي كان سائداً في كليات فرنسة وفرض تعليم الفرنسية واللاتينية واليونانية في الصباح تاركاً بعد الظهر للعربية وآدابها . فكان المبتدئ يصرف سنة او سنتين لاتقان اللغة الفرنسية ثم ينصرف الى تعلم العلوم الثانوية سنتين اخريين واربعاً بعدها لدرس اللاهوت والفلسفة والقانون وتاريخ الكنيسة . وكانت ايام الآحاد والاعياد تخصص لدرس الطقوس الشرقية من يونانية وسريانية ومارونية وأرمنية . وكانت قراءات المائدة تتلى باللاتينية والفرنسية والايطالية والعربية .

ومما يروى عن اندفاع هذا الاب الفاضل انه جاء بيروت في الستين من العمر . وعلى الرغم من تقدمه في السن ومن كثرة اشغاله قام يطبق قانون الرهبنة الذي قضى بتعلم لغة البلد الذي يعمل فيه الراهب. نقول قام يطبق هذا القانون على نفسه .فكان يدرس العربية على أحد الطلاب في كل يوم مكرساً بعض اوقات الفراغ لترديد التصاريف اللغوية . ولم ينثن عن ذلك حتى كتب له الاب قائد الرهبنة مطمئناً مؤكداً انه تجاوز السن التي فيها يتعلم العربية .

وارتقب رجال الكثلكة في هذه الآونة انعقاد المجمع في الفاتيكان واقرار عقيدة العصمة فهبّ هذا الاب الفاضل يفكّر ويتأمل ويصلّي فوضع رسالته الشهيرة في الكنيسة الرومانية وأعدّ نداءه لمن اعتبره منشقاً عنها ونشر الاثنين باللغة العربية وبثهما في الاوساط النصرانية في لبنان وسورية .

وهال الاب غوترله انتشار المذهب الانجيلي في لبنان وازدياد عدد اتباعه واقدام الشبان الموارنة وغيرهم من الطوائف الكاثوليكية على تلقي العلوم الحديثة في جامعة بيروت الاميركية الانجيلية . وقد أبنّا في فصل سابق انه تخرّج ما بين السنة ١٨٧١ و ١٨٨٣ خمسة عشر طبيباً مارونياً من معهد الطب الاميركي وعشرة من الروم الكاثوليك وثلاثة من اللاتين فتبوأوا اهم المراكز في البيئات التي خرجوا منها . عرف الاب الرئيس اليسوعي هذا الاقدام على المعهد الانجيلي في بيروت فخشي سوء العاقبة وكتب مراراً الى قيادة رهبنته يوجب نقل كلية غزير الى بيروت وتكبيرها واعلاء شأنها لمكافحة المبادىء الانجيلية وحماية الشبيبة الكاثوليكية من «اضاليلها» ! ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق في عهده لما يتطلبه نقل المدرسة من غزير الى بيروت واعلاء شأنها وتوسيعها من نفقات وصعوبات لم تقوَ الرهبنة عليها الا في عهد الاب امبروسيوس مونّو خلفه في الرئاسة .

ورأى الأب قائد الرهبنة رأي الاب غوترله ولكنه لم يعهد اليه به لتقدمه في السن ولقلة اختباره في تصريف الامور الزمنية . فأقال الاب غوترله واحال رئاسة الرهبنة في لبنان وسورية الى الاب امبروسيوس مونّو الذكي الحمي المخلص الامين الذي لم يعبأ بالصعوبات ولم يتردد في انجاز ما كان يعهد اليه من مهمات . وكان قد برهن عن مقدرة فائقة في تصريف الامور الزمنية عندما تولّى وكالة الرهبنة الاقليمية .

وجاء الاب مونّو فوصل بيروت في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة ١٨٦٩ ووجد الرهبنة اليسوعية في لبنان وسورية مؤلفة من ثمانية وثلاثين أباً ومدرسين اثنين للفلسفة الكلامية واربعة وعشرين اخاً معاوناً . وكان الاب القائد قد فوّض اليه نقل كلية غزير الى بيروت فانتقى البقعة الملائمة سبعة عشر الف متر مربع في قلب البلدة مطلة على البحر وطلب الى الآباء الذين كانوا قد اتخذوا من القديس يوسف شفيعاً للمؤسسة الجديدة ان يتضرعوا اليه ليلهمهم انتقاء وسيط علماني قدير يبتاع الارض ويحمي الرهبنة من طمع اصحابها وجشعهم . فوقع اختيارهم على السيد درويش تيان الذي لم يقبل اي مقابل لخدماته سوى رضى الباري تعالى . وتقدم خياط ايطالي فأقرض الرهبنة المال اللازم لشراء الارض وقد بلغ اربعة وثمانين الفاً من الفرنكات .

بقي امر جمع المال اللازم للانشاء فرأى الأب مونو ان يطلبه في البلاد نفسها التي موّلت المرسلين الانجيليين في لبنان وان يذهب بنفسه اليها وإن جهل لغتها . وهكذا فاننا نراه يسند رئاسة الرهبنة في اثناء غيابه الى الاب كنوتي ويقوم هو الى لندن حيث يشرك معه في العمل الاب فرانسوا زافييه بايو الذي تولى فيما بعد هندسة البناء الجديد ويقوم معه الى بلاد الانكليز لقضاء شهرين فيها يتعرفان في اثنائهما الى بعض الكلمات الضرورية فيحفظانها ويعدان خطابين في اللغة الانكليزية يعبران فيهما عن اهمية المشروع في بيروت ووجوب تنفيذه . وفي حزيران من السنة ١٨٧١ وصل الابوان الى نيويورك وقضيا في الولايات المتحدة وفي كندا سنتين كاملتين يجدان في جمع المال ويلاقيان في سبيله شتّى انواع التعب والرفض والاهانة . وعلى الرغم من هذا كله فانهما عادا الى بيروت في تشرين الاول من السنة ١٨٧٤ مزودين بالمال المطلوب .

وجاء دور الانشاء فقامت صعوبات وصعوبات . منها ان القانون العثماني قضى باستصدار فرمان سلطاني لانشاء الكنائس والاديرة والمدارس ومنها ان هذا الاستصدار استوجب بذر الاموال في الاوساط العالية . فرأى الآباء ان يستصدروا فرمانهم بواسطة سفارة فرنسة . وتقدمت السفارة بالطلب اللازم ولكن اولي الامر في الآستانة

اوجبوا موافقة مسبقة من بلدية بيروت . فخشي الآباء سوء العاقبة « لوفرة الاعضاء المسلمين في المجلس البلدي ولكثرة الاعضاء الروم ونفوذ كلمتهم » . ولكن المجلس البلدي وافق في النهاية وأرسلت الاوراق الى الآستانة ودفنت فيها . فآثر الاب مونو الشروع بالعمل وعدم الانتظار . وكان كلما يطلب اليه ابراز الفرمان السلطاني يقول « لقد قمت بالواجب وفعلت كل ما يتطلبه القانون فاذا قصّرت الادارة ولم تقم بواجبها فلست انا المسؤول » . وكثرت الاشاعات حول المشروع الجديد فمن قائل ان الآباء ينشئون قلعة في قلب المدينة الى قائل انهم يبنون اكثر بكثير مما استأذنوا به . وكثر تردد الشرطة البلدية على الاب بايو المهندس فكان هو يحيلهم على قنصل فرنسة لابلاغه ما يحملون . ومما يروى من هذا القبيل ان المرحوم بشاره دبو كان لا يزال موظفاً بسيطاً في دائرة الاشغال فأبصر الاب مونو مرة حاملاً تصاميم الدير بيده فطلب اطلاعه عليها وعندما فعل نصح الى الاب مونو ان يصغّر مقياس التصاميم حتى تصبح بمجموعها قدر راحة اليد الواحدة فيستصغرها اولو الامر ويغضون النظر . ففعل الاب الرئيس واقتنع الموظفون !

وكان الاب بايو يواصل العمل ليلاً ونهاراً فأكمل البناء بواجهته الشمالية الطويلة واجنحته الثلاثة المتفرعة عنها وبطبقاته الثلاث في سنتين اثنتين فقط . وجاءت الكنيسة جميلة متقنة تزينها حجارة دير القلعة « بشحمها ولحمها » بطراز بيزنطي عربي . وأمها عدد من كبار الرجال بينهم متصرف لبنان ووالي سورية . وفي تموز من السنة ١٨٧٥ في حفلة توزيع الجوائز في غزير صُرف الطلاب ليعودوا في تشرين الى الدير الجديد في بيروت .

وقضى نقل المدرسة الى بيروت بقبول عدد اكبر من الطلاب غير الكاثوليكيين الارثوذكسيين وغيرهم من ابناء الكنائس الشرقية المستقلة ، كما قضي بقبول بعضى المسلمين والدروز واليهود . بيد ان ادارة المدرسة ابقت مجموع هؤلاء اقلية بالنسبة لمجموع الطلبة .

وخشي الآباء ان يكون للفرق بين اسم الجامعة الاميريكية وبين اسم المؤسسة الكاثوليكية الجديدة اثر في نفوس الاهالي والطلاب وان يعتقد الجمهور ان العلم العالي يتفق والمذهب الانجيلي اكثر بكثير من اتفاقه مع الكثلكة فسعوا سعياً حثيثاً لرفع كلية القديس يوسف الجديدة الى مصاف الجامعات . وفي مطلع السنة ١٨٨١ قام الاب رمي نورمان P Remi Normand خلف الاب مونو الى رومة لتحقيق هذه الرغبة . فتقدم بطلب من الحبر الروماني راجياً اضافة مدرسة رسولية الى الكلية القائمة في بيروت ومنح هذه حق اعطاء الرتب العلمية ولقب جامعة . فسمح الحبر بذلك في الخامس والعشرين من شهر شباط من السنة ١٨٨١ واصبحت كلية القديس يوسف

جامعة القديس يوسف او بالاحرى جامعة بيروت الكاثوليكية اليسوعية : Universitas catholica Berytensis Societatis Jesu ومنذ السنة ١٨٨١ أصبح بمقدور الطلبة الاكليريكيين ان ينالوا رتبة البكالوريا والمأذونية والدكترة في الفلسفة واللاهوت والحق القانوني . وأصبح بمقدور العلمانيين من الطلبة ان يتقدموا من امتحانين ينالون بعد اجتيازهما شهادة البكالوريا في الآداب .

معهد الطب الافرنسي

ولم يجد الآباء هذا كله كافياً . فمجال العمل لحملة البكالوريا اليسوعية كان ضيقاً قصيراً ذلك ان الحكومة العثمانية لم تعترف بشهادات الجامعة الكاثوليكية الجديدة وانها آثرت لاشغال وظائفها في سنجقي بيروت وطرابلس والاقضية الاربعة المتعلمين من شباب الاتراك وان الوظائف في الحكومة اللبنانية كانت محدودة قليلة وان التعليم في المدارس الخصوصية الكاثوليكية كان بيد رجال الكنيسة .

ورأى الآباء منذ اللحظة الاولى التي ظهرت فيها جامعة بيروت الاميريكية ان الطب وما كان يجره من ارباح مادية واحترام معنوي كان يشكل في حد ذاته واسطة اغواء قوية لعدد كبير من ابناء العائلات الكاثوليكية . وهكذا فاننا نرى احدهم يكتب منذ السنة ١٨٧٢ فيقول « لقد تزايد عدد الطلبة الكاثوليكيين في معهد الطب البروتستانتي ولا يزال . وليس من يبالي بالحرم الذي وضعه البطريرك الماروني » .

ولمس ممثلو فرنسة في بيروت من رجالها الرسميين وغير الرسميين نجاح المؤسسة « الاميريكية الانكليزية » واقبال الشباب الكاثوليكي عليها وبينهم الماروني والكاثوليكي واللاتيني . فعظم عليهم الامر وأفزعهم وارادوا ابعاد اصدقاء فرنسة عنها فلم يروا أليق وأمهر من الآباء اليسوعيين في ذلك . وهكذا فاننا نرى المسيو باتريمونيو قنصل فرنسة في بيروت يتحدث الى الاب رمي نورمان في هذا الموضوع في السنة ١٨٧٦ ويكتب الى حكومته محبذاً تقديم المساعدات اللازمة للآباء لاجل انشاء معهد طبي افرنسي كاثوليكي يناوىء المعهد الطبي الاميريكي الانكليزي . وجاء المسيو ده تورسي De torcy الملحق العسكري في سفارة فرنسة في الآستانة الى بيروت في مهمة خاصة فلفت القنصل نظره الى هذا الامر وأقنعه بما ذهب اليه . وكلّم المسيو ده تورسي الزعيم الفرنسي غامبته في الامر فوافق على اهميته ورأى في المشروع فائدة لفرنسة وتغذية لنفوذها في الشرق .

وشُجع الاب نورمان وتقوى قلبه فأمّ رومه وعرض ما عنده على الحبر الروماني لاوون الثالث عشر . فعطف الاب الاقدس عليه ولا سيما وان في المشروع

ما يقوي الكثلكة في نضالها ضد البروتستانتية وأعلم سفير فرنسة لديه بانه يُسر كل السرور من انشاء مدرسة طبية في الجامعة الكاثوليكية في بيروت . وهكذا فانه عندما وصل الاب نورمان الى باريز وجد زعماء فرنسة مستعدين لتقبل اقتراحاته ولا سيما وزير الخارجية برتلامي سان هيلار Barthélemy Saint - Hilaire . ووافق مجلس النواب الفرنسي على فتح اعتماد اضافي في موازنة وزارة الخارجية للسنة ١٨٨٢ بمبلغ مئة وخمسين الف فرنك لانشاء مدرسة افرنسية للطب في بيروت . وتسلّم غامبته رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٨١ فأضاف الى الاعتماد المذكور خمسة وعشرين الف فرنك لانشاء مختبر للفيزياء في بيروت .

وخرج سان هيلار من الوزارة وتوفي غامبته فاضطرت الرهبنة ان تفاوض بواسطة ممثلها الاب بطرس مازاوييه كلاً من الوزراء فرايسيني ودوكلارك وجول فري . وكتب دوكلارك (Duclerc) الى الاب نورمان في بيروت في منتصف ايلول من السنة ١٨٨٣ يقول : بعد التفاوض مع وزارة التربية يمكنني الآن ان اكتب لكم بما تم الاتفاق بين الوزارتين . يتعهد امر قبول الطلبة الى لجنة خماسية يعينها قنصل فرنسة في بيروت . ويكون تحصيل اللاتينية واليونانية اختيارياً . ويشرف على الامتحانات النهائية الاساتذة انفسهم برئاسة استاذ توفده لهذه الغاية وزارة التربية . وتمنح الشهادات باسم وزير التربية وبناء على توصية رئيس اللجنة الفاحصة . وقد توسعنا في برنامج الدروس لنضمن للمدرسة الجديدة تفوقاً محسوساً على المدرسة البروتستانتية .

وافتتحت الطبية الجديدة في منتصف تشرين الثاني من السنة ١٨٨٣ وفيها آباء ثلاثة للادارة ولتعليم العلوم الموصلة وطبيبان علمانيان فرنسيان واحد عشر طالباً . ويقول الدكتور شاكر الخوري في كتابه مجمع المسرات : « واول الاطباء روفييه وسنس ودرّس الاول التشريح والثاني الجراحة الصغرى . وبعد ذلك حضر نكر معلم التشريح ودبران معلم الامراض الباطنية . وعندما ابتدأ سنس بالجراحة الكبرى وما عاد امكنه ان يعلم الجراحة الصغرى طلب معلماً لهذا الموضوع . وحيث كنت موجوداً في المستشفى الفرنساوي معه منذ السنة ١٨٧٩ دعاني رئيس المدرسة الاب لوفافر والشانسليه الاب مرسلييه بعد مصادقة قنصل فرنسة ان اكون معلماً للجراحة الصغرى » .

وأبقى رستم باشا ما كان قد انشأه سلفه فرنكو باشا من مدارس في بعض انحاء المتصرفية . وقد ورد ذكره في محله . وأضاف رستم غيرها ولعله ضاعف العدد . فسجلات مجلس الادارة تثبت مضاعفة النفقات وتشير الى مدارس رسمية في بشري وحصرون وكفرقاهل وكوسبا وغوسطة وعرمون ولحفد وحبالين وغباله وبيت مري والباروك والشويفات وغريفة ووادي شحرور ومجدل معوش وكترمايا .

وجل ما نعلمه عن هذه المدارس وقد ضاعت اوراقها ان « قتوتلو » فضول افندي البستاني كان قد أصبح « مديرها » واحياناً « ناظرها » وان مجلس الادارة وافق على جباية غرشين من كل مئة غرش من دخل الحكومة كرسم لهذه المدارس وان مدير احدى مدارس الحدث الرسمية كان المعلم جرجوره صالح وان رئيسة مدرسة بتدين للبنات كانت المعلمة مريم ابو شقرا وان هذه طلبت حصيرتين لجلوس البنات في مدرستها وان الشيخ عيد حاتم وكيل رئاسة مجلس الادارة رفض الموافقة على صرف خمسة وستين غرشاً « لصبغ لوحي الرقم في مدرسة الشويفات ولشراء التباشير والورق والحبر وبعض المكانس ! » .

المدارس الرسمية العثمانية

« وفي اوائل السنة ١٨٧٨ اتى جودت باشا والياً على سورية . وفي تشرين الثاني طُلب الى الآستانة فأقيم وزيراً للزراعة . وأتى مكانه مدحت باشا الوالي الحالي (١٨٧٩) فدخل دمشق يوم الثلاثاء في الثالث من كانون الاول سنة ١٨٧٨ ففرح الناس بقدومه لما سمعوا عنه من الاستقامة والدراية . وأملوا الاصلاح في ايامه » . هذا ما قاله شاهد عدل معاصر نعمان افندي القساطلي في كتابه الروضة الغناء في دمشق الفيحاء الذي طبع في السنة ١٨٧٩ في بيروت .

ولم يخب أمل السوريين واللبنانيين بابي الاحرار . فانه نفذ قانون المعارف الذي اشرنا اليه سابقاً — وكان قد بقي حبراً على ورق في عهد سلفائه — فانشأ عدداً كبيراً

من المدارس الابتدائية في جميع مدن الولاية واهم قراها . ثم أردفها بمكاتب رشدية في مراكز السناجق والاقضية . فظهر في بيروت مكتب رشدي واربع مدارس ابتدائية اثنتان للذكور ومثلهما للاناث. فترأس مكتب الذكور الاول احمد افندي عباس وترأس الثاني عمر افندي البربير . وكان بين المعلمين احمد افندي زيدان وخضر افندي خالد وابراهيم افندي رمضان . وترأست مكتب الاناث الاول السيدة حليمه رضوان والثاني السيدة فاطمة فان . وكان بين المعلمات السيدات هاجر شهاب وزبيدة التنير وحنيفة النعماني وهاجر عبد الحي والخياطتان فاطمة عمار ونفيسة شامي . وقام في طرابلس مكتب رشدي وخمسة مكاتب ابتدائية للذكور وواحد للاناث . وفي صيدا مكتب رشدي واربعة مكاتب ابتدائية للذكور وواحد للاناث . وفي صور مكتب رشدي وثلاثة مكاتب ابتدائية للذكور . وفي مرجعيون مكتب رشدي ومكتبان ابتدائيان للذكور . وفي بعلبك مكتب رشدي .

المكتب السلطاني في بيروت

وخصّ ابو الاحرار بيروت بمكتب رشدي عسكري ومكتب رشدي ملكي وبمكتب سلطاني عالٍ للتعليم الثانوي . وجعل مدير هذا المكتب العالي الشيخ حسين افندي الجسر وناظره الشيخ احمد افندي عباس . اما هيئة التعليم فانها تالفت من مدرسين ثلاثة للعربية الشيخ ابراهيم افندي الاحدب وعبد القادر افندي المسقاوي ومصطفى افندي مطري ومن مدرسين اثنين للتركية احسان افندي وسليم افندي ومن معلمين اثنين للخط رشدي افندي للخط الرقعي وحسن افندي بنّا للثلث والنسخي . وتولى الامير يوسف شهاب تدريس اللغة الافرنسية يعاونه فيها خليل افندي الحرفوش . وطلب الى نعوم افندي شقير ان يتولى تدريس الرياضيات والانكليزية والى محمد افندي اسكندراني ان يدرس الحساب . وكان طبيب هذه المدرسة الدكتور اديب افندي قدوره . ووكيل خرجها طاهر افندي اليافي ورئيس خدمتها حاجى محمد اغا باف .

وقسمت الدروس الثانوية في هذا المكتب السلطاني على ست سنوات . فكان طلاب السنة الاولى يدرسون الصرف العربي في « المقصود » والصرف التركي في « ترجمان وصرف تركى » واللغة الفرنسية في سانكونت وفي مرشد المتكلم والحساب في مصباح الحاسب ودليل الطالب والنحو في هدية الطالب ومنية الراغب . ودرس طلاب السنة الثانية الصرف والنحو في « بنآ شرحى واظهار » والتركية في « قواعد عثمانية وعالملرله جاهلر لا فرقى » والفارسية في « تعليم فارسى » والفرنسية في الباقي

من كتاب سانكونت وغرامير لاروس ومرشد المتكلم والحساب في كتاب كشف الحجاب والجغرافية في الخلاصة الصافية والانكليزية في الحلقة الاولى من الرويال ريدر . اما طلاب السنة الثالثة فانهم درسوا النحو في الكافية والمنطق في الايساغوجي والفارسية في « كلستان » والفرنسية في ما بقي من لاروس والحساب في كشف الحجاب والجغرافية في اللغة التّركية في كتاب « جغرافياتى عثماني » والتاريخ في التّركية ايضاً في كتاب « مرأت تاريخ عثماني » والانكليزية في الصرف الانكليزي ومبادىء الانشاء والتّرجمة . وجاء في برنامج السنة الرابعة المنطق في كتاب ميزان العدل والجبر في كتاب الروضة الزهرية والحقوق في كتاب ملتقى الابحر والجغرافية والتاريخ بالتّركية في « جغرافيا عمومى وتاريخ عمومى » والطبيعيات في « ألسنة جاكسون » والكيمياء في اصولها للويس وفانديك والتاريخ الطبيعي بالافرنسية . وانحصر العمل في اللغات التّركية والفرنسية والانكليزية بالانشاء والتّرجمة . وشمل برنامج السنة الخامسة المعاني والبيان والبديع في العربية والبلاغة في التّركية واصول الهندسة لفانديك ومبادىء ثروة الملل بالتّركية والتاريخ العمومي بالتّركية وحقوق الملل والدول والمجلة واصـــول المحاكمات وقانون التجارة بالتّركية ايضاً والطبيعيات والكيمياء لفابر بالافرنسية . وخصت السنة السادسة النهائية بمحيط الدائرة ومقامات الحريري وبالانساب والمثلثات وبالباقي من كتاب فابر الافرنسي في الكيمياء والباقي من كتاب ثروة الملل بالتّركي والباقي من المجلة واصول المحاكمات بالتّركي ايضاً . وأضيف الى البرنامج مبادىء الميكانيك والزراعة بالتّركي .

وينص بيان رسمي صدر عن هذه المدرسة سنة تاسيسها ان مدة التحصيل فيها كانت ست سنوات ثلاث اعدادية وثلاث عالية وانها انما انشئت لتطبيق البرنامـــج الحكومي وان اساتذتها من ذوي الاهلية والمقدرة وان سنتها الدراسية ابتدأت في اول اذار وانه كان على من رغب الالتحاق بها ان يراجع احدى شعب مجلس المعارف اوالحكومة المحلية وانه لم يقبل فيها الا من اكـــمل الخامسة عشرة وحمل الشهادة الابتدائية او الرشدية . « او على الاقل من تمكن من قراءة جريدة في لغة من اللغات » . وجعل هذا البيان مجموع رسوم المدرسة عن سنة دراسية كاملة الفاً وثماني مئة غرش تركي عثماني او ثماني عشرة ليرة عثمانية ذهباً تدفع بقسطين في اول السنة الدراسية وفي منتصفها .

ومما جاء في هذا البيان المفيد ان ترويقة الطلبة كانت حليباً « خالصاً » وشيئاً من الشاي والجبن « النفيس » والخبز والكعك وان وجبة الغداء كانت تتألف من اللحم والخضار والشوربا . وفي المساء تناول الطلبة صحنين احدهما كباب والاخر خضار او ارز مطبوخ بماء اللحم . وكانت الحلوى تقدم في ليالي الجمعة والفاكهة في كل مساء .

وكان على الطالب ان يجلب معه الى المدرسة نصف دزينة من الالبسة التحتانية والمحارم والكلسات والاقمصة وسترة وبنطلوناً واسكربينة ومشطاً وفرشاية ومقصاً وملعقة وشوكة وسكيناً وعويساً لبري الاقلام وكأساً وفراشاً من القطن طوله مئــة وسبعون سنتيمتراً وعرضه خمسة وتسعون وغطاءي سرير احدهما من الفانيلا والآخر من القطن واربعة شراشف واربعة مناشف للوجه ومثلها للطعام .

المقاصد الخيرية

وشاء مدحت ان يزيد بيروت علماً ولا سيما ابناءها المسلمين . فأوعز بانشاء جمعية خيرية لهذه الغاية في السنة ١٨٨٠ وجعلها شبه رسمية فعين رئيساً عليها امين سر مجلس ادارة سنجق بيروت محرّم بك وجعل اعضاءها اربعة وعشرين : حسن بيهم بديع اليافي بشير البربير احمد دريان حسن الطرابلسي خضر الحاسر راغب عز الدين سعيد الجندي سعيد طربيه طه النصولي عبد الله الغزاوي عبد القادر سنو عبد القادر القباني عبد اللطيف حماده عبد الرحمن النعماني محمود خرما محمود ديه محمود رمضان مصطفى شبارو محمد الفاخوزي محمد اللبابيدي مصباح محرم محمد ابو سليم المغربل هاشم الجمال .

العِلمُ وَالتَعليمُ عِندَ الرّومِ وَالموَارنة

وتولّى رئاسة الكهنوت في اوائل هذه الفترة من تاريخ لبنان حبران كبيران كان لهما اثر طيب في تطور العلم والتعليم في بيروت احدهما غفرائيل رئيس اساقفة بيروت ولبنان على الروم والآخر يوسف رئيس اساقفة بيروت على الموارنة .

غفرائيل متروبوليت بيروت

هو جرجي ابن نعمة الله شاتيلا أبصر النور في دمشق في الخامس من شباط سنة ١٨٢٥ وتعلم القراءة والكتابة العربية ومبادىء اللغة اليونانية عند الخوري يوسف مهنا الحداد في دمشق . وفرغ منه كله قبل التاسعة من عمره . وكان هذا منتهى ما كان يتسنى للطالب ان يحصله وقتئذ . ثم اخذ يتلقى اليونانية في البطريركية الارثوذكسية في دمشق وينسخ الكتب . وفي الرابعة عشرة اخذه والده الى محل عمله ليدربه على نسج الحرير الدمشقي « الكريشة » وعلى الاتجار به . وبعد نصف سنة توفي والده فأخذ على عاتقه القيام بحاجات بيت ابيه وتربية اشقائه القاصرين . وما فتىء حتى شب اخوه فضل الله فدربه حتى وثق به وقام الى القدس تبركاً وذهب بعد ذلك الى أزمير فالآستانة لمهام تجارية . وفيها اتته الدعوة للخدمة الروحية . وكان قد توفي البطريرك مثوديوس الانطاكي وانتخب خلفاً له البطريرك ايروثيوس وكيل البطريرك الاورشليمي في الآستانة . فحضر جرجي حفلة التتويج واستلام عصا الرعاية سنة ١٨٥٠ ورأى وداعة البطريرك الجديد ولمس تقواه فألقى الله في روعه ان يكرس حياته للخدمة الروحية . ورغب الى البطريرك ان يجعله راهباً ليكون بمعيته فوافق على ذلك وألبسه ثوب الرهبنة في تلك السنة نفسها وسمّاه غفرائيل بدلاً من جرجي . ثم سامه شماساً بعد سنة وجعله كاتباً له لاسباب منها انه كان قد اصبح قديراً في العربية واليونانية .

ومما يذكر للشماس غفرائيل انه بقي في تلك الآونة لدى رئيس الكنيسة الانطاكية لانشاء مدرسة اكليريكية في الكرسي الانطاكي في دمشق فقبل البطريرك

ايروثيوس بذلك واستقدم استاذين يونانيين لهذه الغاية وعين لمساعدة الخوري يوسف مهنا الحداد المعلم يوسف عربيلي والمعلم يوسف الدوماني . وفي السنة ١٨٥٨ قام الشماس غفرائيل الى الآستانة بمعية البطريرك الانطاكي لحضور مجمع البطاركة الاربعة فكتب بخط يده اتفاقية رجوع بعض الروم الكاثوليكيين الى احضان الكنيسة الارثوذكسية . وكان قد مثل هؤلاء كل من الخوري يوحنا حبيب والخوري غبريل جباره . وسيم الشماس قساً فارشيمندريتاً في الآستانة في السنة ١٨٦٠ .

وفي السنة ١٨٦١ قام الارشمندريت غفرائيل الى موسكا ليتسلم رئاسة الامطوش الانطاكي فيها . وبقي في موسكا تسع سنوات كان في اثنائها مثال الخدمة والتقوى . وفي السابع والعشرين من ايلول سنة ١٨٦٩ اجتمع المجمع الانطاكي المقدس في دير البلمند لانتخاب مطران لكرسي بيروت فأصاب الارشمندريت غفرائيل الانتخاب باجماع الاصوات وتبلغه . فشكر واستعفى . فلم يقبل استعفاؤه . فدافع دون القبول نحواً من سنة . ثم أجبر أخيراً فاحنى عنقه . ووصل الى ثغر بيروت في الثاني والعشرين من ايلول سنة ١٨٧٠ وسيم مطراناً وارتقى الى كرسي الرسول كوارتس احد الاثنين والسبعين بعد خمسة ايام في دمشق .

وكان اول عمل قام به متروبوليت بيروت الجديد انه دفع من جيبه الخاص نحواً من خمسة وسبعين الف غرش لوفاء ديون كانت قد تراكمت على اديرة الابرشية . واخذ يهتم في اصلاح هذه الاديرة وترميم ابنيتها وايجاد الرهبان فيها . ثم اجتهد ان يجعل اوقاف الاديرة والكنائس متسقة منظمة تحت ضابط قانوني . وأخذ على عهدته مدرسة الطائفة الكبرى في بيروت وانفق عليها من ماله نحواً من الف ليرة عثمانية علاوة على ايرادها . ودعا اليها افضل الاساتذة آنئذ كما شوّق البعض من الطلبة للالتحاق بها حتى اذا ما اكملوا دروسهم فيها جعل منهم اكليروساً راقياً لائقاً . فنبغ من هؤلاء فيما بعد عدد من رجال الدين والدنيا منهم غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية . وانشأ في السنة ١٨٧٨ مستشفى القديس جاورجيوس ورائده فيه خدمة الطبقة الفقيرة من ابناء الطائفة . وشوّق افضل اطباء ذلك العهد للعمل فيه وفي طليعتهم كرنيليوس فانديك الشهير .

يوسف الدبس مطران بيروت

هو يوسف ابن الياس الدبس ولد في قرية كفرزينا من زاوية طرابلس في الثامن من تشرين الاول سنة ١٨٣٣ وتعلّم مبادىء العربية والسريانية في مدرسة القرية . ثم دخل مدرسة عين ورقة في السنة ١٨٤٧ وأكمل دروس قسميها : الايطالية واللاتينية

والمعارف العالية والمنطق واللاهوت الادبي . وفي السنة ١٨٥١ درس في طرابلس على الخوري يوسف السمعاني شيئاً من الفلسفة . ثم عاد الى الفيحاء في السنة التاليـة فدرس اللاهوت الاعتقادي على احد الآباء الكرمليين فيها وفي السنة ١٨٥٣ استدعاه مطران طرابلس بولس موسى كساب لترجمة كتاب البدع للقديس الفونس ليكوري فانجزها في خريف السنة ١٨٥٤ . وعند وفاة البطريرك يوسف الخازن دعاه خلفـه البطريرك بولس مسعد للتعليم في مدرسة مار يوحنا مارون . وفي السنة ١٨٥٥ رسمه مطران طرابلس كاهناً في كرسي الابرشية واعاده الى مدرسة مار يوحنا مارون ليعرب الرسوم الفلسفية واللاهوت الاعتقادي ويدرب الطلبة فيها فيعدهم الى خدمة الكنيسة .

وفي السنة ١٨٦٠ أمره البطريرك بولس ان يبقى في خدمته واقترح عليه ان يترجم كتاب يوحنا ديفوتيوس في الحق القانوني ففعل . ثم صنّف تحفة الجيل في تفسير الاناجيل ومغني المتعلم عن المعلم في قواعد اللغة ومربي الصغار ومرقي الكبار في واجبات الانسان لخالقه ولنفسه . وفي السنة ١٨٦٧ دعاه البطريرك لمرافقته الى رومه فباريز فالآستانة . ونشر بعد هذا كتابه سفر الاخبار في سفر الاحبار . وعندما دعا البابا بيوس التاسع اساقفة العالم اجمع الى مجمع مسكوني ينعقد في الفاتيكان وجّه الخوري يوسف رسالة خاصة الى الرؤساء الشرقيين غير الكاثوليكيين يناشدهم فيها ان يأتوا الى المجمع . وفي السنة ١٨٧١ طبع الخوري يوسف كتابه روح الردود على الخوري يوسف داود ينفي به خروج الموارنة عن الكنيسة الأم وقولهم بالمشيئة الواحدة .

وفي هذه السنة نفسها ١٨٧١ توفي المطران طوبيا عون رئيس اساقفة بيروت على الموارنة فسلّم اكثر اعيان الابرشية امر انتخاب الخلف الى البطريرك بولس . فوقع انتقاؤه على الخوري يوسف الدبس ورقاه الى رتبة المطرانية في الحادي عشر من شباط سنة ١٨٧٢ فكرّس سنيه الاولى الى الوعظ والارشاد وجمع ما قاله في اجزاء ثلاثة وطبعه في المطبعة العمومية التي كانت قد اصبحت له بالاشتراك مع صديقه رزق الله خضرا . وشرع ببناء كنيسة مار مارون فاكملها في السنة ١٨٧٤ وفي آذار من السنة ١٨٧٥ أصابه مرض احتقان الدماغ فانقطع عن التأليف والوعظ وسافر الى رومه فباريز وفيينه وعاد متعافياً الى بيروت لينشيء فيها مدرسة الحكمة . واليك ما قاله هو في هذا الموضوع :

« وكانت المدارس تنشأ لتهذيب الاكليريكيين وتعليمهم ولم يكن في طائفتنـا مدرسة لتعليم الشبان العالميين . ولما دعاني الله بوافر سخائه لا باستحقاقي الى اسقفية بيروت كان اول اهتمامي انشاء هذه المدرسة للعالميين . واشرت الى ذلك في اول

خطبة القيتها في هذه المدينة . واخذت استعد لذلك وابحث عن محل يوافق هذا الغرض . فشريت عدة قطع من الارض في المحلة المعروفة بالغابة سنة ١٨٧٤ واخذت في البناء مستعيناً على ذلك بثمن معمل حرير في شملان كان المرحوم سالفي قد شراه فبعته الى الخواجه يوحنا فريج بمايتي الف غرش وبثمن نصف قرية كفريا في البقاع الغربي كان المرحوم سالفي قد شراه فبعته الى الخواجه يوسف سرسق بمايتي الف غرش ايضاً . وذلك بعد ان كاشفت بهذا البيع السيد البطريرك ومجمع نشر الايمان المقدس . وابتدأت في البناء في السنة المذكورة بنوع انني انجزت سنة ١٨٧٥ قسماً كبيراً منه وادخلت الطلبة اليه في اول تشرين الثاني من هذه السنة . وواصلت السعي في تكملة هذه المدرسة . فوهبني الله التوفيق . فكان اكثر البناء القائم الآن مع الكنيسة كاملاً في آخر سنة ١٨٧٨ .

« فمزيد اهتمامي بهذا المشروع والقائي الخطب في كنيسة بيروت الكبرى مدة الصوم مع الانقطاع والصوم سببت لي مرض احتقان الدماغ سنة ١٨٧٥ ولولا براعة النطاسي الشهير الدكتور سوكه الافرنسي لكنت من يومئذ في الابدية . ولما بللت من مرضي اشار علي بالسفر الى اوروبا . فعملت بمشورته وسرت الى رومه اولاً . ونلت حظوة كبرى بعيني السعيد الذكر البابا بيوس التاسع والمثلث الرحمات الكردينال فرنكي رئيس مجمع نشر الايمان المقدس . فدفع الي نيافته كتب توصاة الى فرنسة لمساعدتي بمشروعي المذكور . وكنت قد ارسلت الخوري يوسف الزغبي والخوري لويس زوين الى فرنسة للتكمل بعلومها ومعاونتي بعد عودتهما على ادارة المدرسة . فسلمت اليهما كتب التوصاة فجمع احدهما الخوري لويس من فرنسة نحو عشرين الف فرنك . والخوري يوسف الزغبي هذا القدر من بلجيكه وانكلتره . فأوقفتهما بعد ذلك عن السؤال . فكان الداخل لهذا المشروع نحو اربع مئة الف قرش من ثمن العقارات المذكورة ومئتي الف قرش ونيف من الاحسانات المشار اليها . وما كلفت احداً من ابناء ابرشيتي او غيرها يدفع شيئاً. ولا سألت بنفسي شيئاً من احد في اوروبا . ولا اعلم كيف بارك الله هذا العمل المقصود منه وجهه الكريم ونفع القريب حتى كان مجمل ما صرفته في هذه المدرسة من نفقة البنا والاثاث وشرا العقارات وتعمير مساكن للاجرة نحو ثلاثين الف ليرة افرنسية الى الآن (١٩٠٢) .

« وقد نجحت والحمد لله هذه المدرسة ولا ينقص تلامذتها في كل سنة عن ثلاث مئة طالب السواد الاعظم منهم داخليون . وقد نبغ منها كهنة علماء وخطباء وشعراء وكتاب . وكنت ارسلت اخي الخوري بولس بعد اتمام دروسه في مدرسة عين ورقة الى باريس سنة ١٨٧٥ للتكمل في دروسه ومراعاة ادارة المدارس في اوروبا . فعاد الي سنة ١٨٨٠ وعهدت اليه بادارة هذه المدرسة ورئاستها فأتم ذلك بما يرضي الله

ويعزيني عن اتعابي .

« وبارك الله مساعي الخوري لويس زوين والخوري يوسف الزغبي واتاح لهما التوفيق . فشرى الخوري لويس زوين بعد عودته دار الامير منقذ شهاب في غزير وزاد عليها وجعلها مدرسة على اسم مار لويس لقبول طلبة عالميين واكليريكيين . وكذلك الخوري يوسف الزغبي فانه بعد عودته من اوروبا وارتقائه الى اسقفية قبرس بنى طبقة عليا فوق الطبقة السفلى (في قرنة شهوان) وجعلها مدرسة اكليريكية وعالمية » .

الانتاج الفكري في العلوم والآداب واللغة

واستتب الامن في لبنان بفضل الانظمة الجديدة وساد السلام والوئام بين ابنائه وبدأت المدارس الثانوية والكليات العالية تزف خريجيها الى المجتمع اللبناني . وتعددت الجمعيات العلمية والادبية وكثر عدد المطابع وزاد عدد المجلات والجرائد . فأصبحت بيروت مركز الفكر الحديث في الشرق العربي ومبعث العلوم العصرية ومنشأ رجال الصحافة وكتاب الادب والسياسة .

ترجمة القوانين

وقضت الحاجة بنقل القوانين الجديدة من التركية الى العربية . فنقل نقولا نقاش « وكيل الدعاوي » قانون الاراضي الى العربية وطبعه في بيروت في السنة ١٨٧٣ ثم عرّب قانون التجارة فقانون تشكيلات المحاكم النظامية فقانون اصول المحاكمات الحقوقية فقانون اصول المحاكمات الجزائية . وأصدرها جميعها في السنتين ١٨٨١ و ١٨٨٢ . وكان نوفل نوفل الطرابلسي يعنى في الوقت نفسه بتعريب الدستور فتم له ذلك في السنة ١٨٨٠ ونشره في بيروت في مجلدين ضخمين في السنة ١٨٨١ . فقدرت الحكومة العثمانية عملهما وانعمت عليهما رتباً ومالاً — ثلاث مئة ليرة عثمانية لنوفل نوفل ! وكان هذا مبلغاً كبيراً في ذلك العصر .

ترجمة التوراة والانجيل

وأكمل المرسلون الاميركيون ترجمتهم للتوراة والانجيل بالتعاون مع المعلم بطرس البستاني والشيخ نصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير وطبعوها في السنة ١٨٦٨ فعمد الآباء اليسوعيون لمنافستهم واستقدموا الاب اوغوسطين روده ووكلوه أمر التعريب . ولكنهم رأوا ان امانة التعريب لا تفي بالمرام ان لم يعط المعرب حقه من الفصاحة والبلاغة بتنقيح العبارة وسبك الكلام . فاستقدموا الى مدرستهم في غزير الشيخ ابراهيم اليازجي ابن الشيخ نصيف وتعاقدوا معه في اثناء السنة ١٨٧٢ .

فكان ينظر فيما يعرضه عليه الاب روده فيدقق فيه . ويتفاوض الفريقان الى ان يتفقا . ودرس الشيخ ابراهيم العبرية لتطبيق عبارة التعريب على الاصل . فجاءت هذه الترجمة أصح الترجمات لغةً وأفصحها عبارة واجزلها اسلوباً . وظهر المجلد الاول منها في السنة ١٨٧٦ وانتهى طبع الانجيل في السنة ١٨٨١ وتأفف الشيخ اليازجي من القيود التي فرضها الآباء عليه في تنقيح الانجيل .

دوائر المعارف

وشعر علماءُ لبنان وادباؤه في بدء هذه النهضة بالحاجة الى موسوعات في شتى حقول المعرفة ولا سيما في حقول العلوم الطبيعية والطبية والثابتة وفي حقلي التاريخ والجغرافية . فما وضعه العرب من قبل كان قد اصبح عتيقاً لا يعمل به وما قام به رجال النهضة في مصر في عهد عزيزها محمد علي الكبير كان قد أصبح بدوره ناقصاً متأخراً . نقول شعروا بهذا كله فاقدموا على التصنيف افراداً في مواضيع كانت ولا تزال تتطلب جهود الجماعات .

ففي السنة ١٨٧٠ اتفق سليم شحاده وسليم الخوري في مكتب جريدة حديقة الاخبار في بيروت ان يصنفا دائرة للمعارف التاريخية والجغرافية مرتبة ترتيباً هجائياً وافية مفيدة . وفي السنة ١٨٧٥ أصدرا الجزء الاول من القسم الجغرافي من هذه الموسوعة بعنوان « آثار الادهار » وتوفي أحدهما سليم الخوري بالهواء الاصفر في صيف هذه السنة فبقي سليم شحاده وحده مثابراً على العمل ونشر الجزء الثاني في اواخر السنة نفسها والثالث في ربيع السنة ١٨٧٦ فالرابع والخامس . وفي السنة ١٨٧٧ أصدر سليم شحادة الجزء الاول من القسم التاريخي مصدَّراً بمقدمة في فلسفة العمران بحث فيها عن الانسان وشؤونه ثم استرسل الى علم التاريخ واحواله ومنشئه ونتائجه « فجاء بما لم يجيء به الا كبار علماء العمران » .

وكان المعلم بطرس البستاني زعيم الحركة الفكرية الادبية لا يزال يتابع اعماله العلمية المفيدة فأنجز في السنة ١٨٧٥ تبويب دائرة للمعارف كلها وأصدر الجزء الاول منها في السنة ١٨٧٦ . وما زال يتابع اصدار هذه الدائرة كل سنة جزءاً كبيراً حتى أصدر منها ستةً قبل وفاته سنة ١٨٨٣ . وقام ابنه سليم بالمشروع بعده فأصدر السابع في السنة ١٨٨٣ والثامن في السنة ١٨٨٤ . وتوفي في شبابه فتابع العمل ابناءُ بطرس الباقون بالتعاون مع نسيبهم سليمان البستاني حتى الجزء الحادي عشر الذي انتهى بكلمة « عثمانية » .

وظهرت دائرة البستاني منذ ولادتها متقنة محكمة التأليف غزيرة المادة سلسة

العبارة واضحة المعنى . ولا غرو فالبستاني الكبير تميز بحسن التبويب ووضوح التفكير وسلاسة الاسلوب في عصر كان الادباء فيه لايزالون يقلدون الاقدمين « بالاستعارات الباردة والجناسات المضحكة والاسجاع التافهة » .

خصائص لغة العرب

وكان فارس الشدياق قد أردف كتابه الساق على الساق بسرّ الليال في القلب والابدال وبالجاسوس على القاموس فانتقد الفيروزبادي في خطته وعبارته ومعاني الفاظه واشتقاقها وما شاكل ذلك . وقلّب كتب الآستانة ولا سيما مخطوطاتها فنشر في مطبعته كتباً عربية كثيرة كانت نادرة فسهل تناولها .

وكان فارس في هذه الحقبة منهمكاً في درس خصائص الحروف الهجائية العربية فألف ما أسماه « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » وقال انه من خصائص حرف الحاء السعة والانبساط اي ان الالفاظ التي تنتهي بحرف الحاء يكون في معناها شيء من خصائص هذا الحرف نحو الابتحاح والبراح والابلنداح والرحرح والمسفوح والمفرطح والمسطح . ويقول انه من خصائص حرف الدال اللين والنعومة والفضاضة نحو التيد والثأد والحود والرهادة والفرهد والاملود . وانه من خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو ارم وترم وجزم وجلم وخسم وحطم . قضى الشدياق في تأليف هذا الكتاب المطول في اللغة سنين عديدة . ونحا فيه نحواً حديثاً واطال فيه حتى بلغ مجلدات عديدة .

هو فارس ابن يوسف الشدياق . ولد في عشقوت لبنان سنة ١٨٠٤ ونشأ في الحدث بالقرب من بيروت . ودرس في مدرسة عين ورقة في لبنان . وخلع اخوه اسعد مذهب اجداده وتقبل المذهب الانجيلي . فاضطهده بطريرك الموارنة وتوفي في دير قنوبين . وكان فارس شديد التعلق باسعد فكره الاقامة في لبنان والتجأ الى المرسلين الاميركيين فارسلوه الى مصر فدرس فيها العلوم العربية . وكان شديد الرغبة في تفهم مآخذ الكلام كثير الولع بالشعر . وتقرب من خيرة علماء مصر فاوصلوه الى معية العزيز وتولى كتابة الوقائع المصرية فكتب فيها بالعربية . وكانت في بدايتها تحرر بالتركية فقط . وتزوج في هذه الآونة من بيت الصولي فولد له فائز وسليم .

وفي السنة ١٨٣٤ سافر الى مالطة وتولى تصحيح ما كان يطبعه المرسلون الاميركيون فيها وعلم في مدارسهم وبقي فيها أربع عشرة سنة . ثم طلبته جمعية ترجمة التوراة في لندن لتصحيح ترجمة « لي » العربية . وألّف في اثناء اقامته في اوروبة ما بين لندن وباريز كتابه كشف المخبا في احوال اوروبا وكتابه الساق على

الساق فيما هو الفارياق . فوصف في الاول مشاهداته في اوروبة وصفاً دقيقاً وباسلوب رقيق للغاية . واراد من كتابه الثاني اموراً ثلاثة فيما يظهر : الاول احواله الشخصية وما قاساه في اوائل حياته والثاني التنديد بجماعة من الاكليروس الماروني ورجال الحكم في لبنان والثالث وهو الاعم ايراد الالفاظ المترادفة في اللغة في مواضيع مختلفة مما لا يوجد في كتاب واحد .

واتفق في غضون اقامة فارس في باريز ان احمد باشا باي تونس زار عاصمة الفرنسيس ووزع على فقرائها وغيرهم اموالاً طائلة . فنظم فارس قصيدة يمتدح الباشا بها ورفعها اليه . واعجب الباي بها فبعث الى فارس يستقدمه اليه على ظهر سفينة حربية . وكاد الشاعر اللبناني لا يصدق ما رأى فقال « لعمري ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها ولكن اذا اراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره » . فأم تونس ووجه اليه بابها ارفع المناصب . واعتنق فارس الديانة الاسلامية في تونس على يد شيخ الاسلام وسمي احمد تبركاً فصار اسمه احمد فارس الشدياق . وحرر في جريدة الرائد التونسي ووصلت اخباره الى الآستانة . فطلبته الصدارة العظمى واولته تصحيح الطباعة الرسمية . وأصدر الجوائب فيها ونال الرتب والنياشين . وألف فيها ما مر ذكره . وزار مصر في السنة ١٨٨٦ فزاره الوزراء والعظماء وتشرف بالمثول بين يدي خديويها . ثم عاد الى الآستانة وتوفي فيها شيخاً جليلاً فرثاه الكبراء والعظماء واوفد السلطان عبد الحميد من مثله في احتفال الجنازة . ونقلت جثته الى لبنان عملاً بوصيته ودفنت في الحازمية بالقرب من بيروت .

تعليم اللغة العربية باسلوب جديد

وقام في الشوير في هذه المدة نفسها لبناني آخر اخذ العلم عن المرسلين الانكليز فلمس عقم الطرق القديمة في تعليم اللغة العربية وهب يسعى لاستبدالها بما يتفق ومفهوم الاولاد فأخرج « مدارج القراءة » وخرج بها على كل قديم فدخل بعمله هذا في مصاف هؤلاء الاركان .

هو جرجس ابن نجم همام أبصر النور في بيت فقير من بيوت الشوير في السنة ١٨٥٧ ونشأ نحيف البنية فرفق به والداه وأرسلاه الى مدرسة القرية اليومية الانكليزية . وكان ذكياً متوقد الفؤاد شديد الرغبة في العلم يلتهم دروسه اليومية التهاماً فأعجب به معلموه وفاخروا بذكائه وتفوقه . وفي السنة ١٨٧٠ جاءت لجنة انكليزية تتفقد المدارس الانكليزية في لبنان (١) . وزارت هذه اللجنة مدرسة الشوير فلفت جرجس

(١) راجع ما جاء في فصل سابق عن هذه المدارس الانكليزية .

نظرها فأوصت بنقله الى المدرسة العالية في سوق الغرب ليتابع دروسه فيها ويتدرب على التدريس .

وفي خريف السنة ١٨٧٢ أوفدت ادارة هذه المدارس العليا القس يوحنا راي الى لبنان ليضبط حسابات المدارس ويقوم بالخدمة الروحية اللازمة . فاستقر المستر راي في سوق الغرب وكثر احتكاكه بالطلبة فأعجب كل الاعجاب بجرجس واستقى له مساعدة مالية خاصة من بلاد الانكليز تكفي لدفع الرسوم المدرسية عنه ولتغطية سائر نفقات التعليم . وفي السنة ١٨٧٣ استقال المستر روز من التعليم في مدرسة سوق الغرب وقبل وظيفة في مدرسة عبيه الاميريكية وكان يجيد التعبير في العربية فأمسى المستر راي دون اي معاون يترجم له ولا سيما وان المعلم الياس الصليبي كان قد استقال من العمل في هذه المدارس في الوقت نفسه . فالتجأ المستر راي الى مواهب الفتى الشويري وقام هذا باعمال الترجمة دون سابق خبرة خير قيام فاستكبر القس الانكليزي نجاحه وكتب بذلك مراراً الى بلاد الانكليز . وأظهر جرجس في هذه الآونة نفسها مقدرة غير عادية في تفهم العلوم الرياضية ولاسيما الجبر والهندسة وزادت رغبته فيهما لما وجده في شخص استاذه الانكليزي من التفوق في هذه العلوم فبدأ ترجمة مقالات اقليدس في الهندسة السطحية التي ظهرت فيما بعد في كتاب عربي خاص .

واشتد الخلاف والتنافر بين المعلم الياس الصليبي وبين خلفه القس يوحنا راي فرأى هذا ان يبتعد عن خصمه وان يتخذ لاعماله مقراً آخر بعيداً عن سوق الغرب . وكان قد لمس اقبالاً على التعلم في الشوير اكثر من سواها ورآها تتاخم الموارنة في كسروان فانتقاها مركزاً جديداً لعمل ارساليته . ونقل اليها المدرسة العالية في السنة ١٨٧٤ وابتاع ارضاً تطل على القرية وانشأ فيها الابنية اللازمة التي لا تزال قائمة حتى هذه الساعة . فزادت رغبة جرجس في العمل واندفع في سبيله ايما اندفاع وأصبح بعد برهة وجيزة المعلم الاول في هذه المدرسة العالية الجديدة .

وما أن تولى جرجس الاشراف على التدريس في هذه المدرسة حتى هبَّ يعالج طرق تدريس اللغة العربية نظراً للتفاوت الهائل بين هذه الطرق وبين الطرق التي كان اتبعها في تعلم اللغة الانكليزية . « وكتب لي ان شببت بعيد اوائل النهضة فشددت للعلم مئزر الطلب وسعيت على قدم الثبات والدأب . فوُفّق لي ان أصبت من العلوم وبعض اللغات العصرية حظاً صالحاً . ثم اتخذت التدريس خطة لي . فخبرت المسالك دارساً سهلها وحزنها وسبرت المدارك مدرساً جليلها وطفيفها . وادركت ما في بعض كتب التدريس من التخلف عن حاجات المدارس ومقتضيات العصر . وما في البعض الآخر من التعقيد الذي تضطرب به اسباب الاكتساب وتخمد عنده عزائم

الطلاب الى غير ذلك مما عمت الشكوى منه وكان ولا يفتأ مدعاة للاعراض عن العربية والانصراف الى غيرها » .

وكان الاحداث اللبنانيون لا يزالون يتعلمون القراءة في الكتب المنزلة وباسلوب « أبِنَ مَسَبْ » القديم العقيم . فأخرج جرجس همام في السنة ١٨٨١ « مبدأ المدارج » وضمّنه الف باء وجملاً بسيطة مألوفة ومستحبة عند الصغار ادركوا معناها ورغبوا في قراءتها :

« هـــا ذي دار في هـــا فـــار
« رُحْ يـــا طـــق مُتْ يـــا بق »

وأردف مبدأ المدارج باول المدارج : قصص بسيطة عن الحيوانات الاليفة ومواضيع واشعار تحبب القراءة الى الصغار ويستفيدون منها آداباً . ثم ثاني المدارج وجاء اعلى من الاول موضوعاً وعبارة واشتمل على حكايات ادبية وقصص عن الحيوانات واشعار للاستظهار وفوائد علمية ولغوية توافق سنّ الاولاد :

« خرج التلاميذ ذات يوم الى ساحة المدرسة . ثم خرج المعلم بعدهم لكي يلعب معهم . وسألهم قائلاً باية لعبة تريدون ان تلعبوا . فأجابه بعضهم نلعب بلعبة التفاحة . وقال آخرون لا بل نلعب بالطابة ونحن اكثر عدداً من الذين يحبون لعبة التفاحة . فقال المعلم اذاً نتبع الجانب الاكبر . ثم وقف على محلٍ عالٍ في طرف الساحة وجعل يرمي الكجة الى الاولاد . وعند انقضاء وقت اللعب طنّ جرس المدرسة . فدخلِ التلاميذ كل واحد الى مكانه . ثم وقف المعلم وقال لهم : اسمعوا يا اولادي فأقصّ عليكم قصةً عن كجة كبيرة عجيبة . فسكت التلاميذ جميعهم وجلسوا هادئين لا يتحركون . وعيونهم شاخصة الى المعلم . فقال يوجد كجة كبيرة جداً معلقة بالسماء . مزينة بالاعشاب والازهار . وعليها جبال عالية واودية عميقة تجري فيها الانهار . ومن الغريب انها لا تسكن دقيقة واحدة . بل تتحرك على الدوام بما عليها من الاعشاب والازهار والجبال والاودية والانهار . ومع سرعة حركتها الغريبة تظل الانهار جارية في مجاريها والجبال قائمة في مراكزها . وهذه الكجة هي الارض التي نعيش فيها . ونبني عليها البيوت والقرى . وفي غاباتها تسكن الوحوش والطيور » .

وجاء بعد ثاني المدارج ثالثه فرابعه فخامسه انتقل فيها هذا « المعلم » المطبوع الى القصص الادبية والدروس في التاريخ الطبيعي والفوائد العلمية واللغوية الى دروس الحيوان والنبات وقصائد مفسرة وتراجم مسهّلة — الى حيث ابتدأ الآباء اليسوعيون بمنتخباتهم الادبية التي ظهرت فيما بعد في سلسلة مجاني الادب .

وكان جرجي يني شديد الاحتكاك بهؤلاء الابطال فهبّ يساهم في العمل وأعد تاريخاً لجميع الاقطار الشامية اسماه تاريخ سورية ونشره في السنة ١٨٨١ . وكان يحسن قراءة الا نكليزية والافرنسية فاطلع على بعض ما جاء في هاتين اللغتين بالاضافة الى أهم المراجع العربية فأخرج اول تاريخ عصري لهذه الاقطار .

« واذا نظرنا الى التاريخ وبحثنا عن اسباب نهوض الامم وسقوطها يتضح لنا ان الاسباب التي ترتفع بالامم وتنحدر بها محصورة بالاكثر في خمس حالات للصعود وثلاث للهبوط . اما حالات الصعود فهي اولاً العصبة الدينية ومثالها دولة العرب في الاسلام وثانياً الفوز الحربي والنظام الاداري كفتح كورش مملكة مادي وفارس وادارتها الادارة الحسنى والاستشارة جيداً في المصالح العامة وثالثاً تشييد الملك بالسيف والعلم والحكمة كاليونان والرومان ورابعاً بالعدل والحرية وخامساً التجارة ومثالها دولة الفينيقيين الذين بلغت سعودهم درجة عليا .

« اما حالات الهبوط الثلاث فهي اولاً سوء الادارة وقلة الاحتراس وفساد الاخلاق كالرومان مثلاً وثانياً الظلم والشقاق كبعض الممالك الرومانية واليونانية والعربية وثالثاً تواتر الحروب وتعاقب الدول وحسبك في ذلك سورية ومصر » .

وعني مواطن يني نوفل نوفل (١٨١٢ – ١٨٨٧) بالتاريخ وجمع له مكتبة نفيسة فكتب المقالات والرسائل في مواضيع معظمها جديد في العربية ونشرها في مجلة الجنان وفي لسان الحال . وألف في تاريخ العلوم وتسلسل الآراء « زبدة الصحائف في اصول المعارف » و« زبدة الصحائف في سياحة المعارف » ونشر هذين المؤلفين في السنتين ١٨٧٣ و١٨٧٤ ثم « سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان » و« صناجة الطرب في تقدمات العرب » وصدّر هذا بمقدمات جغرافية عن جزيرة العرب ثم تبسّط في اقسام العرب وتقاطيعهم واوصافهم وملابسهم ومساكنهم ومآكلهم ومعابدهم واديانهم . واردف هذا بكلام عن اخلاقهم وشجعانهم وخيولهم وابلهم وجيوشهم واسلحتهم وحروبهم ودولهم . ثم بحث في اصول العلوم عند العرب علماً علماً وكيف نشأت عندهم او وصلت اليهم .

وأجاد نوفل التركية والعربية فأكبَّ على درس التواريخ التركية كتاريخ خير الله افندي وتاريخ جودت واستخلص من هذه وغيرها تاريخاً للاقطار الشامية والمصرية في عهد الاتراك العثمانيين أسماه « كشف اللثام عن محيّا الحكومة والاحكام في اقليمي مصر وبر الشام » وأردفه بخاتمة ذكر فيها أخبار ابراهيم باشا في سورية ولبنان فدوّن ملاحظاته الشخصية وآراءه الخصوصية في سير العدل والعدالة في هذه الحقبة مبرراً

سلوك والده في « مباشرية » طرابلس في عهد ابراهيم باشا .
ودوّن الدكتور مخائيل مشاقة في هذه الفترة نفسها « جوابه على اقتراح الاحباب » . وهو كتاب جزيل الفائدة حكى فيه مخائيل مشاقة حكايته الشخصية – كيف نشأ وكيف تلقى علومه الاولى وكيف درس الفلك والطب وغيرهما من العلوم . ووصف حالة لبنان السياسية والاجتماعية وصفاً دقيقاً مضبوطاً فاتحف المؤرخين بعده بمرجع من افضل المراجع لتاريخ لبنان في اواخر القرن الثامن عشر وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر . ودوّن في آخره مشاهداته العيانية لحوادث دمشق في السنة ١٨٦٠ . وهو لا يزال يعتبر مخطوطاً غير مطبوع لان ما نشره ملحم خليل عبده واندراوس حنا شخاشيري سنة ١٩٠٨ ونسباه اليه – كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان – بعيد عن الاصل المخطوط لما تضمنه من شطب وتنقيص وزيادة وتقويم للعبارة .

التمثيل والروايات

وكان مارون النقاش الصيداوي البيروتي قد شهد مراسح اوروبة فاعجبه التمثيل وأحب نقله الى العربية . فلما عاد الى تجارته في بيروت جمع نخبة من اصدقائه وألف لهم رواية البخيل ومثلها في منزله في بيروت سنة ١٨٤٨ . فكانت هذه اول رواية تمثيلية في اللغة العربية . ثم ألف مارون رواية ابي الحسن المغفّل او هارون الرشيد ومثلها سنة ١٨٥٠ في منزله ايضاً ودعا اليها والي ايالة صيدا وبعض الوزراء والاعيان فاعجبوا به واثنوا عليه . فانشأ اول مرسح عربي بجانب بيته بالقرب من باب السراي في بيروت . وشخّص فيه رواية الحسود وغيرها . وحذا برواياته هذه حذو موليير الفرنسي . وتوفي مارون في طرطوس سنة ١٨٥٥ فاشتهر بعده سعد الله البستاني ثم سليم النقاش ابن اخي مارون .

وأقبل عدد لا يستهان به من الشبان اللبنانيين على فن التمثيل . وكانوا يمارسونه رغبة فيه لا في كسب المال . فاشتهروا به ولاقوا تشجيعاً وتقديراً . وكان من حظ سليم النقاش ان رغب اديب اسحق في التمثيل . فترجم الاثنان روايات تمثيلية كثيرة الى العربية .

. وتحدث الناس بعظمة اسماعيل باشا خديوي مصر وفخامة مرسحه الاوبرا في القاهرة وعطفه على العلم والادب فقام سليم النقاش واديب اسحق ومعهما جوق من الممثلين اللبنانيين الى الاسكندرية في السنة ١٨٧٦ ومثلا روايات متعددة في مرسح زيزينيا فلم يلقيا نجاحاً . فانصرفا الى الصحافة وتخليا عن الجوق اللبناني الى احد افراده يوسف الخياط . وفي السنة ١٨٧٨ قام الخياط برجاله الى القاهرة فسمح له

اسماعيل بتمثيل رواياته في الاوبرا وحضر التمثيل بنفسه . فلم يُحسن الخياط انتقاء الموضوع اذ مثل في حضرة الخديوي رواية الظلوم . فغضب اسماعيل من ذكر الظلم والظالمين وتوهم ان الخياط وجوقه انما يعرضون به وباحكامه . فأمر باخراج الخياط وجوقه من مصر . فعادوا الى لبنان . وفي السنة ١٨٨٢ قام سليمان القرداحي بجوق آخر الى مصر وفيه الشيخ سلامه حجازي فمثلوا في الاوبرا حتى الحوادث العرابية ! ثم اقفلت الحكومة المصرية الاوبرا في وجه كل ممثل عربي .

رواية الشيخ خليل اليازجي

هو أصغر اولاد الشيخ نصيف . ولد في بيروت سنة ١٨٥٦ ودرس اللغة والادب على والده في البيت . ثم التحق بالجامعة الاميركية فبرع في الطبيعيات والرياضيات ونظم ما تلقاه عنها شعراً . وعني بالفن الروائي . فنظم ألفية في قصة حنظلة الطائي والملك النعمان وجعلها رواية تمثيلية غنائية مثّل فيها فضيلة المروءة والوفاء . وقدمها للجمهور البيروتي في السنة ١٨٧٨ فلاقت استحساناً واعجاباً .

وابناءُ الغنى والوجاهة

واكسب العلم ذويه وجاهةً وتقديراً ومكانةً واحتراماً . فأقبل عليه ابناءُ الغنى والوجاهة والتقطوه وفاخروا به . وأشهر هؤلاء في هذه الاونة الحاج حسين بيهم ابن الحاج عمر « جلبي افندي » وجيه بيروت الاكبر في عصر الشهابي الكبير . ولد حسين سنة ١٨٣٣ ودرس على الشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد . وتعاطى التجارة . ثم جرفه تيار هذه النهضة التي ندرس فانقطع الى العلم والادب ونظم أرجوزة في العلم وشرفه نشرت في اعمال الجمعية العلمية السورية . ولما توفي رئيس هذه الجمعية الاول الامير محمد ارسلان عهد الاعضاء الى حسين بالرئاسة . وكان « ثاقب الرأي كريم الاخلاق عالي الهمة » فأحبه اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم . وكانت السنة ١٨٧٦ ووضع قانون اساسي للدولة العثمانية وتشكل مجلس للنواب فشخص الحاج حسين الى الآستانة ليمثل سنجق بيروت الذي كان لا يزال تابعاً للولاية . وأعجبته الروايات اللبنانية التي ترجمت او أُلفت في السبعين فكتب رواية أدبية وطنية مثلت مراراً في بيروت وقرظها زملاؤه الادباء .

وعني الحاج حسين بشعر « المناسبات » فجاء نظمه رشيقاً . وكان يقوله ارتجالاً ويخرجه في بعض الاحيان على صور مبتكرة . ومما حفظ له قوله في تأريخ انشاء التلغراف في بيروت :

لله در السلك قد أدهشت عقولنا لمّا على الجوِ ساقْ
فأعجب الكونُ بتاريخه شبيه برق او شبيه البراقْ

وقوله في تهنئة محمد فواد باشا بوزارة الخارجية . وقدّ اخطأ الاب شيخو في هــذا فجعل الوزير المهنأ الحاج حسين نفسه :

ان الفواد له في الملك معرفةٌ فالخارجية لم تترك نظارتهُ
لذاك سلطاننا المنصور ردَّ لهُ مع حسن انظاره أرخ بضاعتهُ

وتوفي الحاج حسين في اواخر كانون الثاني من السنة ۱۸۸۱ ففقدت بيروت أحد اركانها . ورثاه الشيخ ابو الحسن الكستي فقال مما قال :

حويت خصالاً جلَّ في الناسِ قدرُها
وما كلُّ انسانٍ تُجلُّ خصالُهُ
عفافٌ ومعروفٌ وعلمٌ ورقةٌ
وفضلٌ ومجدٌ قلَّ فينــا مثالُهُ

وكان سليم بسترس على غناه ووجاهته ميالاً الى العلم راغباً في اكتسابه ونشره . « وذلك نادر في بلادنا . فهو يجدر ان يكون مثالاً لاهل اليسار وفيهم من يحسب العلم مهنة الفقراء . واذا قيل لهم تعلموا قالوا وما ينفعنا العلم ونحن لا نحتاج الى كسب كأن العلم والغنى لا يتفقان ! » .

هو سليم ابن موسى بسترس ولد في بيروت سنة ۱۸۲۹ وكان الولد الذكر الوحيد لوالده . وكان والده عين قومه . وتوفي موسى بسترس في السنة ۱۸٥۰ فقامت ام سليم بتربية وحيدها وتعليمه . ولم يلبث هو ان حصّل من المعارف والاداب واللغات ما ندر تحصيله في ذلك العصر . وسافر سليم الى اوروبة وزار عواصمها وكبريات مدنها وعاد الى بيروت فصنف كتاباً اسماه « الرحلة السليمية » حضّ فيه اللبنانيين على التقدم وضمنه كثيراً من النصائح . ومما قاله في تقدم الامم : « انه يكون بالاتحاد والتعاضد وبتغيير عناصر التعصب وباتباع السنن العمومية وان افراد الرجال هم الذين يبثون الآراء الصحيحة بين الناس بكتاباتهم وكلامهم وقدوتهم » .

وكان سليم صادقاً كريماً فاضلاً نبيلاً . وقد نال حظوة كبيرة في عاصمة الروس عندما قبل القيصر اسكندر الثاني ان يكون عراب ابنه موسى في السنة ۱۸۷٥ وتقبل القيصر اسكندر الثالث من جرن المعمودية ولداً آخر من اولاد سليم هو فلاديمير ! وتوفي سليم في لندن في السنة ۱۸۸۳ .

وفي السنة ۱۸۷۰ طلبت الحكومة الروسية الى قنصلها في بيروت ان يرسل الى بطرس برج لبنانياً قديراً يتولى تدريس اللغة العربية فيها فيدرس عليه من يتهيأ من الروس للخدمة السياسية في الشرق العربي . وكان سليم نوفل الطرابلسي قد اكتسب

بجده وجتهاده شطراً وافراً من العلوم الاجتماعية وعدداً كبيراً من اللغات بينهـا العربية والتركية واليونانية والعبرية والفرنسية والانكليزية والايطالية والروسية فاختاره القنصل وأرسله الى بطرس برج ومعه عائلته . وما ان اقام فيها وتعرف الناس اليه حتى اكتسب ثقة اهل البلاط ورجال الحكومة وصار فيما بعد احد مستشاري الدولة . وكتب بالافرنسية كتاب الزواج والطلاق وسيرة النبي العربي ومقالات عديدة .

وممن عني بالعلم والادب من ابناء الغنى والوجاهة في هذه الحقبة الشاعر أسعد طراد . ولد في بيروت في السنة ١٨٣٥ وتعلّم في عبيه في مدرستها الاميريكية وقرأ العلوم العربية على اشهر اساتذة عصره وتردد كثيراً الى الشيخ نصيف اليازجي وتعمد شعره من حيث السهولة والمتانة .

الى اليازجيِّ اليومَ تسعى ركابنـا كأهل الظما من بحره نطلب الشربا
لئن دثرت كتب الاولى قد تقدموا من العرب هذا صدره جمع الكتبا
وأصعبُ شيء عنده منع فضلـه واهون شيء ان يحلَّ : لك الصعبـا

وقال في الاختراعات الجديدة بعد ان رحل الى مصر في السنة ١٨٧٢ واقام فيها :

وجّه لحاظك للبخار وقـل لـهُ اني ارى ماءً يجرّ حديـداً
وانظر لسلك البرق والتلفون كم قد قرّبا ما كان منك بعيـدا
غنت سليمى في الحجاز فأطربت مع بعدها اهل العراق نشيدا
ولسوف ان رقصت بمصر فقد نرى في اصبهان لقدها تأويـدا

وأشياخنا

وتبقى هذه اللوحة الزيتية التي نحاول رسمها ناقصة مبتورة اذا نحن اهملنا ذكر اشياخنا ولا سيما الشيخ يوسف الاسير والشيخ ابراهيم الاحدب .

هو يوسف ابن عبد القادر الحسيني الاسير . ولد في صيدا سنة ١٨١٥ وتلقى مبادىء علومه فيها وختم القرآن في السابعة من عمره . وكان ابوه تاجراً ولكنه لم يمل الى التجارة . ولما بلغ السابعة عشرة رحل الى دمشق في طلب العلم والتحق بمدرستها المرادية وبقي فيها سنة كاملة . ثم توفي والده فعاد الى صيدا يدبر أمور اخوته . وبعد ان تم له ذلك سافر الى مصر والتحق بأزهرها واقام فيه سبع سنوات . فنبغ في العلوم العقلية والنقلية . وألمّ به مرض في كبده فعاد الى صيدا وانتقل منها الى طرابلـس فقضى فيها ثلاث سنوات . واخيراً اختار الاقامة في بيروت « لجودة هوائهـا » . وتولى فيها رئاسة كتابة محكمتها الشرعية . وتسابق اليه الطلبة والمريدون . وكان رقيقاً وديعاً لين الجانب واسع الصدر بعيد النظر فتقبل الطلاب من النصارى والمسلمين

على السواء . فخرج على التقاليد الموروثة واندفع في تعليم النصارى علوماً عربية كانت تعتبر خاصة بالمسلمين . وعاون بذلك معاونة قيمة في هذه النهضة التي نؤرخ . وتولى الافتاء في عكة . ثم دعاه متصرف لبنان الاول داود باشا الى بتدين فجعله مدعياً عاماً في لبنان . وقام بعد ذلك الى الآستانة ليتولى رئاسة التصحيح في نظارة المعارف ، فنال مقاماً رفيعاً . وعرضت الصدارة عليه منصباً عالياً براتب جزيل فأبى رغبة في مواصلة برنامجه العلمي ومحافظة على صحته لانه لم يقوَ على برد عاصمة السلطنة . وعاد الى بيروت يعلّم ويؤلف حتى وافته المنية في كانون الاول من السنة ١٨٨٩ .

واشتغل هذا الشيخ الفاضل في الفقه واللغة فخلّف رائض الفرائض وشرَحَ اطواق الذهب وجمع موشحاته وقصائده وابياته الحكمية في ديوان له اسماه الروض الاريض . وله في وصف لبنان بعد السنة ١٨٦٠ قصيدة جاء فيها ما يلي :

نرى لبنان اهلاً للتهاني ... فقد نال الامان مع الاماني
واضحى جنة من حلّ فيه ... قرير العين مسرور الجنان

وقال الشيخ نصيف اليازجي مادحاً الشيخ يوسف :

اسير الحق في حكم تساوى ... فما يُدرى الحبيب من البغيضِ
يقلّب في المسائل كل طرف ... ويلقى الناس بالطرف الغضيضِ
امام الشعر يبتدع القوافيَ ... ويأمن دونها حول القريضِ
يقلّ له الثناء ولو اخذنا ... قوافيه من الروض الاريضِ

اما الشيخ ابراهيم الاحدب فانه ولد في طرابلس سنة ١٨٢٦ وطلب اللغة والادب منذ نعومة اظفاره . ودرّس في طرابلس وبيروت . ونظم الابيات الشعرية بالالوف فبلغ مجموع ما نظمه ثمانين الفاً . وهو نادر بين الشعراء .

وزار الاحدب الآستانة في عهد السلطان عبد العزيز . وسافر الى مصر فرحّب به علماؤها ولاسيما الشيخ عبد الهادي الابياري . وفي « الوسائل الادبية في الرسائل الاحدبية » ما دار بين الشيخين من المراسلات الادبية . واشتهر الشيخ ابراهيم ببراعته في الفقه الحنفي كما اشتهر زميله الشيخ يوسف الاسير بالفقه الشافعي فاعتمدت محاكم لبنان فتاويه . وتعاطى مهام رئاسة الكتاب في محكمة بيروت الشرعية نيفاً وثلاثين سنة . وتوفي في السنة ١٨٩١ .

واشتهر في بيروت في هذه المدة نفسها الشيخ ابو حسن قاسم ابن محمد الكسّي . ولد في بيروت في السنة ١٨٤٠ . وأخذ العلوم العربية عن اشياخ زمانه . وبعد ان رسخت قدمه فيها درّس المريدين من اهل الاسلام . وتوفي في السنة ١٩٠٩ . وله ديوانان احدهما مرآة الغريبة طبع في السنة ١٢٧٩ هـ. والآخر ترجمان الافكار ظهر في السنة ١٢٩٩ .

وعالمٍ لا نفع في علمه ... ولم تكن اعماله صالحه

فهو بحكم العقل بين الملا كوردة ليس لها رائحـــة

وممن اشتهر في طرابلس في هذه الحقبة الشيخ محمد عبد القادر الميقاتي له ديوان « حسن الصياغة لجوهر البلاغة » والشيخ محمد الشهال له « عقد اللآل من نظم الشهال » .

الجمعيات الخطابية

وكان قد انشىء في بيروت في السنة ١٨٤٧ الجمعية السورية كما سبق فأشرنا . وكان الغرض منها نشر العلوم وترقية الفنون . وانتظم في عضويتها نيف واربعون في بيروت وحوالي العشرة مراسلين من دمشق وطرابلس وصيدا . وسعى اعضاؤها في جمع الكتب والصحف وانشأوا مكتبة للمطالعة . ومما القي في ندوتها من الخطب والمحاضرات « لذة العلم وفوائده » للدكتور فانديك و « فضل المتقدمين على المتأخرين » له و « مقدار زيادة العلم في سورية ولبنان في هذا الجيل » للدكتور يوحنا ورتبات و « الشرائع الطبيعية » لسليم نوفل و « تعليم النساء » لبطرس البستاني و « مدنية بيروت » له و « علوم العرب » لليازجي الكبير و « السعد والنحس» لمخائيل مشاقة و « النبات » لنوفل نوفل .

وتجددت هذه الجمعية في السنة ١٨٦٨ واعترفت بها الدولة العثمانية رسمياً في ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٤ (١٨٦٨) وحضر اجتماعها الاول الصدر الاعظم الاسبق كامل باشا الذي كان آنئذ متصرف سنجق بيروت . وترأسها في تلك السنة الامير محمد ارسلان وتقبل عضويّة عمدتها كل من حسين بيهم وحنين خوري وسليـــم البستاني وعبد الرحيم بدران وسليم شحاده وسليم رمضان وموسى فريج وحبيب الجلخ ورزق الله خضرا . وكان بين الاعضاء جماعة من كبار رجال السياسة في الآستانة منهم محمد فواد باشا ورشدي باشا ومصطفى فاضل باشا وصفوت باشا ورؤوف باشا وفي مصر سليمان اباظه واحمد اباظه .

وفي السنة ١٨٦٩ انشئت في بيروت جمعية شمس البر فرعاً لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين في انكلترا . وكانت خطابية ايضاً وان اشترط فيها بعض الشروط الدينية . وانتظم في سلك عضويتها عدد كبير من خريجي جامعة بيروت الاميريكية .

وتأسست في بيروت ايضاً في السنة ١٨٧٣ وبرخصة من الحكومة العثمانية جمعية زهرة الآداب . وجل اعضائها من متخرجي المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني وغيرها من المدارس الكبرى منهم سليمان البستاني واديب اسحق واسكندر العازار ويعقوب صروف وفارس نمر وابراهيم اليازجي وداود نحول . وكان الغرض مــن تأسيسها التمرس على الخطابة وقوة الحجة والدرس والبحث . وعني اعضاؤها بتأليف

الروايات وتمثيلها وانفاق الدخل منها في سبيل الخير .
وشملت العناية بالخطابة في هذه الفترة في لبنان بعض الفتيات المتعلمات اللبنانيات . فانشأن جمعية علمية خطابية في بيروت ونشرن دستورها واعمالها في كتاب خاص سنة ١٨٨١

الجمعيات التعليمية

وقد اشرنا فيما سبق ذكره الى جمعية المقاصد الخيرية البيروتية التي اوعز بانشائها ابو الاحرار مدحت باشا يوم كان والياً على سورية وذلك في السنة ١٨٨٠ . وقامت في السنة نفسها وللغاية نفسها جمعية طائفية اخرى هي جمعية زهرة الاحسان وقد سعى بها جماعة من سيدات وجهاء الروم في بيروت . وانشأت هذه الجمعية مدرسة زهرة الاحسان البيروتية وأناطت ادارتها بالسيدة لبيبة جهشان .

الجمعيات العلمية والفنية

وظهر منها اثنتان في وقت واحد في السنة ١٨٨٢ : المجمع العلمي الشرقي وجمعية الصناعة . وانشىء المجمع في بيروت للبحث في العلم والصناعة . « واول من فكر فيه الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر والدكتور وليم فانديك نجل الدكتور كرنيليوس وسليم موصلي باشا . فشكلوه ووضعوا قوانينه » . وانضم اليه طائفة من علماء لبنان وخدمة العلم فيه منهم فانديك الكبير الذي تولى رئاسته و« فانديك الثاني » الدكتور يوحنا ورتبات والدكتور اسكندر البارودي والاستاذ جرجس همام والشيخ ابراهيم اليازجي والشيخ ابراهيم الحوراني وجرجي افندي زيدان وجرجي افندي يني واسبر افندي شقير . وكان بين الاعضاء المراسلين شفيق بك منصور وادريس بك راغب . ودامت اعماله بضع سنوات نشر منها اعمال السنة الاولى .
وقامت جمعية الصناعة في بيروت ايضاً وكان اشدهم حماساً لها شاهين بك مكاريوس . وتوقفت بعد انتقال اصحاب المقتطف الى مصر .

وعُني هذا الجيل الناهض نفسُه بالصحافة ايضاً . فأحسن ادارتها وأغزر مادتها وصحّح عبارتها فقدّم لقراء العربية اولى الصحائف الحرة المستقلة وانشأ ما لا يزال أغرّها حتى يومنا هذا . وكانت الصحافة العربية حتى السنة ١٨٥٨ اما رسمية كالوقائع المصرية او دينية تبشيرية لا تصدر في مواقيت معينة كنشرة القس عالي سميث (١٨٥١) او ظرفية ظهرت في مناسبات خاصة كالمرآة (١٨٥٥) . وكانت جميعها ركيكة العبارة فقيرة المادة .

خليل الخوري وحديقة الاخبار

أبصر النور في ضواحي بيروت في قرية الشويفات سنة ١٨٣٦ ونزح والداه الى بيروت فتعلم القراءة والكتابة في مدرسة الروم الارثوذكس . وشغف بالعلم والادب وطلب الرقي من طريق القلم ولم يكن لذلك من سبيل الا بخدمة الحكومة وهذه عسيرة على غير المسلمين الا من تفقه بالعلم وأتقن اللغة التركية . فأخذ خليل يتعلمها واللغة الفرنسية على مدرسين خصوصيين حتى اتقنهما . وكان ما كان من امر الحركتين الاولى والثانية في لبنان وتدخلت الدول وكثُر الكلام والقيل والقال . وجاءت حرب القرم واشتد اهتمام الناس بها وباخبارها . فانشأ خليل « حديقة الاخبار » في بيروت وهو لا يزال في الحادية والعشرين من عمره . وفي السنة ١٨٥٩ زار سعيد باشا خديوي مصر بيروت واقام فيها ثلاثة ايام ونثر الذهب في الطرقات . وكان بين الذين تعرفوا اليه صاحب حديقة الاخبار . وعندما عاد الخديوي الى مصر قصده صاحب الحديقة بقصيدتين ومثل بين يديه فأعجبه ادبه وذكاؤه وطلب اليه ان يؤلف كتاباً في تاريخ مصر . وفي السنة ١٨٦٠ أوفد السلطان محمد فؤاد باشا الى لبنان وسورية مفوضاً فوق العادة لتهدئة الحال فيهما واعادة المياه الى مجاريها . واحتاج الباشا الى مترجم لبناني فاختار خليلاً لهذه الغاية وجاء اختياره في محله . فالشاب المترجم كان متوقد الذهن سريع الخاطر رقيق الجانب رحب الصدر . وفي السنة ١٨٦٤ قام خليل الى مصر ليرفع

ما ألف في تاريخها الى الحضرة الخديوية . فعطف عليه اسماعيل باشا واجازه بالفي جنيه . وطبقت الحكومة العثمانية نظام الولايات الجديد فجعلت حديقة الاخبار جريدتها الرسمية . ثم انشأت مطبعة سورية وجريدتها فعهدت بادارتهما الى خليل . وحذت حذوها حكومة لبنان . فأبطلت جريدة لبنان الرسمية واتخذت الحديقة جريدة لها . واقترحت صدورها باللغتين العربية والافرنسية ودفعت مقابلاً قدره ثلاثة الاف غرش في الشهر . وفي السنة ١٨٨٠ عينت الحكومة العثمانية خليلاً مديراً للامور الاجنبية في ولاية سورية . وبقي في هذا المنصب الى ان احيل على التقاعد . وظلت الحديقة تصدر حتى السنة ١٩٠٦ فأوقفها صاحبها مراعاة لصحته .

وجمع خليل الخوري بين الوجاهة والسياسة والادب والشعر . وكان يميل بشعره الى السهولة والرشاقة . وقد نظمه في صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته . واكثر من مدح السلاطين والوزراء فأطلق عليه زملاؤه لقب شاعر الدولة ! وعني بالفن الروائي فألف رواية النعمان وحنظلة تلك التي نظمها الشيخ خليل اليازجي نظماً فدعاهـا المروءة والوفاء كما ألف « وي اذن لست بافرنجي » . ونقل الى العربية تكملة كتاب العبر لصبحي باشا وهو تكملة تاريخ ابن خلدون وطبعه في مطبعته .

انا في ربى لبنان فوق رؤوسه	نحو الكواكب للعلى مجذوبُ
برياضه حيث المقـام منزّهٌ	وفياضه حيث المزاج يطيبُ
جبلٌ يظلل رأسه جو السما	فيلوح بالتعظيم وهـو مهيبُ
لولا مصالحه العليـة لم يكن	شرفٌ ولا بأسٌ ولا تهذيبُ

فارس الشدياق والجوائب

وفي السنة ١٨٦٠ اي بعد ظهور الحديقة بثلاث سنوات انشأ فارس الشدياق الجوائب في الآستانة . وأجاد في انشائها فسجل سبقاً ملموساً في هذا المضمار . « وولع الناس بمطالعتها وذاع صيتها في الآفاق الشرقية فبلغت الهند وفارس والعراق وسائر بلاد العرب ومصر والشام والمغرب . وأجاد في اتقانها حتى انه لم يغادر اسلوباً من اساليب الكتابة لم يطرقه بين لغة وسياسة ومدح ورثاء وجد وهزل ولوم وعتـاب وحزن وطرب وسائر فنون الادب فضلاً عن القصائد الرنانة والمقالات العديدة في العلم والاخلاق . ولم تنحصر منزلة الجوائب في المشرق ولكنها دخلت المغرب حتى كانت جرائد باريز ولندن تأتي بذكرها وذكر محررها في الكلام عن سياسة الشرق مستشهدة باقواله . وكانت تلقبه بالسياسي الشهير والاخباري الطائر الصيت . وقد خاطبه الملوك والامراء والعظام في سائر اقطار العالم » .

بطرس البستاني والجنة والجنان

(وفي مطلع السنة ١٨٧٠ انشأ البستاني الكبير مجلة علمية ادبية سياسية سمّاها الجنان . وعهد بادارتها وانشائها في اول عهدها الى ابنه سليم . وكان قلمه سيالاً ولا سيما في المواضيع الصحافية (فدبج المقالات الضافية في السياسة والاقتصاد والادب) ولم يخل عدد من الجنان من افتتاحية سياسية بقلمه . وشعاره دائماً « حب الوطن من الايمان » ودأبه السعي لخير لبنان مع الاخلاص للدولة العثمانية (وصدرت الجنان مجلة نصف شهرية في ٣٢ صفحة من القطع الكبير وعلى عمودين وانتشرت انتشاراً واسعاً .)

وفي الحادي عشر من حزيران من السنة نفسها صدرت الجنة مرة في الاسبوع ثم مرتين . وكانت سياسية) وكان سليم يرغب دائماً في جريدة يومية وما زال يلح على والده في ذلك حتى (صدرت الجنينة سنة ١٨٧١ اربع مرات في الاسبوع سياسية تجارية . وكانت الجنة تصدر مرتين فتؤلفان جريدة يومية .)

النشرة والبشير

وفي السنة ١٨٦٦ أصدر المرسلون الاميريكيون في بيروت « نشرة » دينية تبشيرية مرة في الشهر فأصدر الاباء اليسوعيون في مطلع السنة ١٨٧٠ « المجمع الفاتيكاني » لنقل اخبار هذا المجمع المسكوني الكاثوليكي . وبعد فراغ المجمع اعقبوا جريدتهم المجمع الفاتيكاني بجريدة البشير في ايلول من السنة نفسها . فصارت لسان حال الكثلكة في الشرق . وفي هذه السنة نفسها ايضاً ظهرت جريدة جدلية ثانية « النحلة » للقس لويس الصابونجي ولكنها لم تعمر .

جرائد الشلفون

وكان قد اشتغل بصف الحروف في مطبعة خليل الخوري يوسف الشلفون اللبناني . فأنشأ مطبعة لنفسه ثم أصدر « الشركة الشهرية » سنة ١٨٦٦ فالزهرة سنة ١٨٧٠ فالنجاح سنة ١٨٧١ والتقدم سنة ١٨٧٤ . وعاونه في تحرير هذه الاخيرة اديب اسحق الشهير وغيره ممن عني بالادب في بيروت فكان لها تاريخ طويل .

الاهرام

ولد مؤسس الاهرام سليم بك تقلا في كفرشيما قرية اليازجيين والشميليين وغيرهم من العلماء والادباء وذلك في السنة ١٨٤٩ . وتعلم القراءة والكتابة في مدرسة القرية .

وظهرت عليه معالم النجابة وتفوق على اقرانه فأرسله والده الى عبيه ليتعلم في مدرستها الاميركية الثانوية . وكان دون الخامسة عشرة فلم يسمح له رئيس المدرسة بالدخول . فاستنجد والده الدكتور كرنيليوس فانديك الشهير فتوسط له وقبل في عداد الطلبة . وكان ما كان من حوادث السنة ١٨٦٠ فترك سليم المدرسة ونزل الى بيروت لاجئاً . ثم التحق بالمدرسة الوطنية التي انشأها في بيروت المعلم بطرس البستاني الكبير . واستعان على نفقات التعليم بالخدمة في ساعات الفراغ . ولما أتم دروسه عين استاذاً في المدرسة البطريركية في بيروت . فعلّم ما اتقنه واتقن ما فاته على الشيخ نصيف اليازجي . فاعجب الشيخ بذكائه واعتمده في شرح بعض الدروس . وما فتىء سليم حتى أصبح الاستاذ الاول ثم مدبر شؤون المدرسة .

وأظهر الخديوي اسماعيل عطفاً خاصاً على اللبنانيين وبذل في تنشيط الادب . فنظم سليم تقلا قصيدة رنانة في مدح اسماعيل . وغادر بيروت الى مصر ورفعها الى الخديوي . وتعرف في اثناء اقامته في مصر ببعض الوجوه والافاضل . فلاح له ان ينشيء جريدة عربية « والناس آنئذ لا يعرفون من الجرائد الا اسمها » . فقضى سليم سنة كاملة يحاول الحصول على امتياز الجريدة . وفي السنة ١٨٧٥ نال امتياز جريدة الاهرام وأصدرها اسبوعية في الاسكندرية . « ولم يكن لديه من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع الا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والاستقامة وما اكتسبه من العلم والاختبار مع شيء يسير من المعدات المادية . فقاسى في سبيل نشر الاهرام مشقات جسيمة . لكنه ذلل كل تلك الصعاب بثباته وحسن سياسته » . ومما قاله لزميله جرجي زيدان : « انشأت الاهرام وانا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب فكنت اقضي النهار والليل عاملاً بدناً وعقلاً احررها وادبرها والاحظ عملتها واكتب اسماء مشتركيها واتولى معظم اعمالها مما لا يقوم به عشرة من العمال » .

قلنا صدرت الاهرام اسبوعية ولم تظهر يومية الا بعد مرور السنين . ولكن مؤسسها أصدر جريدة يومية منذ اوائل عهده في مصر اسماها « صدى الاهرام » . فلاقى في اصدارها صعوبات وصعوبات . ويقول زميله المعاصر جرجي زيدان : « ومما فيه دليل على ثبات سليم تقلا انه طبع من صدى الاهرام لعدده الاول اربعة الاف نسخة وزعها على نخبة اهل القطر واعيانه . فعادت جميعها اليه ما عدا بضع عشرات منها . على ان ذلك لم يثن عزمه بل ما انفك مواظباً على اصداره حتى صدر امر الحكومة بالغائه لانه درج امراً ساء الخديوي . فاستتر صاحب الترجمة من وجه الحكومة مدة وسجن اخوه بشاره . ثم توسط بعض اهل النفوذ فافرج عن المطبعة وأصحابها . فأصدر سليم جريدة « الوقت » يومية . ولكنها لم تعش طويلاً فصدر الامر باقفالها . فصدرت الاهرام نفسها يومية » .

ويعلل مؤرخنا المعاصر نجاح الاهرام فيعزيه الى عوامل اساسية ثلاثة : اولها حسن سياسة صاحب الترجمة وميله الى المسالمة وثانيها نشاط شقيقه بشاره وكان اذ ذاك مدير الاهرام وثالثها مساعدة بعض ارباب المناصب العالية فانهم كانوا ينشطونها الى درجة لا تكاد تقل عن حمل الناس على الاشتراك فيهـــا فضلاً عن اشتراكات الحكومة نفسها فانها كانت تعد بالمئات .

وحاز سليم تقلا رضى الدولة العلية وتمتع بانعاماتها وبعطف بعض الدول الاخرى ولا سيما فرنسة . وتوفي فجأة في لبنان سنة ١٨٩٢ .

خليل سركيس ولسان الحال

وفي السنة ١٨٧٥ نال خليل سركيس امتياز جريدة يومية سياسية ادبية . فأصدر لسان الحال في بيروت وزينه بمقالاته السياسية والادبية . ولد خليل في عبيه سنة ١٨٤٢ ودرس في مدرستها . وعاشر البستاني الكبير فاخذ عنه كثيراً . وعني بالادب واللغة فوضع سلاسل القراءة وتاريخ القدس وكتاب العادات ورحلة امبراطور المانية .

عبد القادر القباني وثمرات الفنون

ونشأت في بيروت في السنة ١٨٨٥ جمعية للفنون نجهل اخبارها . ولكننا نعلم ان الحاج سعد الدين حمادة تولى رئاستها وانها عنيت بجريدة يومية بيروتية « ثمرات الفنون » اوكلت ادارتها الى صاحب امتيازها عبد القادر القباني . ويقول صاحب الصحافة العربية ان العمل في هذه الجريدة كان في اول عهده عملاً مشتركاً لشركة مساهمة وان ثمرات الفنون كانت اول جريدة عربية قامت بها شركة !

مـلاحِق

رسالة ده باكر لكرم

كتب ده باكر لكرم من بلغراد في السادس والعشرين من ايار سنة ١٨٧٦ فقال :

« وقفت على انبائك بواسطة صديقي وصديقك ليونيذاس بولغارس وعرفت انك عازم على الاشتراك في حركة اليونان والسلاف (الصقالبة) للتخلص من نير العسملي . وكنت ولم ازل اعتقد ان هذه الغاية التي حبطت في سبيلها مساعينا في الماضي لا بد ان تنجح مساعيكم ومساعي الصديق المذكور في بلوغها . ولذا فاني فاتحت ليونيذاس الكلام في هذا منذ مدة وسالته ان يكون وسيطاً بيني وبينك . على انه لما كانت هذه الطريقة بطيئة رأيت ان اعرفك بالجنرال كارل تافيس وهو صديق قديم لي تجرّد للدفاع عن قضية النصارى في الشرق . وقد خدمته خدمات جلّى فطلبت اليه ان يعهد اليك العمل بسرعة واقدام . واظنك عرفت الجنرال المذكور في رومه وهو يحمل رتبة كاميرال لدى الاب الاقدس وتولّى قيادة فرقة فرنساوية في سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧١ وان مبادئه الكاثوليكية واستعداداته الفرنساوية الملكية وبسالته العسكرية كل ذلك يجعلني اثق انه يكون لك اكبر نصير في تنظيم نهضة لبنان وادارة الانقلاب فيـــه . وعليه فانا واصدقائي المعلومون نقدم لك الجنرال تافيس لكي يتولى ما امكن تنظيم العمل ويكون بصفة ضابط خبير مقتدر ويكون صلة بيننا وبينك . ويقول ليونيذاس ان الوسائل اللازمة غير متوفّرة لديك فارجو منك ان تعرّف الجنرال عن المبلغ اللازم تماماً . ولا يخفى عليك ان حالة المالية عندنا ليست على ما يرام لان الحكومة لم تتمكن من عقد القروض اللازمة في الخارج ويلزم ان نمد لها يد المساعدة بالتبرعات الخاصة للقيام بالتنظيمات العسكرية والمعدات الحربية على ما تقتضيه الحالة الحاضرة . ولهذا فاننا لا نتمكن من العمل الان . وكن على ثقة اننا لم نكن لنتأخر عن نصرتك لو كانت حالتنا الاقتصادية تسمح لنا بذلك اليوم . وقبل ان اختم الكلام اقول ان الافكار التي صرحت لي بها يوم كنا مبحرين على الباخرة بويوك ديزيت في الصيف الماضي قد وقعت موقعاً جميلاً لدى كبير من كبار الروس النافذي الكلمة ــ الامضاء ناكيفيمار ده باكر » .

وفي ملحق لهذه الرسالة نفسها الاسئلة التالية : (١) ما هي الوسائل التي يمكــن اجراؤها ما عدا الوسائل التي لديكم ؟ (٢) ما هو المبلغ اللازم لكم تماماً ؟ (٣) واذا افترض ان هذه الوسائل موجودة فما هو عدد الرجال الذين يمكنـــا تحضيرهــم

وتسليحهم ؟ (٤) واذا خانتنا الظروف الا يمكن اثارة حركة او ثورة ؟ (٥) وفي اي وقت يمكن حصول الحركة ؟ (٦) وفي اي النقط ؟ (٧) وهل يمكن الاعتماد على مساعدة مسلمي سورية ؟ (٨) هل تمت مفاوضة الخديوي بهذا الشان ؟

جواب كرم

فأجاب كرم في الخامس من حزيران من السنة نفسها كما يلي : (١) ان وسائلي الحالية الخصوصية تقوم برجال غير مسلحين جيداً ودون ذخيرة . ولكن اصدقاء يونانيين وعدوني بمبلغ من المال غير معروف حتى الان . (٢) لا افكر بالشروع في العمل قبل ان اضمن خمسة ملايين فرنك يمكن ايجاد مليونين منها بعد الجهد في سورية . فاذا تمكنت سربية واليونان معاً من تقديم المبلغ الباقي وهو ثلاثة ملايين يتهيأ لي اذ ذاك ان اقوم بعمل مفيد . (٣) ان عدد الرجال يمكن ان يكون خمسة عشر الفاً ويزيد هذا العدد بحسب الوسائط . (٤) لا اظن حركة صغيرة تفيد بل تكون مصحوبة بالفشل . (٥) يمكن الشروع بالعمل في خلال ثلاثة أشهر بعد تنفيذ المؤآمرة . (٦) أرى الاوفق الشروع بالعمل خارج لبنان حيث يصير تعيين موعد قلب الحكومة . (٧) في الوقت الحاضر لا يمكننا ان نعتمد على المساعدة العامة . ولو كنا باشرنا العمل قبل نشوب القتال بين المسلمين والنصارى ربما كنا نجحنا اذ كنا نجعل المسلمين يعتقدون اننا نسعى للقيام بحركة وطنية عربية من شأنها اعادة مملكة بغداد . وبهذه الطريقة ينشأ خلاف بين العرب والترك فيتوفر اهراق دماء المسيحيين في تركية اوروبة . اما وقد فات الوقت فلا يمكننا الاعتماد الا على قسم صغير منهم . (٨) نعم ولكني لست واثقاً من عمله اذ انه يرغب في ضم سورية الى مصر . وبهذه الطريقة لا يتدخل في الامر الا عند نهايته . وفي ذلك ضرر اكثر من النفع . ومع ذلك اذا شعر الخديوي انه مهدد من الترك اتفق معنا . ونظراً لخطورة الحوادث الحاضرة لا يمكن ان يجهل الاتراك الحركة الجدية في سورية . وسوف يقاومونها بكل ما لديهم من قوة . وهكذا بعد الثلاثة اشهر المضروبة للشروع في العمل ساعمل باسم حق العباد وافتتح القتال حيث يوجد العدو متكلاً على الله تعالى .

« ولا يسعني الا التصريح بان وجود ضباط اوروبيين في اول المعارك ليس محموداً لانه يثير في المسلمين تعصباً شديداً . واذا اراد السرب واليونان ان يحسبوني منهم فاطلب ان تكون لي الحرية التامة في انشاء الحركة في سورية وتنفيذها . وكما انني سأتحمل المسؤولية الادبية تجاه الدولتين اللتين تعطيانني المبلغ المذكور وتهتمان بنجاح المشروع فاني ساخاطر بكل شيء لاحصل على النصر الاكيد ولاستحق ميل السرب واليونان وعطفهم على اخوانهم في سورية . واني على يقين ان لا لزوم للقول انه في خارج سورية ولبنان لا يكفي لانجاز هذا العمل ثلاث مئة مليون فرنك ولا سيما في وسط البلاد العربية».

جواب المطران يوسف الدبس في الحادي عشر من الشهر التالي – حزيران –

يقول : « فرسالتكم العربية ارسلتها لرئيسنا (البطريك) محسناً له العمل بافكاركم الخيرية العائدة لراحة البلاد واطمئنان سرّ الحكومة . ورسالتكم الافرنسية سأُطلع سعادة قنصل فرنسة عليها باقرب وقت . ومتى بلغت تحاريركم الى باقي الاقران (المطارنة) فحينئذ اكون اول من سعى بالاتفاق والانضمام لا بيننا في بعضنا فقط بل بين جميعنا على أختلاف مذاهبنا . وهذا جلّ ما ينجح وطننا ومملكتنا . ومما لا يعروه ريب انه اذا واصل رجال دولتنا الجديدة افكارهم الخيرية بضم ابناء المملكة على اختلاف مذاهبهم وباحسان السياسة فسيكون بذلك نجاح المملكة . ولا يشتهي النصارى بل لا يجدون كيفما انقلبوا احسن من هذه الحال . وقد عرضت ذلك باكثر اسهاب عندما تشرفت بمقابلة ناظر الخارجية المعظم . خليل غانم حرّر الى شقيقه الياس بهذا فلا اعلم هل ذلك متفق عليه او هو من باب توارد الخاطر على الخاطر .

« سمعنا بالعفو العام عن كل المجرمين فهل يشملكم ذلك ؟ فمن دون رئيس عالمي لنا (علماني) لا ينجح لنا أمر . ولم يعد بيننا أمير ولا شيخ له اقل سطوة او تبعة . ورستم باشا لا يهون عليه البتة رجوعكم . ومن بعض ايام كنا عنده فظهر لنا منه انه متأثر منكم جداً ونخشى ان يذوق لكم حجج تمنع فاعلي العفو عنكم . ومن مدة قبل ذلك كنا وجدنا القنصل الفرنساوي افكاره مضادة رجوعكم خشية ان يكون وجودكم في الجبل سبباً للهرج وان كان يحبكم . ويظهر ان هذا فكر سفيره عندكم اذ كان يقنعكم بعدم ترك الاقامة في الآستانة . وبعد اطلاعه على تحريركم نبقى نفيدكم ما يقول . وسعادتكم ابذلوا جهدكم في هذه الفرصة لترجعوا . فعلى فكري امورنا بين حالين : اما ان السلطان الجديد يحسن تدبير المملكة ويوقف سقوطها لاجراء العدل او تسقط سقوطاً كاملاً وتخلفها دولة اخرى . وفي كلا الحالين وجودكم في الجبل او في بيروت اوفق واسلم » .

كرم يهدد البطريرك

فأجاب كرم برسالة طويلة وجهها الى المطران يوسف الدبس في السابع من تموز سنة ١٨٧٦ ومما قاله فيها : « انكم توضحون الصعوبات التي تقف في سبيل الاقتراح بقولكم انه وان سمحت الاصول السياسية بتأليف مجلس يسهر على مصالح البلاد فهذا المجلس لا يمكن تاليفه لانه يسبب الظنون وان غبطته قد اوعز اليكم ان تقنعوني بعدم امكانية ذلك . تذكرون سيادتكم ان داود باشا اذ طولب باجراء العدالة قال

ان كرماً بطلبه العدالة لا بد ان تكون له افكار مغايرة . ويقدر رستم باشا ان يقول ايضاً ان كرماً بتنبيهه الكنيسة المارونية الى حقها العزيز لا بد ان تكون له افكار سيئة جداً . ان المتصرف بمداراته بطريرك الموارنة قد اهمل القوانين وابطل المضابط الصادرة عن المجالس اللبنانية ومنع عن الموارنة وسائل الدفاع في حين ان جيرانهم على اهبة واستعداد . وانه بجعله الموارنة في حصار يدلّ على ان له افكاراً تدعو الى الشك وعدم الامنية بينه وبين اللبنانيين . فارجو ايها السيد الجليل ان تضعوا تحت انظار غبطته هذه الحقائق : اولاً ان غبطته كان يقول دائماً استجلاباً لرضى المتصرف ان كرماً لا يذعن لمشوراتي فهذه العبارة قد سوّدت صحيفتي لان فرنسة والآستانة وغيرهما يعتبرون السيد البطريرك خالي الغرض ويحترمون كلامه اكثر من كلام المتصرف او كرم اللذين يشكو احدهما الآخر ويظنون ان مشورات البطريرك التي لم اذعن لها تعود بالخير والمنفعة . ثانياً لقد احتملت بالصبر ما قاسيته من الالام مدة عشر سنوات لانه شخصي وأبيت كشف حقيقة النكبات التي صدمت الموارنة في هذه الايام . غير ان المسالة لم تعد الان شخصية ولا تتعلق بتقدم اللبنانيين بل بوقاية شعب لا جناح عليه مما يجعل السكوت عنه غير معذور (١) . ثالثاً ان الدول وخاصة فرنسة المحسنة يؤثرون خير العموم على مصلحة البطريرك والمتصرف وكرم . واذا شاء البطريرك والمتصرف ان يجامل احدهما الآخر ويضعا على الموارنة السلطة المطلقة روحياً وزمنياً فالله والناس لا يغتفرون لهما ذلك . واذا كان رستم باشا يحب الخير العام فاقتراحي يسبب فائدة كبرى . وان رفض السيد البطريرك هذا الاقتراح دون رأي المتصرف يستفاد انه يريد تسويد صحيفتي ثانية عند العالم الرسمي وانه يرمي بالموارنة مرامي التهلكة . نعم انني اعتقد انه لا يشتهي هذا الشر ولكن المصيبة ان عمله يسببه . ولهذا أراني ملتزماً ان اقول بحضرة العالم الرسمي ان البطريرك صيانة لكرامته ينبغي ان يصرح اذا كان الاصلاح الذي طلبته والذي يستدعيه السلام العام هو محل للظنون في نظر غبطته او في نظر المتصرف . فان الانسان اذا اراد ان يكون مستقيماً يجب ان يقول الحق بكلامه او لا يقول شيئاً . ان غبطته بصفة كونه بطريركاً كان عليه ان يعضد اقتراحي الذي تقتضيه الحالة الحاضرة او يجعله خاضعاً لاحكام الدول التي وقعت نظام لبنان او يبين الشر الذي يفترضه . « على ان محاولة اقناعي ان مشروعاً مفيداً امر غير ممكن في حين ان مذبحة قاضية امر ممكن يعيد على ذكري كل ما اراد بعضهم ان ياتيه من الهفوات » .

---

(١) هو تهديد صريح نفذه كرم فيما بعد برسالة طويلة وجهها الى البابا ووزير خارجية فجعل فيها البطريرك مسؤولا عن بعض ما جرى في لبنان سنة ١٨٦٠

« وذكرتم سيادتكم انكم وضعتم كتابي الفرنساوي تحت نظر سعادة قنصل فرنسة العام في بيروت الذي ابدى نحوي كل احترامٍ وولاء وانه لم يعلم قصدي ولا ما افعل بعد مغادرة الآستانة فارجو من سيادتكم ان تقدموا له شكري وتؤكدوا له ان قصدي استعمال المياه المعدنية في حمامات اوروبة . وعملي يقوم بمعاطاة الحرية التي ابقاها لي العالم الرسمي ومداومة ايضاح واجبات ابناء وطني ومصالحهم . واني سواءً كنت في الآستانة او في غيرها لا انفك عما هو واجب علي من الخضوع القانوني للباب العالي والتعلق الشديد بفرنسة والاحترام السامي للعالم الرسمي . ولا شك ان سعادة القنصل يثق بامتناني الشديد الى دولة المارشال ماكماهون رئيس الجمهورية الفرنساوية الحالي وسائر اعضائها . نعم ان بعض رجال الامبراطورية الفرنساوية كانوا يريدون اتلافي اذ ندبوني للخضوع لارادة داود باشا المطلقة ولو فعلت لخسرت اهليتي واصبحت غير نافع لا لفرنسة ولا لوطني ولا لنفسي . ولزم من ذلك ان ينسبوا الي معاكسة سياسة فرنسة .

« وقد اوضحتم سيادتكم انه من الممكن ابدال رستم باشا بمتصرف محب لنا يستصحبني الى لبنان . والحال اني طالما صرحت لسيادتكم ان لا رغبة لي في الحضور الى وطني في الاحوال الحاضرة لانه اذا لم احضر الى لبنان الا اذا اغتنمت ولاء المتصرف فيلزم من ذلك ان اتركه اذا فقدت هذا الولاء . وما الفائدة من وضع الدستور للبنان اذا لم يكن بوسع اللبنانيين ان يلجأوا اليه عند الحاجة . انني لن اعود ايها السيد الجليل الى لبنان ان لم تتأيد الشرائع . واذا كنت لا استطيع ان اضع قانوناً لافكار الرؤساء فأضع قانوناً لواجباتي » .

رسالة رهبان دير قزحيا والجديدة وعشاش في السادس والعشرين من آب سنة ١٨٧٦ الى كرم

« بينما كنا مداومين التضرعات للباري تعالى بحفظ الذات الشريفة شنفت اذاننا اخبار جميلة وورود تحاريركم ووصول اواعيكم الى محلكم . فانتعشت فينا روح الحياة ورجع قلبنا الى صدرنا ورفعنا رأسنا . واخذنا نضاعف ابتهالاتنا لتحوزوا الغلبة على اعدائكم الراغبين غيابكم الابدي وخراب جبتنا – جبة بشري – هذه اليتيمة لفقدكم . ولما بلغتهم اخبار سعادتكم بانكم عن قريب تشرفون الاوطان وتشرق الشمس من المغرب خلافاً للنظام الطبيعي فكانت تلك الاخبار كأسهمٍ مزقت افئدتهم وشتتت شملهم قبل وصول الاسد لحمى اشباله .

« والان نتجاسر ونعرض لسعادتكم لكي قبل ان تبارحوا ام المدائن رومة ان

لا تنسوا مصلحة اولادكم الخصوصيين رهبان جبتكم عموماً الموجودين الان في اديرتكم قزحيا والجديدة وعشاش ولكي تتنازلوا وترجوا رئيس المجمع الكلي النيافة ليصدر أمره الشريف بترجيع سيادة المطران يوسف جعجع زائراً على الرهبنة اللبنانية التي اضحت خراباً بعد ان رفع سيادته يده من الرهبنة . وعلى كل حال نحن خصيصتكم واولادكم ومرهونين لاوامركم الشريفة . وما لنا الا الله وأنتم كون جبتنا تعترت ولا يوجد فيها شخص يحامي عن حقوقها لان في الحكومة العلمانية كما تعلمون سعادتكم ليس منا متوظف حتى ولا لنا مطران من الجبة . وكرسي ابرشية الزاوية اضاع اسقفه منذ ثلاث سنوات . وسعادتكم تعلمون حال هذه الابرشية انها متبددة بين بقية الطوائف وكهنتها قلائل وكنائسها مفتقرة وخراف المسيح عما تتبدد خارجاً عن الحظيرة » .

رد كرم

وكتب كرم الى المطران يوسف الدبس يقول : « اذا كان ما يدعي به الرهبان حقيقياً فانه امر يشين بشرف رومه وغبطته والرهبنة والموارنة . لانه ان كان قانون الرهبنة لم يزل مقبولاً من رومه فينبغي توقيره رغماً عن دعاوي ارباب الغايات الغير مؤسسة على اصول قانونية بل وان يجري القصاص على الذين يناقضون القانون . وان كان هذا القانون اضحى غير مقبول فينبغي ابطاله رأساً وهكذا ترتاح ضمائر الرؤساء والمرؤسين معاً . ان غبطة السيد البطريرك مسؤول بالحادث الحاضر من الله ومن رومه ثم من الباب العالي الذي وان لم يفعل حالياً شيئاً ظاهراً فهو يترصد الفرصة التي توافق مرغوبه . والخلاصة يخال لي جلياً جداً ان غبطته لا يستطيع ان يخرج من هذا الحادث ومعه سيادتكم وسائر السادة المطارين سالماً من كل جهة سوى بحمله الصليب والتجائه لتوقير القوانين المعروفة منذ القديم حتى الآن . نعم ايها السيد اني اعترف امام سيادتكم باني انسب لسياسة غبطته ذاتها ولاستحسانات سيادة المطران يوحنا الحاج كل ما قد أحب سيادته ان ينسبه لشخصي من القضايا » .

رسالة مجهول الى كرم

ونجد صلة الوصل بين كرم وعبد القادر رجل لا يزال مجهولاً يكتب الى كرم في السادس والعشرين من حزيران سنة ١٨٧٧ فيقول : « اما ما تفضلتم بشرحه لجهة تظاهر السياسة العمومية وموقفنا الحالي فهو عين الصواب . وغب البحث بهذا الشأن مع الامير قد تمّ الرأي بتقديم لائحة خصوصية مني مستوفية يطول شرحها هنا الى

ناظر الخارجية الذي تشيرون عنه . وعند حضور جوابه الذي نرجو ان يكون بالايجاب ان شاء الله فاسافر حالاً وامر عليكم . والامل ان يكون ذلك في آب القادم . والامير مستعد ان يرسل نجله الاكبر الامير علي لمساعدتنا . ولم يعد عندنا ريب بحلول الوقت المناسب ولا سيما والانكليز اصبحوا اكثر اضطراراً لفض المسألة الشرقية من سائر الدول لموافقة الظروف لهم وتقدم الروس في آسية الصغرى . وأهم قطر لهم في المملكة العثمانية هو سورية لا مصر لانهم يعتبرونها مقاطعة هندية نظراً لمركزها الجغرافي الممتد من خليج العجم الى السويس . والدولة العثمانية لم يعد لها سوى وجود هيولي في المراكز الحربية يبدده هجوم الاعداء عن قريب . ودخول اليونان في الحرب الحالية اوضح برهان على مساعدة انكلتره لهم على الدولة العثمانية التي لا بد من بشللتها بحراً بقوات الروس واليونان . وبذلك نأمن من هذا القبيل المهم لنا . كيف لا وقوة سورية الوطنية اصبحت الان بيدنا . ونهوضنا بالوقت المناسب يورثنا السعادة السياسية لوطننا المحبوب وتأخرنا يسبب له ضرراً بليغاً . والعالم والاتراك المدركين قد قطعوا الامل من ثبات ملكهم . وعلى ظني ان يومنا يحلّ في الخريف القادم » . ويعود هذا الكاتب المجهول الى الكتابة في العشرين من كانون الاول من السنة نفسها ١٨٧٧ فيقول : « فخامة الامير عبد القادر يهديكم تحياته وهو مباشر بالمقتضى من جهته كما نوهتم . وباتفاق الرأي معه نقول انه وان تكن الظروف الحاضرة موافقة لبداية العمل فمن الضرورة انتظار دخول اليونان الذين بالاشتراك مع السفن الروسية التي أمرت بالدخول لبحرنا لا بد من ان يشغلوا قوة الاتراك البحرية ويقطعوا وصولهم الينا بحراً . فبعد دخولهم وبعد ما يظهر من سياسة اوروبة نستنير نوعاً عن كيفية نهوضنا . واما سفري فاني بكل تأكيد اكون ان شاء الله عندكم حالاً بعد دخول اليونان مصحوباً بالتحارير اللازمة من الامير . صح : نظراً للعجلة التي تسير بها الاحوال فمن الممكن ان تحل الفرصة في اقرب وقت . وبناءً عليه اذا ارتأيتم وجوباً لسفرنا قبل ان نرتأيه حرروا لنا رأساً لنوافيكم الى رومه ونسعى بالمقتضي اتمامه » .

رسالة كرم الى ابناء لغته العربية

« لقد طبع في الآستانة العلية كتاب ألّفه رجل من اكبر فصائحها ونسبه الى غيره ووزعه في الممالك . وقد بيّن فيه ان العرب قوم مترفضون متعصبون يقتل بعضهم بعضاً لاختلاف مذاهبهم . وليس بوسعهم ان يسوسوا انفسهم لان جمهورهم لا يحترمون احداً من ابناء جنسهم ولغتهم . وطباعهم لا توافقها السياسة المهذبة بل القسوة الشديدة بحيث يصير خفضهم بواسطة عنصر آخر يتولى اخضاعهم بالقوة لا

بالشريعة التي تتدرب بها الشعوب . ان الذي كانت يده الدامية قد غرست الفتنة بينكم هو الذي جاء ينسب اليكم ما غرسته يده قاصداً بذلك ان يلقي ايضاً على اعناقنا جميعاً نير العبودية الوحشية الذي رفع في هذا الزمان عن اعناق السودان . أمر شهير ان السيد عبد القادر المغربي وكثير من اعيان الشام واهل حارة الميدان كانو يحامون عن نصارى هذه المدينة عندما كانت العساكر العثمانية وبعض رعاع المسلمين يقتلون وينهبون . وهكذا فان الدروز في راشيا وحاصبيا وجنوبي لبنان لم يضروا النصارى الا برفقة العساكر التركية التي اتمت غايتها ضد النصارى والدروز معاً . وان الدولة العثمانية لكي لا تبقي حاكماً وطنياً من ابناء العرب ولكي تلاشي ما كان باقياً الى سنة الستين من امتيازات اهل لبنان قد لاشت ايضاً ما كان لها من رسوم السلطة على هذا الجبل . ووضعت له نظاماً تحت سلطة الدول العظام بحيث يوافقونها على تعيين حاكم غريب يختارونه له . فأثبتت بذلك عدم ثقتها بآل عرب بستان وعدم ثقة هؤلاء بها . ومهما يكن من ادعائها فان حق العباد لا يسمح لاية دولة من دول العالم ان تحدث شريعة او قوانين دون رضى اهل مملكتها ومراعاة مصالحهم وعاداتهم ورغائبهم . فالدولة التي تستحسن ان تلاشي ما كان لمملكتها من هذه الامور وتتخذ من قوانين الدول ما تراه وتضعه على اعناق الرعايا بالقهر والاجبار ليس احد من ذوي الانصاف في العالم يساعدها على هذا الامر المناقض مبادىء شرائعهم المرسومة برضى اهل ممالكهم . ولا يلتزم اهل هذه المملكة من قبل العدل ان يخضعوا للاقاويل الباطلة المسماة قوانين . هذا وليس رجل في هذه الدول يسعف هذه الدولة على هذه الافعال الجبرية الا اذا كان طماعاً ويريد باطناً ان يزيد الدولة ضعفاً والرعايا حيرة حتى يضع الجميع تحت سطوته ونفوذه ورغباته الخاصة .

« اما الجواب على ما قاله مؤلف كتاب الآستانة عن اختلاف مذاهب اهل عرب بستان فهو ان ابناء العرب وان كانوا مختلفي المذاهب فان كل صاحب مذهب منهم يعبد ربه عبادة يظنها مرضية لله سبحانه رب الجميع . وبهذا لا يذنب ابن المذهب الواحد بحق ابن المذهب الآخر . وهم بالاجمال لا يدعون الفلسفة باطلاً كي ينكروا وجود الخالق . ولا يقولون ان العالم وجد صدفة بل لو أعلن الله ذاته لهم قائلاً ان العالم وجد صدفة لكانوا يتفلسفون ويقولون ان الصدفة اذا هي إله قادر حكيم كريم .

« فوالحالة هذه ينبغي لنا معاشر ابناء العربية ان نظهر للخاصة والعامة حبنا الاخوي والجنسي تاركين لله وحده حق الدينونة الذي خصه بذاته وان يسعى كل منا الى ما يوافق خير الآخرين لان الله سبحانه خالق الجميع ورب الكل . وبهذا فقط ننهض من تحت انقاض الفساد العام الذي غايته ابطال المذاهب كافة واحتقار كل من يتمسك بمذهبه ليخترع كافكاره الفاسدة اعمالاً فسادية في الارض . لعمري ان كلاً منا

ابناء المذاهب المهذبة اصحاب الكتاب اضحى عوناً لازماً لسائر اخوانه الذين يحمل احدهم عن الآخر اثقالاً جسيمة لا يدركها الواحد الا عند فقدان حليفه . فعلى المؤمن ان يدعو الى الله ان يحفظ ابناء المذاهب التي تعتقد بوجوده . لان الجحيم فاتح فاه على الارض ان لم يرسل اليه عونه القريب . فلنترك لله حقه في خلقه كي يعبد كل واحد ربه كما يحب ويختار ولنتفق جميعاً على حفظ الشرائع والقوانين البشرية المهذبة وان نحب الحق والعدل اكثر من نفسنا لئلا اذا افترقنا يستعبدنا الكفرة والظالمون .

« ثقوا يا آل عرب بستان ان كل ما يجري على احدكم يجري على جميعكم . فاطلبوا جميعاً حفظ حق العباد وتاييد العدل في كل دعوى مهما كانت طفيفة لان اول الغيث نقط متفرقة وآخره سيول متدفقة . فلا تنسوا شرف ابائكم العظام . ولا تحنوا اعناقكم لنير العبودية الوحشية . فان حفظت الشريعة فنحن ابناء الخضوع الشرعي . وان ابطل الحكام الشريعة فنحن ابناء اسلافنا الذين اختاروا لانفسهم الموت حباً بمحيي الاموات ولم يقبلوا على انفسهم السقوط والعار . هذا هو الخطب العظيم الذي انادي به علناً على ابناء لغتي العربية . فان انتم اخلصتم النية يا ابناء المذاهب المؤمنين بوجوده جلّ جلاله وبسطتم ايديكم وصافح بعضكم بعضاً بالمحبة والسلام النقي كنتم اسياداً في وطنكم والا فانتم عبيد لعبيد كافرين .

« فان اسرعت دولة القسطنطينية واخذت على نفسها حفظ حق العباد ووطدت امنية العشائر والقبائل والطوائف على اساس امين بحسب الشريعة والرسوم المقبولة من الجميع منذ القديم فان خير المشرق يدعو جميعنا الى خدمة السدة السلطانية باخلاص النية . اما اذا جعلت الدولة ترتيبات موافقة لارادة الحكام ومناقضة للحق والخير العام وحتمت ان كل رئيس له ان يفعل بمرؤوسه كل ما يريد فهذه الترتيبات بشرية مفعولة ضد الله وخلائقه لا يقبلها على نفسه الا كل سقط ميت وكل من لا دين له ولا شهامة .

« فعلى أهل هذه البلدان ان تنهض للمطالبة بحقوقها ودفع الضيم عنها . اما ما كان من أمر لبنان فان نجاح هذا الجبل قد اضحى بحمده تعالى في حوزة امينة لان دعواه تعلقت على شرف الدول العظام . والذي نعلمه ان عظمة نابوليون الثالث لم يرض بعد تضحية عظيمة بالحاق سافوا ونيس بسلطنته بغير اختيار اهلها . وان دولة انكلترة الكريمة قد رفعت ولايتها عن عدة جزر من جزر اليونان لانها شعرت بان اهلها يرغبون الانضمام الى دولتهم اليونان . وان روسية ودولتي جرمانيا العظام لم يرضين لكرم طباعهن ان يقاسمن دولة الآستانة حقوق لبنان الا لكي يعوضنها فيما بعد اكثر تكرم واثبت عدالة . اما حكومة الآستانة التي اتخذت بحق اللبنانيين صفة مشتكي وجلاد معاً فاذا ارادت ان تدعي بان الحرب الاهلية انما هي كانت سبباً لهاتيك الطوفانات

الدموية فاجيبها ان عساكرها قد استلمت اسلحة النصارى بدير القمر باسم الحكومة وذبحت هي وبعض جهلاء الدروز على باب قشلة العسكر ١٢٠٠ شاب نصراني . وقد شاهد الدروز جريان الدم اللبناني وسمعوا هديره حتى صاحوا قائلين ياليتنا ذبحنا مع اهل وطننا ولا فعلت الدولة على اسمنا هذا الشر العظيم .

« فلتسكت اذا هذه الحكومة الظالمة . ولتعلم قبائل العالم ان الدول العظام ارسلوا من قبلهم معتمدين وقوة قائلين على سمع اهل الارض كلهم انهم يريدون ان ينقذوا لبنان من ظالميه . فغير ممكن اذاً ان يسلبوه ما كان باقياً له من الامتيازات الى ذلك التاريخ. وقد حان الوقت الذي تتوقعه الدول لاظهار رأفتها على اهل الشرق والغرب .

« بقي علي الان ان اوضح لابناء لغتي ان دعواي الخصوصية لا تستحق اهتماماً خاصاً من لدن الدول العظام . بل هي متروكة لعناية حضرة حاكم لبنان الحالي . وعليه فسأحضر بحسب تصرفات العناية الالهية الى وطني السعيد لا لكي اطلب تعويـــض الخسائر والاضرار التي كابدها معي الكثيرون من آل لبنان الكريمي النفوس بل لكي اخضع لقوانين السياسة الحاضرة . فان رضي الحاكم الذي لم يختره اللبنانيون ان يظهر العدالة اخضع لسلطته لانه مختار من ذوات الدول العظام . اما اذا اراد ان يبعدني عن وطني بغير محاكمة قانونية فلا يعود بوسعي ان افترضه حاكماً قانونياً لان الدول قد فوضوه ان يتصرف بالعدل لا بالظلم . وحينئذ لا اقف هذه الدفعة عند حدود المحاماة الخصوصية التي كنت اقف عندها سابقاً بل انني بحسب الحق العام « سادفع القوة بالقوة » وبعونه تعالى سافني حياة كل من يريد ان يفني حياتي وطنياً كان او غير وطني .

« فان قال احد رؤساء المذاهب ان حبنا للسلامة يلزمنا ان نخضع لارباب القوة الجبرية ولو ابطلوا الشريعة والعدل فنجيبه ان السلامة الصادرة عن غير العدل هي خديعة نظير البنج الموضوع لتنويم النفوس وتغليلها بقيود من حديد . وهي شقاء لا سلامة . فهل يباح للظالم ان يسلب امنية العباد ولا يباح لابناء الوطن ان يطلبوا حفظ شريعة وطنهم وترتيباته . كلا بل اذا لعن رئيس المذهب من لا يطيع الظالمين وبارك من يطيعهم فالله العادل يبارك من يلعنه ذاك الرئيس المخدوع ويلعن من يباركه » .

البطريرك بولس

قال جرجس بك صفا : « عرفت البطريرك بولس جيداً ولمست كرهه لرجال الاقطاع لمس اليد فلطالما حدثني عما جرى لوالدته في كنيسة عشقوت عندما ذهبت لاستماع القداس الالهي لاول مرة بعد زواجهـــا . قال البطريرك ما كادت والدتي العروس تستقر في مكانها في الكنيسة حتى تقدمت منها شيخة من شيخات الحوازنة

ولطمتها على خدها قائلة ان هذا الزي هو ليس لك فاذهبي واستبدليه . قال جرجس بك وعلى الرغم من مرور ثمانين سنة على هذا الحادث بقي البطريرك يردده متالماً » .
ومما زاد في الطين بلة انه عندما توفي البطريرك يوسف حبيش سنة ١٨٤٥ واجتمع المطارنة في ميفوق لانتخاب خلف له مال اكثرهم الى المطران بولس مسعد وكاد يفوز بالمقام البطريركي لولا تدخل الحوازنة والحاحهم بوجوب انتخاب المطران يوسف الخازن . ومما رواه جرجس بك صفا ايضاً ان البطريرك بولس بعد ان تبوأ العرش البطريركي رفض كل الرفض ان يرتدي الحلعة التي اعتاد الحوازنة ان يخلعوها على البطريرك . وكاد رفضه يؤدي الى ازمة طائفية لولا تدخل اصدقائه والحاحهم عليه بقبولها . ففعل مكرهاً وعلق الفروة على « السكيكة » دون ان يرتديها مرة واحدة طوال مدة رئاسته . ولا يغيب عن البال ان البطريرك سكت عن قيام الفلاحين على اسيادهم في كسروان قبيل الحركة الكبرى وانه طمع في حكم لبنان سنة ١٨٦٠ فكان ما كان ولم ينل ما توخى . ولذا فاننا نراه يصادق الباب العالي ويتعاون مع كل متصرف يحكم لبنان . ومن هنا جاء الوسام المجيدي الاول وجاء ذاك الاستقبال الحار الذي لقيه في الآستانة في ايلول من السنة ١٨٦٧ والسماح له بالمثول بين يدي السلطان عبد العزيز ودعاءه الحميم لجلالته وحقة العطوس المرصعة الثمينة . ومما يجدر ذكره في تأييد ما نذهب اليه ان البطريرك عظمت رغبته في تسقيف من يشد ازره في سياسته هذه فرقى اخاه بطرس الى اسقفية حماة الشرفية ونيابة البطريركية وابن عمه يوسف مسعد الى اسقفية عكا الشرفية وابن اخيه بولس الى اسقفية حماه الشرفية فدمشق ونسيبه البعيد يوحنا الحاج الى اسقفية بعلبك . واكثر من تسقيف الكسروانيين والجنوبيين متحاشياً بلباقة ترقية الشماليين .

وهو بولس ابن مبارك مسعد من عشقوت . ولد سنة ١٨٠٦ وتلقى علومه الابتدائية من الخوري انطون عريقه في مدرسة الموارنة في عينطورة . ثم دخل مدرسة عين ورقه واتقن فيها السريانية والعربية واللاتينية والايطالية وبعض العلوم الحديثة . وارسله البطريرك يوسف حبيش الى رومه ليتم علومه في مدرسة نشر الايمان . فأكمل دروسه اللاهوتية والفلسفية فيها وتفوق على اقرانه وأحرز رضى رؤسائه فرقي الى درجة الكهنوت وعاد الى لبنان سنة ١٨٣٠ فسلمه البطريرك الحبيشي اوراقه واعتمده في كثير من اشغاله . وفي السنة ١٨٤١ رقاه الى اسقفية طرسوس وجعله نائباً بطريركياً في الروحيات . فازداد اجتهاده واخلاصه للبطريرك وأصبح يده اليمنى . وتوفي البطريرك يوسف حبيش سنة ١٨٤٥ وكاد المطران بولس ان يصير بطريركاً لولا تدخل الحوازنة . وتوفي البطريرك يوسف الخازن سنة ١٨٥٤ « فاجتمع الاساقفة في بكركي وانتخبوا بولس مسعد بالصوت الحي واجماع الرأي خلفاً له » . ومما يقوله

المطران يوسف الدبس ان البطريرك الجديد اشتهر في سنة ١٨٦٠ بحنانه على الفارين من جنوب لبنان وانفاقه عليهم على اختلاف طوائفهم وفي حوادث يوسف كرم « بحكمته ودرايته وحسن سياسته » . وسافر في السنة ١٨٦٧ الى رومه للاشتراك بالعيد القرني للقديسين الرسولين بطرس وبولس وسافر منها الى باريز فالآستانة حيث حل ضيفاً على الحكومة العثمانية . وكان البطريرك عالماً مؤرخاً جمع شتات اوراق الكرسي البطريركي وكتب في مواضيع شتى منها تاريخ الاسرة الخازنية ومنها المجمع اللبناني والحقوق البطريركية . واهمها تكملة تاريخ الدويهي ولا يزال مخطوطاً حتى يومنا هذا . وتوفي سنة ١٨٩٠ عن اربعة وثمانين عاماً .

سمعان خازن في كتابه يوسف بك كرم في المنفى

« يعرض هؤلاء العبيد اننا اذ نحن متمتعون بالراحة والسكينة والتالف في ظل ظليل الحضرة السلطانية ايد الله اقتدارها بعناية واهتمام حضرة صاحب الدولة متصرفنا المفخم اخذ بعض اشخاص ممن اعتادوا القاء الفتن يوسوسون في صدور من يرون فيه الانقياد لاغوائهم فحملوا عريضة تشكي يقصدون بها تنفيذ مطامع واغراض خصوصية على انهم قد افكوا بها قصد التنديد بدولة المتصرف المشار اليه الذي قام باعباء امورنا منذ تولى المتصرفية حتى الان عاملاً بالحزم والعزم وصارفاً قصارى الجهد بايجاد كل ما فيه راحة ورفاهية الاهلين وأجرى الامور على محورها الصحيح ضمن دائرة الشريعة والعدل وفقاً للرضى العالي لا تاخذه بالحق لومة لائم حتى صارت شهرة عدله اوضح من ان تتبين . ولما كان صنيع هؤلاء المرجفين مع قلة عددهم مما لا يحمل السكوت عنه لئلا ينسب الى نكران الجميل وجحد الاحسان فقد تجاسرنا بتقديم عرضحال عبوديتنا هذا رافضين بموجبه جميع ما اتوا به من الازعام التي لم يكن لها بالواقع ادنى برهان بل هي مخالفة للحقيقة والصواب . مع اننا نحن عبيدكم اللبنانيين معترفون بما لدولة متصرفنا المشـــار اليه من المآثر الحسنى وما له من السعي والاهتمام بنجاح احوالنا والاهتمام بامورنا واجراء مصالحنا على محور العدل والانصاف الامور التي لم توافق مشرب اصحاب الاغراض الخصوصية الذين من دأبهم الفتن والقلاقل وحب المداخلات . وحيث ان عملهم هذا مما يخدش وجه السكينة العامة ويشوش راحة الجمهور ويعطي سبيلاً لمقاومة نفوذ الحكومة تجاسرنا ببسط عريضة العبودية التي نصرح بها بصدق امتناننا لدولة متصرفنا المشار اليه منكرين بموجبها على اولئك الاشخاص ما سولته اميالهم ومطامعهم المضادة لرأي الجمهور والصوت العام اللاهج بجميل الثناء على عدالة وحقانية ومساعي دولته الحسنة التي مهدت لنا سبيل

العمران والتقدم . فهذا ما ينطق به لسان عبيدكم سائلين الله سبحانه وتعالى ان يؤيد ويخلد سرير السلطنة الشاهانية مدى الدوران ويحفظ شريف وجود ذاتكم الفخيمة للدوام وبكل الاحوال الامر والفرمان لمن له الامر افندم » .

رسالة المطران يوسف الدبس الى صديقه الخوري الياس الحويك

« يوم السبت اول حزيران وجدنا كرسينا باكراً جداً محاطاً بمايتي جندي من الدراكون والعسكر اللبناني بالسلاح . ثم دخلوا الكرسي وتفهمنا انه صادر أمر دولة رستم باشا بناءً على أمر سامي بابعادنا من لبنان الى القدس لاننا اصحاب تحريك وقلق . فأجبنا على الفور اننا طايعون بالتمام لاوامر دولتنا . ولما فهمنا ان اهالي دير القمر وبقية نصارى الجيرة قلقوا من هذه المناظر حررنا لهم ما يقتضي وان هذه اوامر دولتنا واننا متممونها كما يجب علينا فسكن قلقهم . ثم تفهمنا من بكباشي الدراكون بانه مأمور ان ياخذنا طوعاً ام جبراً فأجبنا اننا سبقنا واطعنا ولا لزوم الى الجبر . ثم فهمنا بتحقيق ان متصرف لبنان امر بتفريق الجبخانه على الجنود المرقومين قبل ارسالهم وصدر أمره للاربعماية الذين بمركز بتدين بمساعدتهم عند الاقتضاء . وأرسل الامير مصطفى (ارسلان) الى بعقلين فأوقف الدروز على سلاحهم لمساعدة الجنود عند اللزوم . ودولته ارفق الجنود بجبخانه علاوة على التي تفرقت عليهم .

« وبعد ان هيأنا بعض لوازم السفر قمنا حالاً تحت محافظة المايتين المرقومين التامة . وبعد سفر ساعة ونصف وبضع دقائق وصل لنا كتابة من دولته بها يرشدنا لنطيع اوامر دولتنا . وفي آخر النهار وصلنا للبرامية قرب صيدا وبتنا هناك تحت المحافظة التامة . وفي الغد سافرنا تحت محافظة ست واربعين خيال ثلاثة من العسكر اللبناني والباقي من الدراكون الى صور . فالمحافظة صارمة لكنها بلياقة . وهيئتها مهينة بذاتها ومرة . ولكن كان يحلي مرارتها ما كان يبديه الشعب المسيحي واكليروسه من الملاقاة والاكرام واظهار احساسات التكدر . ففي صور قد اظهر ذلك سيادة المطران اثناسيوس واكليروسه وشعبه بالتمام . وفي عكا الاكليروس اللاتيني وباقي الشعب المسيحي واكليروسه . ومثل ذلك في شفا عمر والناصرة وخصوصاً من جانب الاكليروس والشعب اللاتيني . اما اكليروس البطريركية الاوروشليمية وشعبه في نابلس وحفنه ورام الله والقدس الشريف مع رئيس عام الرهبان الفرنسيسكان ورهبانه فلا نقدر ان نعبر بالكفاءة عن الغيرة الفريدة التي شملنا بها غبطة السيد البطريرك منصور براكو فان اكليروسه وشعبه جميعه عدا شعائر الاعتبار والتكريم التي قدموها لنا واحساسات التاثير التي اظهروها فقد خدمونا بكل نوع كانهم معينون لذلك . اما

من جهة مأموري دولتنا العلية من صور الى القدس فلم نشاهد عند الاقتضا الالتفات اللازم . هذا بالاختصار .

« ونختم كلامنا بالشكر للعناية الالهية التي ازالت من لبنان الخراب الذي ظهرت علاماته من الطريقة التي اخذها دولة رستم باشا في اتمام ابعادنا منه . وقد يكفينا لاتمام أمر دولتنا ان تنصح لنا بنوع بسيط وبدون هذا الاحتفال المخطر الظاهر مثل الشمس ولو حاول اي كان نكرانه » .

فهرس الاعلام والأماكن

ب

ت

ث

ح

خ

د

ذ

ر

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ل

م

ن